

مَوسُوعَة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثاني عشر



الإسلام: نظـرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم

١٤٤١هـ

٢٠٢٠م

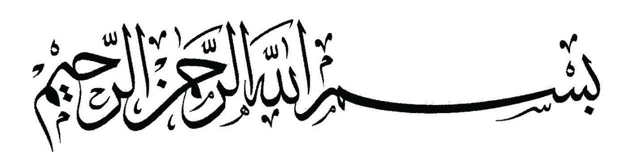
تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقّحة

دار الحكمة
لندن



الإسلام: نظرةٌ سديدةٌ تِجاهَ الناس، وتعاملٌ صحيحٌ معهم


بسم الله الرحمن الرحيم


له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
عەلی باپیر/AliBapir
عەلی باپیر/AliBapirw
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
PDF
عەلی باپیر/AliBapir
AliBapir
Google Play
App Store
عەلی باپیر / AliBapir
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب الثاني عشر

الإسلام: نظرةٌ سديدةٌ تِجاهَ الناس، وتعاملٌ صحيحٌ معهم

تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية

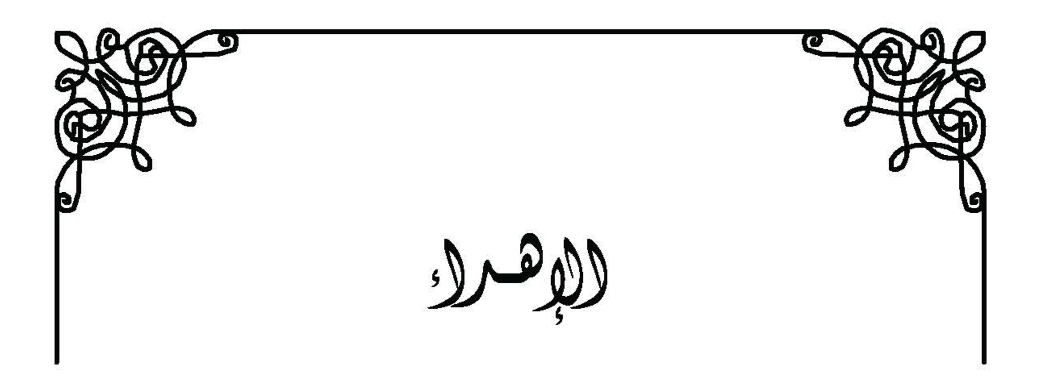
١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م




بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾
[الأنبياء].



له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
PDF
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



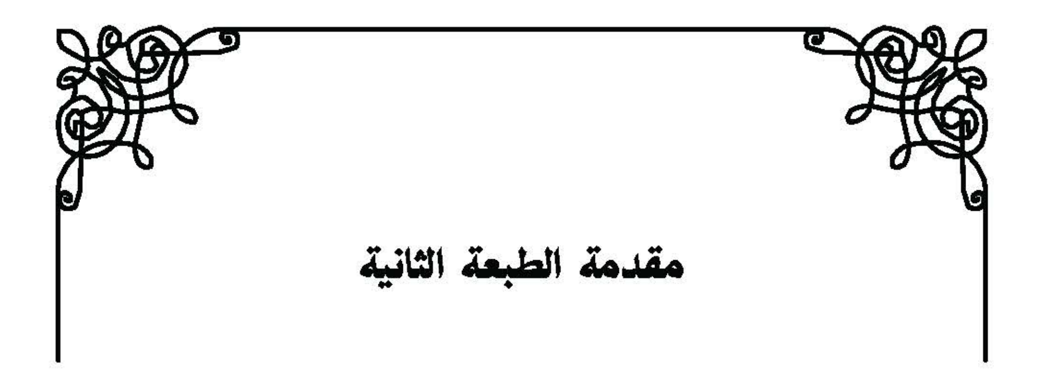
الإهداء

إلى الذين يبتغون فقه الإسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ ليجسدوه في حياتهم الشخصية والأُسرية والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.





له تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
AppStore
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
عربي - كوردی - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابة» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، **(في صورة كتاب في ثمانية مجلدات «موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلا»)** في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق)** بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: **(الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)** تحول في هذه الموسوعة إلى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: **(الإيمان برسل الله وأنبيائه)** فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة إلى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بِمُقْتَضِياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وببقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها إلى غيره.

ثم إنَّ الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا إلى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفَّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصَّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها إِلى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات إِلى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليه في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ إِلى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ إِلى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه إِلى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها إِلى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

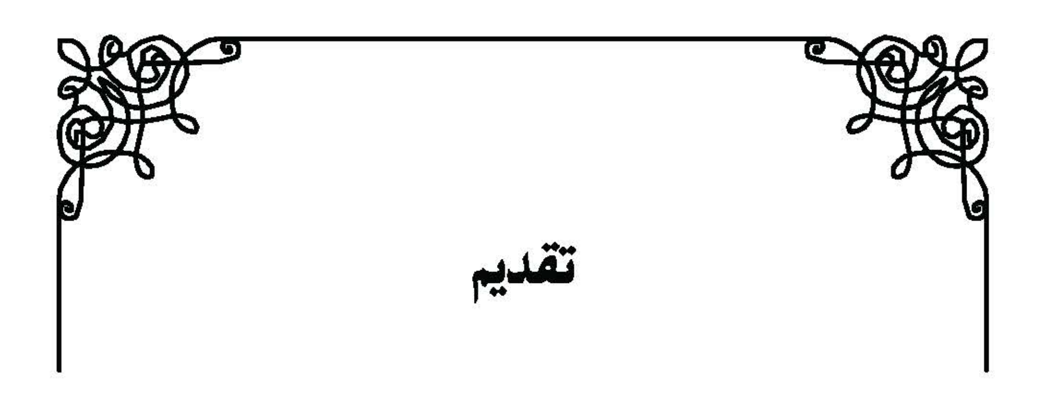
سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ـ العراق

❑❑❑❑❑❑




لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapır
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تقديم

إن الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعْدُ: فإن أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله، وَخَيْرَ الْهَدِي هدْي محَمَّد، وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة، وَكل ضَلاَلَةِ فِي النَّار.

جعلنا هذا الكتاب الأخير من هذه الموسوعة، والحلقة الخاتمة لسلسلتها، حسب قاعدة: التدرج المنطقي، وذلك لأن الإنسان يحتاج أول ما يحتاجه: (المعرفة الصحيحة) التي تُمكِّنه من رؤية العالم رؤية واقعية صحيحة، لأن البصر بالشيء والعلم الصحيح به، أساس التعامل الصائب

معه، وهذا ما بحثناه في الكتاب الأول من هذه الموسوعة.

ثم تهدي المعرفة الصحيحة بالعالم، الإنسان إلى تبنّي الموقف الصحيح تجاهه، وهو: (الإيمان بالله الخالق المدبر المالك للوجود، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر)، وهذا ما بحثناه في الكتب السبعة: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، من هذه الموسوعة.

ثم يتجسّدُ الإيمان الراسخ المستقر في القلب، في: (الإلتزام الجادّ بالشريعة الربانية الحكيمة على مستوى: الفرد والمجتمع والدولة)، وهذا ما بحثناه في الكتب الثلاثة: التاسع والعاشر والحادي عشر، والتي وضّحنا في كل منها، مستوى من المستويات الثلاثة، للإلتزام بهدى الله ودينه الحق، اللذين جاء بهما نبيُّ الله الخاتم محمد ﷺ، وكتابه الأعظم ونوره الأتم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [التوبة: ٢٨].

ثم بعد ذلك «أي بعد: المعرفة الصحيحة بالخالق والخلق، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإلتزام الجادّ بالشريعة على صعيدي الفرد والمجتمع»، يتمكن أهل الإسلام: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، من التعامل الصحيح مع الناس: المسلمين، وغير المسلمين بأصنافِهم الخمسة: أهل الكتاب والمشركين والمنافقين والملاحدة والمرتدّين، وفي حالتي السلم والحرب، داخل دائرة الكيان الإسلامي وخارجه، على أساس النظرة السديدة تجاههم، وهذا ما بحثناه في الكتاب الثاني العشر والأخير، من هذه الموسوعة: (الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

هذا وهناك «في عصرنا الحالي» أخطاء جسيمة وانحرافات عظيمة، في مجال التعامل مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، من قبل بعض المجموعات المتطرفة، التي هي بأفكارها المتخلّفة المعوّجة، وتصرُّفاتها اللاشرعية الفجّة، كالقيح والصديد الخارج من قروح وجروح جسدٍ مريض جريح! وأرجو أن يكون هذا الكتاب وأمثالهُ، سبباً لعودة المنحرفين الغلاة

إلى رشدهم، والإلتزام بشريعة الله السمحاء المتجسِّدة في كتاب الله المبارك وسنة رسول الله ﷺ الأعظم ونبيه الخاتم، الذي عرّفه الله العليم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهذا يعني أن محمداً مبعوث رحمة للعالمين كلهم، وليس للمسلمين وحدهم، فهو: (رحمة للعالمين) وليس: (رحمة للمسلمين) فحسب!

إذن:

فمن أصبح «من الأفراد والمجموعات» سبب شقاء ومحنة للناس «أياً كانوا وأينما كانوا» فهو بقدر ابتعاده عن كونه (رحمة)، بعيد عن منهاج رسول الله محمد ﷺ وكتاب الله المبارك وشريعته السمحاء.

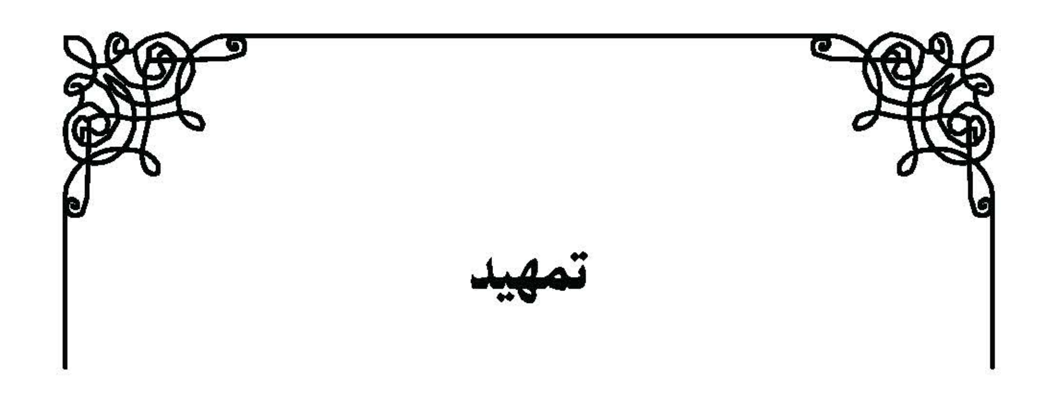
٩/رجب/١٤٣٦هـ
٢٨/نيسان/٢٠١٥م
أربيل / كوردستان العراق

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تمهيد

مِمّا لا شك فيه أن التصوّر السليم لأيّ شيء والنظر السديد إليه، هو أساس الموقف الرصين منه، والتعامل الصحيح معه، وقديماً قال العلماء رحمهم الله: **(الحكمُ على شيءٍ فرعٌ عن تصوّره)**.

والتعامل الصحيح مع الناس، واتخاذ الموقف الرشيد حيالهم في مختلف الحالات، عمل حسّاسٌ ومهم في ذاته، وذو خطبٍ جسيم وشأن خطير، في نتائجه وعواقبه، ولهذا أَفْرَدْنا هذا الكتاب الثاني عشر بفصوله الأربعة، لبيان نظرة دين الله الحق وشريعته الحكيمة حيال الناس عموماً، وتجاه كل من أهل الإيمان، وأهل الكفر خصوصاً، ولبيان كيفية التعامل الشرعي الصحيح معهم، وكل ذلك في ضوء نور كتاب الله المبين، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم، الرشادَ والسّدادَ، وحُسْنَ الإستماع إلى كلامه المبارك، والإصابة في فَهم آياته التي لا يُدرَكُ غورها، ولا يَنْفَدُ نورُها أبداً، إِنَّه نعم المولى ونعم النصير.

وهذه هي عناوين الفصول الأربعة المكوِّنة لهذا الكتاب:

الفصل الأول: تعريف الناس عموماً، ونظرة الشرع تجاههم.

الفصل الثاني: تعريف المؤمنين وأوصافهم، وواجباتهم في مجال التعامل بينهم أفراداً ومجتمعاً.

الفصل الثالث: تعريف الكفار، وأوصافهم وأصنافهم.

الفصل الرابع: التعامل الشرعي مع الكفار عامة، ومع كل صنفٍ منهم على حدة.







الفصل الأول

تعريف الناس عموماً
ونظرة الشرع تجاههم


MediaAmeerOffice
لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر

وسنوضِّح بإذن الله وتوفيقه، عنوان هذا الفصل الأول في غضون المباحث الخمسة الآتية، الّتي عنوان كل منها يُشكِّل سؤالاً:

١. **ممّ خُلِقَ الناس، أو ما هي مكوِّنات خلقهم؟!**

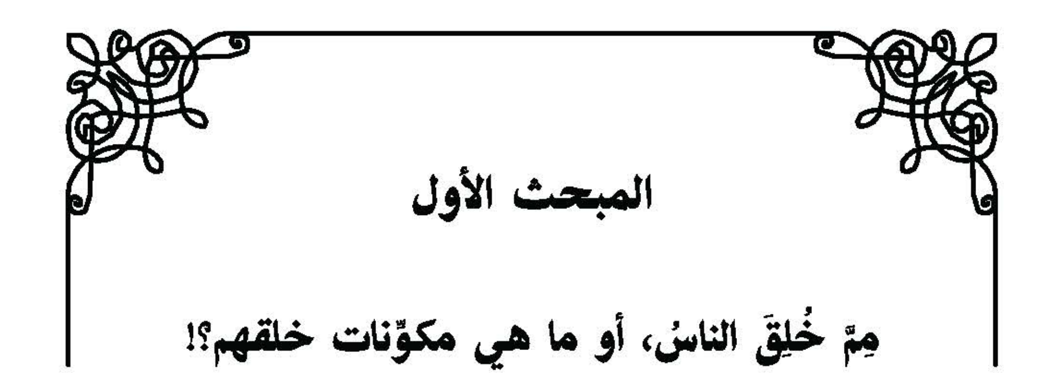
٢. **لِمَ خُلِقَ الناس، أو ما هي حكمة الله في إيجاده إياهم؟!**

٣. **بماذا كُلِّفَ الناس، أو ما هي وظيفة حياتهم الدنيوية؟!**

٤. **بماذا خُصِّصَ الناس، أو ما هي أوجه فضلهم وامتيازهم على سائر الخلق؟!**

٥. **ما هي الأصول الكلِّية للتعامل مع الناس عامة؟!**





المبحث الأول

مِمّ خُلِقَ الناسُ، أو ما هي مكوِّنات خلقهم؟!

بما أننا قد فصَّلْنا القول في هذه المسألة، في الفصل الثالث من الكتاب الأول، فلا داعي للإطالة في البحث هنا، وانما نكتفي بإيراد بعض الآيات المباركات ذات الإرتباط بهذه المسألة، وتعليق مختصر عليها فحسب:

قال سبحانه وتعالى عن كيفية خلق الناس عموماً ومكوِّنات وجودهم:

١. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص].

٢. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

ونستخلص الحقائق الخمس الآتية، من الآيات المدرجة أعلاه، فيما يتعلق بمكوِّنات خلق الإنسان الأول، وخلق الناس جميعاً:

الأولى: إن أبا البشر (آدم) عليه السلام خلقه الله تعالى من مكوِّنين اثنين:

مكوِّنا الإنسان الأول، شيئان اثنان:

1. الطين، والذي يتكون بدوره من التراب والماء.
2. الروح، وهي مخلوق خاص لها ارتباط خاصّ بالله تعالى، بدليل قوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]، ولا نعلم نحن البشر ماهيتها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وهذا ما تدل عليه الآيتان (٧١ و٧٢) من (ص) بوضوح، بالإضافة إلى آيات أخرى، لا داعي لذكرها هنا، لأننا - وكما أشرنا سابقاً - قد فصَّلنا القول في هذه المسألة في غير هذا المكان.

الثانية: (الطين) و(الروح) هما المكوِّنان الوحيدان لكل إنسان من ذرية أبي البشر (آدم) عليه السلام:

وقد بيَّنت هذه الحقيقة أيضاً آيات قرآنية كثيرة، منها: الآيات (١٢ و١٣ و١٤) من (المؤمنون) والتي استشهدنا بها، حيث ذكرت كيفية ومراحل تكوِّن الجنين جسدياً، ثم ذكر نفخ الروح فيه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ..﴾ وليس ذلك الخلق الآخر، الذي هو غير التكون الجسدي المارّ ذكره، سوى نفخ الروح فيه، وقد بيَّن ذلك سبحانه وتعالى بلفظ أكثر صراحة في سورة السجدة، حيث قال تعالى متحدِّثاً عن خلق كل من آدم، وذريته: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة].

الثالثة: إن البشرية كلّها يرجع نسبها إلى (أب) واحد، وهو (آدم) ، كذلك أمها واحدة، وهي زوجة آدم (حوّاء) عليهما السلام:

وهذه الحقيقة أيضاً كررت في أكثر من آية، ومنها الآية (١٣) من (الحجرات)، وكذلك الآية (١) من (النساء) والتي استشهدنا بهما هنا، حيث يذكر سبحانه وتعالى في آية الحجرات أبوي البشرية عليهما السلام بلفظ: ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وفي آية (النساء) يبيِّن أن أم البشرية من جنس نفس أبِ البشرية، حيث يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: خلقها من جنسها ونوعها، فهما متساويتان في أصل خلقتهما ونوعيتهما.

الرابعة: البشر كلهم متساوون خلقةً ونسباً، وإنَّما حكمة جعل الله إياهم شعوباً وقبائل، هي: التعارف بسبب التعدّد والتنوّع فيهم، لذا يجب عليهم مراعاة صلة الرحم الجامعة لهم:

وهذا ما بيَّنته الآية (١٣) من (الحجرات)، وكذلك الآية (١) من (النساء)، حيث يذكر سبحانه وتعالى في آية الحجرات أن حكمة جعل الناس شعوباً وقبائل هي التعارف: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ وفي آية (النساء) وبعد أن يبيّن ان كلّ الرجال والنساء انما تناسلوا وتكاثروا من النفس الأولى وزوجها، يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ فيأمر الناس جميعاً بالتقوى منه سبحانه وتعالى، وبحفظ الأرحام وعدم قطعها، ولم يذكر في الآية إلّا الرحم الجامع للبشرية، إذاً: فهو أول مقصود بالحفظ والمراعاة واتقاء القطع!

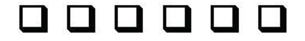
الخامسة: مَنْ كان مِنَ الناس أتقى لله، فهو عنده وفي ميزانه في الدنيا والآخرة، أكرم:

وهذا هو منطوق الجملة المباركة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وهذا يعني أنه ليس هناك من الأفراد والشعوب والقبائل والفئات، من هو أكرم من غيره من البشر، بسبب النَّسَب والحَسَب أو أي اعتبار آخر، من: علم وغنىً وجاه ومكانة ورئاسة...الخ.

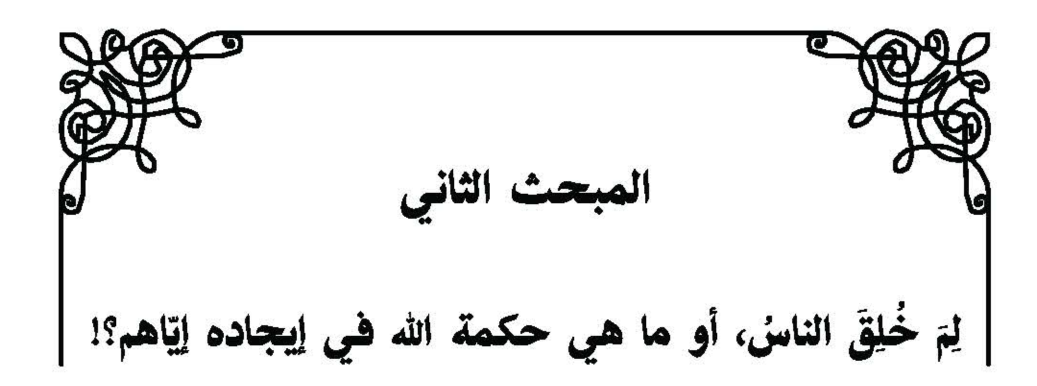
والبشر كلهم في التمكّن من تحصيل التقوى سواء، فكل من الرجل والمرأة، والكبير والصغير، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وذو الجاه والبسيط...الخ، بإمكانه أن يسبق غيره في هذا الميدان الفسيح، الذي لا يحول فيه شيءٌ دون إدراك الإنسان مُرادَهُ، إلّا تكاسلُهُ وعدم رغبته!

وبناءً عليه:

فالناس في أصل إنسانيتهم وبشريتهم، وفي أصل تكوّنهم الروحي والجسدي سواء، لا يفضل أحدهم الآخر.







المبحث الثاني

لِمَ خُلِقَ الناسُ، أو ما هي حكمة الله في إيجاده إيّاهم؟!

قد وضّحنا هذه المسألة أيضاً في السابق في أكثر من موضع، وخاصة في كل من الفصل الثالث والرابع من الكتاب الأول، لذا لا نطيل فيها القول هنا، ونكتفي بإيراد بعض الآيات المباركات وتعليقاتٍ موجزةٍ عليها:

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك].

٢. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان].

٣. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ويتبيّن لنا في هذه الآيات بجلاء لا غموض فيه، أن الله تعالى خلق الناس عموماً، للإبتلاء والإختبار ثم مجازاتهم في الآخرة على أساس نتائج امتحانهم الذي أَدَّوهُ في حياتهم الدنيا كل بحسبه.

ففي آيتي (الملك) يصف سبحانه وتعالى نفسه، بأنه مالك الملك كله، وأنه على كل شيء قدير، ثم يبيِّن أنه خلق الموت والحياة لابتلاء البشر.

وفي آية (الإنسان) يبيِّن سبحانه وتعالى أنه خلق الإنسان من نطفة

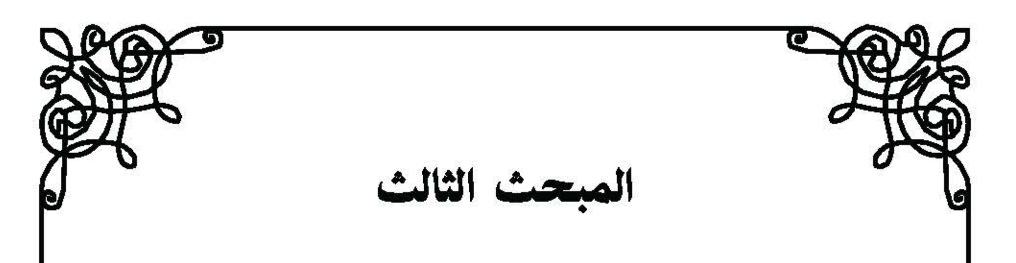
أمشاج[١] من أجل ابتلائه وزوده بالسمع والبصر، أداتي الإبتلاء الأكثر أهمية بعد العقل والقلب.

وفي آيتي (المؤمنون) ينكر سبحانه أشدَّ الإنكار، على من يتصور أن الله تعالى خلقه، لا لحكمة بَلْ عبثاً وباطلاً، وأنه لا يرجع إلى ربِّه ليُجازيَهُ على أعماله! ثم يعلن عُلوّه - عن فعل ما لا حكمة فيه - وهو الملك الحق، والإله الوحيد، ورب العرش الكريم!

هذا وفي المبحث الآتي زيادة توضيح للحكمة التي خلق الله تعالى من أجلها الناس.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) أمشاج جمع مشيج، كيتيم وأيتام. مَشَج بينهما: خَلَطَ من باب: ضَرَب. مختار الصحاح، ص٦٢٥.



المبحث الثالث

الناسُ بماذا كُلِّفوا، أو ما هي وظيفة حياتهم الدنيوية؟!

وهذه المسألة أيضاً من المسائل إلى بحثناها في السابق، وفي أكثر من موضع لأهميتها البالغة، وهذه بعض آيات مباركات بشأنها، وتعليقات مختصرة عليها:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۝٣٠﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٥﴾ [الأنعام].

٣. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود].

٤. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٣﴾ [الأحزاب].

٥. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

وتتجلّى لنا وظيفة الإنسان، والمهمة التي أوكلت للناس عموماً، في

حياتهم الأرضية هذه، في ضوء أنوار الآيات المدرجة أعلاه، كالشمس في رابعة النهار، والتي ندرجها في النقاط الأربع الآتية:

الأولى: إنَّ وظيفة الإنسان – وما الناس إلا جمع إنسانٍ – [1] في حياته الدنيا هذه، هي خلافة الله تعالى في الأرض:

وهذا ما بيَّنته الآية (٣٠) من (البقرة) والآية (١٦٥) من (الأنعام)، وقد بينا في السابق، معنى خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، ورَدَدْنا على الإشكالات المثارة حول هذه المسألة، من قِبلِ بعض العلماء الذين لم يتأملوها جيداً، أو قاسوا الخلق على الخالق، فثارت في أذهانهم بعض الإشكالات، فاضطرّوا من جرّاء ذلك إلى اللجوء إلى تأويلات متكلِّفة وباردة لمعنى تلك الآيات التي تنص على خلافة أبينا آدم عليه السلام خصوصاً وذريته عموماً، لله تبارك وتعالى.

وخلاصة معنى خلافة الإنسان لله تعالى على الأرض:

قيام الناس بالعيش على هذه الأرض، حسب شريعته التي يُنَزِّلها لهم عن طريق أنبيائهِ، وذلك كي يحصلوا على مرضاة الله، وبالتالي يَنجحوا في الإمتحان المفروض عليهم، ويفوزوا في الآخرة بالرضوان وجنات النعيم.

الثانية: تتمثَّلُ خِلافةُ الناس لربِّهم تبارك وتعالى في حياتهم الأرضية، – من جانبها المادي الظاهري – في تعمير الأرض واستخراج خيراتها والإستفادة منها، حسب منهج الله تعالى:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٦١) من (هود)، حيث يخاطب (صالح) نبي الله الكريم قومه ثموداً، بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، ومعنى ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: طلب منكم تعميرها، وانما تُعمَّر الأرض

---

(١) (المعجم الوسيط) ص٩٦٢.

وتستخرج خيراتُها وبركاتُها التي أودعها الله فيها للبشرية، بتطبيق شريعة الله والإلتزام بمنهاجه، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ ..﴾ [المائدة: ٦٦].

الثالثة: إن عَيشَ الإنسان على الأرض باختياره، هو معنى حمله الأمانة التي أشفقت منها السموات والأرض والجبال:

كما بيَّنته الآيتان (٧٢ و٧٣) من (الأحزاب) واللّتان تكلَّمنا عنهما في السابق، فلا داعي للتكرار.

الرابعة: إِن خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض، إذا كان جانبها المادي الظاهري المرتبط بالأرض، يتمثل في تعمير الأرض، وجانبها الرباني، يتمثل في حمل أمانة الله، فإن جانبها الإنساني، يتمثل في عبادة الإنسان ـ وكذلك الجن في هذا لهم نفس الحكم ـ لله تبارك وتعالى:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٥٦) من (الذاريات): ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وبناءً على ما مرَّ ذكره، نقول:

إذا أردنا أن ننظر إلى كل هذه القضايا العظيمة المهمة المرتبطة بوظيفة الإنسان وحكمة وجوده، نظرةً كليةً شاملة، ينبغي أن نقول:

أولاً: إِن الله تعالى خلق الإنسان من أجل الإبتلاء.

ثانياً: وابتلاء الله تعالى للإنسان، يتمثَّل في جعله إياه خليفة له في الأرض.

ثالثاً: وخلافة الإنسان لله تعالى على الأرض، لها ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: من حيث ارتباطه - أي الإنسان المُسْتَخلَف -

كخليفة لله تعالى بالأرض، ووظيفته من هذه الناحية هي تعمير الأرض، أي استخراج خيراتها والإستمتاع بها، وذلك على مستوى البشرية كلّها، في الحدود التي رسمتها شريعة الله الحكيمة.

الجانب الثاني: من حيث ارتباطه كخليفة الله تعالى، بخالقه وربّه ومالكه الذي استخلفه في الأرض، ومِنْ هذه الناحية فوظيفة الإنسان هي حمل أمانة الله وحفظها وأدائها، وعدم الخيانة فيها بسبب الظلم والجهل، وانما يتمكن الإنسان من حمل أمانة الله، وحفظها وعدم إضاعتها، بالإيمان والعمل الصالح، ولهذا ذكر الله تعالى أهل الإيمان ذكوراً وإناثاً، في الآية التالية للآية التي ذكرت فيها الأمانة، ووصفهم بكونهم مستحقين لمغفرة الله ورحمته وجعل هذا شقاً من شِقَّي حكمة تحميله الإنسان أمانته! فقال: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

كما أن الظلم والجهل هما السببان الرئيسان في إضاعة الأمانة الربانية الملقاة على عاتق البشر، ولهذا وصف الله تعالى بهما الإنسان عموماً: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وذلك كي يحذر الإنسان، نُقطتَي ضعفه هاتين! ثم ذكر تعالى في الآية التالية، الشق الآخر لحكمة تحميل الإنسان أمانته، وهو أن يستحق المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، عذابه وعقابه، من جرّاء خيانتهم لأمانة الله وإضاعتهم إيّاها ظلماً وجهلاً، كما قال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ..﴾ والظلم والجهل وان كانا شاملين لكل المنافقين ذكوراً وإناثاً وكذلك المشركين، ولكن المنافقين أولى بوصف الظلم، لأنهم عرفوا الحق ولم يلتزموه، والمشركون وصِموا بالجهل، لأنّهم أعرضوا عن الحق فبقوا جاهلين به.

الجانب الثالث: من حيث ارتباطه بنفسه كخليفة لله تعالى، إلهه الوحيد الحق، ومن هذه الحيثيّة، فوظيفتُهُ هي العبادة لله تبارك وتعالى بالمعنى الشامل والكامل لكلمة العبادة، وكما وضّحناه في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة بالتفصيل.

ونقول مستنتجين من كل ما مرّ ذكره:

كما أنَّ الناس كلَّهم بلا استثناء، مُبْتَلُون جميعاً من الله تعالى بهذه الحياة الأرضية المفروضة عليهم، كذلك هم كلهم بلا استثناء:

١ ـ مُسْتَعْمرون (أي طُلِب منهم تعمير الأرض)، ولكن منهم من يقوم بالتخريب والتدمير والإفساد.

٢ ـ ومُسْتخلَفون (أي جُعلوا خلفاء الله في الأرض)، ولكن منهم من لا يتصرَّف حسب منهاج مُسْتَخْلِفِه.

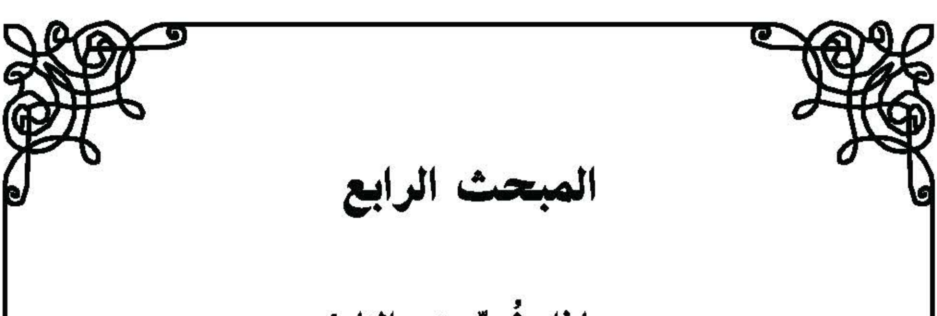
٣ ـ ومُسْتَعْبَدون (أي: طُلبت منهم العبادة لله تعالى)، ولكن منهم من لا يعبدُهُ أصلاً، أو يعبد معه غيره.

٤ ـ ومُسْتأْمَنون (أي حمَّلهم الله أمانته والواجب عليهم حفظها)، ولكن منهم من يخونها ويُضيّعها.

وهذه حقيقة عظيمة، بيَّنتها الآيات المباركات التي مرَّ ذكرها، ولنكن على ذكر لهذه الحقيقة ذات أربعة وجوه، فيما يأتي من مواضيع، لأننا سنحتاجها كثيراً، وخاصة عند المبحث الخامس من هذا الفصل، المُخصَّص للكلام عن الأصول الكلية للتعامل مع الناس عامة.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الرابع

بماذا خُصِّصَ الناسُ
أو ما هي أوجه فضلهم وامتيازهم على غيرهم؟!

وللإجابة على هذا السؤال، لنتأمل هذه الآيات الكريمات:

١. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ.. ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

٣. ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين].

٤. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص].

٥. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

٦. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ..﴾ [الجاثية: ١٣].

وقبل أن نشرع باستخلاص ما تدل عليه هذه الآيات، من وجوه فَضْل البشر وامتيازهم على غيرهم من مخلوقات الله، أودّ التنبيه على حقيقة، وهي:

إنّما أردنا هنا أن نشير إلى وجوه الفضل والإمتيازات التي يشترك فيها جميعُ البشر فحسب، وإلّا فهناك امتيازات وخصوصيات عظيمة يمتاز بها البشر على سائر الخلق، ولكنها مختصة بأهل الإيمان منهم فقط، وليس لغيرهم فيها نصيب، ولهذا لم نُشِرْ إلى الآيات التي جا- ذكرها فيها، وذلك مثل قوله تعالى:

١. ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ..﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب].

٣. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

٤. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

٥. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

٦. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

وهذه الإمتيازات ووجوه الفضل التي خصَّ الله تعالى بها أهل الإيمان، كل واحد منها - فكيف مجموعها - خطبهُ عظيمٌ وشأنه جسيم، إلى درجةٍ أَنَّ مجرَّد تصورها تَجعَلُ الإنسانَ يطير من الفَرَح! جعلنا الله بكرمه من النّائلين لها.

والآن عودة إلى الآيات المباركات، واستخلاص أهمّ ما تدل عليه من الإمتيازات والفضائل، التي خَصَّ الله الحكيم بها البَشَر عموماً، ومجموعها عشر فضائل:

الأولى: حمل أمانة الله العظيمة الخطيرة الثقيلة التي لم يكن في وسع مخلوق آخر حملها.

فالسموات بكل مالها من سعة وضخامة، والتي لا يعلمها سوى خالقها، والأرض بكل ما فيها وعليها من عجائب المخلوقات والأسرار المدهشة، والجبال بكل ما لها من علو وشموخ وصلابة، كلّها عجزت عن التصدِّي لِحَمْلِ تلك المهمة، ولكن الإنسان وحده من بين مخلوقات الله قاطبة، كان لديه استعداد وأهلية حَمْلِها، وحَمَلَها!

والآية (٧٢) من (الأحزاب) مصرِّحة بهذه الحقيقة التي تمثّل أولى امتيازات الإنسان وأبرزها على ما عداه من المخلوقات.

الثانية: خلافة الله في الأرض:

كما صرَّحت به الآية (٣٠) من (البقرة)، وقد تحدثنا عنها سابقاً فلا داعي للتكرار، ولكن أودّ التنبيه على مسألة وهي أن الملائكة الكرام الذين هم: ﴿...عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، ﴿... لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قد تطّلعوا إلى هذا المقام الشريف، وطلبوه من الله تعالى بقولهم: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..﴾ ولكنهم لم يُعْطَوه، وقد أجاب الرب الجليل جلَّ شأنه، عن إشكالهم الذي أثاروه حول خلافة آدم في الأرض، وهو كونه - أي ذريته - مُفسِداً وسافكاً للدم الحرام، بما ازداد به مقامُ ذلك الخليفة رِفْعَةً، كما سنبيِّن ذلك في النقطة الآتية، ولكنّي قبل ذلك أنبّه على أن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ، ليس على سبيل الإعتراض! لأن الإعتراض على الله

تعالى كفر، والملائكة مبرّؤون عمّا هو أقل من هذا بكثير، بَلْ قولهم هذا استفسار من الله تعالى عن حكمة اختيارِهِ آدم خليفة على الرغم، عَمّا هو مُعَرَّض له من الفساد وسفك الدماء، وعدم اختياره إيّاهم، على الرغم عما لهم من الطاعة المطلقة!!

الثالثة: صيرورة آدم معلِّم الملائكة الكرام:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٣٣) من (البقرة): ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ . . ﴾.

الرابعة: صيرورة آدم مسجوداً لكل الملائكة الكرام (والمقصود بالسجود بلا شك، هو سجود التكريم لا غير):

وهذا ما صرَّحت به الآية (٣٤) من (البقرة) والآية (٧٣) من (ص).

الخامسة: خلق الإنسان في أحسن تقويم:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٥) من (التين).

وكلمة التقويم[1] تشمل كلا جانبي الظاهري والباطني من الإنسان.

السادسة: نفخ الله تعالى في جسد آدم عليه السلام وأجساد ذريته من روحه.

كما صرَّحت به الآية (٧٢) من (ص) بالنسبة لآدم، والآية (٩) من (السجدة) بالنسبة لكل البشر (ذرية آدم عليه السلام).

السابعة: إسناد الله تعالى خلق آدم إلى يديه:

كما صرَّحت به الآية (٧٥) من (ص).

وبما أن كل الموجودات مخلوقةٌ لله تعالى، فلا شك أن ذكره تعالى خلق آدم بيديه، فيه سِرٌ وهو إِجمالاً: زيادة تشريف لآدم قطْعاً، والدليل

(١) قوَّمَ الشيءَ تقويماً فهو قويم، أي: مُستقيم. مختار الصحاح، ص٤٨٣، لفظ: ق و م.

على هذا: أنَّ الله تعالى احتجّ بهذا على إبليس، في عدم سجوده لآدم - أي سجدة تكريم -، وبناءاً عليه: فخلق الله آدم من بين كل مخلوقاته بيديه، تشريف وفضل لآدم عليه السلام.

الثامنة: إعلان الله تعالى بأنه أكرَمَ بني آدم:

وهذا ما صرَّحت به الآية (٧٠) من (الإسراء).

التاسعة: إعلان الله: أنه فضَّل بني آدم على كثير من خلقه:

وهذا ما صرَّحت به الآية السابقة أيضاً.

العاشرة: إعلان الله تعالى: بأنه سخَّر ما في السموات وما في الأرض جميعاً للبشر:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٣) من (الجاثية).

إذن: هذه عشرة امتيازات ووجوه فضل للبشر على سائر الخلق، وكفى بها دليلاً على أن البشر حقاً مخلوق ممتاز من بين الخلق، وكريم لدى الله تعالى، ولكن بِمَ يفقد الإنسانُ هذا الإِمتياز وهذا التكريم؟ هذا ما سنتحدَّث عنه بإذن الله في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ولكن يجب التنبّه إلى أن تكريم الله للبشر وتَفْضِيلَه إيّاهم، بما أن الله تعالى أضافه إلى الناس كلّهم، وذلك بذكره إياهم بعنوان (بني آدم)، لذا فهذا التكريم الرباني والتفضيل الرحماني، عام للبشر كلهم، بغضِّ النظر عن إيمانهم وكفرهم.

وهذا واضح لمن تأمل كل تلك الفضائل والإمتيازات العشرة التي مرَّ ذكرها.

وشرحُ هذا الموضوع كالتالي:

١ و٢: أما حمل الأمانة الربانية، والخلافة في الأرض، فقد وضَّحنا

شمولهما وعمومهما واستمرارهما، وكلاهما أخبر الله تعالى عنهما، ووصف بهما البشر عموماً، ولم يؤقتهما بوقت.

٣ و٤: وأما صيرورة آدم عليه السلام معلم الملائكة، ومسجوداً لهم، فخاصّان به ومضيا، ولكن امتيازات الوالدين شرف للأولاد بلا شك.

٥ و٦: وأما خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونفخ الله تعالى من روحه في جسد أبيهم آدم وأجسادهم، فعامّان لكل البشر كما هو واضح.

٧: وإسناد الله تعالى خلق آدم إلى يديه، خاصٌ بآدم أَبي البشر، ولكن ما ذكرت فيه من فضائل، تَعُمُّ جميعَ أولاده.

٨ و٩ و١٠: وكذلك كل من: إعلان الله الكريم تكريمه لبني آدم، وتفضيله إياهم على كثير من خلقه، وتسخيره لهم جميع ما في السموات وما في الأرض، عامٌ لجميع البشر ولا يخصّ قسماً منهم،كما هو واضح.

والآن:

وقد علمنا في ضوء كتاب الله المبارك الحكيم:

مِمَّ خُلِقَ الناس؟!

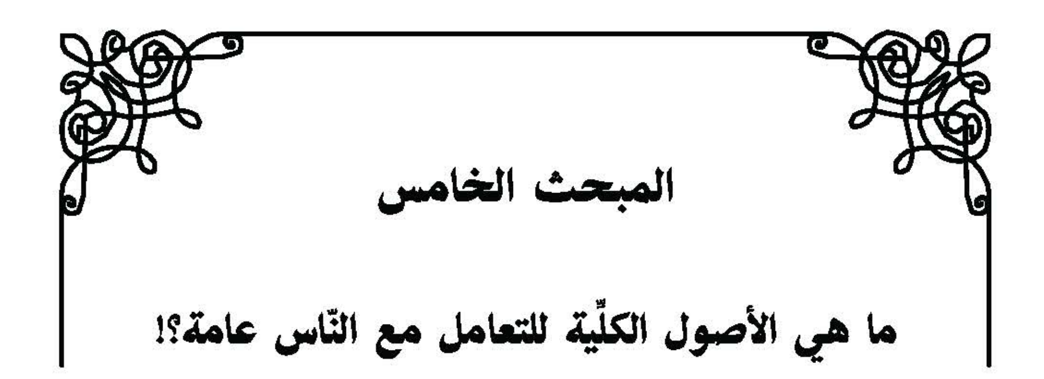
ولِمَ خُلِقوا؟!

وبماذا كلِّفوا؟!

وكيف شُرِّفوا على غيرهم من المخلوقات، وبماذا خُصّصوا؟!

الآن، آن الأوان أن ننتقل إلى المبحث الخامس والأخير من هذا الفصل، وهو:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الخامس

ما هي الأصول الكلّية للتعامل مع النّاس عامة؟!

وأرى - والله تعالى هو العليم الحكيم - أن الأصول الشرعية الكلية التي يجب على أهل الإسلام أفراداً ومجتمعاً، الإلتزامُ بها للتعامل مع الناس عامة، هي هذه الأربعة، والتي تشكِّل الإجابة على السؤال الذي جُعِلَ عنواناً لهذا المبحث:

١. **الناس يُكْرَمون أحياءً وأَمواتاً.**

٢. **الناس أحرارٌ، لا يُكْرَهون على اعتناق دينٍ أو فكرةٍ.**

٣. **الناس يُعامَلُون على أساس العدل والإحسان.**

٤. **الناس إنْ صدَرَ منهم ظلمٌ واعتداء، يردُّ على ظلمهم واعتدائهم بمثله، ولكن لا يجوز تجاوز الحدود.**

والآن سنلقي ضوء بعض آيات كتاب الله الحكيم، على كل من هذه الأصول الشرعية الأربعة، كل منها في مطلبٍ مستقل:

***

المطلب الأول:
الناس يُكرَمون أحياءً وأمواتاً

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ..﴾ [الإسراء: ٧٠].

٢. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

٣. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا..﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤. ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

هذه الآيات وأمثالها تبيِّن بجلاء، أن الله تبارك قد أكرم الإنسان، وأكرم الناس عموماً في هذه الحياة الدنيا، سواء بتسخير البرّ والبحر لهم، وتفضيله إياهم على كثير من خلقه، كما بيّنته الآية (٧٠) من (الإسراء)، أو بإِسجاد الملائكة تكريماً لأبيهم آدم، كما في الآيتين (٦١، ٦٢)، أو بإنزاله اللباس والريش لهم لستر عوراتهم، كما في الآية (٢٦) من (الأعراف)، أو بإرساله وإنزاله الكتب، كما في (١٦٥) من (النساء)، كي لا يكون لهم عذر أو حجة تجاه ربهم.

ومِمّا يُسْتَدلُّ به في السنة النبوية بهذا الصّدد، وعلى سبيل المثال فقط، هو:

أن رسول الله ﷺ كان يعامل المشركين واليهود والمنافقين والنصارى، بمنتهى الأدب الرفيع والخلق العظيم الذي أعطاه الله إياه، فكان يكرمهم ويؤاكلهم ويُشاربهم، وكان يُنزِلُ وفودَ المشركين والنصارى مسجده الشريف، وقد استدل العلماء بفعله هذا على أن الكفار - أي من حيث أجسادهم - يُعتبرون طاهرين غير نجِسين، وأما الآية (٢٨) من (التوبة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ ..﴾ فالمقصود بها النجاسة والخبُث الروحي والمعنوي النابع من الشرك والكفر.

وهذا الحديث أقوى دليل على ما نقول: (... **إن النبي ﷺ مرّت به جنازةٌ فقام، فقيل له: إنّها جنازة يهودي! فقال: أليست نفساً؟**) (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (١٢٢٨)، عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ وَقَيْسِ بْنِ سَعْد.

إذن:

على المسلم الذي يزن الأشياء بميزان دين الله، أن يكرم مَن أكرمه الله تعالى، ومن الواضح أن الأصول الثلاثة الباقية أيضاً، كلّها تكريم للإنسان من زوايا مختلفة، لذا فهي كلها شرح لهذا الأصل الأول الذي لم نطل الكلام فيه.



المطلب الثاني:
الناس أحرارٌ لا يُكرَهون على اعتناقِ دينٍ أو فكرةٍ

قال تعالى:

١. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾ [يونس].

٢. ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق].

٣. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾ [الغاشية].

٤. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ..﴾ [الكهف: ٢٩].

٥. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ..﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٦. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)﴾ [التكوير].

٧. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء].

٨. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ..﴾ [الشورى: ٤٨].

٩. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

ونستخلص من هذه الآيات الحقائق السبع الآتية، فيما يتعلق بحرية الناس وعدم جواز إكراههم، أو ممارسة أي نوع من الضغط عليهم، لترك دين أو فكرة، أو اعتناق دين أو فكرة:

الأولى: إنَّ الله تعالى وهو خالق الناس وربُّهم، لم يشأ أن يكرههم على الإيمان، فكيف يجوز لغيره أن يكرههم!!

وهذا ما صرّحت به الآية (٩٩) من (يونس) حيث يخاطب الله العظيم نبيَّه الكريم، ويقول له بأنه لو أراد أن يكره الناس على الإيمان، لما تخلَّف أحد منهم، ولآمَنَ به كل مَنْ في الأرض قاطبة، وإذا كان الله العظيم وهو خالق الناس وربهم ومالكهم، لم يُكْرِه عبادَه على الإيمان به، فكيف يجوز لك ذلك؟! ومعلوم أن ما لا يجوز لرسول الله ﷺ بهذا الصدد، فبالطريق الأولى لا يجوز لغيره، وكذلك يدل عليه قوله تعالى في الآية (٤٨) من (الشورى) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ..﴾.

الثانية: ليس لأحد من الناس أن يُجْبِرَ الناس ويمارس الضَغْط عليهم من أجل الإيمان:

وهذا ما أكدته كل من الآية (٤٥) من (ق)، حيث يخاطب الله الحكيم نبيّه الكريم، بأنه لا يحق له أن يكون (جبّاراً) على الناس ليؤمنوا، وانما وظيفته التذكير بكتاب الله، حتى يتذكّر من يخاف وعيد الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وكذلك أكدته الآيات (٢١ إلى ٢٦) من (الغاشية)، حيث يخاطب الله تبارك وتعالى رسوله الأمين، ويأمره بالتذكير لأن وظيفتَهُ هي التذكير فحسب: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾، وأنه لا سيطرة له عليهم، ثم يبيِّن سبحانه وتعالى أن مَنْ تَوَلّى وكفر من الناس، فعقوبته على الله تعالى

وسيعذبه العذاب الأكبر، ثم يؤكد سبحانه أن عودة الناس كلهم إلى الله، ومحاسبتهم ومجازاتهم على كفرهم وتولِّيهم، عليه هو وحده فحسب!

الثالثة: والله تعالى أعطى للناس كلهم مطلق الحرية، ليؤمنوا أو يكفروا بمحض إرادتهم واختيارهم:

كما أعلن سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في الآية (٢٩) من (الكهف) حيث يخاطب الله العظيم رسوله الخاتم ﷺ أن يقول للناس بأن الحق المطلق - في كل المجالات - من ربكم حصراً، ولكن لا يكرهكم عليه، بل من شاء منكم ورغب في الإيمان، فليؤمن، ومن أراد الكفر ورغب فيه، فليكفر، فهم أحرارٌ مُخيَّرون فيما يريدونه، سواءٌ أَحَبَّهُ الله تعالى - وهو الإيمان - أو كرهه - وهو الكفر -!

الرابعة: لا يجوز لأحد أن يُكْرِهَ أحداً في مجال التديُّن واتباع المناهج والأنظمة:

وهذا هو منطوق الآية (٢٥٦) من (البقرة)، وسبب نزول هذه الآية الكريمة، حسبما ذكره المفسرون، هو أن بعض المشركين كان من عادتهم في الجاهلية إذا كانت زوجة أحدهم مِقْلاةً[1] أن يَنْذروا أنه اذا ولد لأحدهم ولَدٌ، يسلِّمونه لليهود ليهوِّدوه، ثم لما جاء الإسلام وأسلم آباؤهم وأمهاتهم، أرادوا أن يعيدوهم إلى الإسلام، ويُكرهوهم على ترك اليهودية والدخول في الإسلام، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2]، منعاً لهم عن هذا التصرّف! ولكن

---

(١) المِقْلاة: المرأة التي لا يعيش لها ولد، والقَلْتُ: الهَلاك. المعجم الوسيط، ص ٧٥٣.

(٢) عن ابن عباس: كانت المرأة تكون مِقْلاةً، فَتَجْعَلُ على نَفْسها، إنْ عاش لها ولَدٌ أن تهَوِّدَهُ، فلما أُجْلِيَت بنو النَّضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَعُ أبناءَنا، فأنزَلَ الله: (لا إكراه في الدين...)، (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، رقم: ١٧٣. وأخرجه أبو داود: ٢٦٨٢، والنسائي في تفسيره: ٦٨، ٦٩، وابن حبان في صحيحه: ١٤٠، والطحاوي في مشكل الآثار: ٢٧٦٤... وغيرهم، وسنده صحيح، أنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج١ ص١٩٥.

ن المعلوم أن خصوص السبب لا يمنع شمول المعنى، كما هو مقرّر عند كافة العلماء.

الخامسة: أَللّه تعالى أنزل كتابه الذي يهدي إلى صراطٍ مستقيم، ولكن الناس أحرارٌ فيما إذا أرادوا الإستقامة، كما أمر الله تعالى وكما يحبه، أو الإنحراف، وإنْ نهى الله عنه وكرهه:

وهذا ما تدل عليه الآيتان (٢٧، ٢٨) من (التكوير)، ثم إنَّ رَبْطَ الله تعالى اختيار الناس الإستقامة - أو عدمها - بمشيئتِهِ الكلية، في قوله في الآية (٢٩) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، تنبيه على أن شيئاً ما لا يجري في الوجود خارج مشيئته وإرادته المطلقة.

السادسة: الناس إنْ آثروا الدنيا على الأخرى، أو آثروا الحياة الباقية، على الفانية، فالله تعالى يُمِدُّهم ويعينهم على تحقيق أهدافهم، بقدر ما يبذلون من جهود:

وهذا ما صرَّحت به الآيات (١٨ و١٩ و٢٠) من (الإسراء)، إذ يقول تعالى في الآية الخاتمة للآيات الثلاث: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: إن الله تعالى يُمِدُّ ويعين - حسب سننه التي وضعها في حياة البشر - كلاً من طالبي الدنيا وطالبي الآخرة، من هباته، وإنَّ جُودَهَ وعطاءه - في الدنيا - ليس محجوزاً عن أحد، بل شامل للكل، ولكن بقدر ما يبذلون من جهد.

إذاً: لا كفر الكافر الباذل للجهد، يمنع منه عطاءَ الله وإمدادَه، ولا إيمان المؤمن القاعد عن العمل، يجلب له ما ينبغي أن يكسبه من خلال العمل، بل سنن الله تعالىساريةٌ على الجميع.

السابعة: ومن حق كل إنسانٍ أن يحتفظ بدينه الذي يتديَّن به ومنهجه الذي يسلكه في حياته:

وهذا ما أكَّدته سورة (الكافرون) التي أمر الله تعالى فيها رسوله، أن

يعلن براءته من معبودات الكافرين كلهم، ومن أديانهم كلها، ويقول لهم في الختام: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

هذا وقد ذكرنا في السابق مراراً، أن كلمة (الدين) في كتاب الله الحكيم لها ثلاثة معانٍ، هي:

١. الجزاء

٢. الطاعة والخضوع

٣. المنهج المتَّبع في الحياة

وليس الدين مرادفاً للإسلام، كما يتوهم كثيرٌ من الناس، بل إذا استعملت كلمة الدين بمعناها الثالث (المنهج) فهي شاملة لكل منهج يتبعه الناس، مؤمنين كانوا أم كافرين، وأيّاً كانت مناهجهم، وسواءٌ كان مصدرها الوحي، أم عقول البشر وأهواؤهم، ثم إن كان مصدرها الوحي، سواء حرِّفت وغُيِّرت عما كانت عليه، كاليهودية والنصرانية، أم بقيت محفوظةً، كالإسلام.

وأدلّ دليل على هذا، هو هذه السورة المباركة التي يأمر تعالى نبيه فيها، إعلانَ براءته من الكفار وآلهتهم المزيفة وأديانهم الباطلة، وأن يعلن لهم مدوياً: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ إذن: فكما أن للنبي الأمي دين، وهو الدين الحق، كذلك للكفار دين، وهو كل مناهجهم وأنظمتهم الجاهلية التي أفرزتها لهم ظنون الطواغيت وأهواؤهم!

وأرى بأن ما تقدم ذكره من الآيات المباركات، التي ليست سوى نماذج من آيات كثيرة أخرى، كافية لإثبات كون الناس أحراراً في دين الله الحق في مجال التدين والإعتقاد والتفكير، وأنه لا يجوز لأحدٍ أياً كان، أن يكرههم وأن يضغط عليهم لترك دين وفكرة، أو لاعتناق دين وفكرة[1].

---

(١) وسنزيد هذا الموضوع إيضاحاً في الفصل الرابع من هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

ومن الواضح البيِّن، أنَّ من دون إِعطاء الناس هذه الحريّة وهذا الإختيار، لا يبقى لابتلائهم وامتحانهم معنى ومحتوى، إذْ ما معنى ابتلاءُ إنسان واختباره، في الوقت الذي هو ممنوع من اختيار ما يختاره ويرغب فيه!!





المطلب الثالث:
الناس يُعامَلُون على أساس العدل والإحسان

الأصل الثالث من الأصول الشرعية الكلية التي يجب أن يُعامَل الناسُ جميعاً على أساسها، هو معاملة الناس - مؤمنهم وكافرهم - بالعدل والاحسان.

وهذه بعض الآيات بهذا الصدد:

١. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ..﴾ [النحل: ٩٠].

٢. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ..﴾ [الشورى: ١٥].

٣. ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ..﴾ [البقرة: ٨٣].

٤. ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

٥. ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

٦. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [الحديد: ٢٥].

٧. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

٨. ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة].

ونستخلص الحقائق الخمس الآتية، في مجال وجوب معاملة الناس جميعاً بالعدل والإحسان من هذه الآيات البيِّنات:

الأولى: ان العدل والإحسان هما مِمّا أمر الله تعالى به في كتابه الحكيم:

والآية (٩٠) من (النحل) مُصرِّحة بذلك، وواضح أن المقصود بالعدل والإحسان أي: اتخاذهما قاعدة التعامل مع الناس، من قِبَلِ المسلمين أفراداً ومجتمعاً ودولة.

وقد بينّا في السابق، مفهوم كل من العدل والإحسان، فلا داعي للتفصيل هنا، ولكن نقول بإيجاز شديد:

ملخص مفهوم الإحسان، هو إيصال النفع للغير، أياً كان نوع النفع مادياً أو معنوياً، وأما العدل فله جوانب كثيرة، ولكن لُبُّه أو معظمه يكمنُ في التسوية بين الناس وعدم التفريق بينهم، بسبب النسب والحسب والمال والجاه والقوة...الخ، بل وبسبب الدين أيضاً، في مجال النظر إليهم، كبشر خلقوا للإبتلاء، وفي مجال الكرامة الإنسانية، وفي مجال القضاء، وفي مجال فُرصِ العمل والعيش الكريم، وفي مجال الحقوق والحريات.

الثانية: رسول الله محمد ﷺ مأمور من الله تعالى، أن يعامل جميع الناس بالعدل:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٥) من (الشورى)، والدليل على أن المقصود بضمير (كُمْ) في كلمة (بينكم) هو جميع الناس، هو أن سورة الشورى مكية، والمخاطَبين الذين أُمِرَ الرسول ﷺ أن يخاطبهم بهذا الكلام، هم الناس عموماً والمشركون خاصة.

الثالثة: يجب على المسلمين، أن يكون الإحسان قولاً وعملاً، قاعدة تعاملهم مع الناس:

وهذا ما تدل عليه كل من الآية (٨٣) والآية (١٩٥) من (البقرة) والآية (١٢٨) من (النحل)، نعم، إنَّ أهل الإسلام يجب أن يكونوا محسنين مع الناس جميعاً، قولاً وفعلاً وخلقاً، وكيف لا يكونون هكذا، وغايتهم في الحياة الدنيا نيل رضى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ..﴾ [الفتح: ٢٩]، وجلي أن الله تعالى لا يرضى إلّا عمَّن يحبّه، والله تبارك وتعالى أعلن أنه يحب المحسنين: ﴿...وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾!

الرابعة: وإقامة العدل والقسط بين الناس، هي الهدف الأعلى - فيما يتعلق بحياة الناس - الذي أرسل الله تعالى أنبياءه ورسله لتحقيقه:

وهذا هو منطوق الآية (٢٥) من (الحديد)، وإنّما قيّدنا كلمة (الهدف الأعلى) بجملة (فيما يتعلق بحياة الناس)، لأن الله تبارك وتعالى بيّن في أكثر من آية، أن الهدف الأعظم لبعثة الرسل الكرام إلى الناس، هو تعبيدهم لربهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، ولكن هذا فيما يتعلق بارتباط الناس بربهم ﷻ، وإقامة القسط، فيما يتعلق بارتباط بعضهم ببعض.

الخامسة: والمسلمون أفراداً ومجتمعاً، مأمورون بالعدل حتى مع أعدائهم، وبالبرِّ والإقساط إلى الناس جميعاً، ولو كانوا كفاراً، شريطة عدم معاداتهم لأهل الإسلام، وعدم معاونة أعدائهم عليهم:

أما اتباع العدل، ولو مع الأعداء، فهو منطوق الآية (٨) من (المائدة)، وأما البرّ مع الكفار والإقساط إليهم - وقد رجّحنا سابقاً أن يكون البرّ هنا بمعنى النفع المعنوي، والإقساط بمعنى العون المادي - ما لم يعادوا المسلمين، ولم يعاونوا أعداءهم عليهم، فمصرَّح به في الآية (٨) من (الممتحنة).



المطلب الرابع:
الناس إنْ صدر منهم ظلم واعتداءٌ، يرَدُّ ظلْمُهم واعتداؤهم بمثله، ولكن لا يجوز تجاوز الحدود

يقول سبحانه وتعالى بهذا الصدد:

١. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة].

٣. ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة]

٤. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج].

٥. ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل].

٦. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى].

ونأخذ من هذه الآيات المباركات، الحقائق الأربع الآتية، فيما يتعلق بمجال ردّ الظلم والإعتداء:

الأولى: الإعتداء من أهل الإسلام، حرام على أيٍّ كان، ولا يقاتِلون إلّا مَن قاتلهم:

وهذه الحقيقة وهي ذات شقين، صرَّحت به الآية (١٩٠) من (البقرة)، وكلمة الإعتداء، وإنْ كان السياق هنا يحصر معناها في الجانب القتالي، ولكن معناها شامل لكل تجاوز تجاه الآخرين لساناً ويداً وسلاحاً. . .الخ، ولكن القتال والقتل أعلى أنواع الإعتداء وقمة التجاوز.

ولا يجوز للمسلمين بأي مبرّرٍ، المبادرة بالإعتداء على الآخرين، ولكن إذا بادر عليهم أحدٌ بالإعتداء، يجوز لهم وقد يجب عليهم الردُّ بالمثل، كما نبيِّن بعد قليل.

وأما كيفية التوفيق بين القول بـ: (عدم جواز قتال المسلمين، من لا يقاتلهم) وبين القول بـ: (جواز بل وجوب نشر الدعوة الإسلامية، عند الإمكان، وإن استلزم ذلك استعمال القوة لإزالة الموانع في الطريق)، فهذا ما سنتحدّث عنه بإذن الله، في الفصل الرابع عند الكلام في موضوع كيفية التعامل مع الكفار.

الثانية: أهل الإسلام لا يلجؤون للقتال - عدا حالة ردّ الإعتداء - إلاّ لضرورة دفع الأذى والظلم عن الناس، والذي يُراد من ورائِه الحيلولة بينهم وبين الإيمان:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٩٣) من (البقرة) وكذلك الآية (٣٩) من (الأنفال)، حيث أمر الله تعالى أهل الإسلام بقتال الكفار إلى غاية رفع الفتنة، لأن (حتّى) لبلوغ الغاية، كما هو معلوم: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ..﴾ و﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ والفتنة هنا تعنى: الإيذاء والظلم والضغط على الناس للحيلولة بينهم

وبين الإيمان[1]، بدليل ان الله تعالى قال في ختام الآية (١٩٣) من (البقرة): ﴿..فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذن: فالفتنة هي ممارسة الضغط والظلم والأذى على الناس، لذا يجب على أهل الإيمان - عند الإمكان - القيام بقتال الظالمين الضاغطين على الناس والمؤذين لهم والمُستَضْعِفين لهم، إلى أن تنكسر شوكتهم وتذهب هيبتهم، بحيث لا يتمكنون من إيذاء الناس من أجل إيمانهم، ولا تبقى على الناس سلطة أحدٍ، سوى سلطة دين الله الحق الذي يعطي الناس الحرية الكاملة في الإيمان أو عدم الإيمان، وذلك كي يتحقق ابتلاء الله تعالى للناس في هذه الحياة، فيسلك الناس شتى الإتجاهات والطرق بمحض إراداتهم.

والمقصود بكلمة (الدين) في آيتي [البقرة] و[الأنفال] الآنفتين، انما هو الطاعة والخضوع، فقوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ..﴾ و﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: قاتلوا الكفار والمشركين حتى تزول تلك السلطة التي يمارس الطغاة والظلمة تحت ظلها الضَغْطَ على الناس وإيذاءهم، بسبب اختيار ما يعتقدونه، وحتى يكون الخضوع من الناس لله تعالى فقط، فلا يُسْتَذلُّون ولا يُستعبدون لأحد يفعل بهم كيفما يهوى.

وواضح أن الله له الخضوع المطلق من الخلق، سواء أجاهد المسلمون في سبيله وقاتلوا أعداءهم الظلمة أم لا، ولكن المقصود بالطاعة والخضوع لله تعالى، هو الخضوع لحكم دينه وشريعته، ذلك الدين الحق الذي أنزله الله تعالى، كي يكون له الظهور والغلبة على الأديان والمناهج كلّها: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، وجليٌ أن ظهور الدين الحق وَعُلُوَّه، إنما يتحقق من خلال عمل المسلمين وتطْهير الأرض من ظلم الظالمين وفتنة الطواغيت المستبدين.

---

(١) مختار الصحاح، ص٤٢٨، لفظ: ف ت ن.

الثالثة: وأهل الإسلام بما أنهم لا يقبلون الظلم والضَّيم من أحد ما استطاعوا، لذا فهم يردّون على اعتداء المعتدين عليهم، ولكن حتى في حالة الردِّ على الإعتداء، لا يتجاوزون حدَّ العدل، بل يردّون على الإعتداء بمثله فقط، ولا يتمادون:

وهذا ما بيَّنته الآية (١٩٤) من (البقرة)، وكذلك قوله تعالى: ﴿..فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نص صريح واضح أنه لا يجوز الردّ على الإعتداء الا بِمثله فقط، وأنه يجب على أهل الإسلام التقوى من الله في هذا المجال الحساس، وأن لا يسمحوا للعاطفة والحماسة تغلب عقولهم، ويتجاوزون حدود الشرع، لأن الله تعالى يُحِبُّ المتقين، ولكن من لم يتق الله فهو بمعزلٍ عن محبة الله، ولو كان قائداً أو جندياً في ميدان الجهاد والقتال!

الرابعة: وكل ما مرَّ ذكره من الآيات، كانت تتحدث فيما إذا تعرّض المسلمون كجماعة ومجتمع للظُّلم والعدوان، وأما عند التعرّض الشخصي لِلظلم والأذى، فالحكم يختلف وهو: جوازُ الردِّ بمثله، ولكن تَحْبيذُ العفو والصبر، طالما تتحقق بهما مصلحة ويحصل خيرٌ:

وهذا ما بيَّنته الآيات: (١٢٦، ١٢٧) من (النحل) و(٣٩، ٤٠) من (الشورى).

والدليل على أن المقصود في هذه الآيات الأربع، هو حالة التعرّض الشَّخصيّ للأذى والإعتداء، هو أن هذه الآيات آيات من سورتين مكيتين، وهما (النَّحل) و(الشورى)، ومن المعلوم أن السور المكية لم يُنزِّل الله تعالى فيها الأحكام الشرعية، التي يتوقف تنفيذها على وجود مجتمع ذي كيان سياسي، وواضحٌ أنه لم يكن للمسلمين في مكة مجتمع مستقل وكيان سياسي، بل كانوا يشكِّلون (جماعة مؤمنة) مستضعفة بما فيهم نبي الله الكريم الذي لم يَنْجُ هو ولا أحد من أصحابه الكرام ﷺ، من الأذى والإضطهاد بيد المجتمع المشرك، الذي كان يدير شؤونه السياسية والإقتصادية والإجتماعية، المَلأُ المترفون المستكبرون من قريش.

نعم إنما تتحدّث هذه الآيات الأربع عن الحالة الشخصية والتعرّض الشخصي للأذى من قبل الكفار، سواء بسبب الدعوة إلى الله تعالى، كما تدل عليه الآية (١٢٥) والتي هي قبل الآيتين (١٢٦ و١٢٧) من (النحل) وهي: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ ثم قال تعالى بعدها مباشرة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النمل].

أو - كان التعرّض للأذى - بأي سبب آخر، كما يدل عليه السياق الذي وردت فيه آيتا سورة (الشورى) حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

ولكن ينبغي التنبّه إلى مسألةٍ مهمة، يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وخلاصة المسألة هي: أن العفو الشخصي عن الإساءة والأذى إنّما يُحبَّذ ويُستحبُّ، إذا كان مُنتِجاً ومُثمِراً للصّلاحِ والخير ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، ولكن إذا كان العفو لا يحصل منه خير وإصلاح، بل يكون سبباً لِتجريء المسيء المعتدي، وازدياد ظُلْمِهِ وبغيه، فهناك لا يكون العفو مُحبَّذاً، بل قد لا يكون جائزاً أصلاً، ما دام بوسع المسلم المعتدى عليه، الردُّ على الإعتداء، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يشير إلى هذه الحقيقة، فعفو يَزيدُ الظالم والباغي ظلماً وبغياً، بسبب طبيعة الظالم اللّئيمة الذي ينطبق عليه قول الشاعر:

واذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإنْ أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

نعم عفو كهذا، عفو في غير محلّه، وتصرُّف غير حكيم.

وبهذا نَصلُ إلى نهاية المطلب الرابع والأخير، والذي يشكّلُ الأصلَ

الرابع من الأصول الشرعية الكلية التي يجب أن يتعامل المسلمون على أساسها مع الناس كافة، سواءً كانوا أفراداً أو جماعة أو مجتمعاً أو دولة، وبإتمام البحث عن موضوع الأصول الشرعية الكلية للتعامل مع الناس، وهو المبحث الخامس والأخير من الفصل الأول، نكون قد أكملنا ما أردنا قوله في الفصل الأول من هذا الكتاب الثاني عشر.

والآن ننتقل بإذن الله وهدايته وتيسيره إلى الفصل الثاني المخصَّص للبحث عن المؤمنين، قسم: (المنعم عليهم من الله تعالى) من الناس.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

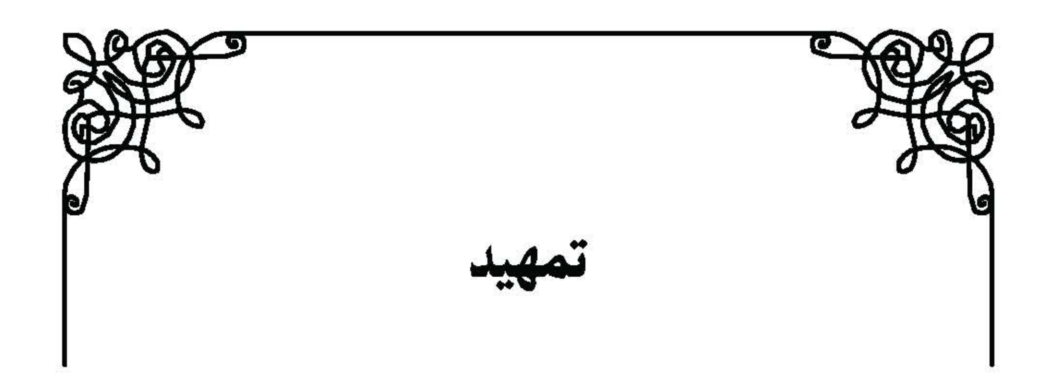




الفصل الثاني

تعريف المؤمنين وأوصافهم
وواجبهم في مجال التعامل بينهم،
أفراداً ومجتمعاً


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
AliBapir / عەلی باپیر
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تمهيد

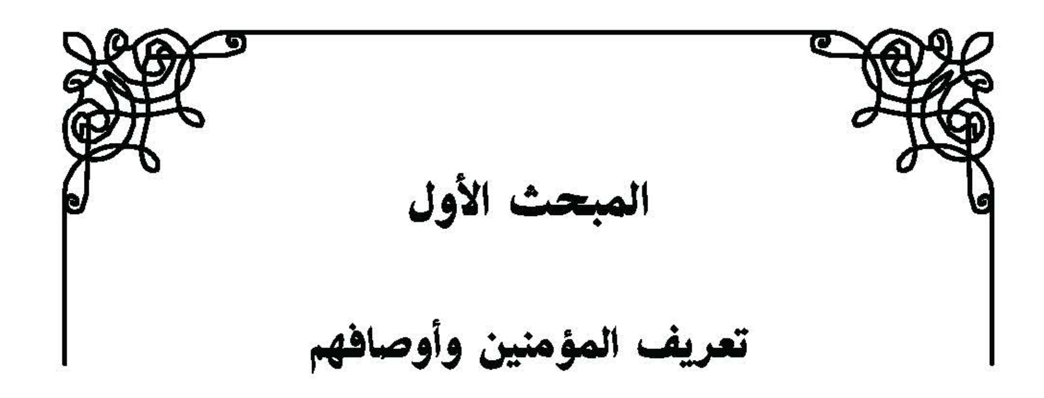
هذا الفصل المخصَّص للبحث عن أهل الإيمان المقصود بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يتكون من مبحثين، في الأول منهما نعرِّف بالمؤمنين من خلال أوصافهم ومواقفهم التي وصفهم الله تعالى بها في محكم كتابه، وفي ثانيهما نبيِّن الموقف الذي يجب على المسلمين اتخاذه بعضهم حيال بعض، والتعامل الشرعي الذي يجب عليهم أن يتعاملوا به فيما بينهم، وهذا هو عنوانا المبحثين:

المبحث الأول: تعريف المؤمنين وأوصافهم.

المبحث الثاني: واجب المؤمنين في مجال التعامل بينهم، أفرادا ومجتمعاً.

ونَبْدَأ بالمبحث الأول بتوفيق الله الكريم:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

تعريف المؤمنين وأوصافهم

هذا المبحث مخصَّصٌ للتعريف بالمؤمنين من خلال أوصافهم التي يُثْمِرُها فيهم إيمانُهم، وهذا يقتضي مِنّا التعريف بالإيمان، وبما يَسْتَلزِمها من الصفات والخصال الرفيعة، ولكن بما أنَّنا قد فصَّلْنا القول في الكتاب الثاني، في تعريف الإيمان والإسلام والمؤمن والمسلم، والصفات والمواقف التي يعرف بها المؤمن والمسلم، والثمار والآثار الدنيوية والأخروية التي يُثمرها الإيمان والإسلام فيه وله بإذن الله الكريم الوهّاب، لذا فلا أرى داعياً لتكرار ما قلناه هناك، ولكن سنتناول الموضوع بصورة أخرى، وذلك بإيراد جُلِّ الآيات المباركات التي وردت في التعريف بأهل الإيمان والإسلام، ولكن لا نقتصر على إيراد الآيات التي نسبت الصفات والأعمال الفاضلة الصالحة إلى المؤمنين والمسلمين - أي الآيات التي عرّفت بأهل الإيمان والإسلام من خلال أوصافهم تحت عنواني الإيمان والإسلام - بل سنضيف إليها الآيات الأخرى، التي عرَّفت بهم تحت عناوين أخرى أيضاً، مثل: (المتقين، العابدين، الأبرار، المحسنين) إذ من المعلوم أن (التقوى والعبادة والبِرّ والإحسان) ليست سوى ثمار الإيمان وآثاره.

ولا شك أن كتاب الله، كما وصفه رسول الله ﷺ **(لا يَخْلَقُ[1] عن كثرة الرَدِّ[2])**، بل كلّما رُدِّد، وجِدَتْ فيه جِدَّةٌ ولذَّةٌ وأَسرارٌ وأنوارٌ.

---

(١) خَلِقَ يَخْلَقُ خَلَقاً، وخَلُقَ يَخْلُقُ خلاقة: بَلِيَ واملاسَّ ولاَنَ. المعجم الوسيط، ص٢٥٢.

(٢) أخرجه الدارمي: ٣٣٣١، وابن أبي شيبة في (المصنّف): ٣٠٠٠٧.

وفي ختام إدراج الآيات المباركات، سأُعلّق عليها باختصار بتوفيق الله مُعَدِّداً تلك الأوصاف والأعمال والمواقف، التي جعلها الله مرآة تتجلّى فيها حقيقة المؤمنين.

ولكن قبل البَدْءِ بإدراج الآيات، أُلفِتُ النظر إلى مسألة قرآنية جديرة بالتدبّر والتأمّل، والتي سبق وأن نبّهنا عليها من قبل أيضاً، وهي:

أَنَّ كتاب الله الحكيم المملوء بالأسرار والأنوار، عندما يريد التعريف بحقيقة مثل: (الإيمان) و(الإسلام) و(الإحسان) و(الصّبر) و(الشكر) و(العبادة) و(التقوى)... الخ.

لا يقوم بتعريفها تعريفاً تجريدياً، كأن يقول مثلاً: بأن الإيمان من شأنه كيْتَ وكَيْت[1]، أو الإسلام أو الإحسان... الخ، بل يعرِّف بالإيمان من خلال الأوصاف والأعمال والمواقف التي يتحلّى بها أهل الإيمان (المؤمنون)، وكذلك عند التعريف بالإسلام، يعرِّف بالمسلمين الحاملين للإسلام من خلال خصالهم وأعمالهم، وهكذا بالنسبة للإحسان والصبر والشكر وغيرها، من الخصال العظيمة المباركة.

وكذلك بالنسبة للتعريف بالكفر والشرك والنفاق والظلم... الخ.

وفي عادة كتاب الله الحكيم هذه، حكمة، وهي:

أَنَّ كتاب الله يتعامل مع مختلف القضايا والمسائل، تعاملاً واقعياً جادّاً، وليس تعاملاً ذهنياً بارداً، ومن الواضح أنه لا يوجد - في عالم الواقع - إيمان أو إسلام أو إحسان أو صبرٌ... الخ، مجرَّدٌ، بل لا وجود للإيمان، إلّا عند وجود المؤمنين، ولا وجود للإسلام، إلّا عند وجود المسلمين، ووجود الإحسان مرهونٌ بوجود المحسنين، ووجود الصَّبر متوقف على وجود الصابرين... الخ، وهكذا بالنسبة للظلم والكفر والشرك والنفاق والإلحاد... الخ.

وأما الإيمان المجرد، أو الإسلام المجرَّد، أو الإحسان أو الصبر أو

(١) كيْت وكَيْت: وتكْسَرُ التاءُ أيضاً، أي كذا وكذا، أنظر: المعجم الوسيط، ص٨٠٦.

الشكر. . . الخ، إنما يوجد فقط، في إطار الذهن والخيال الذي لا نصيب له من الوجود الحيِّ العملي الواقعي، شَرْوى نقير![1].

وإنما نبَّهت على هذه المسألة، دفعاً لإشكالٍ فكري، أو وسوسة شيطانية، مفادهما:

لِماذا لم يعرِّف القرآن القضايا والمسائل المهمة تعريفاً منطقياً، ولم يحدد مدلولات الألفاظ والكلمات التي تنبني عليها أحكام خطيرة، تحديداً دقيقاً لا يحمل أي غموض وإبْهام؟!

والجواب هو ما ذكرناه ونبَّهْنا عليه[2]، ومِمّا يجب ذكره هنا أيضاً هو:

أنّنا نحن البشر أقلُّ شأناً وأضعف قدرة وأدنى مستوىً، من أن نتمكن من معرفة حقائق الأشياء وماهياتها، وأقصد بكلمة الأشياء: معناها العام الذي يشمل الموجودات العينية، والأعمال والتصرّفات والأقوال والأحوال والصِّفات، إذن: فإنْ كنّا أمام درك ماهية الأشياء المخلوقة التي لها وجودٌ ذاتي بهذه المثابة، فكيف أمام درك حقيقة كلام الله الخالق جل جلاله الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله!! وإنَّما خاطبَنَا الرب الحكيم جل شأنه، على قدر عقولنا وأفهامنا وقدراتنا المحدودة وقوانا الإِدراكية النسبية، ولا شكّ أنّ كتاب الله الحكيم حاوٍ على كل الحقائق التي يحتاج البشر إلى معرفتها والإِطلاع عليها، ويتوقف على إدْراكها نجاحهم في هذه الحياة الدنيا الإبتلائية، ولكن أنّى للبشر ذوي القدرات المحدودة النسبية، الإحاطةُ بالمعارف والحقائق الربّانية المطلقة! ولكن مما لا شك فيه أن الإنسان إِنَّما يتمكن من فهم كتاب الله، وفقه

---

(١) (شزوى) الشيء: مِثْلُهُ، وهو لا يملك شزوى نقير: مُعْدِمٌ، المعجم الوسيط، ص٤٨١.

(٢) وهو أن كتاب الله يعرِّف الأشياء على ما هي عليه في الواقع، وليس على أساس الصورة المرتسمة عنها في الذهن والخيال، وبالتالي لا يعرفها تعريفاً ذهنياً (منطقياً).

أسراره ونيل أنواره، بقدر إيمانه بقائله جل شأنه، وعبادته له، وقربه منه، وتقواه منه، هذا شيء مجرَّبٌ لأهل الإيمان، وهو أيضاً جزء من الإبتلاء الذي جعله تعالى حكمة وجود البشر، فكل مَن جاهد في الله أكثر وأخلص له أكثر، هداه الله هداية أكبر، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت]، ولا أقصد بكلامي هذا أن من لم يجاهد في سبيل الله - أي لم يبذلْ جهداً ولم يُتعِبْ نَفْسَه - لا يفهم كتاب الله مطلقاً! وذلك لأن الله تعالى عرَّف كتابه المبين بأنه واضح: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان]، وبأنه ميَّسر وسَهْل للفهم والتذكُّر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، وانَّما قصدي: أن ما يفهمه الناس عموماً من كتاب الله من معانٍ ومفاهيم، ليسَ هو كل ما في كتاب الله من حقائق وأسرار، بل كلَّما تعمَّق الإنسان أكثر في تدبّر كتاب الله، وكلما ازداد إيماناً بالله الكريم وعبادة له وقرباً منه، وكلما ازداد فيه مِمّا يَنْتُجُ عن ذلك من آثار، كالتقوى واليقين والتزكية والصبر والشكر والتوكل والتوبة والإنابة والطمأنينة والرضا، ازداد فهماً وفقهاً لكتاب الله، ورسوخاً في العلم بحقائقه، التي تأبى أن تكشف وجهها الا للبصيرة المنوَّرة بنور الإيمان الحق، والتوحيد الخالص، والعبودية التامة، والعبادة الشاملة الكاملة.

والآن لنتأمل هذه الآيات المباركات التي تعرِّف بنا المؤمنين المسلمين العابدين المتقين الأبرار المحسنين، من خلال أوصافهم الجميلة، وخصالهم الحميدة، ومواقفهم السديدة، وأعمالهم الصالحة، وتصرُّفاتهم الرشيدة:

قال الله تبارك وتعالى واصفاً أهل الإيمان والإسلام والعبادة والتقوى والبرّ والإحسان:

١. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

٢. ﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥)﴾ [البقرة].

٣. ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

٤. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة].

٥. ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران].

٦. ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ . . .﴾ [آل عمران: ١١٠].

٧. ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٣٤) وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٣٥)﴾ [آل عمران].

٨. ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (١) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال].

٩. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

١٠. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

١١. ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد].

١٢. ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟

أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا
تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ
فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ
كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا
تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء].

١٣. ﴿ ۞ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ
ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون].

١٤. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور].

١٥. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ
يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ
لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور].

١٦. ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟
سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا
وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان].

١٧. ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

١٨. ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

١٩. ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى].

٢٠. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات].

٢١. ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي

﴿أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

٢٢. ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

٢٣. ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

الملاحظ أننا اقتصرنا هنا على إيراد الآيات التي تصف المؤمنين، بالأوصاف والآثار الإيمانية التي يُثمِرُها فيهم إيمانُهم في الحياة الدنيا، دون التي تعرِّف بهم من خلال الآثار والثمار التي يثمرها لهم إيمانهم بفضل الله ورحمته في الآخرة، وسبب ذلك هو أننا أردنا التركيز على ما يعرف به المؤمنون في حياتهم هذه، وعنوان المبحث الذي نحن فيه الآن هو: (تعريف المؤمنين وأوصافهم).

والآن إليك الأوصاف والحالات والمواقف التي ذكرتها الآيات المباركة المدرجة أعلاه، كتعريف للمؤمنين المسلمين العابدين المتقين الأبرار المحسنين، وهي مائة وسبعة وثلاثون (١٣٧) وصفاً:

١) في سورة (الفاتحة)، الآيات من (١ إلى ٧)، الأوصاف: (١ إلى ١٠):

١. **بَدْؤُ كلِّ قولٍ أو عملٍ ذي بال، باسم الله سبحانه وتعالى:** ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ .

٢. **تقديم الحمد لله تبارك وتعالى وحصره فيه:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

٣. **الثناء على الله تعالى بأبرز صفاته وأمسّها بمخلوقاته، وهي الرحمة:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

٤. **تمجيد الله تعالى بإعلان مالكيته المطلقة في يوم الجزاء التي لا تشوبها مالكية أحد من خلقه، حتى المالكية الصورية الجزئية التي أعطاهم الله إياها في الدنيا، ابتلاءً منه لهم بها:** ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

٥. **إعلان العبودية الإختيارية والعبادة الخالصة له:** ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾.

٦. **إعلان الإستعانة به وحده والدعاء والطلب منه وحده:** ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

٧. **طلب الهداية منه إلى طريقه المستقيم ومنهجه القويم، المتمثل في كتابه الحكيم:** ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.

٨. **وهو طريق المنعم عليهم من الله تعالى:** ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقد بيّن سبحانه في الآية (٦٩) من (النساء) المنعم عليهم من الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ والجامع المشترك بين هؤلاء الأصناف الأربعة هو الإيمان، إذن: فالإيمان هو النعمة المطلقة التي إذا ذكرت (النعمة) بإطلاق، لا يتبادَرُ إلى الذهن إلّا هو.

٩ و١٠. **التعوّذ بالله من طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالّين:** ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والظاهر أن المقصود بـ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ هو كل من عرف الحق وجحده ولم يُقِرَّ بِهِ ولم يتّبِعْهُ، كاليهود، وأن المقصود بـ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هو كل من ضلّ عن معرفة الحق واتباعه، كالنّصارى.

وإنما اعتبرنا ما جاء في سورة الفاتحة من أوصاف المؤمنين، لأن

سورة الفاتحة قالها سبحانه وتعالى على لسان عباده المؤمنين وجعلها - عن طريق رسوله الكريم ﷺ - أعظم أركان الصلاة.

والصلاة أعظم العبادات على الإطلاق وهي عمود التديّن، وهي أول ثمار الإيمان وأعظم آثاره وظِلّه الذي لا ينفك عنه أبداً، ما دام الإيمانُ إيماناً، كما قال (عَبْدِ الله بْنِ شَقِيق) رَحِمَهُ الله وَهُوَ من علماء جيل التابعين:

(كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ورضي الله عنهم لا يَرَوْنَ شَيْئاً مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ، غَيْرَ الصَّلاَةِ) (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٢٦٢١) وَصَحَّحَهُ الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) رقم: (٥٦٥).

٢) في (البقرة)، الآيات: (١ إلى ٤)، الأوصاف: (١١ إلى ١٧):

١١. **الإهتداء بكتاب الله الذي لا ريب فيه:** ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، والدليل على أن المقصود بالمتقين هنا هم المؤمنون، هو أن الله تعالى عرّفهم بصفات لا يصبح المرءُ مؤمناً إلّا بها كما سنذكرها بعد قليل، ومعلوم أن التقوى درجات، فمن التقوى ما هو ضروري ليصبح المرء مؤمناً، وهو الإتقاء من الإلحاد والكفر والشرك والنفاق، ومنه ما هو ضروري ليصبح صالحاً، وهو الإتقاء من الكبائر - أي ترك الواجبات وارتكاب المحرّمات، وذلك لأن ارتكاب المحرّمات ليس وحده كبيرة، بل ترك الواجبات أيضاً كبيرة من الآثام والذنوب -، ومن التقوى ما هو ضروري ليصبح المرء أكثر قرباً من الله تعالى في درجات الولاية، وهو الإتقاء من ترك المندوبات، واقتراب المكروهات، والإسراف في المباحات.

١٢. **الإيمان بالغيب (أي بما غاب من الحواس وهذا يشمل أركان الإيمان كلّها):** ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ والإيمان بالغيب الذي يدل عليه العقل وتَدُلُّ عليه الآثار من عالم الشهادة، ويدل عليه الوحي المعصوم، إرتقاءٌ في العقل البشري، كما أن حصر النظر على المحسوسات وعالم الشهادة التي لا يمكن تفسير وجودها الا بالإيمان بالغيب، بذريعة عدم الغيب محسوساً ملموساً، إنتكاسةٌ للعقل البشري وارتكاس في الجهل والسَّفَه ورجوع قهقريٌّ إلى العقل الطفولي الذي لا يقتنع الا باللمس والرؤية.

١٣. **إقامة الصلاة:** ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامة الصلاة تعني توفية أركانها الباطنة والظاهرة حقّها، كما أن الكائن الحي يكون في أتم حالاته الجسمية ظهوراً عند وقوفه وقيامه، بخلاف حالات الإنكباب على الوجه، أو الإنبطاح على البطن، أو الإستلقاء على الظهر، فشبّه الله تعالى تأدية الصلاة بصورة كاملة بحالة الوقوف على القدمين، كما شبّه في سورة الملك الآية (٢٢) الكفر والإيمان بحالتي المَشْي مُكبّاً على الوجه، والمشي سويّاً قائماً على صراط مستقيم: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾.

١٤. **الإنفاق مما رزقهم الله:** ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهذا مجمل سيأتي شَرْحُهُ وتفصيله في آيات أخرى، من حيث من ينفق عليهم وكيفية الإنفاق وحالاته وأوقاته.

١٥ و١٦. **الإيمان بما أنزل على النبي الخاتم، وبما أنزل على الأنبياء من قبله، صلوات الله وسلامه على الجميع:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ..﴾.

١٧. **الإيمان اليقيني الثابت بالآخرة (مقدماتها وأحداثها ونتائجها)** ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين هو الإيمان المبني على العلم التام والإعتقاد الجازم الذي لا تزلزل فيه، من (يَقَنَ الماءُ) إذا ثبت وركَدَ ولم يتحرك[1]، وكيفية الإيمان باليوم الآخر: مقدماتٍ وأحداثاً ونتائج، قد فصّلنا فيه القول في الفصل السادس من الباب الثاني، (أي الكتاب الثامن) والحمد لله ذي الفضل العظيم.

٣) **في (البقرة)، الآية: (١٧٧)، الأوصاف: (١٨ إلى ٣١) مع حذف المكرّر:**

١٨ و١٩ و٢٠. **الإيمان بالله تعالى والملائكة والنبيّين:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ

---

(١) المعجم الوسيط: ص١٠٦٦.

﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وانما حذفنا الإيمان باليوم الآخر والكتاب لورود ذكرهما سابقاً، وقد بيَّنا كيفية الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبيين، في الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس.

٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦. **الإنفاق على الأقرباء واليتامى والمساكين وابن السبيل (أي المسافر المنقطع عن أهله) والسائلين والأرقاء:** ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يعني على الرغم من الحُبِّ الزائد للمنفق لماله، بسبب الغَلاء وارتفاع الأسعار، أو انتشار المجاعة والفقر، أو غيرها من الحالات التي يحس فيها الإنسان بحاجة أشد إلى المال!

٢٧. **إعطاء الزكاة:** ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وانما حذفنا إقامة الصلاة لورود ذكرها في السابق، ولم نجعل إعطاء الزكاة تكراراً للإنفاق، وكذلك مساعدة الأصناف الستة الذين سبق ذكرهم، لأن هذا تفصيل لما أُجمِلَ في أول سورة [البقرة]، فليس تكراراً.

٢٨. **الوفاء بالعهد والوعد مع الناس:** ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾.

٢٩ و٣٠ و٣١. **الصَّبرُ في حالات الفقر، والمرض وسائر المصائب، وفي القتال ومواجهة الأعداء في الميدان:** ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾.

٤) في (البقرة)، الآية: (٢٨٥)، الأوصاف: (٣٢ إلى ٣٤) ما عدا المكرّر:

٣٢. **عدم التفريق بين رسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام في الإيمان بهم:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ..﴾ وحَذفنا ذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، لسبقه فيما مضى.

٣٣ و٣٤. **إعلان استعداد السمع والطاعة المطلقة لله تعالى ودينه، وطلب المغفرة منه:** ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ولم نحسب جملة ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ من الأوصاف، لأنها تعبير عن الإيمان باليوم الآخر ولقاء الله تعالى، وقد سبق ذِكرهُ.

٥) في (آل عمران)، الآيتان: (١٦ و١٧)، الأوصاف: (٣٥ إلى ٣٩) ما عدا المكرّر:

٣٥ و٣٦ و٣٧ و٣٨ و٣٩. **إعلان الإيمان، والإستعاذة بالله من عذاب النار، والصدق، والقنوت، والإستغفار وقت السحر:** ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ وحَذفنا طلب المغفرة والصبر لذكرهما في السابق، ولم نحذف الإستغفار بالأسحار، لأن الإستغفار بالأسحار استغفار مخصوص، وهو استغفار المقيمين لصلاة الليل، ثم قبل طلوع الفجر يستغفرون الله تعالى، فكأنهم ارتكبوا الذنوب طوال الليل الذي أحيوه بالطاعة والذكر! وذلك لاستشعارهم عظم حق الله تعالى على عباده وعلو مقامه الذي تقصر الطاعات كلها عن أن تليق به، لولا رحمته وكرمه وعفوه.

٦) في (آل عمران)، الآية: (١١٠)، الوصفان: (٤٠ و٤١) ما عدا المكرر:

٤٠ و٤١. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله تعالى مذكور في السابق.

٧) في (آل عمران): الآيات: (١٣٣ و١٣٤ و١٣٥)، الأوصاف: (٤٢ إلى ٤٧):

٤٢ و٤٣ و٤٤ و٤٥ و٤٦ و٤٧. **الإنفاق في السرّاء والضرّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وتذكر الله تعالى، واستغفاره عند ارتكاب فاحشة أو ظلم النفس، وعدم الإصرار على المعاصي:** ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

﴿رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

٨) في (الأنفال)، الآيات: (١ إلى ٤)، الأوصاف: (٤٨ إلى ٥٤) ما عدا المكرر:

٤٨ و٤٩ و٥٠ و٥١. **تقوى الله تعالى، وإصلاح ذات البين، وإطاعة الله، وإطاعة الرسول ﷺ**: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥٢ و٥٣ و٥٤. **وَجَلُ القلب عند ذكر الله تعالى، وازدياد الإيمان عند سماع آيات الله، والتوكل على الله**: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

ووجل القلب هو ارتجافه واهتزازه خوفاً من الله، والذي يُحدِثُ القشعريرة في سائر البدن[1]. وهي حالة لا إرادية في الأغلب، ولكن يمكن ضبطها إلّا استثناءً.

٩) في (التوبة)، الآية: (٧١)، الوصف: (٥٥) واستثناء المكرر.

(٥٥) الموالاة مع المؤمنين والمؤمنات: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ..﴾.

وسنتحدث عن الموالاة بين أهل الإيمان في المبحث الثاني من هذا الفصل بإذن الله.

١٠) في (التوبة)، الآيتان: (١١١ و١١٢)، الأوصاف: (٥٦ إلى ٦٢) مع استثناء المكرر:

---

(١) المعجم الوسيط، ص١٠١٥، ١٠١٦.

٥٦ و٥٧. بيع النفس والمال لله تعالى في مقابل جنته ورضوانه، والقتال في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾، وعلامة أن الإنسان فعلاً قد باع نفسه وما يملك لله تعالى، هي استعداده لبذل نفسه وماله في سبيل الله فعلا، ولهذا ذكر الله الحكيم القتال في سبيل الله بعد ذكره اشتراءه الأنفس والأموال من المؤمنين، ولكن الذي يضِنُّ ويبخل بنفسه وماله في سبيل الله، فهو غير صادق في بيعه، وإلّا فإن البائع لا يماطل بتأخير تسليم مبيعه للمشتري، بعد اتمام الصفقة واتفاق الطرفين!

٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢. التوبة، والسياحة، والركوع، والسجود، وحفظ حدود الله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾، وقد فسر بعضُ العلماء (السائحون) هنا بالصائمين وبعضهم مالوا إلى أن المقصود به: الذين يقومون بالسياحة والسير في ملكوت الله تعالى، سواءً سيراً بدنياً وعقلياً، أم سيراً عقلياً وفكرياً فحسب، وأنا أميل إلى هذا الرأي الثاني[1]، وقد أمر الله تعالى بالسير في الأرض، والتأمل في بدائع الخلق وفي آثار الماضين في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج].

ولأهميَّةِ الركوع والسجود، جُعلا وصفين مستقلّين من أوصاف المؤمنين، مع اشتمال الصلاة عليهما، إذ هما من أعظم أركانها، ولولا أهميتهما الخاصة، لما أفردهما الله تعالى بالذكر هنا، وفي مواضع أخرى سواء مقترنين أو منفردين.

وحفظ حدود الله تعبير شامل يشمل كل حقائق وأحكام دين الله تعالى المعرفية والإيمانية والشعائرية والشرائعية، التي يجب أن تصان ولا تنتهك.

---

(١) أنظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص٣٥٣ .

١١) من (الرعد)، الآيات: (١٩ إلى ٢٢)، الأوصاف: (٦٣ إلى ٧١) بعد استثناء المكرر:

٦٣. **العلم بحقانية كتاب الله المنزل:** ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ..﴾.

وكلما ازداد الإنسان تدبراً في آيات كتاب الله، ازداد علماً بحقانية كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٦٤ و٦٥. **الوفاء بعهد الله، والإستمرار عليه وعدم نقضه:** ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾، والوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق، ليسا شيئاً واحداً، كما يبدو للنظر السطحي، وذلك لأن المرء قد يفي بعهد الله مدة، ولكن ينقضه فيما بعد، إذن: فهناك شيئان اثنان: الوفاء بالعهد مع الله، والإستمرار عليه وعدم نَقضِه أبداً.

٦٦ و٦٧ و٦٨. **وصلُ ما أمر الله بوصله، والخشية من الله تعالى، والخوف من سوء الحساب:** ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

والمقصود بوصل ما أمر الله به أن يوصل - على ما أرى - هو الإهتمام بكل العلاقات الإجتماعية التي أمر بها الشرعُ، والحرص عليها، وخصوصاً بر الوالدين وصلة الأرحام، وسوء الحساب، هو سوء المحاسبة الذي يلقاه العبد على سوء أعماله، والمحاسبة بالنظر إلى ارتباطها بالله تعالى وعَدْله المطلق، في غاية الحسن ولا سوء فيه، ولكن بالنظر إلى ما يصيب العَبْدَ من العقاب والعذاب، فهو في غاية السوء بالنسبة له، وهل هناك ما هو أسوأ وأشدُّ وأَفْظَعُ من العقاب والعذاب الأخروي؟!

٦٩ و٧٠ و٧١. **الصبر ابتغاء وجه الله، والإنفاق سِرّاً وعلناً، ودفع السيئة بالحسنة:** ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ..﴾.

وإنما أعدنا ذكر الصَّبر والإنفاق هنا، مع أنه تقدم ذكرهما، لأن الله

تعالى ذكر معهما وصفاً زائداً عمّا سبق، فذكر مع الصبر وصف ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: إنَّ صبرهم على ما يكرهون، ليس لشيء سوى طلب رؤية وجهه الكريم، أو المقصود بالوجه هنا هو رضاه سبحانه، لأن الراضي يُري وَجهَهُ المَرْضِيَّ، ولكن الغاضِبَ يُعْرِضُ بوجهه عن المغضوب عليه، وكذلك ذكر مع الإنفاق حالتي الإسرار والإعلان، لأن الإنفاق قد يكونُ الخَيْر والصلاح في إخفائِه، وقد يكون في إعلانه، فأيهما حقق الخير والمصلحة، عمل به المنفق وتصرَّف في عمله بحكمة ولَباقَةٍ وكِياسَةٍ.

ودفع السيئة بالحسنة هو أن يقابل المرء إساءة المسيئين بالإحسان إليهم، سواء بالصّبر عليهم وعدم مقابلة إساءتهم بمثلها، أو بالعفو عنهم، وبالنصح لهم، أو بمتاركتهم، أو بغير ذلك من المواقف التي كلها تعتبر خصالاً حسنة تُدْفَعُ بها السيئة.

١٢) في سورة (الإسراء)، الآيات: (٢٢ إلى ٣٩) الأوصاف: (٧٢ إلى ٩٢) ما عدا المكرّر:

٧٢. عدم اتخاذ إله آخر مع الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ..﴾.

٧٣. عدم تقديم شيء من العبادة لغير الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ..﴾، وقد يظن ظان أن بين الآيتين تكراراً، ولكن ليس كما ظن، لأن اتخاذ إله غير الله واعتباره إلهاً والجهر بأُلُوهِيَّتِهِ شيء، وتقديم شيء من أعمال العبادة المخصوصة بالله تعالى لغيره، من غير ادِّعاءِ ألوهيته، شيء آخر، وإنْ كان كل منهما شركاً، ولكن الثاني أخف من الأول، وقد يَقَدِّمُ بعضُ الناس بَعْضَ مظاهر العبادة لغير الله من الأحياء والأموات والرؤساء الروحيين والسياسيين جهلاً، وهذا غير من يجهر بألوهية غير الله.

وأيضاً ليس بين هذين الوصفين، وإعلان العبودية لله والإستعانة به وحده، تماثلاً وتكراراً، كما هو واضح.

٧٤ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ و٧٩. **الإحسان مع الوالدين، وعدم التفوّه ولو بكلمة مؤذية خاصة عند كبرهما، وعدم رفع الصوت عليهما زجراً،**

والكلام معهما باحترام وإكرام، والتحنّن عليهما، والدعاء لهما بالرحمة: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ إشارة إلى أنه على المرء أن يخدم أبويه ويستمر في خدمته لهما ومصاحبته لهما إلى حد الشيخوخة، وفي تلك الحالة يزيد في برّه بهما وإكرامه لهما - أو أحدهما الذي بقي حياً - والصبر على أذاهما، وعدم النطق ولو بكلمة بسيطة يكون فيها أذىً لهما.

٨٠. عدم التبذير: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، والتبذير غير الإسراف، إذ الإسراف عبارة عن صرف المال زيادة عن حد الحاجة، ولكن التبذير عبارة عن صرف المال من غير فائدةٍ وجدوى.

٨١. عند عدم وجدان مال ينفقه على ذوي القربى والمسكين وابن السبيل، التحدث معهم بما يُفرحهم ووعده إيّاهم بالإعطاء عند حصول المال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

٨٢ و٨٣. تجنّب البُخلِ والإسراف في مجال التصرف في المال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

نعم إنَّ البخل والإمساك بالمال، عندما يتطلب الوضع الإنفاق والبذل، يجعل صاحِبَهُ ملوماً ومعاتباً عليه عند الناس، كما أن الإسراف والتبذير يجعله مغموماً مُتعَباً بسبب الإفلاس!

٨٤. عدم قَتل الأولاد خشية الفقر والحاجة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾.

٨٥. عدم الإقتراب من الزّنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ

سَبِيلًا ﴿٣٢﴾، وعدم الإقتراب من الزّنى يقتضي تجنّب مقدماته من نظر وخلوة... الخ.

٨٦ و٨٧. **عدم قتل النفس المحرّم قتلها إلا بالحق الشرعي، وعدم مجاوزة الحدّ عند الإقتصاص الشرعي:** ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

٨٨. **عدم الإقتراب من مال اليتيم الا بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأصلحها بالنّسبة لمال اليتيم، إلى أن يبلغ، فعند ذاك تَجوزُ المعاملة والمتاجرة مع اليتيم في حدود الشرع:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ..﴾.

٨٩ و٩٠. **إيفاء الكيل، والوزن بميزان عدلٍ صحيح:** ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾، أي: إنَّ إيفاء الكيل والوزن بالميزان الدقيق الصحيح، خيرٌ لصاحبه وللناس في الدنيا، وأحسن عاقبة للجميع في الدنيا والآخرة، وكلمة التأويل في القرآن لم تأت إلّا بمعنى العاقبة وما يؤول إليه مصير شيءٍ ما.

٩١. **عدم اتِّباع الإنسان ما لا علم له به:** ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾ ولا شك أنَّ اتباع الجهل وابتناءَ المواقف على أساس الجهل، له أوخم العواقب، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمع.

٩٢. **دم المشي في الأرض مُتبختراً مختالاً:** ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

والملاحظ أنَّ الله تبارك وتعالى بدأ ذكر هذه الأوصاف الجميلة بالتوحيد لله تعالى، وعدم الإشراك به في أُلوهيته، وختمها به، وهذا يدل على أن التوحيد - أي: اتخاذ الله تعالى رباً وإلهاً واحداً وعدم الشرك به - هو أساس الفضائل كلِّها، كما أن الشرك والكفر هو أساس الرذائل كلها، وذلك لأن الخير والصلاح والبركة في الدنيا والآخرة للعبد، في قُرْبِهِ من الله تعالى خالقه وربّه ومالكه ووليّه وإلهه، وبخلافه، فإن الشر والفساد والهلكة

في بعده عنه، والتوحيد هو قمة القرب من الله تعالى، كما أن الشرك هو د كُ البعد عنه، تبارك وتعالى.

والملاحظ أن الله قال في بداية الآيات وعند النهي عن الشرك: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ولكن في ختام الآيات المذكورة وعند النهي عن الشرك أيضاً، قال: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ وحكمة الإختلاف في الآيتين - كما يبدو لي والله هو العليم الحكيم - هي أَنَّ الله تعالى في بداية الآيات يصور للمشرك عاقبة شركه في الدنيا، والتي تتمثل في القعود وعدم القيام والنهوض، وفي كونه مُذمَّماً من قِبَلِ الناس (أي: العقلاء منهم)، وكونه مخذولاً من قبل شركائهِ، وآلهته المُزَيّفين، ولكن في نهاية الآيات، يصور عاقبة شركه في الآخرة، بإلقائهِ في جهنّم حال كونه ملوماً من قبل الله تبارك وتعالى والملائكة والنبيين وأهل الإيمان، ومَنهَزِماً ومندحِراً في ذلك اليوم العصيب!

١٣) في سورة (المؤمنون)، الآيات: (١ إلى ١١)، الأوصاف: (٩٣ إلى ٩٨) ما عدا المكرَّر:

٩٣ و٩٤ و٩٥ و٩٦. **الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللّغو، وتزكية النفس، وحفظ الفرج إلّا عن الحلال:** ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ...﴾.

وقد وضّحنا في السابق - في الكتاب التاسع - معاني الخشوع، واللغو، والتزكية، فلا داعي لإعادتها هنا.

٩٧ و٩٨. **حفظ الأمانة، والمحافظة على الصلاة:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾.

وإذا كان الخشوع يعبِّر عن الجانب الباطني للصلاة، فالمحافظة عليها تشمل باطنها وظاهرها وأداءَها في أوقاتها وبشروطها.

١٤) في سورة (النور)، الآية: (٥١)، الوصف: (٩٩):

٩٩. الإستعداد المطلق لسماع الحكم الشرعي، ثم الإلتزام به وتنفيذه عندما يُدعى إليه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ . .﴾.

١٥) في سورة (النور، الآية: (٦٢)، الوصف: (١٠٠):

١٠٠. عدم الإبتعاد والذهاب هنا وهناك، عند حدوث الأمور المهمة وفي الملمّات، إلا بعد أخذ الإذن من القيادة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ . .﴾.

وجليّ أنَّ كل الأحكام المتعلقة برسول الله ﷺ بصفته إمام المسلمين ورئيس الدولة، تتعلق أيضاً بمن يَنُوبُ عنه، إلّا ما خُصَّتْ به بدليل واضح.

١٦) في سورة (الفرقان)، الآيات: (٦٣ إلى ٧٦)، الأوصاف: (١٠١ إلى ١١٠) مع استثناء المكرر ذكرها:

١٠١ و١٠٢. المشي على الأرض هوناً، ومتاركة الجاهلين الذين يجهلون عليهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

بما أننا قد تحدثنا عن هذه الأوصاف التي يعرِّف الله الحكيم بها عباده المخصوصين في السابق، فنكتفي ههنا بسردها فقط.

١٠٣. تمضية الليل بالصلاة والذكر ساجداً وقائماً: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

١٠٤. الإنفاق بتَوسُّطٍ وحكمة وعدم التقتير والتبذير: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

١٠٥ و١٠٦. عدم مشاركة مجالس اللَّغو والإثم (أو عدم شهادة الزّور)، والمرور بالمجالس بوقار واحترام: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

١٠٧ و١٠٨. التعامل مع آيات الله المقروءة بآذانٍ سامعة، ومع آياته

المنظورة بأعين مفتوحة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

١٠٩ و١١٠. الدعاء للأهل (الزوجة والأولاد) بالخير والصلاح الذي يكون سبب السرور في الدنيا والآخرة، وطلب الهداية والتوفيق من الله تعالى ليُنعِمَ عليه بنعمة الإمامة لأهل التقوى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

١٧) في سورة (الأحزاب) الآية: (٣٥) الأوصاف: (١١١ إلى ١١٥)، ما عدا المكرّر:

١١١ و١١٢ و١١٣ و١١٤ و١١٥. الإستسلام لله تعالى، والخشوع، والتصدُّق، والصيام، والذكر الكثير لله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

١٨) في سورة (الأحزاب) الآية: (٣٦)، الوصف: (١١٦):

١١٦. التسليم لقضاء الله ورسوله ﷺ وعدم إعطاءِ النفس حق الخيار أمام حكم الشرع، بل القبول والرِّضا التام والإلتزام: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وقد أكّد كتابُ الله الحكيم على هذه القضية - قضية الإلتزام بالحكم الشرعي عن قناعة ورغبة - في أكثر من موضع، لما لها من أهمية بالغة، ولما لها من الإرتباط المباشر الوثيق برضى المسلم بربوبية الله تعالى وأُلوهيته وحاكميته وولايته، كما فصّلنا القول في ذلك في الكتاب الثالث، ونُذَكر هنا بهذه الآية المباركة في سورة النساء، والتي نزلت في أناس رفضوا الإحتكام إلى رسول الله ﷺ وشريعة الله ﷻ، في حادثة مشهورة أشرنا إليها في أكثر من موضع: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، حيث أقسم

المولى تبارك اسمه بربوبيته، أن أولئك الرافضين لحكم الشرع والإحتكام إلى رسول الله ﷺ - أو من ينوب عنه في تنفيذ شريعة الله - لا يعتبرون مؤمنين، حتى يحققوا في أنفسهم ثلاثة شروط:

أ - تحكيم رسول الله ﷺ - أي شريعة الله - في حَل ما تنازعوا فيه.

ب - عدم استشعار الضيق والحَرجَ، بسبب الحكم الشرعي الصادر، وإنْ كان عليهم.

ج - الإستسلام التام الشامل للظاهر والباطن والعقل والقلب، للحكم الشرعي.

١٩) في سورة (الشورى) الآيات: (٣٦ إلى ٤٠)، الأوصاف: (١١٧ إلى ١٢٤) ما عدا المكرّر:

١١٧ و١١٨ و١١٩. **اجتناب كبائر الإثم، والفواحش، وسعة الصدر والمغفرة عند الغضب:** ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾، والظاهر أن كبائر الإثم، هي كل الذنوب الكبائر، التي جاءت عليها عقوبة دنيوية أو وعيد أخروي، والفواحش هي المعاصي المرتبطة بالقوة الجنسية والشهوانية، وفيها الكبائر، مثل: الزنى واللواط والسِّحاق، والصغائر، مثل: النظر وما يشبهه.

وإنما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ولم يقل (ولا يغضبون)، لأن الله تعالى وضع القوة الغضبية في الإنسان لتحقيق مصلحة الدفاع عن النفس، إذن: فعدم الغضب ليس ممدوحاً، وقد أحسن من قال: (مَنْ استُغْضِبَ ولم يغضَبْ فهو حمارٌ)، ولكن الممدوح هو عدم التمادي في الغضب وضبط النفس، وعدم الإستجابة لداعي الغضب إلّا عند الضرورة القصوى.

١٢٠ و١٢١. **الإستجابة لطاعة الله وتنفيذ أحكام دينه في كل الحالات وكافة المجالات، وإدارة الأمور على أساس الشورى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ..﴾.

وإنما فسَّرنا جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بالإستجابة لطاعة الله تعالى في كلِّ الحالات وكافَّة المجالات، لأن الله تبارك وتعالى أطلق القول، ولم يقيِّد الإستجابة له بشيء من الأشياء، لذا فهي عامة شاملة لكل الحالات وجميع مجالات الحياة الشخصية والجماعية.

وقد تحدَّثنا عن الشورى والمشاورة في أكثر من موضع في السابق.

١٢٢ و١٢٣ و١٢٤. الإنتصار والإنتقام عند التعرُّض للبغي والإعتداء، ومقابلة الإعتداء بمثله، وعدم مجاوزة الحدّ عند الردّ على الإعتداء والأخذ بالثأر، أو العفو إذا كان سبباً في الإصلاح: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقد وضَّحنا هذه المسألة في الفصل الأول من هذا الكتاب في المبحث الخامس منه.

٢٠) في سورة (الحجرات) الآية: (١٥)، الوصف: (١٢٥) مع استثناءِ المكرر:

١٢٥. الإيمان اليقيني الجازم الثابت بالله تعالى ورسوله البعيد عن التردّد والإرتياب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وإنما ذكر سبحانه وتعالى الجهاد في سبيل الله بالنَّفيس والنفس بعد ذكر الإيمان البعيد عن الرِّيب، كي يُعطينا مِعياراً للإيمان الموصوف، وكي لا يَخْدعَ بعضُ الناس أَنفُسَهم بالأمْنيات الكاذبة! فالمؤمن الثابت الصادق في إيمانه وإسلامه، لا يَضِنُّ بماله ونفسه في سبيل الله، بل يبذلهما بفرح وسماحةِ نفسٍ وسَخاءٍ.

٢١) في سورة (الذاريات)، الآيات: (١٥ إلى ١٩)، الوصفان: (١٢٦ و١٢٧)، بعد استثناء المكرر:

١٢٦ و١٢٧. **إحياء الليل بالعبادة ونوم قليل فيه، وإعطاءُ المال للمحروم:** ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ... وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

وَقَد تقدَّم إعطاء المال للسائل في الآية (١٧٧) من (البقرة)، ولكن المحروم غير السائل، ولهذا لم نعتبره تكراراً، والدليل على أن المحروم غير السائل، هو اقتران ذكره بالسائل هنا، والمقصود بالمحروم هو المحتاج الذي يستحي من سؤال الناس ومَد اليد إلى الناس، فيُحْرَمُ بسبب حيائِهِ وعدم تعرُّضه للناس، من مساعدتهم، وأظن أن مساعدة المحروم، والتي تحتاج إلى الفطنة والكياسة والحكمة لاكتشافه، أعظم أجراً وأكثر فائدة من غيره الذي قد يسأل من غير أن تكون به حاجة.

٢٢) في سورة (المجادلة)، الآية: (٢٢)، الوصف: (١٢٨):

١٢٨. **عدم محبة أعداء الله ورسوله ﷺ، وإنْ كان أباً أو ابناً أو أخاً أو عشيرةً:** ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ..﴾.

والمحادّة هي المعاداة، لأن كل من يعادي غيره، يكون في حَدٍّ غير حدّه، وهذا في المعنى مثل المَشاقَّة، لأن الشقاق أيضاً هو أن يأخذ كل من الطرفين شِقاً غير شِقِّ صاحبه.

٢٣) في سورة (حشر) الآيات: (٨ و٩ و١٠) الأوصاف: (١٢٩ إلى ١٣٧):

١٢٩ و١٣٠ و١٣١ و١٣٢. **الهجرة في سبيل الله، وترك الديار والأموال، وطلب فضل الله رضوانه، ونصر الله تعالى ورسوله (أي نصر دينهما):** ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

١٣٣ و١٣٤ و١٣٥. **محبَّة المهاجرين وإِيوائهم ومناصرتهم، وعدم**

التطلع إلى بَعْض ما يُعْطَون من مال كمساعدة لهم، عوضاً عما فقدوه وتركوه من الديار والأموال، والإيثار مع الحاجة الشديدة: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..﴾.

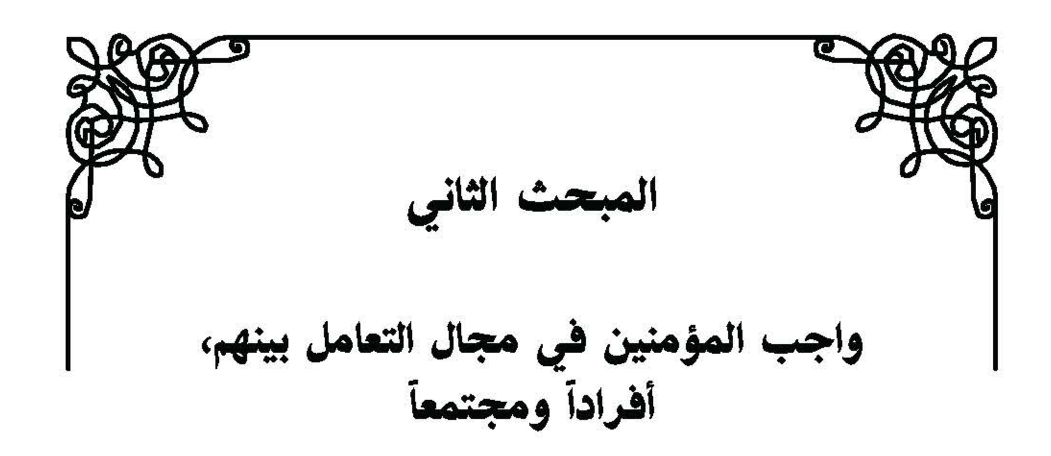
١٣٦ و١٣٧. **الدعاء بالمغفرة لمن سبق من أهل الإيمان، وطلب نقاء القلب وطهارته مع المؤمنين من الله تعالى:** ﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

إذن: فهذه مائة وسبعة وثلاثون وصفاً، مِمّا وصف الله تعالى بها عباده المؤمنين المسلمين المتقين الأبرار المحسنين في كتابه الحكيم، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتصفين بها، آمين.

ومعلوم أن المؤمنين إنَّما يتصفون بهذه الأوصاف الحميدة، ويتحلَّوْنَ بهذه الخصال الرفيعة، بمقدار رسوخ إيمانهم وكمال عبوديتهم لله تعالى، وبحسب درجة تقواهم، وبإمكان المسلم أن يجعل هذه الأوصاف مرآةً لنفسه، يراها فيها، ومعياراً لإيمانه، يزنه به، ويستجلي به حقيقة عبادته لله تعالى.

وبهذا نختم هذا المبحث الأول من الفصل الثاني، وننتقل إلى المبحث الثاني منه بفضل الله وتوفيقه.





المبحث الثاني

واجب المؤمنين في مجال التعامل بينهم، أفراداً ومجتمعاً

وللإطلاع على الموقف الصحيح الذي يجب على أهل الإيمان اتخاذه بعضهم من بعض، والتعامل الشرعي الذي يلزمهم التعامل وفقه بعضهم مع بعض، ما علينا إلّا التأمل في هذه الآيات المباركات من كتاب الله الكريم الذي أنزله سبحانه وتعالى تبياناً لكلّ شيء:

١. ﴿...إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

٢. ﴿...وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

٤. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

٥. ﴿...فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

٦. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

٧. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

٨. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

٩. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

١٠. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال].

١١. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

١٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء].

١٣. ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة].

١٤. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران].

١٥. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة].

١٦. ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة].

١٧. ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء].

١٨. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ

أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

١٩. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

٢٠. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة].

٢١. ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة].

٢٢. ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

٢٣. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ... ﴿٤﴾﴾، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

* * *

وبعد تدبّر هذه الآيات البيّنات، تبدّت لي فيها هذه القواعد الثلاث، التي أرى أنها تمُثّل أساس التعامل الشرعي، الذي يجب أن يتعامل المؤمنون وفقه فيما بينهم، وهي:

الأولى: تآلف القلوب بالإيمان، والأُخُوة، والوحدة.

الثانية: تولّي المؤمنين بعضهم بَعْضاً، وتجريد الولاءِ لأهل الإيمان.

الثالثة: تجنُّب تولّي الكافرين ووجوب البراءَة منهم.

وقد أخذنا هذه القواعد الثلاث من الآيات المباركة المدرجة بالشكل الآتي:

أما القاعدة الأولى، فمن الآيات رقم (١ إلى ٧) حسب ترقيم التسلسل الذي رتّبنا عليه الآيات هنا، وقد أدرجت تحت بعض الأرقام، أكثر من آية كريمة.

والقاعدة الثانية، من الآيات رقم (٨ إلى ١٤).

والثالثة، من الآيات رقم (١٥ إلى ٢٣)، لذا فقد قسمنا الآيات إلى

ثلاث مجموعات، وأخذنا كلّ قاعدة من القواعد الثلاث من إحداها.

والآن لنلقي أنوار تلك الآيات المباركة على تلك القواعد، كل منها في مطلب، ثم نُلَخصُ كلَّ ما نذكره في المطالب الثلاثة، في مطلب رابعٍ أخير، ونبدأ بالقاعدة الأولى:





المطلب الأول:
القاعدة الأولى
تآلف القلوب بالإيمان، والأُخوّة، والوحدة

هذه القاعدة الأولى تتكون من ثلاثة أضلع:

الضلعُ الأول: تآلف القلوب بالإيمان.

الضلع الثاني: الأخوّة.

الضلع الثالث: الوحدة.

وفهمنا هذه الأضلع الثلاثة وتسلسلها حسب الترتيب الذي نراه، من قوله تعالى في الآية (١٠٣) من (آل عمران): ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ..﴾، حيث نرى أن الله تعالى بعد أن يأمر أهل الإيمان بالإعتصام بحبل الله وعدم التفرّق (أي الوحدة)، يأمرهم بتذكّر نعمة الله عليهم، أي نعمة الإيمان والهداية، ويذكّرهم، كيف أنهم بعد أن كانوا أعداءً متنافرين في جاهليّتهم، أصبحوا متآلفين، أي منجذبة قلوب بعضهم إلى بعض، ومن ثمّ إخواناً متحابِّين بسبب نعمة الله العظمى، وهي الإيمان والهداية، ثم يُصَوِّرُ سبحانه حالَتهم الإجتماعية في جاهليتهم، وقبل تنوّر قلوبهم بنور الإيمان، ثم حصول الألفة والأخوة بينهم، بأنهم كانوا كمن هو واقف على حرف حفرة أوقدت فيها النار، يوشك أن يقع فيها، ولكن الله تعالى أنقذهم من تلك الحالة المردية، والظاهر أن المقصود بتلك الحالة، هو تفرّقهم وتنازعهم وتناحرهم القبلي الذي كاد أن يُنْهِيَـهُمْ مِن الوجود!

وبناءً عليه:

فهم بتأليف الله تعالى بين قلوبهم، بسبب الإيمان أصبحوا إخواناً، وبِاخوَّتِهم ذهب عنهم التفرق والتناحر، وحصلت بينهم الوحدة.

والآن بعد أن بيّنا كيفية تدرّج حصول الأَضْلُع بالثلاثة وتسلسلها، لنلقي الضوء على كل ضلعٍ من الأَضلع على حِدةٍ:

أ - تآلف القلوب بالإيمان:

بيَّنَ لنا ربنا تبارك وتعالى، في كل من الآية (١٠٣) من (آل عمران)، والتي تحدثنا عنها قبل قليل، والآيتين (٦٢ و٦٣) من (الأنفال) أن الله تعالى إنَّما ألَّف بين قلوب المؤمنين، وجعل بعضها مُنسجمة ومتآلفة مع بعض، وبعضها مرتبطة ببعض، بسبب الإيمان، فقال تعالى في سورة الأنفال مخاطباً نبيّه الكريم: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

والآيتان واضحتا الدلالة، مثلهما مثل الآية (١٠٣) من (آل عمران)، على أن الأُلفَةَ والمحبّة والإِنسجام التي حصلت في قلوب المؤمنين، إنَّما سببها الوحيد هو الإيمان، وانما يَنْسِبُ سبحانه تأليفَ قلوب المؤمنين (وفي مقدمتهم الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم) إلى ذاته، لأنه هو الذي أنزل الهداية التي يحصل بها الإيمانُ، ولأنه هو الذي يوفق الإنسان للإيمان، وذلك كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ . . ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، هذا بالنسبة لتوقف الإيمان على هداية الله، وبالنسبة لعدم حصول الإِيمان إلّا بتوفيق الله تعالى وتيسيره، قال جلّ شأنه: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

وبناءً على هذه الحقيقة العظيمة، أقول:

إن الطريق الوحيد الذي يصل فيه المسلمون إلى التآلف والأُخوّة والتوادّ

فيما بينهم، هو أن يسعى كل منهم في ذاته إلى تقوية إيمانه وتوثيق ارتباطه بربّه عبداً مطيعاً قانتاً، وبقدر ما يقوى الإيمان ويتمكّنُ في قلوبهم، ويتجذّر ويترسّخ، تزداد الألفة والمودّة فيما بينهم، ولا يعوّض أي شيء آخر عن الإيمان في تحقيق الغرض المذكور، لا إنفاق المال الكثير، ولا التنظيم الحديدي، ولا الإداريات الجادّة، ولا التثقيفات الحزبية المتنوعة...الخ، كما قال تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال]، **وأرى أن المقصود بهذا التعقيب - أي: التعقيب بذكر صِفَتَي العِزّة والحكمة - هو التنبيه على أن الله تبارك وتعالى عزيز، ولا يَعِزُّ عليه فعلُ أي شيء شاءه، وإِنْ كان أصعب الأمور - بالنسبة للإنسان في حياته الإجتماعية - كتأليف قلوب الناس وعطف بعضها على بعض، وكذلك هو حكيمٌ، يُجْرِي أمورَه وفقاً حكمَتِهِ البالغة، ومن حكمَتِهِ أن جعل تآلف القلوب ثمرة للإيمان، وذلك كي لا يصعب التآلف على المسلمين متى أرادوه، فَما عليهم إلّا توثيق صلتهم بالله تعالى وتَرسِيخ عبوديتهم له، وهذا متيسّر لهم وتحت أيديهم - بإذن الله العزيز الحكيم - متى عزموا عليه وشاؤوه.**

ب - الأُخوَّة:

والأخوة نتيجة التآلف وثمرته، كما وَضَّحْنا ذلك سابقاً، إذْ جعل الله تعالى حصول الأخوة مترتِّباً على نعمة الإيمان والهداية، كما قال تعالى: ﴿..إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا..﴾.

وهناك ستة أمور مهمة متعلّقة بالأخوّة، تُبَيِّنها الآيات المباركات، منها:

أولاً: كلمة الأخوّة شاملة للذكور والإناث وليست خاصة بالذكور:

والدليل على هذا، هو قوله تعالى: ﴿..وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ.. ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء]، إذن: فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات] يشمل ثلاث حالات: الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء، والرجال مع النساءِ.

ثانياً: إن وجود المؤمنين مُنحَصرٌ في أُخوّتهم، أي: لا وجود للمؤمنين، إلاّ عندما يكونون إخوة:

والدليل على ذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ و(إنما) أداة للحصر والاثبات، فإذا قلنا مثلاً: (إنما المدرّس أحمدُ) أي لا يوجد مدرّس غيره، فَأَثْبَتْنَا له صفة الْمُدرِّسيّة وحصرناها فيه، وَنَفَيناها عَنْ غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يعني: لا وجود للمؤمنين، إلّا في حال أُخُوّتِهم!

ويُفَهم من هذه الجملة المباركة معنى آخر، وهو: حَصْرُ الأُخوّة في المؤمنين، أي: لا توجَدُ أُخوَّة حقيقيّةٌ إلّا في المؤمنين.

وهذا يُثبِتُ لنا عِظَمَ شأن الأخوّة الإيمانية ورفعة مقامها، وأرى أنه لا يوجد في كتاب الله الحكيم، دليل أقوى من هذه الجملة القرآنية المباركة على أهمية الأخوّة بين المؤمنين، وهي برهان جلي على أن الأُخُوَّة إنَّما هي ثمرة الإيمان، لذا سيكون وجودها دَوْماً بحسب وجوده، قوةً وضُعْفاً.

والملاحظ أن الله تعالى لم يحصر الأخوة بإطلاق في المؤمنين، كحصره الإيمان في الأخوّة! بل قد ذكر في كتابه الحكيم في أكثر من موضع، أخوَّةَ الكفار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ.. ﴿١١﴾﴾ [الحشر] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ.. ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء].

ولكن مما لا شك فيه، أن الأخوة الناتجة عن الإيمان والعبودية لله تعالى، مختلفة جذرياً عن كل أنواع الأخوَّة الأخرى الحاصلة من غير الإيمان والإرتباط بالله تبارك وتعالى.

ثالثاً: صلاح ذات بين المؤمنين وصفاء قلوبهم بعضهم مع بعض، ثمرة الإيمان والتقوى:

وهذا يبيّنه قوله تعالى: ﴿..فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

إذن:

بِقدَر وجود الشَّحْناءِ والبغضاء بين المؤمنين، وبمقدار ما يحصل من الفساد والتردِّي في ارتباطاتهم، نستدلّ على وجود الخلل والنقص في إيمانهم وتقواهم، ولهذا لم يَحْكِ لنا التأريخ إِخُوةِ مثل اخوة الصحابة ﷺ فيما بينهم، وذلك بسبب وصولهم إلى قِمَّة الإيمان والتقوى.

رابعاً: أخوّة المؤمنين فيما بينهم، ومودّة المتقين بعضهم لبعض، ستستمرّ حتى في الآخرة، وذلك بخلاف من عداهم الذين تنقطع الأخوة والصلة بينهم، ويصبح بعضهم عدواً لبعض:

وهذا ما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

خامساً وسادساً: إن أخصَّ صفات أهل الإيمان هي: دعاؤهم بالمغفرة لمن سبقهم من أهل الإيمان، والمسألة من الله تعالى، أن يرزقهم نقاءَ السريرة وطهارة القلب مع أهل الإيمان:

والدليل على هذا: أَنَّ الله تعالى بعد أن ذكر المهاجرين وأثنى عليهم بأخصِّ صفاتهم الحميدة، وهي: الهجرة في سبيل الله، والخروج من الديار وترك الأموال، وابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصر الله ورسوله، في الآية (٨) من (الحشر): ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾، وكذلك بعد أن ذكر أخص صفات الأنصار وأثنى بها عليهم، وهي: محبّة من يهاجر إليهم، وعدم التطلّع إلى ما يُعطى المهاجرون من أموال ومساعدات، والإيثار على النفس مع شدّة الحاجة، في الآية (٩) من (الحشر): ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ..﴾، بعد هذا ذكر سبحانه المؤمنين الذين يأتون بعد المهاجرين والأنصار، في الآية (١٠) وأثنى عليهم أيضاً بأخصِّ صفاتهم

وهي: دعاؤهم لمن سبقهم من أهل الإيمان بالمغفرة، وطلبهم من الله تعالى أن يمنحهم نقاء القلب تجاه المؤمنين، ولا يكون في قلوبهم (غِل) تجاههم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

وهذا دليل على أن محبة المسلمين لأجيالهم السابقة من أهل الإيمان، وإجلالهم إيّاهم، وإحسان الظن بهم، وخاصة جيل الصحابة الكرام ﷺ، الذي لم تر البشرية في طول تأريخها، أعمق منهم إيماناً، وأرسخ علماً، وأكثر تقوىً، وأحسن خلقاً، وأزكى نفساً، والذين أعْلَن الربُّ الحكيمُ العليم الخبير بذات الصدور، أنه قد رضي عنهم وأرضاهم في أكثر من آية ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة]، وكذلك عدم حَمْلِ البغض والحقد في القلب تجاه أهل الإيمان مطلقاً، أي: الأموات والأحياء كافة، من أخصّ صفات المسلمين المؤمنين، ومن أوجب الواجبات التي يفرضها عليهم إيمانُهم تِجاهَ إخوتهم في الإيمان!

ج - الوحدة:

كما أن التآلف هو أساس الأخوة، ولا وجودَ لِلأُخوَّة - في الإسلام وبالمفهوم الصحيح لِلأُخوَّة - من دون أُلفة بين القلوب وانسجام ومودةٍ بسبب الإيمان بالله والعبادة له، كذلك لا وجود للوحدة وَرَصِّ الصف إلا على أساس الأخوة، فالأخوة الإيمانية هي خميرة الوحدة الإسلامية، ولا وجود لها بدونها، اللهم إلا وجوداً أسمياً وشكلياً، من غير مسمًّى حقيقي ولُبٍ ومحتوى، وقد ذكرنا في السابق: كيفية انبثاق الوحدة من الأخوة بعد تآلف القلوب بالإيمان، والآن سنزيد هذا الأمر وضوحاً فنقول:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل

عمران]، بعد أن يأمر سبحانه وتعالى أهل الإيمان بتقوى الله حق التقوى وبالموت على الإسلام - وهذا يقتضي العيش على الإسلام حتى النهاية من دون انقطاع - نعم بعد هذين الأمرين الجليلين، والذي يحقق كل مؤمن أولهما - وهو التقوى - في ذات نفسه، لأن التقوى أمرٌ شخصي أكثر منه أمراً جماعياً، ويحققون الثاني منهما بمجموعهم، وذلك لأن الحياة الإسلامية لا تَتَيسَّرُ الا لِمُجتمعٍ إسلامي، عَقَدَ العَزْمَ على الإِلتزام بشريعة الله تعالى في كافة جوانب حياته، يأمر تبارك وتعالى أهل الإيمان بالإِعتصام بحبل الله وعدم التفرّق، إذن: فالوحدة نتيجة التحقق الشخصي بالتقوى، والإِلتزام الجماعي بالإسلام، ومن الواضح أن الإِلتزام بالإسلام وتطبيق شريعته، لا يتم إلّا بالعمل الجماعي والتعاون بين أهل الإيمان، ولا يتم العمل الجماعي والتعاون، إلّا بعد تآلف القلوب وتآخيها في الله تعالى.

ووحدة أهل الإيمان عميقة الجذور زماناً، وواسعة الإرجاء مكاناً: أما زماناً: فبدايتها مُنذ أن وطئت أقدام أبوينا الأرض، وتناسلوا وتكاثرت ذريتهما على الإيمان والتوحيد، ومروراً بأنبياء الله ورسله الكرام: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وخاتمهم وسيِّدهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وانتهاءً بآخر مجموعة مؤمنة من أمة محمد ﷺ، وأما مكاناً: فتشمل الوحدة الإيمانية الأرضَ كلَّها من مشرقها إلى مغربها، ومن شمالها إلى جنوبها.

والدليل على هذا هو أن الله تعالى خاطبنا نحن المسلمين (أمة محمد سيد المرسلين ﷺ) في موضعين من كتابه الحكيم وألْفت أنظارنا إلى أنَّ أمتنا هي أمة واحدة، وهي أمة الإيمان والتي على رأس قافلتها رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، والموضعان هما:

أ - سورة (الأنبياء) من الآية (٥١ إلى ٩٢) حيث يذكر الله تعالى عدداً كبيراً من أنبيائه، ويشير إلى شيء من أخبارهم، وهم على الترتيب المذكور في الآيات كل من: (إبراهيم، إسحاق، يعقوب، لوط، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذي الكفل، يونس

(ذي النون)، زكريا، يحيى، عيسى) عليهم الصلاة والسلام، ثم يقول مخاطباً الأمة الإسلامية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

ب - سورة (المؤمنون)، من الآية (٢٣ إلى ٥٢) ويذكر سبحانه كلاً من (نوح وموسى وعيسى) اسماً، وكل الأنبياء والرسل الكرام إجمالاً، ومن غير ذكر أسمائهم، ثم يخاطب أمة محمد صلى الله عليه وعلى أنبياء الله وسلم أجمعين، بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

إذن:

فالوحدة الإيمانية عميقة الجذور، وواسعة الإرجاء، وهي شاملة لكل مؤمن ومؤمنة، منذ أن خلق الله آدم وحواءَ عليهما السلام، وإلى أن يرث الله الأرض وَمَن عليها.

ثم كما أن أخوّة المؤمنين ثمرة إيمانهم، كذلك وحدة المسلمين، هي ثمرة أُخُوَّتهم فيما بينهم، وتكون بِحَسَبِها وبِقَدرِها ضعفاً وقوة، وضيقاً وسعة، لِذا يجب على أهل الإيمان أن يبذلوا قصارى جهودهم، في جعل أخوتهم بمستوى دينهم وإيمانهم، قوة وعمقاً وسمواً، ويوم يرتفع المسلمون بأخوتهم إلى مستوى إيمانهم ودينهم، سيحصلون على الوحدة الإيمانية العميقة الواسعة الشاملة، التي سَتُدْمِجُ بَعْضَهم في بعض في بوتقة الوحدة الإسلامية المباركة، بمختلف أوطانهم وشعوبهم ولغاتهم، وهناك فقط سيكونون في مستوى أداءِ مسؤوليَّتهم تجاه دينهم، وفي مستوى القيام بوظيفتهم التي كلَّفهم الله تعالى بها، وهي الشهادة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ .. ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة] والتي تتمثل بدورها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومهما الشامل وعلى صعيد البشرية كلِّها، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران] نعم إنَّ وظيفة أمة محمد ﷺ بعد إقامتها للدين في ذات نفسها والتزامها بشريعة ربها

في كافة شؤونها، هي القيام بالشهادة على البشرية، بلسان حالها وواقعها بأن الدين والمنهج الصحيح الوحيد للبشرية هو الإسلام فحسب، وواضح أن هذا لا يتحقق إلّا بعد أن يتمثّل أهلُ الإيمان دِينَ الله في حياتهم الشخصية والجماعية كاملاً، ثم القيام بدور الرقيب على مسيرة البشرية، والسعي لنشر وتثبيت كل ما هو صالح ونافع من العقائد والأفكار والأخلاق والآداب والأحكام، حسب ميزان كتاب الله العظيم وسنة النبي الخاتم، ودحض كل ما هو ضارّ وفاسد من العقائد والأفكار وتزييفها، ومنع كل أنواع الظلم الفكري والسياسي والإِقتصادي والإجتماعي، كي يتسنَّى للبشر جميعاً، أن يحيوا حياة كريمة حرة لائقة بالإنسان الذي شرَّفه باستخلافه على الأرض، وتحميله أمانته التي لم يكن في وسع مخلوق آخر التصدّي لحملها!

❋ ❋ ❋



المطلب الثاني:
القاعدة الثانية
تولّي المؤمنين بعضهم بَغضاً،
وتجريد الولا   لأهل الإيمان

وتتكون هذه القاعدة الثانية - من القواعد الثلاث التي يتعامل المؤمنون فيما بينهم على أساسها - من شِقَّيْنِ، خصَّصنا لأولهما الآيات رقم: (٨ و٩ و١٠) وللثاني، الآيات رقم: (١١ و١٢ و١٣ و١٤) من المجموعة الثانية من الآيات المدرجة.

أ - الشقُّ الأول منهما هو: (تولِّي المؤمنين بعضهم بعضاً).

ب - والشق الثاني هو: (تجريد الولاءِ لأهل الإيمان).

وسنتحدّث عن كل منهما على حِدَةٍ، ولكن بعد توضيح معناهما، فنقول: كلمات (الولاية والولاء والتولّي والموالاة) أصلها من (الوَلْي) وهو القرب والدنوّ[1]، نقول: إن هذا الشيء يلي ذاك، أي يقرب منه ويأتي بعده، وقد ذكرنا سابقاً أن (الوَلاية) - وكذلك سائر الألفاظ الأخرى المشابهة لهما - تُعطي مَعْنى الحب والنُصْرة والقرب، فمعنى تولّي المؤمنين بعضهم بَعْضاً، أَي: حُبٌ بعضهم لبعضٍ، وقربهم منهم، ونصرتهم لهم، وتأييدهم لهم، واهتمامهم بهم.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الوَلْي: بسكون اللاّم: القُربُ والدنوُّ، يقال: تباعَدَ بعد وَلْيٍ، ص(٦٣١) لفظ: و ل ي.

والمعنى الحرفي لكلمة التولّي هو اتخاذ الوليّ، فمعنى: تولّى فلان فلاناً، أي: اتخذه وليا له، ثم الوَليُّ هو القريب والخليل والنصير والظهير[1].

هذا بالنسبة لمعنى (تولّي المؤمنين بعضهم بعضاً).

وأما بالنسبة لمعنى (تجريد الولاء لأهل الإيمان)، فالمقصود بهذه الجملة هو أن يُخَلِّصَ المؤمنون ولاءَهم لأهل الإيمان وموالاتهم معهم، من شائبة الولاء والموالاة مع غيرهم، وليس غير المؤمنين سوى الكفارِ، وعليه: فلا يجوز للمسلمين أن يُشْرِكوا في موالاتهم مع أهل الإيمان موالاة أهل الكفر، وذلك لأن أساس الموالاة هو الإيمان، لذا فحيثما وجدَ الإيمان وَجَبت الموالاة، وحيثما لم يوجد، لا تجوز، وجديرٌ بالذكر أن هذه القاعدة الثانية لها ارتباط وثيق بالقاعدة الأولى، بل هي لُبُّها وجوهرها، إذْ لا معنى لتآلف المؤمنين وتآخيهم إذا لم يوال بعضهم بعضاً، كما أنه لا تتحقق الوحدة فيما بينهم، إلّا بعد حصول الموالاة بينهم.

أ - تولي المؤمنين بعضهم بَعْضاً:

يجب على المؤمنين أن يتولّى بعضهم بعضاً، أي: أن يكون بعضهم أولياء لبعض، فيحبَّ بعضهم بعضاً، وينصرَ بعضهم بعضاً، ويظاهر بعضهم بعضاً، وقد بيَّنَ سبحانه هذه الحقيقة في آيات كثيرة وبصيغٍ مختلفة، هذه بعضها:

أولاً: ففي الآية (٧١) من (التوبة)، يُعرِّف سبحانه وتعالى أهل الإيمان كلَّهم ذكوراً وإناثاً، بأنَّ بعضهم أولياء بعض: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ..﴾، ثم بعد ذلك يعرفهم بستة أوصاف رئيسة من أوصافهم، وهي:

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاءِ الزَّكاة، وإطاعة الله، وإطاعة الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾، ثم يبيِّنُ أن هؤلاء

---

(١) المصدر السابق، ص٦٣١، لفظ: و ل ي.

هم وحدهم المشمولون برحمته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأرى - والله هو العليم الحكيم - أن حكمة تقديم ذكر الولاية بين أهل الإيمان ذكوراً وإناثاً، على سائر أوصافهم، هي التنبيه على أن أهل الإيمان لا يتمكّنون من الإتصاف بكلٍ من: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وإطاعة الله ورسوله، على الوجه المرضي المطلوب، إلّا إذا والى بعضهُم بعضاً أولاً.

ثانياً: وفي الآيات (٥٤ و٥٥ و٥٦) من (المائدة) يخاطب الله تعالى أهل الإيمان، ويحذِّرهم من الإرتداد عن الدين، من جرّاء تولّي الكافرين - كما يدل على ذلك سياق الآيات السابقة واللاحقة - ويبيِّن لهم أنه في حال ارتدادهم، يستبدل بهم قوماً غيرهم لنصرة دينه، متصفين بحبهم لله تعالى، وحب الله لهم، وذلتّهم على المؤمنين، وعِزَّتهم على الكافرين، والجهاد في سبيل الله، وعدم الخوف من لومة اللائمين...

ثم يعلن لهم سبحانه أنه لا توجد جهة يتولاها المؤمنون، الا الله تعالى ورسوله وأهلُ الإيمان، المقيمون للصلاة والمؤتون للزكاة والراكعون لله - وواضح أن ولاية الله مطلقة، ولكن ولاية الرسول ﷺ وولاية أهل الإيمان نسبيةً، ومستندة إلى ولاية الله ومتفرِّعة عنها -.

ثم يبيّن الله تبارك وتعالى، أن نتيجة تولّي الله ورسوله والمؤمنين، هي الغلبة والنصر، ومصير من يوالي الله تعالى ورسولَه وأهل الإيمان، هي العِزَّة في الدارين، وذلك لأن المتولّين لله ورسوله والمؤمنين، هم حزب الله وجماعته الخاصة، وجَرتْ سُنَّةُ الله الحكيم بنصر حزبه وتغليبهم على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

ثالثاً: وفي الآيتين (٧٢ و٧٣) من (الأنفال) يبيِّن سبحانه وتعالى أنَّ المؤمنين المهاجرين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والمؤمنين

المؤوين المناصرين لهم، بعضهم أولياء بعض، ثم يستثني سبحانه المؤمنين الذين لم يهاجروا، من تلك الموالاة، إلّا إذا تعرّضوا للظلم والبغي في أمور دينهم، فحينئذٍ تِجب مناصرتهم، ما لم يكن طرفهم المعادي المعتدي عليهم، ذا عهد وميثاق مع الكيان الإسلامي المناصر لهم، وإلّا فلا يجوز نقض العهد من أجل مناصرة أولئك المؤمنين الذين فرّطوا في أمر دينهم بعدم الهجرة، وهذا ما سنبيِّنه في الفصل الرابع بإذن الله.

ثم يبيِّن الرب الحكيم عزَّ وجل أن الكفار أيضاً يوالي ويناصر بعضهم بعضاً، لذا فعندما يُقَصِّر المؤمنون في قضية الموالاة بينهم، تحدث نتيجة ذلك مصائب وفساد كبير، بالنسبة لأهل الإيمان خاصة وبالنسبة للناس عامة.

وما خوفنا الله تبارك وتعالى به من حدوث الفتنة والفساد والفوضى، من جرّاء تقصير المؤمنين في تولِّي بعضهم بعضاً، هو الواقع الآن، ولا يتغيّر هذا الواقع الْمُزرِي المُشِين إلّا بالتغيير الذاتي، من مراجعة الفهم للإسلام والإيمان، وما يوجبانه على المسلمين من واجبات عينية وكفائية، والتي من أَهمها: الموالاة والمناصرة على أساس الإيمان والإسلام، كما قال تعالى مبيِّناً سنته في تغيير المجتمعات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ⑪﴾ [الرعد]، وأما الإستمرار على هذه الحالة اللاشرعية، المتمثلة في نسيان أكثر المسلمين أخوتهم الإيمانية وموالاتهم فيما بينهم، على أَساس الإيمان والإلتزام بالإسلام، والإستعاضة عن الأخوة الإيمانية والإسلامية، بالتعصبات الجاهلية للشعوب والأعراف والأوطان والأحزاب والطوائف والمذاهب والمسالك والمشارب والأشخاص، على حساب الأخوّة الإسلامية والموالاة الإيمانية، التي لا يرضى الله تعالى بهما بدلاً، ولا يقبل سواهما من أهل الإسلام والإيمان، فلا يزيدنا إلّا تدهوراً وفساداً، كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ㊸﴾ [النور].

ب – تجريد الولاءِ لأهل الإيمان:

كما ذكرنا سابقاً: لا تتم الموالاة بين المؤمنين ولا يُعْتَدُّ بها، إلّا إذا خُلِّصَتْ وجُرِّدَتْ من الشوائب والأخلاط الغريبة، وجُعِلَتْ خالصةً ونقيَّة

لأهل الإيمان، وقد أكّد الله هذه الحقيقة في آيات كثيرة وبمختلف الصّيغ التعبيرية اهتماماً بها، وهذه إشارة إلى بعض الآيات بهذا الصّدد:

أولاً: ففي الآيات (٢٨ إلى ٣٢) من (آل عمران) ينهى الله تبارك وتعالى أهل الإيمان عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويعلنُ بجلاءٍ أنّ من فعل ذلك فلا يبقى له مع الله تعالى أي ارتباط: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، ثم يستثني تبارك وتعالى من هذا الحكم حالة واحدة فقط، وهي ما إذا كان المسلمون - أفراداً أو مجتمعاً - بحاجة إلى اتقاءِ شرِّ الكافرين، بسبب الضعف الذي يمنعهم من مواجهة الكفار ورفض هيمنتهم، ثم يخوِّف الله المؤمنين بقوله: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وذلك كي لا يتعلّل المسلمون، في قبول سيطرة الكفار، بضعفٍ وهميٍ ناشيءٍ من ضعف الإيمان وعدم التوكل على الله، والتكاسل في تهيئة أسبابِ القوة والدفاع!

ثم يأمر سبحانه نبيّه أن يخبر المسلمين بأن الله تعالى يعلم ما يخفونه من نِيّاتٍ، وماَ يتلَفَّظون به من أقوال، بل ويعلم خفايا وأسرار السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير، وهذا تحذير آخر لأهل الإسلام كي يحتاطوا لأنفسهم في مجال التعامل مع الكفار والمداراة معهم، فلا يجاوزوا الحدود، لا في نيةٍ ولا في قول!

ثم مرة أخرى يُحذِّر الله أهلَ الإيمان في هذا المجال الحسّاس، وذلك بإراءته مشهد ملاقاة كل إنسان أعماله ومواقفه، شرا كانت أو خيراً، وكيف أن العامل للسيئات بعد أن يرى ويلقى سيئاته، يتمنّى لو أنه جعلت بينه وبينها مسافة بعيدة - كي لا يراها أصلا -، ثم يكرِّر سبحانه قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ويعقب هذه المرة بقوله: ﴿... وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وأرى أن الحكمة في اختلاف التعقيبين هي:

أنه في المرة الأولى حذرهم الله وخوّفهم، كي يُقْلِعوا عن أي تفكير، أو ممارسة أيِّ موقف يتنافى مع موالاة أهل الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، لكن في المرة الثانية اقتضت حكمتُهُ أن

يُطْمِعَهم في رحمته ورأفته، وذلك كي لا ييأس مَنْ بَدَرَ منه فعل أو قول خطأ، ويرجع إلى ربِّه ويُصْلِحَ موقفه ويُعَدِّلَ شأنه.

ثم يأمر سبحانه وتعالى نبيَّه الكريم أن يقول للمسلمين، بأنهم إذا كانوا فعلاً محبِّين لله تعالى، فَلْيتَّبِعوا رسول الله ﷺ - أي في مجال التعامل، وذلك بتولّي المؤمنين وتجريد الولاء لهم - وذلك كي يستأهلوا، بأن يحبهم الله تعالى ويغفر لهم ذنوبهم..

ثم يقول تعالى لنبيِّه مرة أخرى، ويأمره أن يأمر المسلمين بإطاعة الله ورسوله ﷺ، ثم يخبره بأن من تولّى منهم عن طاعة الله ورسوله وأعرض، فهو كافر والله لا يحب الكافرين، والكفر هنا يحتمل أن يكون كفراً في مقابل الإيمان، أو كفراناً في مقابل الشكر.

والملاحَظُ أن الله تعالى ذكر وجوب اتبّاعِ رسوله ﷺ، بهذا التعبير اللطيف الذي هو نسيج وحده، في كل القرآن، في معرض الحديث عن الموالاة مع المؤمنين وعدم تولّي الكافرين، وهذا يدل على أن أخصّ صور اتّباع رسول الله ﷺ هو اتباعه في مجال التعامل مع الناس، وذلك باتّخاذ أهل الإيمان أولياء، والابتعاد عن الموالاة مع الكافرين.

وتُذَكِّرنا هذه المسألة مسألة أخرى، وهي أن الله تعالى ذكر وجوب اتخاذ رسول الله ﷺ أسوةً، مرة واحدة أيضاً فقط[1]، وذلك في سياق آيات تتحدّث كلها عن الجهاد والقتال في سبيل الله، وهي في الآية (٢١) من (الأحزاب): ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾! وهذا يدل أيضاً على أن أخصّ معاني الإقتداءِ برسول الله ﷺ هو الإقتداء به واتخاذه أسوةً وإماماً ومقتدىً به، في مجال الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام وحرمات المسلمين!

وأنا أعقّب على هاتين المسألتين بقولي:

---

(١) أي: بلفظ (الأسوة)، وإلّا كرِّر الأمر باتخاذ رسول الله ﷺ متبوعاً ومُطاعاً ومقتدىً به، في مواضع كثيرة في كتاب الله الحكيم.

أين هو مفهوم اتباع الرسول ﷺ والإقتداءِ به، كما يبيِّنه كتاب الله، عما هو عليه في أذهان أكثر المسلمين بكل مذاهبهم ومشاربهم؟ لا شك أن بينهما بَوْناً شاسعاً، حيث لا يفهم كثير من المسلمين اتباع الرسول ﷺ والإقتداء به، إلّا في مجال الصلاة والصيام وإعفاء اللحية والسواك...الخ! ولكن الله تعالى ذكر وجوب اتِّباعه في مجال الموالاة، كما وذكر وجوب الإقتداء به في مجال الجهاد والقتال!!

ثانياً: وفي الآية (١٤٤) من (النساء) يخاطب الله تبارك وتعالى أهل الإيمان، وينهاهم عن أنْ يتخذوا الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين - أي بدلهم وعوضاً عنهم -، ثم يوجِّه إليهم سؤالاً توبيخياً ويقول لهم: أَوَ تريدون أن تجعلوا لله تعالى عليكم حجة ظاهرة - ليعذبكم يوم القيامة -؟!

ومعنى هذا أن كل من اتَّخذ ولياً من دون المؤمنين - وليس ثمة من دون المؤمنين سوى الكفار - فقد جعل نفسه محجوجاً يوم القيامة، ومستحقاً لعقاب الله وعذابه.

ثالثاً: وفي الآية (١٦) من (التوبة) كذلك يوجِّه الله تبارك وتعالى ؤالاً إنكارياً إلى المسلمين، ويقول لهم: أو ظننتم أن تُتْرَكوا - من دون ابتلاءٍ - ولما يعلم الله الذين يجاهدون منكم، ولا يتخذون خاصة وبطانة يُطلعونهم على أسرارهم، من غير الله ورسوله والمؤمنين؟ والمعنى أن الله تعالى جرت سنته ألّا يترك المسلمين من دون ابتلاءٍ وتمحيص، بل يبتليهم بمواجهة الأعداء حتى ينكشف له - في الواقع بعد علمه به أزلاً - الذين يجاهدون في سبيل الله، ولا يتخذون أحداً أولياء وأصحاب أسرار من دون الله ورسوله والمؤمنين، ومن ثم تصبح تلك الأعمال والمواقف الجَيّدة أو الرديئة، حجة الله للمؤمنين الصادقين، أو على مُدَّعي الإيمان الكاذبين!

رابعاً: وفي الآيات (١١٨ و١١٩ و١٢٠) من (آل عمران) أيضاً، خاطب ربّ العزّة تبارك وتعالى المؤمنين، ناهياً إياهم عن اتخاذِ بطانة من غيرهم، ويُخبِرُهم أن غيرهم - أي الكفار - لا يُقَصرون في السعي لإفساد حالهم، وأنهم يَودُّون من أعماق قلوبهم ضَرَرَ أهل الإيمان، ويتمنّون لهم

كلٌّ ما هو شرٌّ وشاق عليهم، وأنهم قد طفح البغض الذي يُكنُّونه تجاه المؤمنين في قلوبهم على لسانهم، ولكن ما هو مستكِنٌّ في صدورهم أكبر مما يَظْهَرُ على لسانهم، ثم يقول: ها قد وضّحنا لكم الآيات إنْ كانت عندكم عقول!

ثم يشرع سبحانه وتعالى بتقبيح تلك الفعلة - أي اتخاذ البطانة من غير أهل الإيمان - بتبيين خمس حقائق:

١ - إنكم تُحِبُّونهم ولكنَّهم لا يُحبُّونكم، ثم أنتم تؤمنون بكل الكتاب، لذا فلا يجوز لَكُم أن تحبوا الكافرين، لأن كتاب الله منع من ذلك، ويمكن أن يكون الكلام هنا على أهل الكتاب الذين كان بعض المسلمين يوالونهم سذاجة وطيبة قَلْبٍ، وحينئذٍ يكون المقصود بجملة: ﴿يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: إنكم تؤمنون بكل الكتب المنزلة بخلافهم، حيث لا يؤمنون بنبي الله الخاتم، والكتاب المنزل إليه.

٢ - وعندما يلقونكم، يُظهِرون لكم أنفسَهم بمظهر الإيمان والإسلام، خِداعاً لكم!

٣ - ولكن عندما يخلو بعضهم ببعضٍ، يَعُضون عليكم أناملهم اغتياظاً منكم وحقداً عليكم، فقل لهم: (موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) أي: إنَّ الله يعلم أسرار القلوب! ومعنىٰ (قل موتوا بغيظكم) أي: أُدعوا عليهم بهذا الدعاء، أو: قل لهم هذا القول مواجهة.

٤ - إذا ما نِلتم أدنى مصلحة، يَغْتَمُّون ويَشُق عليهم، ولكن عندما تصيبكم مصيبة، يُسرُّون بها.

٥ - ولكن على أي حال: إذا كنتم أنتم أهل صَبْرٍ وتقوىً، فلا تتضرَّرون بمكائدهم ومخططاتهم تلك، ومن الصبر: الصبرُ على موالاة أهل الإيمان، ومن التقوى: عدم اتخاذهم غيرهم أولياءَ!

* * *

المطلب الثالث:
القاعدة الثالثة
تجنّب تولّي الكافرين، ووجوبُ البراءَة منهم

تتكون هذه القاعدة الثالثة من قواعد التعامل الشرعي الصحيح لأهل الإيمان بعضهم مع بعض، من ركيزتين اثنتين:

١ - تجنّب تولّي الكافرين.

٢ - وجوب البراءة منهم.

وسنتكلّم عن كل منهما في نقطة على حدة، في ضوء الآيات المدرجة سابقاً، من رقم (١٥ إلى ٢٣) حسب ترقيمنا وتسلسلنا، أما الركيزة الأولى، ففي ضوء الآيات رقم: (١٥ إلى ٢٢)، وأما الثانية، فخصّصْنا لها الآية رقم: (٢٣) بإذن الله، والآن إلى الركيزة الأولى للقاعدة الثالثة، لتعامل أهل الإيمان بعضهم مع بعض:

١ - تجنُّبُ تولّي الكافرين:

من الواضح أن وجوب تجنّب المؤمنين، عن تولّي الكفار على المؤمنين، هو تعبير آخر عن مسألة (تجريد الولاءِ لأهل الإيمان)، لأن مَن جرّد وخلّص ولاءَه للمؤمنين، فهو ينأى بنفسه عن اتخاذ الكافرين أولياء، ولكن بما أن كتاب الله الحكيم أولى هذه المسألة عناية خاصة - أي مسألة تجنّب تولّي الكافرين -، رأينا أن نتحدّث عنها بصورة خاصة، في غضون آيات نُدْرِجها في ثمانية بنودٍ، فنقول وبالله الكريم نتأيّد:

أولاً: يقول سبحانه وتعالى في الآية (٥٧) من (المائدة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ يُخاطبُ الله تعالى أهلَ الإيمان، ناهياً إياهم عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار المستهزئين اللاعبين بدين الله، أولياء، ثم يأمرهم بتقوى الله ويعَلِّقه بشرط الإيمان! أي: إذا كنتم مؤمنين فِعلاً، فلا تتخذوا الكفار المستهزئين اللاعبين بدينكم، أولياءَ، وتجنَّبوا تلك الفعلة الشَّنعاء، ومعنى هذا: أنَّ من اتخذهم أولياء، فهو أولاً: لم يتق الله تعالى الذي نهاه عن تلك الفعلة، وثانياً: تَجِبُ عليه مراجعة إيمانه، إذ كل شروط متعلق بشرط ومبْنِيٌ عليه، فَوجوده دليلٌ على وجوده، وعدمه قرينة عدمه!

ثانياً: وفي الآيات (٥١ و٥٢ و٥٣) من (المائدة) يخاطب ذو الجلال والإكرام من فوق عرشه العظيم سبحانه وتعالى، أهلَ الإيمان وينهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ثم يبيِّن لهم ويخبرهم أن هاتين الطائفتين الكافرتين، بعضهم أولياء بعض وتساند إحداهما الأخرى وتواليه - ومصداق قول الله تعالى هذا في واقعنا الحالي، أظهر من الشمس في الظهيرة -، ثم قرّر تعالى شأنه: أنَّ كلَّ مَنْ تولَّى اليهود والنصارى، فحُكمُهُ مثل حكمهم! وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ مطلق لم يقيّده بشيء من الأشياء، وعليه فكل من والى اليهود والنصارى موالاةً مطلقةً - والتولّي هو المولاة المطلقة لأن التولّي (تفعّل) من الموالاة، إذاً: فهو بلوغٌ بها إلى أقصى غايتها - فيصير مثلهم في حكم الله تعالى، وبالتالي يخرج من دائرة الإيمان والإسلام، يعقب سبحانه على ما مرّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمقصود بالقوم الظالمين، هم المتولّون لليهود والنصارى.

ثم يبيّن سبحانه وتعالى هوية المتولّين لليهود والنصارى، ويعرِّفهم بقوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ إذن: فأهل النفاق المريضة قلوبهم، هم الذين يتسابقون في ذلك الميدان الخبيث والعمل الخسيس، ثم يذكر سبحانه بتبريرهم وذريعتهم لفعلتهم الشنيعة تلك بقوله: ﴿... يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ﴾ أي: إنهم يتذرعون لتبرير موقفهم المُشين، بأنهم

يتخوّفون من المصيبة المحيطة، ويقصدون بها هجومَ أهل الكفر على أهل الإسلام في ديارهم! فيقول تعالى دفعاً لتشاؤمهم وتَخَوّفِهم الذي لا ينبع إلّا من قلب مريض: ﴿...فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: إنَّه قريبٌ ومُتَوقعٌ جداً أن يأتي الله بنصر للإسلام، فتنفتح أمامه الأبواب المغلقة، أو أن يُحْدِث سبحانه من عنده أمراً من غير دخل للأسباب البشرية وبذل جهودهم، ويتغيّر الوضع، وعندئذٍ صبح أولئك المُتَملِّقون لأهل الكفر، على ما أخفوه في قلوبهم، نادمين من سوء ظنٍ بالله ومستقبل دينه، أو محبة انتصار الكفار، كي تتحقق لهم مصالحهم الشخصية، أو غير ذلك من نيات خبيثة.

ثم يقول تعالى مبيّناً موقف المؤمنين، عندما تُهْتَكُ أستارُ مرضى القلوب وتنكشف عوراتهم - سواء في الدنيا أو في الآخرة أو كليهما - بقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ وإنما يقول المؤمنون هذا تعجّباً منهم من ادعاءِ أولئك المسارعين في موالاة الكفار، الإيمانَ والإسلامَ، وأنهم مع أهل الإسلام، إذ كيف يصبح المؤمن المخلص للإسلام والمسلمين، عميلاً رخيصاً للكفر والكافرين؟!

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ من تتمة قول المؤمنين، أو من قول الله تبارك وتعالى تعقيباً على الموقف كلّ.

ثالثاً: ويقول تعالى جَدّه وتبارك اسمه، في الآيتين (١٣٨ و١٣٩) من (النساء): ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ وتبشير المنافقين بالعذاب الأليم، تهكُّم بهم، كما كانوا يستهزؤون بأهل الإيمان في الدنيا، وإلّا فإن الإخبار بالعذاب ليس بشارةً!

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى الجريمة التي استحقوا بسببها العذاب الأليم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ إذن: فاتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، هي الجريمة الكبرى التي استحق بسببها المنافقون عذاب الله الأليم، ثم يبيّن الله

تعالى دافعهم الذي دفعهم إلى موقفهم المشين، وهو طلب العِزّة والقوة من الكفار، ويعلن المولى جل شأنه أن العِزَّة كلَّها محصورة بيد الله تبارك وتعالى، لِذا فلن ينال أحدٌ شيئاً منها إلّا منه!

رابعاً: وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، أن اتخاذ الكفار أولياء، هو ديدن أهل النفاق ومرضى القلوب، يبيِّن في الآيات (٢٥ إلى ٢٨) من (محمد)، موقف المرتدّين المشابه بل المماثل لموقف المنافقين في هذا المجال، ويقول أولاً: معرِّفاً بالمرتدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ وعليه: **فالمرتد هو الذي يرجع عن الإسلام بعد أن عَرَفَهُ وآمَنَ به، وسبب ارتدادهم الباطني هو تسليم أنفسهم لتسويلات الشيطان وتزييناته وإملاءاته عليهم.**

ثم يذكر سبحانه وتعالى ثانياً: السبب الظاهري لارتدادهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنَّ الذي جعلهم في حكم الشرع الذي يحكم بالظاهر، مرتدّين عن الإسلام، هو وعدهم الكفار الذين يكرهون كتاب الله ووحيه المنزّل: سنطيعكم في بعض ما يُهمكم من أموركم! والله تعالى عليم بأقوالهم التي يُسِرّون بها الكفار ويناجونهم بها!

ثم يصوِّرُ سبحانه ثالثاً: العاقبة المخزية لأولئك التابعين لوساوس الشياطين والمطيعين لمخططات الكافرين الكارهين لدين الله تعالى وكتابه المبين، في حالة الإحتضار، بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ وأرى أن حكمة ذكر ضرب الملائكة القابضين لأرواح أولئك الأشرار، لوجوههم وأدبارهم، هي أنهم وجّهوا وجوههم نحو الباطل والكفر، وأداروا ظُهورهم للحق والإيمان، فاستحقت كلتا جهتيهم ضرباً خاصاً بسبب هذا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ..﴾، إذ معلوم أنَّ الإنسان إِنَّما يتبع ما يهواه، ولكن ما يكرَهُهُ، يديره ظَهْرَهُ!

ويعقب تعالى على كل هذا بقوله: ﴿... فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي أبطلها وأذهبها، وكيف لا ينهدم الجدار الذي لم يَبْقَ له أساس، وانما الإيمان أساس الطاعة والأعمال الصالحة، وروحها وخميرتها، لذا فوجودها وبقاؤها، مرهونٌ به دَوْماً!

خامساً: وبعد إيضاح حقيقة أن تولّي الكفار، هوَ دأْبُ المنافقين ومرضى النفوس والمرتدّين، يبيِّن لنا سبحانه وتعالى في الآيات (٧٨ إلى ٨١) من (المائدة) أن هذا الصنيع هو عادة الكفار الملعونين من بني إسرائيل أيضاً، إِذن: أصناف أهل الكفر يَنْسِجُ بعضهم على مِنْوالِ بعضٍ، في أفعالهم الشنيعة ومواقفهم الفظيعة.

فيقول تعالى معرِّفاً بالكفار الملْعونين من بني إسرائيل، وسبب مَلْعونيّتهم:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: إن كلاً من داود وعيسى بن مريم عليهما السلام، لَعَنَ الكفارَ من بني إسرائيل، وذلك بسبب:

١ - عصيانهم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾.

٢ - اعتدائهم ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ وهذا التعبير يشير إلى أنّهم كانوا اتّخذوا الإِعتداء عادةً لهم.

٣ - عدم نهي بَعْضهم بعضاً عن المنكرات التي كانوا يمارسونها: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ ويعقب على هذا بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: إنَّ صنيعَهم ذاك، كان أسوأ عمل.

ثم يذكر سبحانه وتعالى فعلة شنيعة أخرى لهم، وهي أشنعها جميعاً: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ والدليل على أنَّ تولّي

اليهود الكفار الملعونين، للكفار من المشركين والمنافقين وغيرهم من أصناف أهل الكفر، أسوأ عملٍ وأشنَعُ فعلةٍ، هو أن الله تعالى بعد أن يستحضر لرسول الله ﷺ صورة أولئك الملعونين بقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقول:

إن فعلهم هذا هو شرّ وأسوأ ما قدّموه لأنفسهم ليوم القيامة ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ والذي يسبِّب لهم أولاً: غضب الله ومَقتَهُ الشديد ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وثانياً: الخلود في العذاب ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ..﴾ أي: إنَّ الإيمان بالله والإيمان بالنبي ﷺ - أي النبي محمد ﷺ أو غيره - والإيمان بما أنزل إلى النبي، يمنع صاحبه عن اتخاذ الكفار أولياء، لا محالة ويَرْدَعُهُ!

ثم يعقب تعالى على كل هذا بقوله: ﴿...وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: إنَّ كثيراً منهم خارجون عن الدين والفطرة وحكم العقل، وكل ما يقبح الخروج عن دائرته، وذلك لأن الله تعالى أطلق لفظ الفسق ولم يقيده بشيء، فيشمل كل شيء يستقبح الخروج منه.

سادساً: وفي الآيات (١ إلى ٣) من (الممتحنة) يخاطب الله تعالى المؤمنين، محذِّراً إياهم وناهياً إياهم عن اتخاذ الكفار الذين هم أعداءٌ لله تعالى، وأعداءٌ للمؤمنين في نفس الوقت، أولياءَ، وإظهار المودّة لهم، في حين انهم كفروا بالحق الذي أنزله الله على أهل الإيمان، وأخرجوا رسول الله ﷺ والمؤمنين من ديارهم، لا لِشيءٍ إلّا لإيمانهم بالله تعالى ربهم مالكهم، طالما يعدّون أنفسهم مهاجرين في سبيل الله ومجاهدين ومبتغين رضوان الله، وينبِّهِهم بقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي: أنا أعلم منكم بإسراركم وإعلانكم، لذا فإسراركم المودّة إليهم ليس خافياً عليَّ! ثم يعقب على هذا بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ وسواء السبيل هو صراط الله المستقيم المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

ثم يبيِّن لهم سبحانه وتعالى مواقف أعداءهم الكفار بقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ فيعدد فيهم مواقف، كلّها في غاية السوء:

أ - كلّما ظفروا بكم وواتتهم الفرصة، عادوكم: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾.

ب - ولا يقصرون في إيذائكم باليد واللِّسان، أي فعلاً وقولاً: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾.

ج - ويتمنّون ارتدادكم عن دينكم وكفركم بعد إسلامكم: ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

إذاً:

كيف يسمح مسلم لنفسه أن يتخذ مثل أولئك الأشرار أولياءَ؟!

ثم يعلن لهم سبحانه وتعالى أن الأقارب والأولاد الذين بسببهم ترتكبون خطيئة موالاة الكفار ومَودَّتهم والإرتباط بهم، لن ينفعوكم شيئاً يوم القيامة، بل الله يفصل بينكم وكلٌّ يستقر في المكان الذي أُعِدَّ له، حسب عمله وموقفه، ثم يعقب على كل هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إذن: فانظروا كيف تتصرّفون وماذا تفعلون!

سابعاً: وفي الآيات (١٤ إلى ١٩) من (المجادلة) يخاطب الله الحكيم رسوله محمداً ﷺ، ويكشف لَهُ أسراراً وسماتٍ أخرى من أسرار وسمات الموالين لأهل الكفر عموماً، واليهود الذين غضب الله عليهم خصوصاً، فيقول سبحانه أولاً: مُشَخصاً الجهة الكفرية التي يتولاها أولئك العملاء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم!..﴾ وهذا يعني أنه كيف يتسنّى لمن يَعدُّ نَفْسَه مسلماً، أن يتولّى جماعةً غضب الله عليهم؟!

ثم ثانياً: يبدأ بتعديد سمات أولئك الموالين للكافرين وأوصافهم، وذلك بالشكل الآتي:

١. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي ليسوا مسلمين ولا يهوداً، أو ليسوا مسلمين حقيقة، ولا كافرين ظاهراً، وهذا الوصف وكذلك سائر الأوصاف التي تأتي، إنما تَنطبق على المنافقين فقط.

٢. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنهم يحلفون كذباً، وهم يعلمون أنهم كاذبون وليسوا مُتوهِّمين أو مخطئين.

٣. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنَّ ما يفعله أولئك المنافقون، هو أسوأ الأعمال - في مجاله - على الإطلاق!

٤. ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: إنَّهم جعلوا من أيمانهم الكاذبة، وقايةً يَقُونَ بها أنفسهم: فكلّما ضاق بهم الأمر، لجؤوا لتبرئة أنفسهم إلى الأَيمان الكاذبة.

٥. ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم بمواقفهم اللئيمة هذه، يتسبّبون في صدّ أناس يتأثرون بهم عن التوجّه لدين الله ومنعهم من نور الهداية، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فاستحقوا بمواقفهم المخزية هذه، عذاباً مهيناً لهم، فوق العذاب الشديد الذي سبق ذكره!

ثم يبيِّن تعالى أن تلك الأَموال التي يحافظون عليها، أو يجمعونها بتلك المواقف الخسيسة، والأولاد الذين يولدون لهم، ويرتكبون هذه الفظائع من أجلهم، لن تُغْنِي عنهم شيئاً من الله تعالى يوم القيامة: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٦. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فهم يستمرون حتى في يوم القيامة على عادتهم الدنيئة (الحلف بالكذب)!

٧. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ فيخيِّل إليهم الشيطان اللَّعين، أنهم بادِّعائهم الإسلام الظاهري الخالي من الإيمان، أو

بقيامهم ببعض الأعمال النافعة للناس، صاروا على شيء من الدين! ولكنَّهم كاذبون في ادعائهم وواهمون في ظنونهم!

٨. ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: استولى عليهم الشيطان وتسلّط عليهم تسلّطاً تاماً[١].

٩. ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ وكيف لا ينسى الله، من صار من جنود الشيطان وأعوانه الذين يأتمرون بأمره؟!

١٠. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وهذا الوصف هو آخر ما وصف الله به أولئك المنافقين الموالين للكفار، وهو أنهم من حزب الشيطان، ولا شك أن حزب الشيطان، هم أخسر الناس في الدنيا والآخرة.

ثامناً: وفي الآية (٢٢) من (المجادلة) يخبر الله العليم نبيّه الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أنه لا يمكنه الحصول على أناس يؤمنون بالله واليوم الآخر، ثم يوالوُن ويوادُّون الذين يعادون الله ورسوله ويشاقونهما، وإنْ كان أولئك المحادُّون لله ورسوله، من أقرب الناس إليهم نسباً، من أبٍ وابنٍ وأخٍ وعشيرةٍ، وذلك بسبب تثبيت الله الإيمان في قلوبهم وتقويته إياهُم بإمداد خَاص منه... ثم يعلن جلَّ شأنه أن أولئك الأَخيار الذين استحقوا بفضل الله ورحمته، جنَّتَه ورضوانَه، من جرّاء عدم تولّيهم للكفار المعادين لله ورسوله ﷺ، هم حزب الله وجماعته الخاصة المفلحة في الدنيا والآخرة.

والآن ننتقل إلى الركيزة الثانية من القاعدة الثالثة من القواعد الثلاث، التي يتعامل أهل الإيمان فيما بينهم على أساسها:

٢ – وجوب البراءة من الكافرين:

ونكتب بإذن الله الحكيم هذه المسألة (أي وجوب البراءة من الكفار) في ضوء أنوار الآيات (٤ إلى ٩) من (الممتحنة):

---

(١) مختار الصحاح، ص١٥٣، لفظ: ح و ذ، والمعجم الوسيط، ص٢٠٥.

أولاً: قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ..﴾.

إذن:

فسيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام والجماعة المؤمنة الذين كانوا معه، قدوةٌ حسنةٌ للمؤمنين في إعلان البراءَة عن أهل الكفر كلِّهم أياً كانوا، ويحكي لنا سبحانه نصَّ قول إبراهيم وجماعته المؤمنة عندما واجهوا قومَهم الكفار، بإعلان البراءة منهم، فيقول: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ ثم بإعلان الكفر بعبادتهم والرفض لمعبوداتهم التي يعبدونها من دون الله: ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾، ثم بإعلان ظهور العداوة والبغضاء الأبدي الذي لا هوادة فيه، إلى أن يرجعوا عن الكفر، ويعلنوا إيمانَهم بالله تعالى وعبادتهم الخالصة له: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ..﴾.

ثانياً: ثم يستثني سبحانه وتعالى في مجال الإقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، موقفاً واحداً له، لا يجوز لنا الإقتداء به فيه، وهو استغفارُهُ لأبيه، لأنه كان موقفاً مبنياً على اجتهاد وعدم علم له بحال أبيه، وعلى أساس وعدٍ سبق منه له، ولكن بعدما تبيّن له حقيقَة أبيه المخفية عنه، تبرّأ منه، كما قال تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ..﴾، فقال تعالى مستثنياً ذلك الموقف المذكور: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

ثالثاً: ثم يذكر سبحانه وتعالى دعاءً، الظاهر من السياق أنه دعاء إبراهيم عليه السلام، ويتكون من فقرات لها ارتباط بموضوع موالاة المؤمنين والتبرّؤ من الكافرين:

١. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ إذْ لا بدّ للمتبرِّئ من الكفار، من التوكل على الله والإعتماد عليه.

٢. ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ ومن أيقن بالرجوع إلى الله ونيل ثوابه، هان عليه ما يحتمله من أجل رضوانه!

٣. ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والتوبة والإنابة إلى الله والقرب منه، يعطي الإنسان قوةً لا نفادَ لَها أبداً!

٤. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ . .﴾ ولكن التوكل على الله تعالى، لا ينافي سؤال الإنسان من ربّه، ألّا يُعرِّضه للعذاب والبلاءِ بيد الكفار، بل طلب العافية من الله واجب، إذ هو لا يدري ماذا يحدث له من جرّاء البلاءِ والإبتلاء!

٥. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفي الختام طلب المغفرة للذنوب والتقصيرات التي لا يخلو منها إنسان، وخاصة بالنظر إلى علوّ مقام الرب الجليل، وما ينبغي له من الطاعة والعبادة.

ووصف الله تبارك وتعالى بالعزة والحكمة، هو المناسب لهذا المقام الذي يجب أن يستخضر الإنسان فيه دَوْماً عزّة الله وحكمته، كي يُبْعِدَ عن نفسه الشعور بالضعف والهوان، عند رؤيته لقوة أهل الكفر وبطشهم، ووسوسة الشك والتردّد في تدبير الله الحكيم، الذي يدبِّرُ به أمورَ العباد، وإنْ خفيت عليهم في أحيان كثيرة، حِكَمُ الله البالغة إلى حين!

رابعاً: ثم يؤكد سبحانه مرةً أخرى، أن لأهل الإيمان في إبراهيم وأتباعه المؤمنين قدوة جيّدة، ما داموا راجين رحمة الله في الدنيا ولقاءه في الآخرة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ ثم يعقب على هذا بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: مَن اقتدى بإبراهيم ومن معه في موقفه من قومه الكفّار، فَبِها ونِعْمَتْ، ولكن من تولّى وأعرض عن الإقتداء بإبراهيم في هذا المجال، فهو لا يضرّ بموقفه الخاطيء وإعراضه المُشين سوى نَفْسِه، إذ الله تعالى غني غنىً مطلقاً، فهو ليس بحاجة إلى شيء من أحد، وهو الحميد المستحق للحمد المطلق، وسواء حمده الناس أم لا، فهو حميد يحمده من في السموات والأرض: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

خامساً: ثم يُطْمِعُ الله تعالى المؤمنين في حصول المودَّة والأُخوةِ بينهم وبين من يعادونهم لوجه الله تعالى، وذلك بسبب دخولهم في الإسلام ودخول الإيمان في قلوبهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾﴾ أي: ان الله تعالى قديرٌ على فعل ما ترونه أنتم بعيداً بل مستحيلاً، وهو غفور يغفر لمن أقبل إليه وأناب، ورحيمٌ يرحم من يشاء بما يشاء!

سادساً: ثم يبيِّن تبارك وتعالى لأهل الإيمان حقيقة عظيمة، وهي:

أَن أمر الله تعالى المؤمنين بالتبرّؤ من الكفار وعبادتهم وأديانهم، لا يعني أنه لا يجوز في مجال التعامل، أن يعامِلَ أهلُ الإيمان أهلَ الكفر على أساس البرِّ بهم والإِقساط إليهم – وقد بيّنا في السابق معنى البرِّ والإقساط في هذا الموضع –، وذلك لأن التبرّؤ من أديانهم ومعبوداتهم شيء، والتعامل معهم بالحسنى، شيء آخر، ولا منافاة بين الإثنين، ولكن التعامل بالبرّ والإِقساط، مُختصٌّ بالكفار الذين لا يعادون أهلَ الإيمان، ولا يضرونهم دينياً ولا دنيوياً، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ دليل على أن التعامل مع الكفار المسالمين على أساس البرِّ والإِقساط، ليس جائِزاً فَحَسْبُ، بل وواجب، وذلك لأن المسلم يجب عليه أن يتصف بالصفات التي تجعله محبوباً لله ومرضياً عنده، والبرّ والإِقساط من الأوصاف التي يحب الله تعالى أصحابها!

سابعاً: وفي الختام يبيِّن سبحانه مَن هم الكفار الذين لا يجوز لأهل الإيمان، أن يعاملوهم بالبرِّ والإِقساط، وهم مَنْ يعادونهم من أجل دينهم الحق الذي أنزله الله إليهم، أو يطمعون في خيراتهم وممتلكاتهم ويُخرِجونهم من ديارهم، أو يظاهرون ويعاونون من يعاديهم، ويطعنونهم من الخَلْفِ!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وأَودّ أن أختم هذا الموضوع الحسّاس، المهم الذي أولاه كتابُ الله عناية عظيمة واهتمَّ به اهتماماً خاصاً، بمطلبٍ رابعٍ، يَتَضَمَّنُ خمس فقرات هي كالخلاصة والنتيجة لكل ما مرّ ذكره.





المطلب الرابع:
خلاصة موضوع: وجوب تولّي المؤمنين، والبراءة من الكافرين

ويتكون هذا المطلب من خمس فقرات:

الفقرة الأولى: تولّي المؤمنين بعضهم بعضاً من دون الناس، وتجريد الولاءِ فيما بينهم، من أعظم الواجبات ولا يتم الإيمان بدونه:

والآيات التي أدرجناها سابقاً كلها دالّة على هذه الحقيقة، من رقم(٨) إلى (٢٣)، كل بصيغة تعبيرية خاصة، وإنما نوّع الله تبارك وتعالى التعبير عن هذه الحقيقة - كعادته في توضيح وتبيين الحقائق العظيمة - كي لا يبقى عليها أي نوع من الغموض، وتتجلّى بأجلى صورها.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى آيتين اثنتين منها فقط، وهما:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة]، إذْ يبيّن رب العزة جلّ وعلا في هذه الآية، أن المتولِّين لله ورسوله والذين آمنوا، والمتخذين الله تعالى ورسوله ﷺ وأهلَ الإيمان أولياءَ، هم وحدهم حزبُ الله وجماعته وخاصته.

٢. وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، وكذلك يؤكّد سبحانه في هذه الآية نفس الحقيقة، ومن مجموع الآيتين، نأخذ هذه الأنوار السبعة:

أولاً: الجهة الوحيدة التي يجوز بل يجب أن يتخذها المؤمنون ولياً، هي جهة الله تعالى ورسوله وأهل الإيمان، وقوله تعالى في الآية (٥٥) من (المائدة): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾ واضح وحاسم بهذا الصدد.

ثانياً: ذكر الله تعالى حزبين اثنين في كتابه هما: (حِزْبُ الله) و(حِزْبُ الشَّيْطَانِ)، وقد بيّن في كل من الآية (٥٦) من (المائدة) والآية (٢٢) من (المجادلة) أن المتولين لله ورسوله وأهل الإيمان، هم (حِزْبُ الله)، ومَعْلوم أن من لم يكن من حزب الله، فهو من حزب الشيطان، إذْ لا ثالث لهما، إذن: فالمتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء، هم وحدهم (حزب الله) تبارك وتعالى، ومن عداهم فهو حزب الشيطان.

ثالثاً: لم يذكر الله تعالى كلمة (حزب الله) في كتابه إلّا ثلاث مرات، وذلك في الآيتين (٥٦) من (المائدة) و(٢٢) من (المجادلة)، وفي المرات الثلاث، جعل الله تعالى الكلمة المذكورة (حزب الله) وصفاً للذين يتخذونه ورسوله وأهل الإيمان أولياء، وعليه: فتولّي الله ورسوله وأهل الإيمان، هو أخصّ صفات المؤمنين (حزب الله)، لذا فمن لم توجد فيه الصفة المذكورة، ليس من حزب الله، وبالتالي لا يعتبر مؤمناً بنص كتاب الله الواضح الصريح!

رابعاً: ووصف الله حزبه الذين يجرِّدون ولاءهم لله ورسوله وأهل الإيمان، ويقطعون صلتهم وارتباطهم بمن حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، بأنه كتب في قلوبهم الإيمان، أي ثبّته ورسّخه فيها، وبأنه أيّدهم بروح منه، أي قوّاهم بهداية خاصة منه، كما قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ..﴾.

وهذا يدل على أن الموالين لله ورسوله وأهل الإيمان هم وحدهم

الذين يثبت الله الإيمان في قلوبهم ويؤيِّدهم بروح منه! وواضح أن من لم يُثَبِّتِ الله في قلبه الإيمانَ فلا إيمان له، ومن لم يقوِّه الله فلا مؤيِّد له، ومن لم يثبت الله في قلبه الإيمان، ليس مؤمناً، ومن لم يؤيّده الله فعاقبته الوخيمة معلومة!

خامساً: ووصف الله العظيم حزبه الذين يجرِّدون ولاءهم لله ورسوله وأهل الإيمان، بأنه رضي عنهم ورضوا عنه: ﴿... رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ..﴾ ولا يوجد - حسبما أرى وبالنسبة لغير الأنبياء - مدحٌ وثناءٌ في كتاب الله، مدح الله به عبادَه وأَثْنى به عليهم، أعظم من هذا!

سادساً: ووصف الله الحكيم حِزبَه المتولِّين لله ورسوله والمؤمنين، بأنهم غالبون أي ظاهرون على أعدائهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

سابعاً: وكذلك وصفهم بأنهم (مفلحون) أي مدركون للغاية التي يَضبون إليها وناجحون: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.



الفقرة الثانية: تولِّي الكفار من أعظم الذنوب، بل التولي المطلق للكفار كفرٌ، وهو عادة المنافقين والمرتدين والملعونين من بني إسرائيل ومَرْضى القلوب:

والآيات التي أدرجناها في الأرقام (٨ إلى ٢٣) دالّة على هذه الحقيقة، كما وضحنا دلالتها سابقاً، ونكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث جمل قرآنية بهذا الصدد، وهي:

١. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ..﴾ [آل عمران] (٢٨) فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ حاسم وواضح وضوح الشمس في الظهيرة، أن من اتخذ الكفّار أولياءَ من دون المؤمنين، لا تبقى له أيّةُ صِلَةٍ بالله تعالى وبدينه!

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ...﴾ [المائدة] وهنا كلام الله جليٌّ، في أنَّ مَنْ مِنَ المؤمنين اتخذ اليهود والنصارى أولياء، فهو مثلهم، أي يصير مثلهم في الكفر والضلال، ولا يبقى على الإيمان والهدى!

٣. ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾...﴾ [المائدة] وكلام الله الحكيم بيّنٌ غاية البيان، في أن من كان عنده إيمان بالله وبالنبي وبالكتاب الذي أنزله إليه، لا يتولّى أهلَ الكفر، وعليه: فمن تولاّهم مِمّن يدّعون الإيمان، فهو كاذب في ادّعائه الإيمان والإسلام، بل هو كافر منغمس في الكفر، إذ لو كان عنده إيمانٌ، لمنعه من اتخاذ أعداءِ الله ومغضوبيه أولياءَ!

هذا بالنسبة لبيان أن التولِّي المطلق للكفار، كفر، وأما بالنسبة لكون

تلك الفعلة، من ديدن المنافقين والمرتدين والملعونين من بني إسرائيل ومرضى القلوب، فتدل عليه الآيات الآتية، والتي نكتفي بإيرادها هنا فقط، لأننا علّقنا عليها في السابق:

١. المنافقون: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء].

٢. المرتدّون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد].

٣. الملعونون من بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

٤. مرضى القلوب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴿٥١﴾ ... فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ... ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة].

وأُعلّق على هذه النقطة بملاحظتين:

الأولى: المقصود بـ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ - حسبما أرى - هو بعض المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، لذا فهم يتردّدون بين الإيمان والكفر، فتارة إلى هذا وتارة إلى ذلك، وقد يكون المقصود بهم، المنافقين الذين لم يبق لهم في الإيمان حظ ولا نصيب.

الثانية: ذكر الله تعالى الإرتداد عن الدين في الآية (٥٤) من (المائدة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ..﴾ وذلك بعد النهي والتحذير الشديد عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، يدل على أن الباب الواسع للإرتداد والخروج عن الإسلام - بالنسبة للمسلمين الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم - هو تولّي الكفار عموماً وأهل الكتاب منهم خصوصاً.



الفقرة الثالثة: الموالاة مع الكفار ليست على درجة واحدة، من حيث الحرمة والحكم، بل منها ما هو كفر، ومنها ما هو إثم وذنب وعظيم فقط:

نعم كما يبدو من الآيات المباركات التي استشهدنا بها، ومن سياقاتها الواردة فيها، ليست موالاة الكفار شيئاً واحداً، ينطبق عليها حكم واحد، بل هي أنواع ودرجات - أو الأصح أن نقول دركات - ولكل منها حكم خاص، فمثلا: من يتولى الكفار تَولِّياً مطلقاً بباطنه وظاهره قولاً وفعلاً، حباً فيهم ونُصْرةً لهم، يُعَدُّ كافراً وخارجاً من دائرة الإسلام بإطلاق، ولكن من يواليهم بعض الموالاة لا كلّها، كأن يُرْضِيهم ببعض الأقوال تَملُّقاً، وكأن يعاونهم ببعض الأعمال الجزئية التي لا تترتب عليها نتائج كبيرة، وأضرارٌ جسيمة لأهل الإسلام، وكذلك من يواليهم بعض الموالاة للحفاظ على بعض مصالحه، أو دَرْءِ بعض الأخطار الوهمية عنه، فهؤلاءِ حكمهم يختلف، ولا يخرجون من دائرة الإيمان والإسلام، وان كانوا يَبوؤُون بإثم عظيم بسبب موالاتهم الصورية الجزئية تلك.

والدليل على ذكرنا:

أولاً: ان الله تعالى رَتب على تولِّي الكُفّار وموالاتهم نتائج مختلفة ومتعدّدة، وليست نتيجة واحدة فقط، وذلك بحسب نوعية التولي وكيفية الموالاة، فمثلا: قال تعالى بالنسبة للذين يتولَّون الكفار عموماً، واليهود والنصارى خصوصاً، تولِّياً مطلقاً، بأنهم مثلهم، وبأنهم ليسوا من الله في شيء، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ..﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ..﴾ [المائدة]، ولكن قال بالنسبة للذين يوالون الكفار موالاة جزئية، وبدافع الحفاظ على بعض المصالح، وليس حباً فيهم، كما يدل عليه سياق الآيات، وتدل عليه قصة (حاطب بن أبي بلتعة) والتي هي سبب نزول الآيات التسع في بداية سورة (الممتحنة)، وخلاصة القصة إن (حاطباً) ﷺ وغفر له، كتب

رسالة إلى بعض المشركين في (مكة) - وذلك قبيل فتح رسول الله لمكة - يخبرهم فيها بنية رسول الله ﷺ لفتح مكة، ثم لما أَطْلَع الله نبيَّه على الموضوع، وأرسل إليه جبريل عليه السلام واكتشفوا الرسالة التي بعث بها (حاطب) بيد عجوز، وأخفت الرسالة في شَعْرها، وعاتَبَ رسولُ الله حاطباً، قال (حاطب) ما معناه: «والله يا رسول الله: ما نافقتُ، ولكني لم يكن لي أحد من الأقرباء مثل بقية الأصحاب في مكة، فأردت بهذه الرسالة أن تكون لي يد عندهم، حتى أحافظ على بعض ممتلكاتي في مكة»، صَدّقَهُ رسولُ الله ﷺ ولم يتهمه بكفر أو نفاق[1]، إذن: هذه الحادثة والآيات التي نزلت بشأنها، تدل على أن تلك الفعلة في حاطب غفر الله له، لم تكن موالاة مطلقة منه للكفار، بل كانت موالاة جزئية صورية، ولذا اختلف حكمها، كما يبدو ذلك واضحاً في الآيات المباركات المشار إليها، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾، ومعلوم أن قوله تعالى هذا، غير قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ وغير قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، إذ الضّلال عن سواء السبيل، ليس نصّاً في الكفر كما هو واضح.

والملاحظ أن الله تعالى ذكر (مودة) المؤمنين الذين يتخذون عدوَّ الله وعدوّهم أولياء، تجاه من يتخذونهم أولياء بتعبير يدل على أن تلك المحبَّة

---

(١) أنظر القصة في (صحيح البخاري)، رقم: ٤٨٩٠، وصحيح مسلم: ٢٤٩٤.
وهذا هو نص الحوار الذي جرى بين رسول الله ﷺ وحاطب:
(... فقال النبيُّ ﷺ: ما هذا يا حاطب؟! قال: لا تعجل علي يا رسول الله! إني كنت أمرءاً من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم، أن أصنع إليهم يَداً يَحْمونَ قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: إنه قد صدقكم...).

لم تكن سوى محبّة ظاهرية - أي مجاملة صورية بتعبيرنا في هذا العصر - ولا علاقة لها بالقلب، حيث قال تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، وواضح أَنَّ الإِلْقاءَ بالمودَّة، هو أن يُفْهِمَ الإنسانُ الطرفَ المقابل، ويُظْهِرَ له بأنه يحبُّه، وإِنْ لم يكن في الواقع ونفس الأمر هكذا، وكذلك الإسرار بالمودَّة، هو أن يُسِرَّ المرءُ إلى الطرف المقابل، أنه يحبُّه، وإِنْ لم يكن مُحِبّاً له بالفعل.

ثانياً: ومما يلاحظ في هذا المجال أيضاً، أَنَّ الله تعالى استعمل في كتابه الحكيم تعبيرين اثنين، هما:

أ - (تولِّي الكفار).

ب - (اتخاذ الكفار أولياء).

وقد رتَّب على تعبير (تولِّي الكفار) دَوْماً أوخم العواقب وأَقْسى الأحكام، التي تتمثل في الكفر والظلم وانقطاع الصلة بالله والرسول والكتاب من حيث الإيمان بهم، كما قال تعالى:

١. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

٢. ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

٣. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة].

ولكن تعبير (اتخاذ الكفار أولياء) ليس كذلك، بل تختلف نوعية الأحكام والعواقب المترتبة عليه حسب اختلاف الحالات، من كفرٍ وخروجٍ من الإيمان، إلى إِثم وضلال هو دون الكفر، كما يبدو من هذه الآيات:

١. ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ.. ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران].

ودلالة هذه الآية واضحة في الكفر.

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾؟! [النساء].

ولكن هذه الآية لا يفهم منها أكثر من الوقوع في الخطيئة والإثم الذي يستحق عليه العبد عقوبة الله تعالى.

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ... وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة].

وهذه الآية كذلك لا يفهم منها سوى الوقوع في الضلال والمعصية.

وجديرٌ بالذكر أن فعل (التولِّي) والذي هو على وزن (التفعّل) يدل على أن صاحِبَهُ جهد نَفْسَهُ وبذل أقصى ما في وسعه في فعلته المشينة (موالاة الكفار)، ولهذا لم تأت هذه الصيغة إلّا في السياقات التي تدل على أن صاحبه قد اتصف بالموالاة المطلقة للكفار، ولكن صيغة (اتخاذ الكفار أولياء) ليست كذلك، بل هي صالحة لكلتا الحالتين: (الموالاة المطلقة) و(الموالاة الجزئية)، أو (الموالاة الحقيقية) و(الموالاة الصورية)، أو (الموالاة الخاصة) و(الموالاة العامة)، أو (الموالاة التي هي كفر) و(الموالاة التي هي معصية).



الفقرة الرابعة: البرِّ مع الكفار المسالمين والإقساط إليهم، ليس موالاة بالمفهوم المطلق، بل هو نوع جزئي منها، وهو جائز وقد يجب:

وبما أننا قد تحدثنا عن هذه المسألة في النقطتين السادسة والسابعة من الركيزة الثانية للقاعدة الثالثة، لتعامل أهل الإيمان فيما بينهم، فلا داعي للتكرار هنا، ولكن نُذكِّر بأن مسألة الإحسان إلى الكفار في مجال التعامل، والذي يتمثَّل في البرِّ المعنوي والإقساط المادي، مبنيٌّ على أصل (كرامة الإنسان) كإنسانٍ، وبَغِضِّ النظر عن دينه وسائر خصوصياته الجِبِلِّية والإِختيارية، والتي هي مصونة ومحفوظة ومضمونة في دين الله القيم، لكلّ الناس عموماً، ولكل إنسان خصوصاً، كما وضّحنا ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، في المبحث الخامس المعنون: (ما هي الأصول الكلية للتعامل مع الناس عامة؟!).

وأما كيفية فهم كون البرِّ مع الكفار المسالمين والإقساط إليهم، نوعاً من الموالاة الجزئية الجائزة المستثناة من الموالاة المطلقة، من الآيتين (٨ و٩) من (الممتحنة)، فَسَنُلْقي الضوء عليها في الفقرة الثانية من المطلب الأول من المبحث الرابع من الفصل الثالث، من هذا الكتاب بإذن الله وتوفيقه.

الفقرة الخامسة: التقيَّة مع الكفار في حالة الضعف جائزٌ، وهي ليست من الموالاة في شيء، وقد تجِبُ إذا ما توقف عليها تحقيق مقاصد شرعية:

وذلك لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران].

وقد تحدثنا عن هذه الآية من قبل فلا نعيده، ولكن نذكر بأن المقصود بالتقيَّة: الموالاة التي تتمثل في التعامل مع الكفار بأسلوب حكيم لَيِّنٍ يُجَنِّبُ الإصطدامَ بهم، وليس المقصود بها التملّق والتزلُّف إلى الكفار، والتنازل عن المبادئ ودَوْسها كما يتصور البَعضُ! ثم تجب الموازنة الدقيقة بين فائدة التقية والمداراة مع الكفار، والأضرار والمفاسد التي تترتب عليها، وكذلك تجب الموازنة بين العواقب الناجمة من ترك المداراة، وتكاليف المواجهة والمستلزمات التي يتطلبها، ثم في ضوء نتائج هذه الموازنات يُجرى اتخاذ القرار المناسب للمرحلة، والمتكافئ مع القُدرات والإمكانيات المتاحة لأهل الإسلام.

وأما دليل وجوب التقية والمداراة، إذا ما توقف عليها تحقيق مصالح شرعية، لا يمكن التوصل إليها إلّا من خلالها، فهو القاعدة الشرعية التي اتفق عليها العلماءُ قاطبة والتي تقول: (للوسائل حكم مقاصدها) وكذلك قاعدة (ما لا يتم الواجب إلّا به، فهو واجبٌ) وهما قاعدتان شرعيتان صِيغَتا في ضوء آيات وأحاديث كثيرة، تركزُ على تحقيق المصالح الإستراتيجية الكبرى، وإن كان بِتَحَمُّل بعض الأضرار المرحلية الصغيرة، ودَفْعِ المضار الكبيرة، وإنْ كان بتفويت بعض المصالح الجزئية، وخير تطبيق لهذا الدليل في هذا المجال، هو فعل العبد الصالح (الخضر) ﷺ مع موسى عليه السلام، لما خرق السفينة، ثم برّر فعله، بأنه خرقها حتى لا يطمع فيها الملك الظالم، الذي كان من عادته أن يغتصب السفن الصالحة، ومعلوم أن بقاء السفينة لأصحابها المساكين، مع خرق بعضها، خيرٌ وأصلح لهم من فقدانها

باستيلاء الملك عليها: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ۝٧٩﴾ [الكهف].

وآخر ما أريد قوله في مجال استعمال التقية والمداراة مع أهل الكفر، هو:

١. أنه يجب الحذر الشديد من الوقوع في خطأي: ١ ـ الإفراط المتمثّل بالدخول في المواجهة من دون تهيئة الأسباب، بسبب التهوّر والإستعجال. ٢ ـ التفريط المتمثّل في التقية والقعُود، مع سنوح الفرصة وتوفُّر الأسباب، بسبب الجُبْنِ والخَوْر.

وواضح أن كلا الأمرين مذموم، وعلاج الأول، هو التعقل والواقعية أو معرفة الواقع وفقهه كما هو، - طبعاً بعد الفقه في الدين -، كما أن علاج الثاني، هو التوكل على الله تعالى والعزيمة والإقدام.

٢. لا يجوز الإقدام على أحد الأمرين - أي التقية أو المواجهة - إلّا بعد دراسة الأمر وتَفَحُّصه من جميع جوانبه، والنظر إليه من جميع زواياه، وذلك لا يمكن تحقيقه إلّا بإتباع أمر الله تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ۝٣٨﴾ [الشورى]، واتخاذ القرارات الفردية في هذا المجال، يَجُرُّ إلى أوخم العواقب، وهل تكون عاقبة مخالفة شرع الله تعالى إلّا وخيمة؟!

وبهذا ننهي الكلام عن هذا المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا الكتاب، وننتقل الآن بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل الثالث منه.



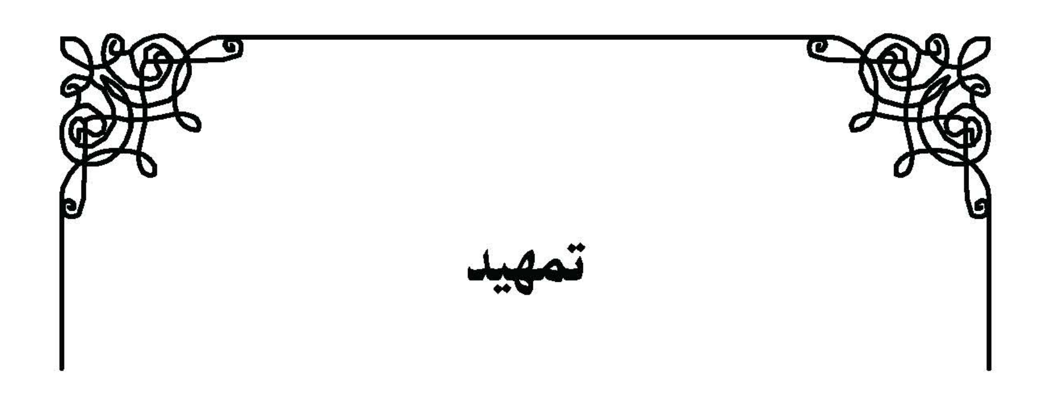

MediaAmeerOffice
له تۆڕه كۆمەڵایەتییەكان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
www.alibapir.net
English - عربي - كوردی
AliBapir / عەلی باپیر
راگەیاندنی مەكتەبی ئەمیر



الفصل الثالث

تعريف الكفار وأوصافهم وأصنافهم


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
Google Play
App Store
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
English - عربي - کوردی
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تمهيد

نتناول في هذا الفصل الثالث، الكفّارَ من حيث التعريف بهم، من خلال ما ذكره الله تعالى عنهم في محكم كتابه، من خصائص وأوصاف.

ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث:

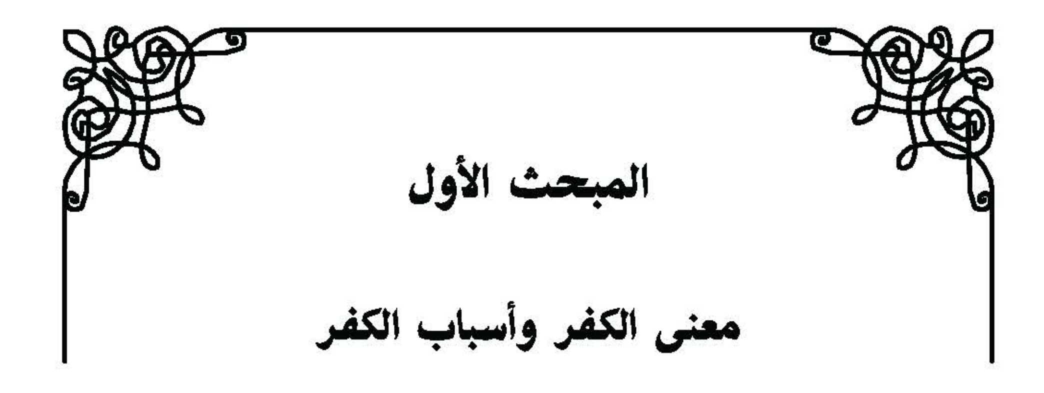
المبحث الأول: معنى الكفر وأسباب الكفر.

المبحث الثاني: أوصاف الكفار العامة المشتركة بينهم.

المبحث الثالث: أصناف الكفار وخصائصهم.

ونشرع بإذن الله وتوفيقه بالمبحث الأول:





المبحث الأول

معنى الكفر وأسباب الكفر

لا شك أنه من الضروري أن نتحدَّث عن الكفر ونعرِّفه، قبل الحديث عن الكفار وأوصافهم، وكيفية التعامل معهم، ولكن بما أنَّنا قد تناولْنا هذا الموضوع في الفصل الأول من الباب الثاني (أي الكتاب الثاني) بالتفصيل، وذلك عند الكلام عن الإيمان ومكوِّناته وآثاره، وذلك على قاعدة: (بأضدادها تتبيَّن الأشياءُ)، فلا نرى لزوماً بإطالة الكلام فيه هنا، وتكرار ما قلناه هناك، إذ تحدَّثنا هناك وبشيء من الإسهاب عن تعريف الكفر، من حيث مكوِّناته وآثاره، كما وسنتحدَّث إِن شاء الله في المبحث الثاني من هذا الفصل، عن أوصاف الكفار العامة المشتركة بينهم، وكذلك سنتحدث إِن شاء الله في المبحث الثالث وعند الكلام عن المرتدين، عمّا يرتد به المسلم عن دينه ويصبح كافراً، لذا نكتفي هنا بالحديث عن مسألتين في مطلبين:

المطلب الأول: معنى الكفر.

المطلب الثاني: أسباب الكفر.

***

المطلب الأول:
معنى الكفر

الكَفْر في اللغة العربية يعني السَّتْر[1] والإخفاء، وسُمّي الكافِرُ كافراً لأنه يَسْتُرُ الحقيقةَ التي فطره الله عليها وعلى معرفتها والشعور بها، ويُخْفِيها، وهي توحيد الله تبارك وتعالى في خالقيته وربوبيته وألوهيته له وللخلق كلِّه، وعبوديته هو لله تعالى، وعبودية كل المخلوقات له.

والدليل على أن الكفر من (الكَفْر) الذي هو بمعنى الستر والإخفاء، وأن الكافر هو الساتر المُخْفي، علاوة على قواميس اللغة العربية بل وقبلها، هو قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

والشاهد في الآية هو أن الله بعد أن يصف الحياة الدنيا، بأنها لعب ولهوٌ وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، يشبِّهها سبحانه وتعالى في بهرجها المؤقت وسرعة انقضائها، بالزرع النابت بسبب المطر النازل من السماء، حيث عندما ينمو الزرع ويترعرع ويكتمل نموه، يُعْجَبُ به زُرّاعه ويفرحون، وقد سمَّى الله تعالى الزّراع الذين يزرعون زرعهم ويُشرفون عليها، بالكفّار، والكُفّار جمع (كافر) وهو الزّارع: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

---

(١) أنظر: (مختار الصحاح) ص ٤٩٦، ٤٩٧، لفظ: ك ف ر.

﴿ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ومن الواضح أن سبب تسمية الزرّاع كفاراً، هو كونهم ساترين لبذور الزرع بالتراب ومُخْفِينَ لها تحته.

هذا بالنسبة لمعنى كلمة (الكفر) في أصلها اللّغوي، والتي استعملها الشرع على أصل معناها اللّغوي، للتعبير عمّا يريده من المعاني المنسجمة مع معناها اللغوي.

وأما بالنسبة لمعنى كلمة الكفر في اصطلاح الشرع، فَتُجَلّيه لنا هذه الآياتُ المباركاتُ، من كتاب الله الشكور جل جلاله:

١. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ [الأنفال].

٢. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة].

٣. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم].

٤. ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم].

٥. ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [الشعراء].

ويَتَبيّن لنا من هذه الآيات المباركات، التي ليست سوى أمثلة في بابها، أن كتاب الله الحكيم استعمل كلمة الكفر، كمصطلح شرعي بمعنيين اثنين:

١ - عدم الإيمان بالله ورسوله وآياته، وبكل ما أمر الله تعالى أن يُؤْمَنَ به.

٢ - عدم الشكر لله على نعمه.

وذلك لأنّه:

أولاً: الآية (٥٥) من (الأنفال) يبيِّن فيها ربُّنا عزَّ وجلَّ، أَنَّ الكفار هم شرُّ الكائنات التي تدبّ على الأرض، بسبب عدم إيمانهم، وهذا يعني أن الكفر معناه عدم الإيمان، أو بتعبير آخر: إن الكفر هو عكس الإيمان وضدّه ـ في أحد مَعْنَيَيْهِ ـ.

ثانياً: وفي الآيتين (٦٥ و٦٦) من (التوبة)، واللتان تتحدّثان عن بعض مواقف المنافقين، يأمر سبحانه وتعالى نبيَّه أن يقول لهم بعد أن اعتذروا عن بعض الأقوال الكفرية التي صدرت منهم؛ بأنهم كانوا مازحين وهازلين وغير جادّين: أوَ تَمْزَحُون وتسخرون بالله تعالى وبآياته وبرسوله ﷺ؟! لا تعتذروا ـ بهذه الأعذار الواهية التي هي أقبح من الذنوب ـ واعلموا أنكم قد كفرتم بعد إيمانكم، بكل ما يجب أن يُؤْمَنَ به!

وهذا أيضاً دليل على أن الكفر يضادّ الإيمان ويعاكسه، وأن من فقد الإيمان فقد استقر في قلبه الكفر.

ثالثاً: وفي الآية (٧) من (إبراهيم) يعلن سبحانه وتعالى عن إحدى سننه، وهي أن مَنْ شكر الله تعالى على نِعَمِهِ، يزيده سبحانه منها، ولكن منْ قابل نِعَمَه بالكفران بدل الشكر، فإن عقوبته شديدة لمن يكفرُ بِنِعَمِهِ، بأن يسلبها منه في الدنيا ويعاقبه عليها في الأخرى، ـ أي على عدم شكر الله تعالى عليها ـ.

وهذه الآية واضحة الدلالة على أن المقصود بكلمة الكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هو كفران النعمة وعدم الشكر، بدليل مقارنتها بالشكر مقارنة الضدّين، كما هو واضح في السياق، لأن الله تعالى رتب على الشكر الزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ولكن رتَّب على الكفر، عكس الزيادة، وهو العذاب الشديد ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

إذن: فالمعنى الثاني للكفر في اصطلاح كتاب الله، هو الكفران وعدم الشكر.

رابعاً: وكذلك الآية (٣٤) من (إبراهيم) استعملت فيها كلمة (كفار) بمعنى الجاحد لنعم الله وغير الشاكر لها، كما هو واضح في سياق الآية: ﴿...وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ حيث يبيِّن سبحانه وتعالى أن نِعَمَ الله لا تعدّ ولا تُحصى، وهذا يستوجب من الإنسان أعظم الشكر لله تعالى، ولكن الإنسان - الذي لم تصله هداية الله أو الإنسان الكافر - كثير الظلم لنفسه، وكثير الكفران لنعم ربِّه، وكفرانه لنعم ربّه عليه، من أظلم الظلم وأفظعه على نفسه!

خامساً: وهكذا الآيتان (١٨ و١٩) من (الشعراء)، واللّتان يَمُنُّ فيهما فرعونُ على موسى عليه السلام، لكونه رُبِّيَ في بيت فرعون، وذلك بعد أن رَمَتْهُ به أُمُّهُ في البحر خوفاً من فرعون، ثم التَقَطَهُ آل فرعون! ثم يوِّبخُ فرعونُ موسى عليه السلام على قتله القِبْطيَّ الذي تعارك مع الإسرائيلي وضَرَبَهُ موسى فقتله، ثم يقول فرعون لموسى بعد أن ذَكَّرَهُ - حسب ظنه - نِعَمَهُ: ﴿...وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وأنت الآن، أو بعد قتلك القبطي، من الناكرين للجميل وغير الشاكرين للنعمة! وواضح وضوح الشمس من السياق أن قصد فرعون بقوله: ﴿...وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وأنت من الجاحدين للنعمة التي ذكّرتك بها، والناكرين للجميل الذي أسْدَيته إليك، ولا يقصد بالكفر هنا، عدَمَ الإيمان والإعتقاد، لأن فرعون لا يلوم ولا يوبِّخ موسى عليه السلام ولا غيره على عدم الإيمان!

وعليه:

فمعنى كلمة الكفر، في اصطلاح الشرع - أي: في استعمال كتاب الله الذي هو أساس الشرع ومتنه - هو:

١ - عدم الإيمان - بالله تعالى وبكل ما أمر الله تعالى أن يُؤْمَنَ به -.

٢ - الكفران - أي: جحود النعمة ونكران الجميل وعدم الشكر -.

وكلا المعنيين مُبْتَنيان على المعنى اللغوي الأصلي لكلمة الكفر، الذي هو السَّتْرُ والإخفاء والتغطية، وذلك لأن الكفر بالله تبارك وتعالى من الكافر، هو إخفاءُ الحقيقة المفطورة عليها فطرته، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

﴿حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ. . ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

وقال تعالى مبيِّناً أن الكافر يُخْفي في الدنيا الحقيقة الفطرية التي لم يأت الدين الحق إلّا لتأييدها والأخذ بيدها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

فقوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ أي: ظهر لهم وانجلى لهم الشيءُ الذي كانوا يكتمونه ويَتَسَتَّرون عليه، ولا يَسْمَحون له بالظهور في الدنيا، وهو حقيقه التوحيد التي جُبِلَت عليها فطرتهم.

وكذلك كفران النعمة، هو إخفاءُ النعمة وإهمالُها، بعدم الشكر عليها، أو نسيان صاحبها المنعم بها، وجحود فضله وإحسانه، وهذا أيضاً في معنى السَّتْر والإخفاءِ كما هو واضح، وقال تعالى بهذا الصدد: ﴿. . .وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل] فقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا. .﴾ أي: يعرفون أن هذه النِّعَم أنعم الله تعالى بها عليهم، ثم يُنْكرونها ويجحدونها بعدم عبادتهم للمنعم الجليل، وهذا أعظم نكران لجميل الرب الجليل تبارك وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: وأكثر الكافرين غير شاكرين لنعم الله تعالى، بأن يستعملوها في مرضاة الله، كأن يساعدوا الفقراء ويأخذوا بيد المحتاجين، وانما قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يَقُلْ: كُلُّهم، لأنه كان مِنَ الكفار والمشركين، مَنْ يقوم بمساعدة الناس، وهذا نوع من الشكر! ولو كان المقصود بالكفر هنا هو الكفرَ، في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأصبح معنى الآية هكذا: وأكثر الكفار كافرون! وهذا معنى لا يستقيم، وذلك لأن الكفار كلُّهم كافرون، وليس أكثرهم، ولا يوجد فيهم من ليس بكافر، الكفر الذي هو نقيض الإيمان، ولكن ليس كلُّهم كافرين، الكفر الذي هو نقيض الشكر

والمصطلح عليه بالكفران، لأنه كان بعضهم يقوم ببعض الشكر، والشكر هو استعمال النعمة في مرضاة المنعم بها.

ويَنبني على تعريف الكفر والكفار هذا:

أَن مَنْ لم تبلغه الدعوة الإسلامية بالصورة الشرعية الصحيحة، وكان جاهلاً بدين الله الحق، جهلاً يُعْذَرُ به شرعاً - أي: لم يَكُنْ جهله جهل إعراض وتعمُّد -، فهؤلاء لا ينطبق عليهم التعريف المذكور، وبالتالي فليسوا كفاراً بالمعنى الشرعي الصحيح الدّقيق، بل يُعَدّون من (أهل الفترة)، وقد أشرنا إلى هذه المسألة في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الكتاب الحادي عشر، أيضاً.

وبناءً عليه: فكل ما نذكره فيما بعد عن الكفار وكيفية التعامل الشرعي معهم، فـ(أهل الفترة) مُسْتَثْنون منه، اللّهم الا إذا قُصِدَ بـ(الكفّار)، (غير المسلمين) كلّهم، سواء منهم الذين بلغتهم دعوة الحق، فرفضوها عناداً، أو أعرضوا عنها استكباراً، أو الذين لم تبلغهم الدعوة أصلاً، من غير أن يكون لهم تقصير وتعمّد في ذلك.

وحكمة عدم جواز التعرّض للكفّار المحاربين، الا بعد الإعلام وتبليغ الدعوة - كما سَنُفَصِّلُ هذا الموضوع فيما بعد - هي أنَّ هناك احتمالاً بوجود بعض الفتريّين الذين لم تبلغهم الدعوة، في صفوف أولئك الكفار المحاربين، لذا أوجب دين الله الحكيم، تقديمَ الدعوة في كلِّ الأحوال على البدء بالقتال.

ولا شك أن خطابات كلام الله المبارك العامة، للبشر كلِّهم، مثل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ مشتملة على البشر كلِّهم، بما فيهم أهل الفترة.

والآن ننتقل إلى المسألة الثانية من هذا المبحث:

المطلب الثاني:
أسباب الكفر

ونقصد بأسباب الكفر، الدوافع التي تدفع الناس للكفر بربهم، وللكفران تجاهه، وتحولُ بينهم وبين الإيمان بربهم، وشكره على نعمه الجزيلة، ومواهبه الكثيرة، وبركاته الوفيرة.

وللتعرّف على أسباب الكفر وعوامله، التي تدفع الكفار إلى الكفر - بمختلف أصنافهم - ما علينا إلّا أن نتأمل الآيات المباركة الآتية، والتي هي أمثلة فقط لآيات كثيرة:

١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة].

٣. ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف].

٤. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال].

٥. ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤﴾ [الأنبياء].

٦. ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

٧. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر].

٨. ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

٩. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

١٠. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم].

١١. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

١٢. ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف].

١٣. ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

١٤. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر] .

١٥. ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر].

١٦. ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل].

١٧. ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت].

١٨. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس].

١٩. ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود].

٢٠. ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [الأحقاف].

٢١. ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم].

٢٢. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف].

٢٣. ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء].

٢٤. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ].

٢٥. ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم].

وبعد التدبّر في هذه الآيات وأمثالها، التي تتحدث عن الكفار والأسباب التي أدّت بهم إلى موقفهم الرافض للحق الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يتبيَّن لنا أن أسباب كفر الكافرين، وعوامل ضلالهم وانحرافهم، تتلخصُ في ثلاثة أشياء:

١. **الجهلُ والسَّفه والتقليد.**

٢. **التكبّر والإِستكبار.**

٣. **التَّرَفُ وإيثار الحياة الدنيا.**

وقد قسمنا الآيات المدرجة، تحت الأرقام الخمسة والعشرين، إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو يشتمل على الآيات (١ إلى ١٠)، يُبيِّن لنا كيف أن الجهل والسَّفه، وتعطيل القوى الإِدراكية، يؤدي بالإنسان إلى الكفر والضلال.

والقسم الثاني: الذي يشتمل على الآيات (١١ إلى ١٧)، يُجلِّي لنا أن التكبّر والعلوّ، هو الآخر يؤدِّي بصاحبه إلى الكفر والطغيان.

والقسم الثالث: المشتمل على الآيات (١٨ إلى ٢٥)، يُظْهِرُ لنا أن الترف والبطر، سبب آخر، من أسباب كفر من يكفر بالله واليوم الآخر ويصبح عبداً للدنيا وملذّاتها.

والآن لنعلّق باختصار على الآيات المباركات في المجموعات الثلاث، في ثلاث فقرات:

الفقرة الأولى: الجهل هو السبب الأول لكفر الكافرين:

والآيات (٧) و(١٧٢) من (البقرة)، و(١٧٩) من (الأعراف)، و(٢) من (الأنفال) دالَّة أوضح دلالة، على أن الجهل الناتج عن تعطّل القوى الإدراكية، من سمع وبصر وعقل وقلب، هو السبب الأساس لكفر الكفار، حيث يعلن سبحانه في بعضها: أن القوى الإدراكية للكفار مختوم عليها (أي مطبوع)، وهذا كناية عن انغلاقها، لأن الكتب والرسائل لا تختم الا بعد لفّها وإغلاقها! ويبيِّن في بعضها: أن الكفار صُمٌّ (جمع أصمّ وهو الأطرش) وبكم (جمع أبكم وهو الذي لا ينطق) وعمي (جمع أعمى)، وواضح أن المقصود بصمم الكفار، وبكمهم، وعماهم، ليس عدم امتلاكهم للآذان والألسنة والأعين، بل المقصود به: عدم استخدامهم لهذه الأعضاء لمعرفة الحق، وتعطيلها عن وظائفها الفطرية، ولهذا استوى وجودها وعدمها! وقد شرحنا هذا الموضوع في الكتاب العاشر، في الفصل الأول منه، لذا اكتفينا هنا بهذا التعليق الوجيز على هذه الآيات.

وكذلك تدل عليه كلٌّ من الآيات: (٢٤) من (الأنبياء)، و(٤٣ و٤٤) من (الفرقان)، و(٨٣) من (غافر)، و(٥٤) من (الزخرف)، و(٢٣ و٢٤) من (الجاثية)، و(٢٩ و٣٠) من (النجم).

حيث ينفي سبحانه وتعالى في الآية (٢٤) من (الأنبياء) (العلم) عن الكفار ويعتبره سبب كفرهم: ﴿...بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾، وأما في الآيتين (٤٣ و٤٤) من (الفرقان) فيعتبر سبحانه وتعالى الكفار عابدين لهواهم، ويقرر أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون، فهم كالأنعام بل وأسوأ حالاً منها: ﴿...إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وفي الآية (٨٣) من (غافر) يعتبر جلّ شأنه، فَرَح الكفار واغترارهم، بما عندهم من العلم (الظاهري الجزئي)، وعدم استماعهم للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سبَبَ كفرهم وضلالهم، وذلك لأن العلم الحق الوحيد الذي بدونه لا يهتدي الإنسان، ومن دون الأخذ به، لا ينجو من الجهل والحماقة، ولو كان عنده من العلم الجزئي بالأمور المادية الدنيوية، قسط وافر، هو العلم

الربّاني الآتي من الله تبارك وتعالى عن طريق الوحي.

وفي الآية (٥٤) من (الزخرف)، يبيّن الله الحكيم أن قوم فرعون، إنما أطاعوا فرعون، بعد أن صاروا خفاف العقول! أي: إن فرعون لعنه الله، لم يتمكن من استعباد قومه إلّا بعد استحمارهم: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ..﴾!

وفي الآيتين (٢٣ و٢٤) من (الجاثية)، يصف سبحانه وتعالى قسماً من الكفار، بأنهم اتخذوا هواهم إلهاً لهم، وبأنهم قد أضلهم الله تعالى بالرغم من تمكُّنهم من العلم، إذن: فالعلم وحده ليس كافياً لاهتداء الإنسان، بل لا بدّ من أَنْ تتحرك فيه الإرادة والرغبة أيضاً! وبأنه قد ختم الله على قلوبهم وسمعهم وجعل على بصرهم غشاوة، ثم يتساءل سبحانه فيقول: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾!!، وربما يخيّل من هذه الجملة الشريفة، أنّها تُفيد جبر الله تعالى الكفار على الكفر والضّلال!! ولكن ليس المعنى كذلك، بل المقصود من إضافة الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، هو أن الختم والتغشية، إنما يجريان بمشيئة الله تعالى وحسب سننه، إذْ من سنن الله تعالى، أنَّ من اتخذ غير الله إلهاً، يُطْبَعُ على قلبه وسمعه ويُغشى على بصره، وواضح أن المقصود بالختم والتغشية، هو تعطّل هذه القوى الإدراكية عن وظائفها الفطرية.

ثم يذكر سبحانه أن أولئك النوع من الكفار - وهم الملاحدة كما يبدو - يقولون: إنّه ليست هناك حياة أخرى، سوى حياتنا الدنيوية هذه، فنموت ونحيا، وما يهلكنا إلّا الزمان! أي لا يوجد مالك ورب لهذا الخلق يقوم بتدبيره، ومن ضمنه الإحياء والإماتة، بل الأمور تجري بنفسها فحسب!! ويكتفي سبحانه من التعليق على هذه السخافة بقوله: ﴿...وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: إن قولهم هذا ليس مبنياً على العلم والبرهان، بل صادر من الجهل المبنيّ على الظن!

وفي الآيتين (٢٩ و٣٠) من (النجم) يأمر الله تعالى نبيَّه الكريم، أن يُعْرِض عن الكافر الذي تولّى عن كتابه، ويهمله، طالما هو لا يريد سوى

الحياة الدنيا! يقول: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ أي: إنَّ الكفار لا يملكون ذلك العلم الحق الذي يؤدِّي بهم إلى رؤية الآخرة مع الدنيا، لذا فهم لا يَعْرِفون سوى هذه الحياة المؤقتة الفانية، التي لا تعتبر شيئاً بالقياس إلى الآخرة، وإنَّما قيمتها تكمُن في جعلها وسيلة لنيل رضوان الله وثوابه في الآخرة.

وهكذا تبيِّن هذه الآيات المباركات، أن الجهل والسَّفَه الناشيء عن تعطُّل القوى الإدراكية والمعرفية في الكفار، هو السبب الأساس لضلالهم وانحرافهم عن جادة الإيمان والتوحيد، وتُرْديهم في هاوية الكفر.



الفقرة الثانية: التكبُّر والإستكبار سبب ثانٍ لكفر الكافرين:

وتدل على أنَّ التكبّر والإستكبار أيضاً سبب مهم في اختيار الكفار مستنقع الكفر والضلال، على طريق الإيمان والهدى المستقيم، آيات كثيرة جداً، منها:

الآية (٩٣) من (الأنعام)، إذ يصوّر الله تعالى فيها حالة احتضار الكفار المستكبرين، وكيف أَنَّ الملائكة القابضين لأرواحهم، يَمُدُّون إليهم أيديهم لنزع أرواحهم الخبيثة، ويقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾! إذا: يُثبِتُ الملائكة القابضون لأرواح الكفار على الكفار، جريمتين:

أولهما: الإفتراء على الله، والقول على الله بغير الحق، وذلك كادِّعاء الشريك لله تعالى أو الأولاد، أو كادِّعاء إنزالٍ مثل إنزالِ الله من الكتاب، أو النبوَّة، وحسب دلالة السياق، هذان الأخيران هما المقصود هنا.

ثانيهما: الإستكبار عن آيات الله، أي: رفضها وعدم قبولها وعدم الإستسلام لأحكامها.

وكذلك تدل عليه الآيتان (٣٥ و٣٦) من (الأعراف)، حيث يخاطب الله تبارك وتعالى، بني آدم جميعاً، بأنه إذا ما جاءهم رسلٌ منهم، فأمّا (المستجيبون) المتقون المصلحون، فلا يُصيبهم في الآخرة، خوف ولا حزَن، وأمّا (الرافضون) المكذِّبون بآيات الله والمستكبرون عنها، فماذا يتوقَّعون سوى مصاحبة النار والخلود فيها؟! ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وتدل عليه أيضاً الآيات (٣٣ و٣٤ و٣٥) من (الصافات)، والتي يُعْلِمُ فيها ربُّ العزّة جلَّ شأنه، أن التابعين والمتبوعين من الكفار، يشتركون في عذاب الآخرة، وهذه هي سنة الله الجارية في معاملة المجرمين - ويلاحظ أَنَّ الله تعالى يَعُدُّ المستضعفين والمستكبرين من الكفار، مجرمين سواء بسواءٍ! وفي هذا عبرة وأي عبرة للذين يخنعون ويخضعون للطواغيت

ويتذرّعون بالضعف وعدم القدرة - ! ثم يذكر جلّ جلاله أنّ علّة إجرام هؤلاء الكفار، والسبب الذي أوْدى بهم، هو استكبارهم في مقابل كلمة لا إله إلا الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾!.

وفي كل من الآية (٦٠) و(٧٢) من (الزمر)، يعرّف الله تعالى الكفار الجهنّميين بكونهم (متكبِّرين)!

وفي الآيتين (١٣ و١٤) من (النّمل)، يبيِّن سبحانه وتعالى موقف فرعون ومَلَئِه، تجاه موسى عليه السلام، والآيات العظام التي أعطاه الله إياها، بأنهم سَمَّوْا الآيات البيِّنات التي جاءهم بها، سحراً مبيناً، وانهم أنكروها وجحدوها مع يقينهم بحقانيتها، بسبب ظلمهم وعلوّهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ ..﴾، وهذا يعني أن ظلمهم وعلوّهم وتعاليهم على الناس، هو الذي أدّى بهم إلى رفض الحق الذي جاءهم به موسى من عند الله تبارك وتعالى.

وفي الآية (٣٩) من (العنكبوت)، يبيِّن الله تعالى موقف الثالوث المشؤوم: (قارون، فرعون، هامان) بأنهم استكبروا أمام البيِّنات التي جاءهم بها موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وسنتحدث في نهاية هذا المبحث بشيء من التفصيل عن هذا الثالوث، وما يرمز إليه في كتاب الله الحكيم.



الفقرة الثالثة: الترف وإيثار الحياة الدنيا، سبب آخر لكفر الكافرين:

وهذه الحقيقة أيضاً بيّنها الله تعالى في آيات كثيرة، وإذا كان إيثار الحياة الدنيا، مما يشترك فيه الكبراء والضعفاء، أو الرؤساء والمرؤوسون، أو المتبوعون والأَتباع من الكفار، فإِن الترف والإِتراف مِمّا يختص به الكبراء والرؤساء، دون أكثرية أتباعهم، الذين لا يَحْظَونَ من دنيا الطواغيت بغير الفُتات والأَسئار![1].

ومن الآيات الدالة على أن إيثار الدنيا والإِتراف فيها، سبب من أسباب كفر الكفار:

الآيتان (٧ و٨) من (يونس)، حيث يعرّف الله تعالى فيهما الكفار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ فيصف الله تعالى الكفار بأربع صفات:

١. عدم رجاء لقاءِ الله (أي: عدم الإيمان باليوم الآخر).

٢. الرّضا بالحياة الدنيا (أي: إيثارها على الآخرة).

٣. الإطمئنان بالحياة الدنيوية (أي: احتضانها وتعلّق القلب بها).

٤. الغفلة عن آيات الله.

وكذلك تدل على الحقيقة المذكورة الآية (١١٦) من (هود)، حيث يعرّف فيها سبحانه القلة من المصلحين الذين أنجاهم الله، بأنهم كانوا أصحاب بقية من عقل وعلم وصلاح وخير، وأنّهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، ثم يعرّف الكفار الهالكين بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

---

(١) الفُتات: فُتاتُ الشيء: ما تكسّر منه، والفَتيت والفتوتُ من الخبز، أنظر: مختار الصحاح: ص ٤٢٧، أسئار جمع سؤر: ما يبقى في قعر الإناء من الطعام والشراب، مختار الصحاح، ص ٢٥٤.

وكذلك الآية (٢٠) من (الأحقاف)، إذْ يبيّن الله فيها أن الكفار عندما يُعرضون على النار في الآخرة، يقال لهم توبيخاً: ﴿... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

وفي الآيتين (٢ و٣) من (إبراهيم)، يعرف الله تعالى الكفار بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ..﴾.

وفي الآية (٢٣) من (الزخرف)، يبيِّن لنا سبحانه وتعالى انه لم يرسل رسولاً قبل خاتم الأنبياء ﷺ في بلدة، إلّا أن الطبقة المُتْرَفَة المُسْرِفَة فيها رفضت دعوة الرسول، وقالت بأنها تنسج على منوال أبائها الأولين، ولا ترضى بطريقهم بديلاً!

وفي الآية (١٦) من (الإسراء)، يبيِّن لنا تبارك وتعالى أَنَّ إِحدى سننه في المجتمعات البشرية، هي أن يهلك المجتمعات المنحرفة عن هداه، من جرّاء تسلُّطِ المُتْرَفين وتحكُّمِهم فيها، ونشر الفسق والفساد فيها، بدل الخير والصلاح الذي أمرهم الله به!

وفي الآيتين (٣٤ و٣٥) من (سبأ)، يبيِّن لنا رَبُّ العالمين تبارك وتعالى أنّه لم يرسل في بلدة ما نذيراً (أي نبياً) إلا وواجهه مترفوها بالرفض، والكفر بما أرسل به: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، ثم لم يكتفوا بالكفر والرفض، بل وأضافوا إليه جريمة نكراء أخرى، وهي تبجُّحُهُمْ بما آتاهم الله من الأموال والأولاد، ومن ثم ادعاؤهم بأنهم لا يُعَذَّبون يوم القيامة - ان كان هناك قيامة! -: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ويبدو أنهم تصوّروا أن الله تعالى إنما مكّنهم في الأرض وخوّلهم نِعَمَه، حُباً لهم وإكراماً لهم، ثم قاسوا الآخرة على الدنيا، واستنتجوا بأنَّهم لا يعذبهم الله يوم القيامة أيضاً، كما أكرمهم في الدنيا!! ولو علموا أن الله تعالى يُعطي المالَ والغِنى مَنْ يُحِبُّ ومن لا يُحِبُّ، ابتلاءً واختباراً منه لعباده فقط، ولكن لا يُعطي الهداية والإيمان، إلا مَنْ يُحِبُّ، لما استنتجوا تلك النتيجة المغلوطة، كما

قال تعالى في الردّ على تلك المزاعم والتصورات: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ].

وكذلك في الآيتين: (٧٣ و٧٤) من (مريم)، يبيِّن لنا سبحانه وتعالى في سياق آخر، أن التبجّح بالأموال والممتلكات والإغترار بها، واعتبارها دليلاً على أنَّ الحق والصواب من جانبهم، خصلة مُتجذِّرةٌ في أهل الكفر على مرِّ الدهور وكرِّ العصور: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾؟!

ومعنى هذا الكلام:

ما دام نحن - أي الكفار - خيرٌ منكم داراً ومقاماً، وأوفر أموالاً، وأكثر جنوداً وأعواناً وخدماً - أيها المؤمنون! - إذن: فنحن أصحُّ منكم ديناً، وأفضلُ طريقةً وأرجحُ رأياً!

ولهذا يردّ عليهم الله تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾!! أي: إنَّ كثيراً من الأجيال التي عاقبناها وأهلكناها قبلهم، كانوا أفضل معيشةً وأحسن منظراً[1]! وعليه: فهذا برهان واضح على أن امتلاككم لتلك المقتنيات والممتلكات، التي ليست سوى متاعٍ دنيويٍ قليلٍ، يبتليكم الله تعالى بها، لا يدل على ما تظنونه وتزعمونه!

(١) الرِّئي: الثوب الفاخِر الذي يُنْشَر لِيُرىٰ حُسْنُه، ورِئي الشيء، ما يقع عليه النظر ويُرىٰ منه، وحُسْنُ المنظر في البهاءِ والجمال. المعجم الوسيط، ص٣٢٠.

وقفة حول ثالوث: الجهل والإستكبار والإسراف

والآن لنتدبّر مرة أخرى ذلك الثالوث المشؤوم: ثالوث الجهل والإستكبار والإِتراف: فنقول:

من الواضح أن الإنسان زوّده خالقه الحكيم لتمرير حياته الدنيوية الإِبتلائية، بثلاث قوى، يحقق بها مصالحه المعاشية، وينفذ بها رغباته، وهي:

١. العقل

٢. والشهوة

٣. والغضب

أما العقل، فَيُدبِّرُ به شؤونه، وأما القوة الشهوانية، فَيَجْلِبُ بها احتياجاته ويُشْبِع بها رغباتِهِ وغرائِزَهُ، والقوة الغضبية يَدْرَءُ بها المَخَاطِر عن نفسه ويحمي بها وجوده.

ثم إِن هذه القوى الثلاث، انما تعتدل كل منها في ذاتها، ويتوازن مجموعها فيما بينها، إذا اهتدى الإنسان بهداية الله، وتنور قلبه بنور الوحي والإيمان، فتتزيَّن حينئذٍ قوته العقلية بالعلم والحكمة، وتَتَحلَّى قوته الشهوانية - ونقصد بها تلك القوة التي تدفع الإنسان إلى إشباع غرائزه الفطرية جميعاً، وليست القوة الجنسية فقط، كما هو المتبادِرُ إلى الذهن حسب المفهوم العرفي الرائج لكلمة الشهوة - بالعِفة والنَّزاهة، كما وتتجمَّلُ قوته الغضبية بالصبر والشجاعة، فيصبح الإنسان بفضل الإيمان:

علیماً حكيماً، وعفيفاً نزيهاً، وصابراً شجاعاً.

ولكن عندما تَسْتَقِرُّ في قلب الإنسان، بَدَل نور الإيمان، ظُلْمَةُ الكفر وبالتالي يَنْظَلِمُ وجودُ الإنسان: تَخْتلُّ هذه القوى الثلاث، كلٍ في ذاتها، ومجموعها في ارتباط بعضها ببعض، فَيُضْبِحُ صاحبِها، بقدر تَمكُّنِ الكفر في قلبه، وتغلغله في وجوده، وبحسب تهيئة الأجواء له:

جاهلا سفيهاً، وشرِهاً خبيثاً، ومستكبراً ظالماً.

وقد ذكر كتاب الله الحكيم، ثلاثة أشخاص يمثلون هذا الثالوث المشؤوم، في أكثر من موضع، مُقْتَرِنين بعضهم ببعض، أو منفردين، وهم:

١. **فرعون.**

٢. **قارون.**

٣. **هامان.**

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر].

وكان هؤلاء الثلاثة كثلاثة أثافي[1] لاستعباد بني إسرائيل خصوصاً، والشعب المصري عموماً، ففرعون تسلَّط عليهم بسلطته، وكان يظلمهم سياسياً، وقارون بغى عليهم بماله، وكان يَسْتَغلِهُم اقتصادياً، ويتبجح عليهم، وهامان كان يخدعهم فكرياً، ويخدم السلطة السياسية الفرعونية، والقوة الإقتصادية القارونية، إعلامياً، وهاك الدليل في كتاب الله، على كل ما قلنا عن هذا الثالوث:

١. أمّا فرعون: فيقول تعالى عن دوره في استعباد بني إسرائيل خاصة، والمجتمع الرازح تحت نير حكمه عامة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

٢. وأما قارون: فيقول تعالى عن دوره: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ

(١) أثافيّ جمع أُثفيّة، ما يوضع عليه القِدرُ، مختار الصحاح، ص ٨٧.

ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص].

٣. وأما هامان: فيتجلّى دوره في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص].

إذن:

أولاً: دَورُ فرعون هو الأول والأهم، وكان هو الأُثْفيَّة الأولى في الأَثافي الثلاث والثالوث المشؤوم، في استعباد المجتمع المصري عموماً وبني إسرائيل خصوصاً، كان يتمثّل في:

١. التسلّط والهيمنة السياسية، أو باصطلاح عصرنا (الدكتاتورية) ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢. جعل المجتمع طبقات وفئات متنازعة ﴿وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا﴾، وذلك كي ينشغل المجتمع بنفسه، ولا تَسْنَحَ له فُرصة التفكير في وضعه المُزري وتغييره، وهذا هو ديدن الطواغيت المتسلّطين ماضياً وحاضراً.

٣. استذلال قسم من المجتمع واستضعافهم، بقتل الذكور واستبقاء الإناث ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾.

٤. وبالتالي الإفساد في المجتمع بالمعنى الواسع لكلمة الإفساد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

ثانياً: وأما دور قارون ثانية الأثافي، فكان يتمثّل في:

١. الخيانة ضدّ قومه والتحالف مع العدوّ الظالم: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ فهو كان إسرائيلياً ومنتسباً إليهم لحماً ودماً، ولهذا ربما كان دوره الخياني أثقل على قلوب بني إسرائيل من دور فرعون، كما قال الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة   على المرءِ من وقع الحُسامِ المهنّد

٢. البغي والعدوان على قومه: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

٣. الفرح والبطر والفساد في الأرض، بسبب الثروة والغنى والجاه الكاذب ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ... وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٤. نسيان المنعم جلّ شأنه، والإدعاء بأنه هو الذي حَصَّل النِّعَمَ التي يتمتع بها، بعلمه وجهده، لذا يتصرّف فيها حسب هواه، ولا يبالي بأمر الله ودينه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

٥. الإختيال والإفتخار على الناس بالثروة والتبجّح بها عليهم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾.

ثالثاً: وأما دور هامان ثالثة الأثافي، والذي كان يلعب دور الوزير والمستشار المؤتمن لفرعون، فكان يتمثّل في:

استخدام الأموال الطائلة المُغْتَصَبَةِ أصلاً من المجتمع المستضعف سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، في توفير الوسائل الإعلامية المضلِّلة والخادعة للمجتمع، وذلك لأن بناء هامان للقصر الضخم المرتفع حسب أوامر فرعون، والذي كان يتطلب نفقات باهظة ومُكْلِفة من خزينة الدولة، لم يكن الهدف منه سوى خداع الناس وتضليلهم وإلهائهم عن القضية الجوهرية التي أثارها موسى وأخوه هارون عليهما السلام، وهي أن فرعون وكذلك ملأه وحاشيته، ليسوا سوى بشر، مثلهم مثل سائر البشر، لذا لا يحق لهم التصرّف المطلق في مصائر الناس وحياتهم وشؤونهم حسب أهوائهم! نعم كان الغرض من بناءِ القصر، إلهاءَ الناس من هذه القضية الجوهرية، التي

تستلزم تقويض سلطة فرعون الغاشمة وحاشيته من أساسها، وإلّا فإن فرعون وهو الطاغية المُحنَّك، وكذلك هامان، وسائر الملأ المستكبرين، لم يكونوا إلى هذه الدرجة من الغباءِ، أن يتصوروا بأنهم إذا ما صعدوا البناء المذكور، كان بإمكانهم الوصول إلى طرق السموات، وبالتالي التحقُّق من وجود رب العالمين جلّ شأنه، كما قال فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

وإلهاءُ الناس عن القضايا الجوهرية والمصيرية لهم، بإثارة المسائل الوهمية المثيرة عن طريق وسائل الإعلام، عادة متَّبَعَةٌ عند كل الطواغيت، وهي في عصرنا الحالي، وعلى يد الطواغيت المُتَحكِّمِين المتسلِّطين على رقاب المجتمعات المستضعفة، في أشدِّ حالاتها جلاءً ووضوحاً، حيث ترى أحد الطواغيت يُنْفِق ثروات طائلة، من أموال المجتمع المغتصبة منه، في أنواع الإعلاميات المزوَّرة المزيَّفة الخادعة، من بناء هياكل صنمية، وإنشاد أغاني وأناشيد كاذبة، والتطبيل والتزمير والتزويق، وكل ذلك لتضليل المجتمع أو الإبقاء عليه ضالّاً مخدوعاً مُبَنَّجاً، فاقداً للوعي والإحساس والشعور، الذي قد يدفعه يوماً لرفض حالة الشقاءِ التي فرضها عليه الطاغوت وجلاوزته وبطانته وحاشيته المستفيدون من كرمه وسخائِهِ اللامحدود!! أو على الأقل من فتات مائدته العامرة دَوْماً، بالأطعمة المتنوعة الشهية!!

إذن:

فإذا كان دور فرعون، قد تمثَّل في فرض العبودية والذل على المجتمع المصري في المجال السياسي والإجتماعي، ودور قارون تمثَّل في البغي والإستغلال الإقتصادي، فإن دور هامان، كان تمثل في الإستحمار والتجهيل الفكري والتضليل الإعلامي!

وبما أن استحمار الناس وإضلالهم، يفيدُ كلاً من السياسي المتسلِّط

المستكبر، والغني المترف المفسد المستهتر، فقد جاءَ ذكر اسم كل من فرعون وقارون - عند ذكر أسماء الثالوث المشؤوم كلها معاً - في مقدمة الثالوث مرة واحدة، ففي الآية (٢٣، ٢٤) من (غافر) قدّم اسم فرعون في الثالوث، وفي الآية (٣٩) من (العنكبوت) قدم اسم قارون، ولكن اسم (هامان) لم يذكر إلّا في نهاية الثالوث أو وسطه، وذلك لأن المطبِّلين والمزمِّرين والإعلاميين المضلِّلين، ليسوا في الحقيقة أصحاب السلطة الحقيقية، وليسوا من المحظوظين والمستفيدين الأساسيين من الكيان الطاغوتي، بل هم خدّام فقط لكل من السلطة السياسية الدكتاتورية، والثروة الإقتصادية المغتصبة، ولهذا لا يَحْظَوْنَ الا بالفتات، ولا يبقى لهم غالباً سوى السؤر[1]!

وأقول في ختام هذا الموضوع المهم:

بما أن الطواغيت والظلمة المتسلِّطين، على رقاب المجتمعات المستضعفة، يفتقدون الدين الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من الله تعالى، والذي يستجيب له الناس ويسمعون ويطيعون، بدافع من عقولهم الصحيحة، وقلوبهم السليمة، وفِطَرهم المستقيمة، ومن دون حاجة إلى اللجوء للحديد والنار، وانما يريدون أن يفرضوا على الناس أنظمة وشرائع نابعة من أهوائهم، وتحقق لهم أغراضَهم وتحفظ لهم مصالِحَهم، لذا رأوا أنفسهم مضطرين بأن يلجؤوا - لإخضاع الناس لأنظمتهم الطاغوتية الجاهلية - إلى ثالوث: (الإستضعاف + الإستغلال + الإستحمار) المشؤوم، فحاولوا - ويحاولون - بكل ما أوتوا من قوة وحيلة، الإبقاء على الناس: مُسْتَعْبَدين ومستضعفين سياسياً، ومُسْتغَلِّين ومُسْتَذَلِّين اقتصادياً، ومستخفّين ومستحمرين فكرياً، وثقافياً، ومعلوم أن هذا الغرض لا يتحقق إلّا إذا انفردوا بكل من:

---

(١) ولكن في الآية (٨) من (القصص) نسب الله تعالى الجنود المخدوعين من أهل مصر، إلى كل من فرعون وهامان: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾، وذلك تنبيهاً على أنه أصبح جزءاً من النظام الفرعوني.

١. السلطة السياسية المغتصبة.

٢. والثروة الإِقتصادية المستغلَّة.

٣. ووسائل الإِعلام المضلِّلة.

لذا لا ترى قديماً وحديثاً، حُكْماً طاغوتياً ودكتاتورياً، إلا وهو متشبِّث أشدّ التشبّث، بأن ينفرد بامتلاك هذه الأشياء الثلاثة.

ثم إِنَّ هذه هي الحكمة في إِرجاع كتاب الله الحكيم، علَّة كفر الناس وضلالهم إلى هذه الأسباب الثلاثة:

١) الجهل: الناشيء عن التضليل والتزوير والخداع الفكري والثقافي، الذي يمارسه الجهاز الإِعلامي الطاغوتي على عامة الناس، ولهذا كان الجهلُ، السَّبَبَ الأكثر تأثيراً في كفر عامة الناس.

٢) حب الدنيا والترف، الناشيء عن الإِستحواذ على الثروة بطرق غير شرعية والإِستغلال الإِقتصادي، والذي هو ديدن الطبقة الغنية المترفة المفسدة المتحالفة مع السلطة السياسية الدكتاتورية، ولهذا كان البطر والغنى، السبب الأكثر شيوعاً في كفر الطبقة الغنية عموماً.

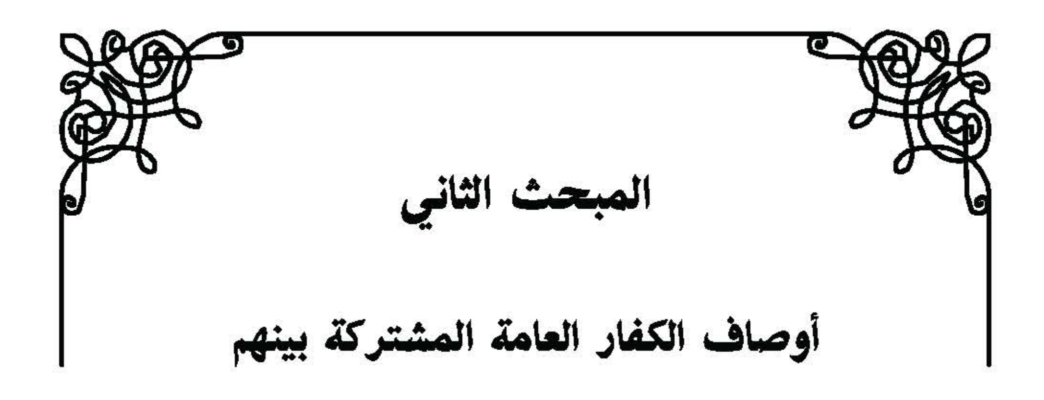
٣) التكبّر والإِستبداد، الناشيء عن التسلّط السياسي والإِستحواذ على كرسي الحكم من غير إرادة المجتمع ورغبته، ولهذا كان الإِستكبار السبب الأول والأساس لكفر الملأ والطبقة الحاكمة.

وعندما نقول إِنَّ الجهل، هو السبب الأكثر تأثيراً في عامة الناس، وأن الغنى وامتلاك الثروة، هو السبب الأكثر شيوعاً في كفر الأغنياء، وأن الإِستكبار، هو السبب الأساس في كفر الملأ والطبقة المتسلِّطة، لا نقصد به أن الجهل مختص بعامة الناس، وحب الدنيا والإِتراف خاص بالأغنياء، والتكبر والعلوُّ، لا يشارك فيه غير ملأ الحكم الطاغوتي! بل كان قصدنا تحديد أكثر الأسباب تأثيراً في كل شريحة، وإلا فإِن هذه الصفات الثلاث: (الجهل، وحب الدنيا والإِتراف، والإِستكبار) مما يشترك فيها الكفار عموماً، بكل صنوفهم وأنواعهم، إذ ليس فيهم أحد، إلا وله نصيب من الجهل

والسخف، وحب الدنيا واتباع الشهوات، والتكبر والعلو، ثم تختلف النسب وتتفاوت الحصص، حسب أوضاعهم وأحوالهم الإجتماعية والمعيشية والنفسية.

وبهذا ننهي الكلام عن موضوع أسباب الكفر، وبه نختم المبحث الأول من الفصل الثالث من هذا الكتاب، وننتقل الآن بتوفيق الله تعالى إلى المبحث الثاني:





المبحث الثاني

أوصاف الكفار العامة المشتركة بينهم

ونقصد بـ(أوصاف الكفار العامة المشتركة بينهم) تلك الأوصاف الكلية التي عرَّف الله تعالى بها الكفار عموماً، أي: تلك الصفات والخصائص التي يشتركون فيها جميعاً، وبغض النظر عن الصنف الذي ينتمون إليه، من أصنافهم الخمسة التي أشرنا إليها في الفصل الثاني من الكتاب الحادي عشر، والتي سنذكر خصوصيات وخصال كل صنف منها على حدة، في المبحث الثالث إن شاء الله.

وللتعرّف على الأوصاف الكلّية المشتركة بين الكفار، لنتأمّل هذه الآيات المباركة:

١. ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

٣. ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم].

٤. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ

عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس].

٥. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، . . . ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ . . ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم].

٦. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾! [غافر].

٧. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة].

٨. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون].

٩. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ

يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر].

١٠. ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر].

١١. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

١٢. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة].

والآن لِنَستخرج من هذه الآيات الكريمات، الأوصاف المشتركة التي وصف الله تعالى بها أهل الكفر عموماً وعَرَّفهم بها، ولم أستشهد هنا إلا بالآيات التي تتحدث عن الكفار عموماً، ومن الواضح أن هذه الآيات ليست سوى أمثلة من الآيات الواردة بهذا الخصوص، وكذلك الأوصاف المجملة التي نأخذها من هذه الآيات هي - في نظرنا - أبرز صفاتهم ومشتركاتهم، وإلّا فأوصافهم المشتركة، ليست محصورة فيما نُدْرِجُها هنا، ولكن قبل الشروع بِعَدّ أوصاف الكفار في ضوء الآيات المباركات، أودّ التنبيه على مسألة ذات ارتباط وثيق بما نحن الآن بصدد بحثه، وهي: أَنَّ الله تعالى وصف الكفار الذين يجب أن نستعيذ بالله من طريقهم ومنهجهم في صلواتنا بـ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وقد علَّل بعضُ العلماء وَصْفَ الله تعالى الكفار بهذين الوصفين، بأن الكفار عموماً قسمان: قسم يعرفون الحق ولا يتبعونه، وقسم أعرضوا عن الحق ولا يعرفونه، ومعلوم أن الذي يعرف الحق ولا يَتَّبِعه، يَنال غَضَبَ الله وسَخَطَه، فيصير مغضوباً عليه، والذي لا يعرف الحق بسبب إعراضه عنه، يبقى في ضلاله، فيصبح من الضالِّين، واليهود مصداق المغضوب عليهم، كما أن النصارى مصداق

الضالين، وقد ورد في بعض الأحاديث تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى[1].

ولكن الذي أراه، هو أن الكفار عموماً ينطبق عليهم كلا الوصفين، فهم مغضوب عليهم، قد غضب الله عليهم بسبب كفرهم، وكذلك هم ضالّون، ضَلُّوا الصراط المستقيم.

أو نقول: إن الكفار كلَّهم ضالّون فكرياً ونظرياً، ومغضوب عليهم عملياً.

ومعلوم أن كون الكفار مغضوباً عليهم وضالين، من أجمع أوصافهم الذميمة وأشملها، ولهذا عرَّف الله تعالى الكفار جميعاً بهذين الوصفين.

ومجموع الأوصاف العامة المشتركة التي يتصف بها الكفارُ، ـ حَسْبَما أرىٰ ـ هو هذه الأوصاف الخمسة والعشرون الآتية:

١) - تَعَطلُ القوى الإِدراكية والمعرفية:

كما تصرّح بهذا كل من الآية (١٧١) من (البقرة)، والآيتان (١٠ و١١) من (الملك)، حيث يشبِّه الله تعالى في الآية (١٧١) من (البقرة)، حالة الكفار عموماً أمام دعوة الحق، بحال من ينعق ويُصوِّت بقطيع من الحيوانات التي لا تسمع سوى صوت النداء والدعاء، من غير أن تفهم منه شيئاً، ثم ينفي عنهم السمع والنطق والبصر والعقل، بقوله: ﴿...صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وأما في الآيتين (١٠ و١١) من (الملك)، فيقصُّ علينا سبحانه وتعالى إقرار الكفار في جهنَّم على أنفسهم، بأنهم لم يكونوا في الحياة الدنيا يسمعون أو يعقلون، وإلّا لما أصبحوا من أصحاب الجحيم، ويعقِّب على إقرارهم هذا بقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ فيعتبر

(١) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص٢٧، ونَسَبَ الحديث إلى (المسند) لأحمد. ج٤ ص٣٧٨، وسنن الترمذي. تحفة الأحوذي: ج٨ ص٢٨٩.
وانظر: صحاح الأحاديث فيما اتفق عليه أهل الحديث، رقم: ١٣٧٩٧، وصحيح ابن حبان: ١٧١٥ .

سبحانه عدم استخدام الكفار عقولَهم وحواسَّهم في معرفة الحق، الذَّنبَ الذي أَودى بهم وأدّى بهم إلى جهنَّم!

٢ و٣ و٤) - إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ومنع الناس عن دين الله القيّم، والسعي لإظهار دين الله تعالى معوّجاً لينفِروا عنه الناس:

وتَدل على اتِّصاف الكفار بهذه الأوصاف الثلاثة، آياتٌ كثيرة في القرآن العظيم، منها الآيات: (١ و٢ و٣) من (إبراهيم) حيث وصف الله تعالى فيها الكفار بأنهم: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ والإِستحباب هو الإِختيار والترجيح والتفضيل للشيء، وبأنهم: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يردّون عنه الناس ويمنعونهم من الإِقتراب منه، وبأنهم: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يلتمسون لطريق الله وصراطه المستقيم بشتى الحيل، الإعوجاجَ والتشويه، وذلك ليس في ذات الدين وصراط الله المستقيم الذي لا عوج فيه أبداً، بل عن طريق الدعاية والإِعلام المزوِّر.

٥ و٦ و٧) - إنعدام الأمل في لقاءِ الله، والرضى بالحياة الدنيا والتعلّق الشديد بها، والغفلة عن آيات الله المنظورة والمتلوة:

وتدل على هذه الأوصاف الثلاثة، الآيتان (٧ و٨) من (يونس)، حيث يعرِّف سبحانه الكُفارَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ و﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾، ومعلوم أن المقصود بعدم رجاء لقاء الله، هو عدم الإيمان بالآخرة، ولكن بما أن لقاء الله تعالى ولقاء ثوابه أو عقابه أهم ما فيه، سُمِّي به، وكذلك المقصود بالرِّضا بالحياة الدنيا والإطمئنان بها، هو تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، والتشبّث بها، وتعلُّق القلب بها إلى أقصى حدٍّ، لأنها أملهم الوحيد الذي لا يرجون سواها، ويحصل جرّاء ذلك التعلُّقِ الشديدِ، نوعٌ من الطمأنينة الكاذبة الملهية.

والمقصود بالآيات في قوله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ هو كلا نوعي الآيات المنظورة في الأنفس والآفاق، والمتلوة في كتاب الله، وذلك لأن الله تعالى سمّى كلاً من مظاهر خلقه المدهشة،

وجُمَلَ وعبارات كلامه المبارك (آيات)، وقد وضحنا هذه المسألة، في المباحث السابقة أيضاً.

٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤) - محاولة إِسكات الأنبياء، وإِعلان الكفر برسالات الله ورفضها، وإظهار الشك في غرض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتذرُّع - في عدم الإيمان - ببشرية الأنبياء، وكونهم يريدون تغيير ما سارت عليه الأسلاف، وأَنّهم لم يأتوا بدليل واضح لإثبات دعواهم، ثم تخيير الأنبياء الكرام بين الطرد من البلد والعودة إلى الكفر:

وتدل على هذه الأوصاف السبعة، الآيات (٩ إلى ١٣) من (إبراهيم)، بالإضافة إلى آيات أخرى كثيرة، ولكن اخترنا هذه الآيات لأنّها تتحدث عن الأنبياء كلِّهم، في مواجهة أهل الكفر كلِّهم، على صعيد واحد، كما هو واضح ومصرَّح به في السياق.

١ ـ أما سعي أهل الكفر ومحاولتهم لإسكات الأنبياء وخَفْتِ أصواتهم وكَتْم أنفاسهم، فيدل عليه قوله تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ردَّ أهلُ الكفر أيديهم في أفواه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إسكاتاً لهم، وهذه سياسيةٌ كفريةٌ متَّبعةٌ قديماً وحديثاً، من قبل الطواغيت مع الأنبياء ودعاة الحق، ليقينهم أن الناس إذا ما خُلِّيَ بينهم وبين سماع الحق، فإنهم يتحرّرون من أنيار الطواغيت ويرمون بها عن أعناقهم!

٢ ـ وأما إعلان كفرهم برسالات الله ورفضهم لها، فَيُبيِّنه قولُه تعالى على لسان الكفرة: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ..﴾.

٣ ـ وإظهار الشك والتردُّد تجاه غرض الأنبياء في دعوتهم، مصرَّح به في قولهم للأنبياء: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وقد يكون أهل الكفر مستيقنين في صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسلامة نياتهم ونزاهة أَغراضهم، وعلوّ مقاصدهم، ولكنهم يقولون ما يقولون، للتشويش عليهم ولتشويه سمعتهم أمام الجماهير!

٤ ـ والتذرُّع في عدم إيمانهم، بكون الأنبياء بشراً كسائر الناس، مبيَّن في قوله تعالى على لسان الكفرة، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، وقد بيَّنا في الفصل الخامس من الباب الثاني (أي الكتاب السادس)، زَيْفَ هذه الشبهة التي هي ليست – كغيرها من الشبه المثارة في وجه الأنبياء ونوابهم دعاة الحق – سوى ذريعةٍ ومبرّرٍ للتملّص من الإستجابة للحقائق التي تحتوي عليها دعوة الأنبياء، وَتَتَعَارَضُ مع أهواء الكفرة والمصالح اللاشرعية للطواغيت.

٥ ـ وكذلك التذرع – في عدم الإيمان – بكون الأنبياء دعاة للتغيير والإصلاح الجذري الذي يشمل كل أو أكثر ما كانت عليه الأسلاف والآباء، من معتقدات وأفكار وأنظمة، مصرَّح به في قوله تعالى على لسان الكفرة: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، وهذا الإتهام في الحقيقة تزكية على لسان الكفار للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، الذين كانوا دَوْماً يقومون بالثورة على الأوضاع الفاسدة في كل نواحيها، ويريدون تطهير المجتمع من رواسب الجاهلية كلّها، من كفر وظلم وفساد وتَرَفٍ واضطهاد واستضعاف.

وينبغي التنبّه إلى حقيقة أن التصدّي للأوضاع الفاسدة في المجتمع، وإرادة تغييرها وإصلاحها، هو الذي يُكْسِبُ الإتجاه الإسلامي وجماعاته وحركاته وتياراته، الأصالة التي تجعله شبيها بطريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهَدْيهم الذي ساروا عليه، ومتى فَقَدت التياراتُ الإسلاميةُ وحركاته وجماعاتهُ التغييرية هذه الروح، واختارت سياسة المماشاة مع الأوضاع الجاهلية أو الإلتقاء، بترقيعات جزئية، فقدت الإرتباط بينها وبين المنهج التوحيدي الإصلاحي التغييري الذي سار عليه أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام.

٦ ـ وأما التذرع في عدم الإيمان، بأن الأنبياء لم يأتوا بحجة بيِّنة، فيدل عليه قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وقول الكفار هذا مجرّد تهرّب منهم، وإلّا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلّهم، أُعطوا من البيِّنات والمعجزات ما فيهم الكفاية، لمن أرادَ الإيمان ورغب فيه، كما قال تعالى في بداية هذه الآيات: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ولكن كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس].

٧ ـ وأما تهديد الكفرة للأنبياء، وتخييرهم بين الطرد من الوطن والعودة إلى الكفر، فمصرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا..﴾ وهذه أيضاً خصلة متجذرّة في الكفار - الرؤساء منهم - وسياسة مُتَّبعةٌ لهم في معاملة الأنبياء ودعاة الحق والإِصلاح - أي الإِصلاح الجذري الشامل بالمفهوم القرآني، وليس بالمفهوم الجزئي المحرَّف الذي هو أقرب للمسايرة والمماشاة منه للتغيير والإِصلاح - سواء في القديم الغابر أو الواقع المعاصر!

١٥ و١٦ و١٧) - التكذيب بالحق، والعَزْ ُ على الإيقاع بالأنبياء ونوّابهم دعاة الحق، والجدال بالباطل لدحض الحق:

وتدل على اتصاف أهل الكفر بهذه الأوصاف الثلاثة، الآية (٥) من (غافر)، بالإضافة إلى آيات كثيرة أخرى:

١ ـ فأما التكذيب بالحق مِنْ قِبَلِ الكفار جميعاً، فيبيِّنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ ..﴾، والتكذيب هو نسبة الكذب وعدم الصحة إلى طرف ما، بخلاف التصديق الذي هو الإِقرار بصدقه، ومن الواضح أن التكذيب لأوضح الحقائق، لا يكلّف الإنسان جهداً، إذْ لا يتطلب سوى تحريك لسانه وشفتيه، ولكن المهم هو الإثبات والبرهنة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ..﴾ [الأنبياء].

٢ ـ وأما العَزم على البطش بالأنبياء ودعاة الحق، فيوضِّحُهُ قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ﴾ والهمّ وإنْ كان يشمل العزم على فعل الشيء وعلى ما هو دونه[1]، ولكن المقصود به هنا، هو العَزْم وليس مجرّد تحدّث النفس به، بدلالة السياق وبدلالة الواقع الفعلي الذي

(١) مختار الصحاح، ص٦٠٠، لفظ: هـ م م.

نفَّذ كثيرٌ من الطواغيت والأحزاب الكافرة عَزْمَهم الخبيث اللئيم، بحق الأنبياءِ وأتباعهم فعلا، وفعلوا كلَّ ما في وسعهم.

٣ ـ وأما جدال أهل الكفر المبني على الباطل لدحض الحق - بزعمهم - فمصرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ..﴾، وقد تحدثنا في الكتاب العاشر عن مسألة الحوار والجدال والفرق بينهما، وسبب اختيار الأنبياء أسلوب الحوار، ولجوء أهل الكفر إلى الجدال، فلا نطيل البحث عنه هنا.

١٨) - السخرية والإِستهزاءُ بأهل الإيمان:

وهذا ما صرّح به كلامُ الله المبارك في الآية (٢١٢) من (البقرة): ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ..﴾، وكذلك ذكر الله تعالى هذه الخصلة الخسيسة، كوصف من أوصاف الكفار، في مجال تعاملهم مع أهل الإيمان، في آيات كثيرة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين].

١٩ و٢٠ و٢١) - الترف والتَنَعُّم في الحياة، وإنكار القيامة والبَعْث، واتّهامُ الرسل بالإِفتراءِ على الله تعالى:

وتدل على هذه الأوصاف الثلاثة، الآيات (٣١ إلى ٣٨) من (المؤمنون)، وجديرٌ بالذكر أن هذه الآيات تتحدَّث عن نبيّ لم يُسَمَّ، لذا فهي تنطبق على كل نبيّ من أنبياءِ الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وكذلك على كل قوم كافر وملأ كافر من أعداءِ الأنبياء، ولهذا اخترتها هنا.

١ ـ فأما بالنسبة لكون الترف والتنعّم من أوصاف الكفار - وخصوصاً رؤسائهم - فواضح من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ ـ وأما انكار الكفار للبعث والقيامة والحساب والجزاء، فيدل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ

هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

٣ ـ وكذلك يدل على كون الكفار مُتَّهِمين لأنبياء الله الكرام، بأنّهم يفترون على الله كذباً - حاشاهم ثم حاشاهم -، قَول الكفار - كما قصّه الله علينا - : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ..﴾، ولكن كما قلنا سابقاً ان مثل هذه الإتهامات من الكفار، لم تكن على الأكثر الأغلب نابعةً من قناعاتهم، بقدر ما كانت تبريرات واهية لمواقفهم الرافضة للحق، وتمويهاً للبسطاء من الناس وتشويشاً على الأنبياء، بدليل قوله تعالى عن موقف آل فرعون تجاه موسى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

٢٢) - الفرح والإغترار بالعلم الظاهري الجزئي بأمور الحياة الدنيا، والإستغناءِ به من العلم الحقيقي الشامل الكامل الآتي عن طريق الوحي:

وهذا ما يبيِّنه قولُه تعالى في الآيتين (٨٢ و٨٣) من (غافر): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

والفرح بالعلم الجزئي الظاهري بأمور الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم]، والإغترار به، وإظهار عدم الإعتناء بالعلم الحقيقي الشامل للدنيا والآخرة، والروح والجسد، والمرتبط بالخالق جلّ شأنه والخلق، والإستغناءِ عنه، أيضاً من سمات أهل الكفر عموماً،كما نَسَبُه سبحانه وتعالى في الآيتين الكريمتين إلى كل الأقوام الكفرة الذين رفضوا دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وظلّوا كدودة القَزِّ متقوقعين داخل أصداف غليظة وسميكة من الجهل بالخالق والخلق، وحكمة وجود الإنسان، والدنيا والآخرة، وكل ذلك اغتراراً بالعلم الجزئي الظاهري الذي لا يعدو - في أحسن حالاته - أن يكون كالإلهام الغريزي الذي أعطاه الله تعالى الحيوانات والحشرات التي

تُتْقِنُ غاية الإتقان، وتَتَفنَّن في تنظيم أمورها وتسيير دَفَّة حياتها، على أحسن ما يُرام! وهذا هو السِر - على ما أرى - في تشبيه الله تبارك وتعالى الكفار بالحيوانات والدوابّ، ثم اعتبارهم أضلّ سبيلاً وأسوأ حالاً منها، وذلك لأن كلتا الطائفتين تعيش في إطار الجسد والإستجابة لمطالبه الغريزية والحيوانية وحده، ولكن الدواب والحشرات تفعل ذلك استجابة لنداءِ فِطْرتِها التي طرها الله عليها، وليس في وسعها أكثر من ذلك! ولكن الكفّار يفعلون ذلك استجابة لنداء الشيطان والنفس المستسلمة له، وبخلاف ما تطالبهم به فطرهم الإنسانية المفطورة على العبودية لله تعالى، لذلك صاروا أضلّ سبيلاً وأسوأ حالاً منها! كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

٢٣) - التكبّر والإستكبار من قبول الحق:

وتدل على هذا أيضاً، آيات كثيرة جداً، منها الآية (٥٩) من (الزمر)، حيث يوبِّخ الله تعالى فيها الكافر النادم المتندِّم على كفره يوم القيامة والمُتَمنّي الرجوع إلى الدنيا، ليجرِّب حظّه التعيس مرة أخرى، فيكون متقياً ومحسناً! فيقول له سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: إنَّك قد جَنَيْتَ على نَفْسِك، وقد أعطيناك الفرصة الكافية في الحياة الدنيا التي ابتليناك فيها، وقد جاءتك آياتي التي أنزلتها على رسولي، ولكنك بدل التصديق بها كذّبت بها، وبدل الخضوع لها والإلتزام بها، استكبرت عليها، وبالتالي اخترت الكفر وصرت من الكافرين!

٢٤) - المطالبة بإنزال الملائكة بدل الأنبياء البشر، أو معهم على الأقل كشهود لهم:

وهذا أيضاً موقف آخر اتصف به الكفار عموماً، وتدل عليه آيات كثيرة، سنشير إلى بعضها بعد قليل، والأساس الفكري لهذه الذريعة عند

الكفار، هو أن البشر لا يصلحون أن يكونوا مُبلِّغين عن الله تعالى لكونهم معرَّضين للخطأ، بل ينبغي أن يبلِّغ عنه الملائكةُ الأطهار المبرّؤون من كل أنواع الخطأ، وهذا التبرير الفكري الغلط للكفار، واضح في آيات كثيرة، منها الآيتان (٩٤ و٩٥) من (الإسراء)، واللّتان استشهدنا بهما: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ فالكفار يَربؤون بوحي الله أن يأتي به رسولٌ بشر! وقد ذكرنا في الكتاب السادس، أنَّ سَبَب حصول هذه الفكرة الخطأ، هو نظرة الكفار الحيوانية البهيميّة للبشر، أي: حصرهم أنظارهم على جسده الترابي وغرائزه، والغفلة عن روحه الرباني وأشواقها، ثم قياس الأنبياء الكرام على أنفسهم الغارقة في الرِّجس والدَّنَس، ولكن من يعرف الإنسان كما يعرِّفه دينُ الله الحق خليفةً لله، وحاملاً لأمانته، وكريماً لديه، ومخلوقاً في أحسن تقويم...الخ، ثم يعرف مزايا الأنبياء الكرام عليهم الصلاة وعُلُوَّ مقامهم، وحِفْظَ الله تعالى إيّاهم من التلوُّث بالمعاصي، يعلم خطأ هذه التصورات، ويطمئنُّ أن بشرية الأنبياء عليهم السلام لا تحول دون نيل رتبة النُبوّة الرفيعة، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى على لسان الأنبياء في جواب الكفار، عندما اعتبروا بشرية الرسل ذريعة لعدم الإيمان بهم:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم].

إذن: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام سلَّموا للكفار بحقيقة كونهم بشراً مثلهم، ولكنهم ردّوا عليهم بأن يكون كونهم بشراً: دليلاً على عدم اختيار الله تعالى لهم رسلاً، يُبَلِّغون عنه وحيه، بقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ..﴾ وإذا منَّ الله على بشرٍ يرفعه إلى مقام يتسنّى له الإتصال بالله تعالى وتَلَقّي وحيه منه، ولا يوجد في هذا أدنى إشكال!

وهذه بعض الآيات بصدد اعتراض الكفار على الرسل، بسبب بشريتهم ومطالبتهم نزول الملائكة، بَ لا عنهم، أو مرافقين لهم يشهدون لهم:

١. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن].

٢. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام].

٣. ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود].

٤. ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

٥. ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت].

٢٥) - الإِستسلام للطواغيت الذين يخرجونهم من النور ويدخلونهم في الظلمات:

وهذا ما صرّحت به الآية (٢٥٧) من (البقرة): ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

وكلمتا النور والظلمات، هنا في هذا السياق، تشتملان على مفاهيم ومفردات كثيرة جداً، فمن المفردات والمفاهيم التي تشملها كلمة النور:

الفطرة، العقل، المعرفة، الهدى، الإيمان، التوحيد، العدل، التقوى، الإحسان، الإِستقامة، الصّبر... الخ.

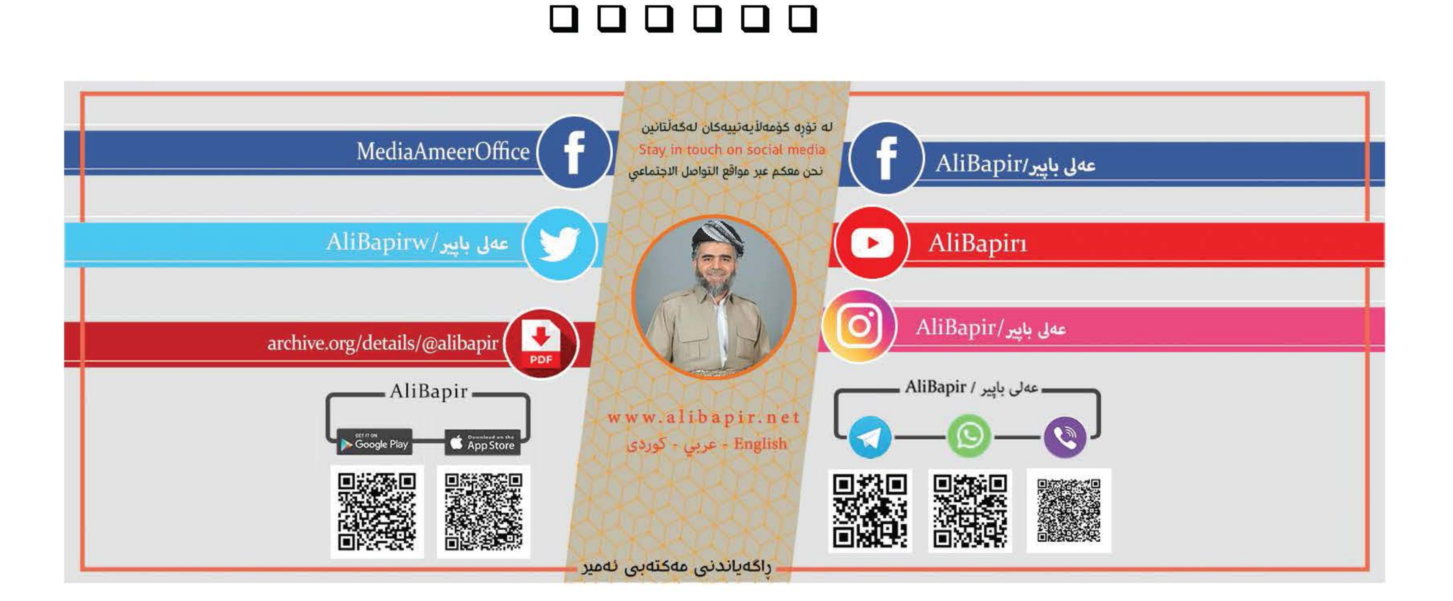
ومن المفاهيم والمفردات التي تُشملُها كلمة الظلمات:

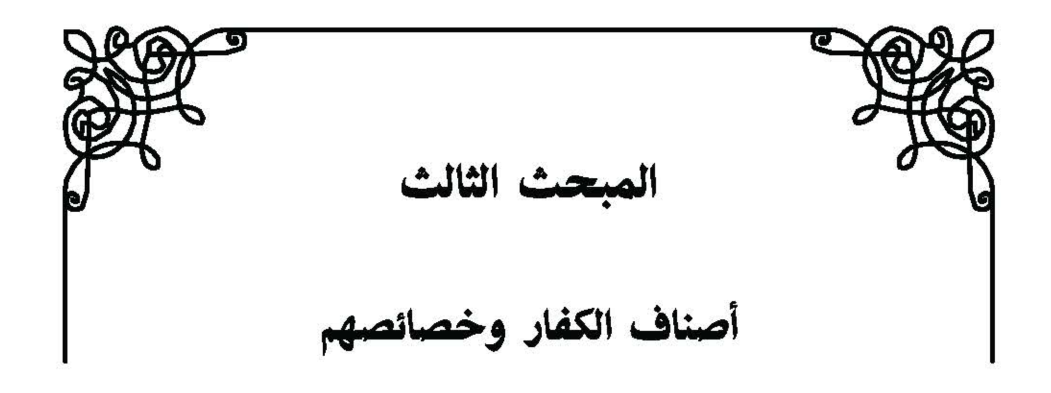
الإِنقلاب على الفطرة، السّفه، الجهل، الضلال، الكفر، الشرك، الظلم، الفجور، الإساءة، الإِنحراف، الهلع...الخ.

وقد وضَّحنا في السابق مفهوم الطاغوت، ورجحنا أن المقصود به هو رؤساء الكفر وأَئِمَتَهُ وملأه الذين يستعبدون الناس ويستذلّونهم بفرض أهوائهم عليهم، وإِخضاعهم لأديانهم وأنظمتهم الجاهلية، وبالتالي إبعادهم عن العبودية لله تعالى، والإِلتزام بدينه الذي يحقق لهم الحرية والعزَّة في الدنيا، والفوز والفلاح في الأخرى، ولهذا بيَّن سبحانه وتعالى أنه لم يرسل رسولاً إلا وأمره أن يبلِّغ الناس: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

فهذه خمسة وعشرون وصفاً من أوصاف الكفار التي يشتركون فيها جميعاً، ومن يدقق النظر في أهل الكفر الغابرين منهم والمعاصرين، يرى فيهم مصاديق هذه الآيات والأوصاف التي تبيِّنها بأجلى صورها.

❑❑❑❑❑❑





المبحث الثالث

أصناف الكفار وخصائصهم

تحدّثنا في المبحث السابق، عن الأوصاف والخصائص المشتركة التي يشترك فيها أهل الكفر كافة، بغض النظر عن الصنف الذي ينتمي إليه كل منهم، وفي هذا المبحث سنسلّط ضوءَ كتاب الله الحكيم، على الخصائص والخصال التي ينفرد بها كل صنفٍ من أصناف الكفار الخمسة، وذلك بصورة عامة، وإلّا فإنهم قد يشتركون جميعاً، أو صنفان أو أكثر منهم في بعض تلك الخصائص أيضاً.

وقد بيّنا سابقاً - في المبحث الثاني من الفصل الثاني من الكتاب الحادي عشر - أن الكفار عموماً يتوزّعون على أصناف خمسة، هي:

١» **الملحدون.**

٢» **أهل الكتاب.**

٣» **المشركون.**

٤» **المنافقون.**

٥» **المرتدّون.**

لذا سندرس خصائص كل صنف من أصناف الكفار الخمسة على حدة، وذلك على الترتيب الذي تراه في المطالب الخمسة الآتية:

المطلب الأول:
الملحدون (الدهريّون)

وهم - كما عرّفناهم في السابق - الذين لا يعتقدون بشيء من الدين الحق، بدءاً بالله الخالق جلّ وعلا، وإلى كل شيء آخر، ولم يَرِدْ اسم خاصّ لهذه الفئة في كتاب الله تعالى، لحكمة سنشير إليها بعد قليل، وقد اصطلح علماءُ الإسلام على تسمية تلك الفئة، بالملاحدة أو الملحدين، أو الدهريين، أو الزنادقة، وفي عصرنا هذا يستعمل لهم اسم (الماديين) أيضاً بالإضافة إلى الأسماء المذكورة، وكلمة الملحد أو الإلحاد مشتقة من (أَلْحَدَ يُلْحِدُ إِلحاداً فهو مُلْحدٌ) من اللّحد الذي هو بمعنى الشّقّ والجانب، ومنه (لَحْدُ القبر) ثم استعمل بمعنى الميل والإنحراف[1]، وقد جاءت كلمة (يُلْحِدون) في كتاب الله في ثلاث آيات، وفي كلها استعملت بمعنى الميل والإنحراف، وهي:

١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ (٤٠)﴾ [فصلت].

٢. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل].

٣. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف].

---

(١) مختار الصحاح، ص٥١٢، لفظ: ل ح د.

والملاحَظُ أن الله تعالى - كما أشرنا سابقا - لم يُسَمِّ هذه الطائفة في كتابه، ولم يُنْزِل بشأنها إلا عدة آيات في كتابِهِ الحكيم، والحكمة في ذلك - كما يبدو لي، والله هو العليم الحكيم - هي أن كلمة الكفر تشمل تلك الفئة أيضاً، ثم إنَّ الملاحدة أقلّ شأناً من أن يسمّيهم كتابُ الله أو يتحدث عنهم كثيراً، وذلك لأن الإعتقاد بخالقية الله تبارك وتعالى، مما فطر الله تعالى عليه قلوبَ البشر جميعاً، كما بيّنا هذه الحقيقة سابقاً في أكثر من مناسبة، وخاصة في الفصل الأول من الكتاب الأول، إذ لم تكن معرفة الله تعالى خالقاً ورباً ومالكاً لهذا الخلق، يوما ما مشكلة للبشر، وانما تكْمُنُ مشكلة البشر مع الله تبارك وتعالى في كيفية التعامل معه، وسنزيد هذه المسألة إيضاحاً فيما بعد.

وللتعرّف على الملحدين وأوصافهم وكيفية تفكيرهم، لنتأمل هذه الآيات التي هي في نظرنا كل ما في كتاب الله الحكيم، من آيات تتحدّث عن قضية الإلحاد والملحدين، بصورة مباشرة وصريحة:

١. ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

٢. ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور].

٣. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

٤. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾... قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾؟! ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه].

والأدلة التي تفيدها هذه الآيات المباركات في دحض فكرة الإلحاد، وتزييف تفكير الملاحدة، هي كالآتي باختصار شديد، لأننا بحثنا هذا الموضوع في مواضع أخرى أيضاً:

أولاً: الآيات (٢١ إلى ٢٤) من (الجاثية):

وتَهَبُنا هذه الآيات هذه الأدلّة الثلاثة:

١) إن تحقيق العدل الذي فُطِرَ عليه قلوب البشر جميعاً، يقتضي وجودَ ربٍّ حكيم عدلٍ، يجزي كلاً حسب عمله، كي لا يتساوى المحسن والمسيء:

وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٢) إن خلق السموات والأرض بمجموعهما، وخَلْقَ كلِّ مخلوقٍ فيهما على حدة، بحقٍ وحكمةٍ واتقانٍ، لا يفسَّر إلا بوجود خالق قديرٍ عليم حكيم خلق الإنسان كغيره من المخلوقات بحقٍ ولحكمةٍ، وسيجزيه على حياته وعملهِ خيراً كان أو شراً:

وهذا الدليل يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٣) إن أهل الإلحاد (الدهريين) ليس لهم على دعواهم دليل علمي يستندون إليه، بل يتّبِعون الظن والوهم فقط:

ويفيدُنا هذا الدليلَ قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أقول: إن المتأمل لأقوال الملاحدة قديماً وحديثاً، يرى مِصْداقَ هذه الآية الكريمة بوضوح فيما يَسْرِدُونَه - بزعمهم - من أدلة على صدق دعواهم، حيث تقرأ لأحدهم كتاباً ضخماً لا ترى فيه دليلاً عقلياً وعلمياً واحداً، ولعلّ خير مثال في هذا المجال، هو الكتب الكثيرة التي كتبت عن المادية الديالكتيكية في النظرية الماركسية، تلك النظرية التي شغلت أذهان الكثيرين عقوداً من الزمن، ثم ظهر علمياً وواقعياً، أنه لم تكن سوى خرافة عصرية، أُلْبِسَت زُوراً ثوب الفلسفة والعلم والمنطق، ولكن سرعان ما انهارت وبدا زَيْفُها،لما سقطت الدولة الدكتاتورية التي كانت تُسانِدُها، بكل ما ملكت من قوة!

ويدل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

على عدة حقائق، هاكها بإيجاز:

١. إن الإنسان لا يمكنه العيش بدون إلهٍ، ولهذا اتّجه الملحد الدهري الذي ترك عبادة الله الإله الأحد جلّ جلاله، إلى (إله) مزيّف هو نفسه وهواه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فالإنسان لا بدّ له من (إله) يعبده، فإن كان الإله الحق، فَبِها ونِعْمَتْ، وإلّا فهو يستعيض عنه بآلهة باطلة، ولكن أين التراب بل السراب من رب الأرباب!

٢. إن الكفر والإلحاد سبب في طمس بصيرة الإنسان، وتَعَطُّل أجهزته وقواه المعرفية والإدراكية، من عقل وقلب وسمع وبصر: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

٣. إن العلم والمعرفة لا يكون سبباً للإيمان والإهتداء، ما لم تصاحبه الرغبة والإرادة: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

٤. إن الكفر والإلحاد هو السبب المباشر لانطماس البصيرة، وذهاب جدوى العقل والسمع والبصر، كما قلنا سابقاً، ويدل عليه أيضاً بوضوح قوله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ.. ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف]، ولكن نَسَب الله تعالى سَبَب تَعطُّل القوى الإدراكية للدهريين إلى نفسه، بالختم على السمع والقلب، وتغشية الأبصار، لأن هذا الأمر يجري بإرادته، ووفق سنته القاضية بتعطل أجهزة المعرفة فيمن كفر به وألْحَدَ!

٥. اذا ما عرَّض الإنسانُ باختياره نَفْسَه لسنة الله القاضية: بإضلال مَنْ يختارُ الضلالة، وإمداده فيما يريده ويختاره، فلا أَحَدَ يقدر على أن يُغَيِّر مسارَه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾، كما أن من عَرَّضَ نَفْسَه لسنة الله القاضية: بهداية من يختار الهداية وإمداده له فيما يريده، لا أحدَ يستطيع إضلالَه بعد هداية الله له: ﴿...وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ...وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ..﴾ [الزمر]، وقال تعالى في هذا الصدد: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

ثانيا: الآيات (٣٥ و٣٦ و٣٧) من (الطور):

وفي هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أدلةٍ، مُفْحِمةٍ للملاحدة، وهاكَها باختصار:

١) ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟ يقول سبحانه وتعالى للملاحدة وبأسلوب غيابي يَنُمُّ عن الإهمال وتقليل الشأن: أَوَ هُمْ أُحْدِثوا من غير مُحْدِثٍ، وخُلِقوا من غير خالق يخلقهم؟ أَم هم الذين خَلَقوا أَنفُسَهم بأنفسهم؟!

ومن الواضح أن بطلان كلا هذين الإحتمالين، أجْلى من الشمس، وذلك لأن الحدوث من غير محدثٍ، مستحيلٌ ومصادمٌ للقانون العقلي

المجمع عليه من بين ذوي العقول كافة، والمسمّى بقانون السببية، والذي بيناه في الفصل الأول من الكتاب الأول، وقانون السببيِّه خلاصته: أن شيئاً ما مهما بدا تافهاً وحقيراً، لا يمكن أن يحدث الا بواسطة مُحْدِثٍ، إذن: فالإِحتمال الأول واضح البطلان، في مذهب كافة العقلاء.

وأمّا الإِحتمال الثاني: وهو أن يكونوا خَلَقوا أَنْفَسَهم بِأَنفسهم! فهذا أبطل من الأول وأوضح منه بطلاناً، وذلك لأن الشيء إذا لم يكن موجوداً، فكيف يعطي نَفْسَه الوجودَ؟! إنَّ فاقد الشيء لا يُعطيه، ومَنْ لم يُخْلَقْ بعدُ ولم يُوجَدْ، ولم يمتلك الوجود، فأنّى له اِيجادَ نفسه؟! فهو ليس موجوداً حتى يَهَبَ الوجودَ!

وإذا بطل هذان الإِحتمالان لمصادمتهما لبدائه العقول، فلم يبق إلا الإِحتمال الثالث الذي لم يذكره الله تعالى صراحة لعدم الحاجة لذكره لوضوحه، ولوجوبه، وهو أن الله هو الذي خلقهم.

نعم إذا ثبت أَنّهم لم يوجَدُوا من غير خالق، بل لا بد لهم من خالق خلقهم، ثم لا يمكن أن يكون ذلك الخالق الذي وَهَب لهم الوجود، هو أنفسهم، إذاً: فهو غيرهم، وليس ثم خالق سوى الله تبارك وتعالى.

٢) ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يقول سبحانه: بل هناك ما هو أكبر منهم خلقاً، وهو السموات والأرض، كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ..﴾ [غافر]، فيقول جل شأنه: فهل هم الذين خلقوا السموات والأرض؟! ومعلوم أن أحداً لا يقدر على مثل هذه الدَّعوى، ولهذا يكتفي سبحانه هنا مجرد توجيه السؤال الذي جوابه من الوضوح والجلاء، بحيث يُغْني عن النطق به، وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إنَّهم لو كانوا يملكون العلم الثابت اليقيني، لما تردّدوا في تصديق مثل هذه القضايا البديهية التي لا يوجد في العقول أوضح منها.

٣) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا دليل ثالث، وهو أمس بِواقع حياتهم اليومي، يقول تعالى: بل

هل عند هؤلاء الجاحدين، تلك الخزائن الكبرى التي هيأها الله للبشر في ـذه الحياة، ويوسّع فيها لمن يشاء من الأفراد والأمم ويُضَيِّق، حسب مشيئته الحكيمة وسننه الغلاّبة، فإذا كانوا صادقين في دعوى كونهم غير مخلوقين ولا مربوبين لله تعالى، فَلْيتصرّفوا في تلك الخزائن التي ليست مفاتيحها الا بيد خالقها سبحانه وتعالى!

وعليه: فما داموا ليسوا مالكين لخزائن السموات والأرض ولا مهيمنين عليها، فَلْيكفُّوا عن الإدعاءات الباطلة، إذْ مَن لا يملك رزقه ولا رزق غيره، وقَبْلَه وجودَه ووجودَ غيره، فأنّى له تلك الدعاوي الباطلة الزائفة!!

ثالثا: الآية (٢٥٨) من (البقرة):

وهذه الآية تتحدَّث عن محاججة إبراهيم (خليل الله)، لأحد الطواغيت الذين كانوا يدَّعون الربوبية، ويجحدون وجود الخالق الجبّار تبارك وتعالى، ويقال كان اسمُهُ (نمرود).

وواضح في سياق الآية المباركة، أن محور المحاججة هو إثبات الربوبية، فإبراهيم يَنْسِبُها لله تبارك وتعالى، والطاغوت يُنْكِرُ ذلك ويدَّعيها لنفسه!!

ويستدلُّ خليل الله الحكيم صلوات الله وسلامه عليه، على ربوبية الله الواضحة بظاهرتي الحياة والموت، فيقول: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ويردّ عليه الطاغوت بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ ومن الواضح أن ادِّعاء الطاغوت كذِبٌ مفضوح، إذْ لو كان يملك الإحياء والإماتة، لأنْجى نَفْسَه من الموت! ولكن كما يقال: أُتِيَ ببريءٍ فَقَتَلَه، وأُتِيَ برجل مستحق لعقوبة الموت - حسب قانونه - فأَطْلَق سراحه، فَحَسَب تصرُّفَيه هذين:

إحياءً وإماتةً! وجلي أن تصرُّفَهُ ذلك لم يكن سوى تشويش على الحق الأبلج الذي أظهره إبراهيم، ولكن إبراهيم الحكيم، قطعاً لِلُّجاج، لم يدخل مع الطاغوت في الجدال الذي أراده الطاغوت، بل أتى بحجة أخرى لم يكن بوسع الطاغوت أن يُشَوِّش عليها، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾! وهنا أمام هذه الحجة النيِّرة، تَحيَّر الطاغوت

ولم يَجِدْ جواباً ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقد قيل: (انَّ حَبْلَ الكَذِب قصير).

رابعاً: الآيات (٤٣ إلى ٥٢) من (طه):

وإذا كانت قصة محاججة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِنَمْرُود وردت في الآية (٢٥٨) من (البقرة) فقط، فإن قصة محاججة موسى لفرعون، حول إثبات ربوبية الله تبارك وتعالى، وردت بالإضافة إلى سورة (طه) في كل من (الشعراء) و(القصص) و(غافر) مع اختلافات يسيرة.

ونحن هنا نكتفي بما جاء في سورة (طه):

وتَبدأ قصة محاججة موسى لفرعون الطاغية، عندما يأمره سبحانه وتعالى وأخاه هارون عليهما السلام أن يذهبا إلى فرعون، ويطلبا منه إطلاق سراح بني إسرائيل الذين استعبدهم وأذلّهم، منذ فترة ليست بقصيرة، وبعد أن يكَلِّمانه ويفهمانه: أنهما رسولان من الله تعالى رب العالمين، يستفسر فرعونُ الطاغوت ويقول: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟!

وواضح أن منشأ استفسار فرعون هذا وسببه، هو أنه كان يدَّعي الربوبية بل الربوبية العليا لنفسه، كما حكاه عنه لنا رب العزة سبحانه تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات].

ويجيبه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جواباً حكيماً مُفْحِماً قوياً جداً، فيقول: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ويتضمن جواب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا برهانين، هما أقوى البراهين، وأوضحهما على ربوبية الله تبارك وتعالى:

أولهما: يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعريف بربّه العظيم: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: إنَّ ربّنا الذي ندعوك إليه، هو الذي أعطى الوجودَ لكل الموجودات، إذ هذه المخلوقات كُلُّها قد خُلِقَتْ وأُوجِدَتْ، بعد أن لم يكن لها وجود، فكساها الخالِقُ الربُّ جلَّ جلاله ثوب الوجودَ، بعد أن كانت عارية منه، وهذا البرهان الأول في كلام موسى، يُسمّى ببرهان الخلق، أي: إنَّ وجودَ المخلوق دليل على خالقه الذي خلقه وأوجده، طبقاً للقانون

العقلي المعروف بقانون السببية القائل: لا يوجد شيء من دون سبب، ولا يحدث حادث من غير مُحْدِث، ولا يُخلَقُ مخلوق من غير خالق، وهذا القانون من أوضح البدائه العقلية، التي اتفق عليها كل العقلاء قاطبة قديماً وحديثاً.

ثانيهما: يذكر موسى برهانه الثاني بقوله: ﴿... ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: إنَّ ربي هو الذي أعطى الوجودَ لكل شيء، ثم نَظَّمه ورتَّبَهُ وهداه لأداء الوظيفة التي خَلَقه لها، وهذا البرهان هو البرهان المشهور ببرهان النظام الذي يقول: لا يمكن أن يوجَدَ نِظامٌ من دون مُنَظِّم، فلا نظام من دون منظِّم، وبما أن هذا الوجود بمجموعه، وكل شيء منه على حِدةٍ، مُنَظَّم ومُتْقَنُ الصّنْع غاية النظام والإتقان، فلا بدَّ له من منظِّمٍ ومُتْقِنٍ، وهو الله تبارك وتعالى الخالق الحكيم العليم، وانما قال موسىَ: (ثم هدى) ولم يَقُلْ: ثم نظَّم، لأن هداية الله تعالى للمخلوقات لأداءِ وظائفها، أعظم من انتظامها في ذاتها، أو بعبارة أخرى نقول: إنَّ كون المخلوقات مهديَّةً بهداية الله إلى غايات مرسومة لها، يُؤَدِّي كلٌّ منها ما كَلَّفه الله به، ولا يحيدُ شيء منها عمّا حُدِّ له، أكثر دلالة على ربوبية خالقها وبارئها، من كونها متقنة ومنظَّمة في ذاتها فحسب!

وأمامَ هذا الكلام المتين الحاوي على هذين البرهانين، لم يجد فرعون بُدّاً من التهرّب، وذلك بإثارة مسألة جانبية لا صلة لها بموضوع النقاش، وهي مصير الأجيال السابقة: ما هو؟! ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾؟! ولكن موسى نبي الله الحكيم ﷺ، أجاب على سؤاله الجانبي هذا، جواباً وجيزاً دامِغاً، وقاطعاً للجدال، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: إنَّ العلم بأحوال الأمم الغابرة، في حوزة ربي وربهم، فهو الذي خلقهم وأحياهم وأماتهم، وهو عليم بهم وبمصائرهم!

وجديرٌ بالذكر أن قول موسى لفرعون: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فيه برهان آخر على فرعون ودحض ادِّعائه الربوبية، إذْ يقول له موسى: إنَّ ربي هو الذي خلقك أنت وقومك وأعطاكم الوجود، إذن: فهو

وحده الذي يحق له أيضاً أن يهديكم، ويُشَرِّع لكم من الدين والمنهج الذي تُنَظِّمون به حياتَكم، وتُرَتِّبون به شؤونكم، كي تعيشوا كما يرضاه لكم خالقكم وربكم جلّ شأنه!

وربّ سائل يسأل هنا، فيقول:

ولكن أين الدليل على أن: كلَّ الأشياء مخلوقة، وُهِبَ لها الوجود والخلق، وأن كل الأشياء مهدية بهداية الله تعالى إلى أداءِ وظائفها الفطرية، التي حدّدها لها سبحانه، وذلك حتى يَصِحَّ قولُنا بأنَّ كلامَ موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ يحتوي على كلا برهاني السَّبَبِية، والنظام؟!

ونجيب على هذا السؤال بقولنا: إنَّ كون الأشياء كلها مخلوقة، أي: أُوجدت وأُنشأَتْ بعد أن لم تكن، من البديهيات التي لا تحتاج إلى البرهنة عليها، وانما تكفي هذه المسألة التنبّه والتذكُّر فقط، وإذا جعل الإنسان نفسه أساساً للنظر في هذه المسألة، كفاه هذا مؤنة التأمل الطويل، إذْ كل إنسان يعرف معرفة تامة يقينية، أنه أُوجِدَ وخلِقَ، بعد أن لم يكن له وجود، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان]، وكذلك بقية المخلوقات لها نفس الحالة والحكم، واستعمل في كلام موسى تعبيرٌ دقيقٌ وحكيمٌ للغاية لهذا الغرض، فالمقصود بـ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ هو ﴿خَلَقَ كلَّ شَيْءٍ﴾ ولكن عُدِلَ إلى التعبير الذي في الآية الكريمة، للتنبيه على حقيقة أن كل الأشياء بلا استثناءِ شيء منها، قد أَلْبسَها الله ثوبَ الوجود وخلقها، بعد أن كانت عارية منها، ومعلومٌ أَنَّ الإنسان يشعر بيقين أنه فعلاً أُعطي الوجود الظاهري والباطني، وأنه سَيُسْلَب منه ويؤخذ مرة أخرى - أعني وجوده الظاهري الذي يملكه في هذه الحياة -، وإذا كان الإنسان بهذه المثابة وهو سيِّد هذه المخلوقات، إذ هو يتصرَّف فيها كلِّها بعقله وإرادته، فمن البديهي أن غيره من المخلوقات، بالأَحْرى والأَوْلى أنَّ تكون مثله في هذا المجال، هذا بالنسبة لكون الأشياء كلها مخلوقة بعد أن لم تكن.

وأما بالنسبة لكونها مهديَّة بهداية الله إلى غايات مرسومه محدَّدة، فهذا ا يُعْرَفُ بالتأمّل والتدبّر في الخلق جملة (أي إجمالاً)، حيث يشعر الإنسانُ بوضوح، أنه يسير إلى هدف مرسوم له لا يحيد عنه قيد شعرة، ولم يحِدْ عنه منذ أن خَلَقَهُ الله، وأمره بالتحرك إلى المصير الذي حُدِّد له، كما قال تعالى: ﴿. . . أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى]، وكذلك يُعرف كون الخلق مهدياً، بالتفكر والتأمل في كل مخلوق على حِدَة، بل كل جزءٍ من أجزاءِ تركيبه، وكلما أَوْغل الإنسانُ في التفكير والتأمل والتعمق في أحوال المخلوقات، سواء الجمادات منها أو النباتات بأصنافها المختلفة، أو الحيوانات بشتى أنواعها، أو الإنسان نفسه، انكشفت له أسرار وأسرارٌ وأسرار بلا نهاية، ولهذا خصَّ الله تعالى دَرْك أسرار خلْقهِ وحِكمَها، بأصحاب العقول المتفكرين فيه، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران]، هذا وقد نبَّهنا سابقاً أن كلمة (ثم هدى) بدل (ثم نظّم) أو (ثم سوّى) أكثر دلالة على المقصود الذي أراده موسى عليه السلام، وذلك لأن هداية المخلوقات، تسويةٌ وتنظيمٌ لها وزيادة!

ووالله العظيم إنَّ هذه البراهين القرآنية، هي أقوى وأوضح البراهين، في مجال الكلام عن ربوبية الله وخالقيته جلَّ شأنه، وكلما تأمَّلها الإنسانُ ازدادت تجلّياً وتَلألُؤاً، وهي كافية لإقناع أو إفحامِ أخبث الملحدين، إذا أُحسِن فَهمُها وعَرْضُها والإستدلالُ بها.

وأودّ أن أختم كلامي عن الملحدين بهذه الأسطر:

كما قلنا سابقاً: ما عانى البَشَرُ يوماً ما مشكلة في معرفة الله تبارك وتعالى، والإعتقاد بوجوده خالقاً وربّاً ومالكاً لهذا الوجود، ولما فيه من كائنات وموجودات، لأن الله تعالى فطر البشر على معرفته، كما فطر الموجودات كلَّها على معرفته والتسبيح بحمده، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ

﴿تُسَبِّحُهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]، وأنا أُشبِّه حالَةَ الإنسان في معرفة فاطره وربِّه الحكيم الكريم جلّ شأنه، بحال شخص دخل قصراً في صحراء قاحلة، وقد جُهِّزَ ذلك القَصْرُ بكل ما يحتاجه الإنسان من مستلزمات، وكان ذلك الشخص على معرفة من قبل بوجود القصر المذكور، وبأن مَنْ اجتاز تلك الصحراء، فله الحق في أن يَسْتَمْتِعَ في البقاءِ فيه وبما فيه، من مستلزمات الحياة والراحة.

فمن الواضح إذاً أن ذلك الشخص وبمجرد دخوله القصر المذكور، يعلم علم اليقين أن بانياً ما بَنى القصر، فهو من جهة اعتقاده بوجود بانٍ للقصر، لا يعاني من مشكلة، بل هو من الأمور الواضحة البديهية عنده، ولكن تبدأ مشكلته عندما يريد معرفة اسم صاحِبَ القصر وصفاتِهِ وهدَفَه من بناء القصر، وما الذي يريده من الداخلين في القصر والمستمتعين في البقاء فيه وبما فيه من متاع وأثاث؟ وما الذي ينبغي عَمَلُه لجلب رضاه؟ وكذلك ما الذي يجب اجتنابه لعدم التعرّض لغضبه وعقوبته؟ وبكلمة واحدة: ما هي الطريقة الصحيحة للتعامل مع صاحب القصر، صاحب النعمة والمِنَّةِ على ساكني قصره؟!

نعم إن معرفة الخالق الفاطر الباريء الرازق المصوِّر، مالك الملك ورب الخلائق جلّ شأنه، ممّا فطر الله تعالى عليها البَشَرَ، فهو سبحانه لم يُحْوِجِ لا البشر وحدهم، بل أياً من مخلوقاته إلى تحمُّل العَناء والنَّصَب لمعرفته خالقاً ورباً ومالكاً، وهذه هي حكمة عدم تَعَرُّض الأنبياء من آدمهم إلى سيّدهم وخاتمهم عليهم الصلاة والسلام في خطاباتهم مع أقوامهم، لإثبات ربوبية الله تعالى، وسَرْدِ البراهين لهذا الغرض! إذ كان الكل مُقِرِّين بخالقية خالقهم، وربوبية رُبهم، ومالكية مالكهم لهم ولكل شيء!

ولكن الذي ركّز عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووجهوا إليه اهتمامهم فيما يتعلق بالله تبارك وتعالى، كان يتمثّل في شيئين:

١. التعريف بالله تبارك وتعالى وخالقيته وربوبيّته ومالكيته لكل شيء، وأسمائه وصفاته وشؤونه بالتفصيل والوضوح الذي توضع فيه النقاط على الحروف.

٢. وضيح طريقة التعامل مع الله تعالى، التعامل الصحيح الذي يُرْضيه، والذي يتمثَّل في تقديم العبادة له، واتخاذه وحده ربّاً وإلهاً ووليا وحَكَماً.

ومن الواضح أن هذين المطلبين لا يمكن معرفتهما والإطّلاع عليهما، إلا من طريق الوحي، أي: العلم النازل من الله تعالى إلى رسله وأنبيائه.

وبما أن المعرفة الإجمالية بالله تعالى، والإعتقاد به خالقاً ورباً ومالكاً هي القاسم المشترك بين كل الموجودات بلا استثناء، لذا لم يكن هذا الأمر امتيازاً للإنسان، يُحْسَبُ له على سائر الموجودات حتى يجعله الله تعالى مادة ابتلائه له! بل الذي يشكل امتيازاً للإنسان، ويتطلب منه جهداً، هو التعامل مع الله تعالى على أساس المعرفة التفصيلية التي يأتي بها الوحي، ومن ضمنها كيفية وطريقة التعامل مع الله تعالى، والتي تتمثل كما قلنا في العبودية الإختيارية له، وتقديم العبادة له، بالمعنى القرآني الشامل للعبادة.

وهذا هو السَّبَبُ في أن الله تعالى جعل الناس معذورين، ويمتلكون حُجّةً قبل مجيء الرسل الكرام، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء]، وذلك لأن المعرفة التفصيلية بالله تعالى، وكيفية التعامل معه، كعبد مطيع، لا تُعْلَمُ إلّا من طريق الوحي، وأمّا إكثارُ كتاب الله تعالى من ذكر ربوبِّيةِ الله وخالقيَّتِهِ، وتوضيح آياته وتبيين صفاته العلى وأسمائه الحسنى، فالغرض منه تعميق المعرفة بالله تعالى، وتأْصيلُهُ وذلك كي يزداد الناس معرفة وعبودية له وقُرْباً منه، إذ كثيراً ما يرجع الخَلَلُ في العبادة له، إلى الخطأ والخلل في معرفته، وان كانت المعرفة الصحيحة وحدها لا تؤدي إلى الإيمان، ما لم تنضم إليها الرغبة والإرادة في العبادة لله، حباً وخشية وحياءً وهيبةً، وشكراً ووفاءً وتقديراً له سبحانه وتعالى.

* * *

المطلب الثاني:
أهل الكتاب

ونتناول البحث عن أهل الكتاب في الفقرات الأربع الآتية:

١) **تعريف أهل الكتاب.**

٢) **كفر أهل الكتاب عامة، واليهود والنصارى خاصة.**

٣) **خصائص أهل الكتاب (اليهود والنَّصارى).**

٤) **موقف اليهود والنصارى تجاه الإسلام والمسلمين.**

١) تعريف أهل الكتاب:

أهل الكتاب هم النوع الثاني من أصناف الكفار، ويقصد بهذا الإسم في الأعم الأغلب: طائفتا اليهود والنصارى، كما قال تعالى مخاطباً المشركين الذين أرسل فيهم نبيّه الخاتم ﷺ وأنزله فيهم آخر وأعظم كتبه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ . . . أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام]، والمقصود بالطائفتين بلا شك، هم اليهود والنصارى، لأن العرب المشركين ما كانوا يعرفون غيرهما ممَّن أوتوا الكتاب.

ولكن بالإضافة إلى اليهود والنصارى، ورد في كتاب الله ذكر كل من (الصابئة) و(المجوس) أيضاً، أما اسم المجوس ففي الآية (١٧) من (الحج) فحسب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ

﴿أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾، ولكن ورد اسم (الصابئين) بالإضافة إلى هذه الآية، في كل من الآية (٦٢) من (البقرة)، والآية (٦٩) من (المائدة) أيضاً.

ومن الواضح أن المجوس معتقدون بوجود الله، ولكنهم يعبدون النار ويعتقدون بوجود إلهي الخير والشرّ باسمي (يزدان) و(أهريمن)، ولكن الصابئة يعتبرون أنفسهم من أتباع الأنبياء وخصوصاً (يحيى) عليه السلام[1]، وعليهِ: فالمجوس والصابئة أيضاً، وبدليل ذكر الله تعالى إياهم مع اليهود والنصارى، يعتبرون عموماً من أهل الكتاب.



(١) وللصابئة كتابان دينيان، أَحَدَهُما وهو أهمُّهما: كَنْزارَبّا ـ الكنز العظيم، الكتاب المقدس لصابئة المندائيين، ط٢٠١٠/٥م، والآخر هو: دراشة أديهيا ـ مواعظ وتعاليم يَحْييٰ بن زكريا عليه السلام، ط٢٠٠١/١م.

٢) كفر أهل الكتاب عامة واليهود والنصارى خاصة:

ولمعرفة كفر أهل الكتاب عموماً، واليهود والنصارى منهم خاصة، لِنتأمل هذه الآيات:

١. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء].

٢. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البيّنة].

٣. ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

٤. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

٥. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج].

ودلالة هذه الآيات على كفر أهل الكتاب عامة، واليهود والنصارى خاصة، واضحة وضوح الشمس في النهار:

١ ـ ففي الآية (٤٧) من (النساء)، يخاطب الله تعالى كل الذين آتاهم الكتابَ قبل نبيّه الخاتم محمد ﷺ، أن يؤمنوا بما أنزله (أي القرآن) وهو يصدق كل الكتب المتقدمة عليه، من حيث نزولها من الله تعالى، ثم يهددهم سبحانه عند عدم الإيمان، بطمس الوجوه وتحويلها إلى جهة القَفا، أو باللعن والإبعاد من رحمته، مثل لعنه أصحاب السبت، الذين ذكر الله

تعالى قصتهم ومخالفتهم لأمر الله وعقوبة الله إياهم، في الآيات: (١٦٣ إلى ١٦٦) من (الأعراف).

٢ ـ وفي الآية (٦) من (البيّنة)، يعلن جلَّ شأنه، أن كل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، سيدخلون نار جهنّم خالدين فيها، وبأنهم هم شرُّ الخليقة.

٣ ـ وفي الآية (٢٩) من (التوبة) يأمر الله تعالى أهلَ الإسلام أن يقاتلوا أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّمَ الله ورسوله، ولا يلتزمون بالدين الحق، إلى أن يخضعوا لإِعطاء الجزية.

إذن:

أهل الكتاب على الرغم من اعتقادهم بوجود الله تعالى، واعتقادهم باليوم الآخر، وصمهم الله تعالى بالكفر، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك لأن الإيمان بالله واليوم الآخر، كما أمر به الشرع، شيء، وادِّعاء الإيمان، شيء آخر، كما أن العلم والإِعتقاد بوجود الله تعالى وربوبيته، يختلف عن الإيمان به، وقد وضّحنا هذه المسألة في كلٍّ من: الكتاب الأول والكتاب الثاني والكتاب الثالث، في أكثر من موضع.

٤ ـ وفي الآيتين (٣٠ و٣١) من (التوبة)، يبيِّن لنا سبحانه وتعالى أن اليهود ينسبون بُنُوَّةَ عزير إلى الله تعالى، والنصارى يدّعون بُنُوَّةَ عيسى بن مريم عليهما السلام لله، الذي ليس كمثله شيء، ثم يعلن المولى جلّ وعلا أن اليهود والنصارى بادعائهم ذينك، إنما يماثلون الذين من قبلهم من الكفار، الذين كانوا ينسبون البنات والبنين إلى الله، وقلّما وجدت ملة كافرة لم تَتَلَبَّسْ بهذه الخرافة وبهذه السفاهة! ثم يَصِفُهم ربُّ العزَّة بأنهم - أي: اليهود والنصارى - جعلوا علماءَهم وعبّادهم أرباباً لهم يُشرِّعون لهم فيحلّلون ويحرِّمون - كما جاء في حديث الرسول ﷺ تفسيراً لهذه الآية، وقد ذكرناه من قبل في أكثر من كتابٍ من كتب

هذه الموسوعة فلا نعيده هنا -[1]، ثم يُضِيفُ سبحانه (المسيح بن مريم) عليه السلام أيضاً، إلى قائمة معبوداتهم وأربابهم الذين اتخذوهم آلهةً - والمقصود بهذا النصارى وحدهم، لأن اليهودَ يَتّهمون عيسى وأُمّهُ بالعظائم، لعنهم الله وأخزاهم -، ثم يعقب سبحانه على هذا كله، بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

وعليه: فاتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم، أرباباً من دون الله، عبارة عن عبادتهم إياهم، واتخاذهم آلهة من دون الله، وكذلك عيسى عليه السلام وإنْ كان هو لا يُعْتَبُ عليه في هذا - بخلاف الأحبار والرهبان - لأنه لم يَرْضَ به، بل وأكّد عليهم كثيراً، أنه ليس سوى عبدالله ورسوله، وأن مَنْ عَبَد غيرَ الله وأشرك به شيئاً، حرّم الله عليه الجنة، كما قال تعالى بهذا الصدد: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

٥ - وفي الآية (١٧) من (الحج) يعتبر الله تعالى كلاً من: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والذين أشركوا، كفاراً وخارج دائرة الإيمان، بدليل انه يذكر قبلهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم يذكر كلّ الأصناف الخمسة المذكورة، ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وهذا واضح الدلالة بأنه لا يعتبر مؤمناً الا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وحكم الله بين طوائف الكفار المختلفة في الحق، انما يقصد به إدانتهم والحكم عليهم، لأن الله تعالى يقول: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة].

---

(١) أنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص٥٦٣، ٥٦٤، وانظر: زادُ المَسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ص٥٧٨.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود] وهاتان الآيتان واضحتا الدلالة على أن المختلفين في دين الله الحق انما يختلفون بسبب البغي ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ والبغي هو التجاوز والظلم(١)، والحسد نوعٌ منه، ويختلفون بسبب بعدهم عن رحمة الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾.

والمقصود بالإختلاف هنا، هو مخالفة دين الله الحق وعدم قبوله، والدليل على هذا هو قوله تعالى ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنَّ الله تعالى هدى الذين آمنوا إلى الحق الذي اختلف فيه غيرهم، بسبب البغي، وليس بسبب الجهل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ ...﴾.

ومما مرّ ذكره من الآيات المباركات، يُعْلَمُ بوضوح أن أهلَ الكتاب كلَّهم كفارٌ، لا حظَّ لهم في الإيمان، ولا في ثماره الدنيوية والأخروية، ولكن قد حصلت شبهة في هذا المجال لبعض الناس، من جرّاء الخطأ في فهم جملة كريمة، تكرّر ورودها بصيغ متقاربة، في كل من الآية (٦٢) في (البقرة)، والآية (٦٩) من (المائدة) والآية (١٧) من (الحج)، ونكتفي هنا بإيراد آية (البقرة) التي اشتملت على تلك الجملة الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

والمعنى الصحيح للآية الكريمة، هو:

إن كلاً من (المسلمين) و(اليهود) و(النصارى) و(الصابئين) من كان

(١) مختار الصحاح، ص٦٥، لفظ: ب غ ي.

منهم مؤمناً بالله واليوم الآخر، وعاملاً للصالحات، فلهم أجرهم يوم القيامة عند ربهم، ولا يتعرّضون للخوف ولا للحزن، أي: إنَّ كلاً من هذه الأصناف الأربعة، إذا ما آمن بالله واليوم الآخر، الإيمانَ الحقَّ الذي يبيّنه كتابُ الله الأخير، وَنبيُّه الخاتم، والتزم بدين الله تعالى، كما يتطلبه الإيمانُ الصحيح، فهو من المفلحين الناجين.

نعم هذا هو المعنى الصحيح[1] للآية الكريمة، ولكن أولئك البعض فهموها خَطَأً، وتصوّروا أن الآية تقول: إنَّ كلاً من المسلمين واليهود والنصارى والصابئة، إذا اعتقدوا بوجود الله واليوم الآخر، وقاموا بالأعمال الصالحة، حسب شرائعهم، فهم سواء في الأجر يوم القيامة..!

وربما حدث الإِشكال عندهم في فهم الآية، بسبب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ... ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وتصوّروا أن هذا يؤدي إلى تحصيل الحاصل، وإلّا كيف يؤمن بالله، من هُوَ مؤمنٌ؟! ولكن ليس الأمر كما ظنوا بدليل:

أن الله تعالى أمر المؤمنين بالإيمان، في كل من الآية (١٣٦) من (النساء) والآية (٢٨) من (الحديد)، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ...﴾! وما دام أن الإيمان يزداد وينقص، فالأمر به لا إِشكال فيه.

وأنا أرى أن الحكمة من هذا التعبير - بالنسبة للمسلمين، حيث سمّوا مؤمنين، ثم اشترط لفلاحهم الإيمان والعمل الصالح - هي ألّا يغترّ المسلمون بمجرد تسميتهم بأهل الإيمان، بل ينبغي أن يسعوا لِيُحققوا في أنفسهم الإيمان التامَّ المُثْمِرَ للعمل الصالح!

---

(١) وهناك معنى صحيح آخر وهو: كل من هؤلاء الأصناف الثلاثة: اليهود والنصارى والصابئين، فأسلافهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هم من أهل الفلاح.

ثم أقول:

كيف يستقيم فَهْمُ الآية الكريمة كما ظن أولئك، وذلك الفهم يتصادم مع آيات كثيرة - قد مثّلنا لبعضها في الفقرة الأولى - كلها تصرّح بكفر أهل الكتاب، بل كفر كل من لم يؤمن بنَبَإ الله الخاتم، وبكتابه المحكم، ونوره الأَتم: القرآن العظيم، ويستحيل على كتاب الله الحكيم أن يوجد فيه أي نوع من التصادم والتناقض، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].



٣) خصائص أهل الكتاب (اليهود والنَّصارى):

ستتحدث عن خصائص اليهود والنصارى، وما يعرفون به من أوصاف ومواقف، في نقطتين: في الأولى نذكر أوصافهم وخصائصهم ومواقفهم المشتركة التي نَسَبَها كتابُ الله إليهما معاً، وفي النقطة الثانية نسرد خصائص كل من اليهود والنصارى على حدة، أي: الخصائص التي انفردت بها كل طائفة منهما.

وأؤكد على أنني لا أَدَّعي بأني قد أحطتُ هنا بكل ما لأهل الكتاب من خصائص، مما جاء ذكرها في كتاب الله تعالى، ولكني حاولت أن أذكر أهم ما تَبيَّن لي من خلال تأمّلي الآيات البيِّنات، بقدر ما سَمَح به جهدي ووقتي بعد توفيق الله وهدايته:

أ). خصوصيات أهل الكتاب (اليهود والنصارى) المشتركة بينهم:

وللتعرّف على خصوصيات أهل الكتاب المشتركة بينهم، لنتدبَّر هذه الآيات:

١. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ ... ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ... ﴿١٨﴾﴾ [المائدة].

٣. ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

٤. ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟

﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

٥. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ.. ﴿١٤﴾﴾ [المائدة].

٦. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة].

٧. ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ..﴾ [المائدة: ٧٧].

٨. ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٩] .

٩. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران].

١٠. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

١١. ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران].

١٢. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ [التوبة: ١٧١].

١٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ...﴾ [المائدة: ٥٠].

فهذه الأربع عشرة، هي أبرز خصائص أهل الكتاب المشتركة بينهم:

١) رَفْضُ كل من اليهود والنصارى للطرف الآخر، وعدم الإعتراف بِصحّة دينه، الآية (١١٣) من (البقرة).

٢) إدّعاءُ الخصوصية والإمتياز على سائر البشر، والزعم بأنهم أبناءُ الله وأحباؤه، الآية (١٨) من (المائدة).

٣) زعمهم بأن الجنة محصورة عليهم، لا يدخلها سواهم، الآية (١١١) من (البقرة).

٤ و٥) نقض الميثاق مع الله تعالى، وتحريف كتاب الله ونسيان بعضه، الآيات (١٢ و١٣ و١٤) من (المائدة).

٦ و٧) أكل أموال الناس بالباطل، ومنع الناس عن دين الله الحق، الآية (٣٤) من (التوبة).

٨) الغلو ومجاوزة الحدّ المرسوم في الدين، الآية (٧٧) من (المائدة).

٩) مُخالفة دين الله الحق المتمثل في القرآن، والنبي الخاتم ﷺ، عن علم ومعرفة بسبب البغي (أي الحسد وإرادة الظلم ومجاوزة الحدود، بواسطة البقاء على الدين المحرَّف، الذي لم تكن لَتُضْمَن مصالحهم اللاشرعية، ومنها أكل أموال الجماهير الكادحة ظلماً، إلّا في ظِلِّهِ) الآية (١٩) من (آل عمران).

١٠) إغترارهُم في تَدَيُّنهم المغشوش، بسبب الإفتراء على الله من خلال تحريف الكتاب وتلفيق الروايات المكذوبة، الآية (٢٤) من (آل عمران).

١١) إلباسُ وخَلْطُ الحق بالباطل، وذلك بهدف تمرير الباطل والترويج له من خلال الحق، الآية (٧١) من (آل عمران).

١٢) السعي في إظهار دين الله الحق (الإسلام) في أنظار الناس، مُعْوَجّاً مُشَوّهاً لِتَنْفيرهم عنه، الآية (٩٩) من (آل عمران).

١٣) إتِّخاذ العلماء والعبّاد - منهم - أرباباً ومعبودات من دون الله، الآية (٣١) من (التوبة).

١٤) مُناصرة بعضهم لبعض ضدّ الإسلام والمسلمين، على الرغم ممّا هم عليه من الخلاف فيما بينهم، الآية (٥١) من (المائدة).

ب). خصائص كل من اليهود والنَّصارى:

أولاً: خصائص اليهود:

وهذه الآيات المباركات تجلّي لنا خصوصيات (اليهود):

١. ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة].

٢. ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [[البقرة].

٣. ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤].

٤. ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٧٦﴾ [البقرة].

٥. ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة].

٦. ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة].

٧. ﴿...أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ...﴾ [البقرة: ٨٥].

٨. ﴿...أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

٩. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ..﴾ [البقرة: ٩٦].

١٠. ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ..﴾ [البقرة: ١٠٢].

١١. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦].

١٢. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء].

١٣. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ..﴾ [آل عمران: ١١٢].

١٤. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟...﴾ [المائدة: ٨٢].

١٥. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾... وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ..﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧].

١٦. ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾...﴾ [النساء].

وهذه العشرون، هي الخصائص التي انفرد بها اليهود، أو أبرزها وأهمُّها في ضوء الآيات المدرجة أعلاه:

١) **كتمُ الحق من الناس مع المعرفة التامة به**، الآية (٤٢) من (البقرة).

٢) **أمر الناس بفعل البرّ ونسيان النفس**، الآية (٤٤) من (البقرة).

٣) **قسوةُ القلب مثل الحجارة أو أشد**، الآية (٧٤) من (البقرة).

٤) **إظهار الإيمان عند لقاء المؤمنين، ثم معاتبة بعضهم بعضاً على ذلك**، الآية (٧٦) من (البقرة).

٥) **إنقسامهم إلى قسمين: جَهلةٍ مقلدين، وعارفين مُطلِعين**، الآيتان (٧٨ و٧٩) من (البقرة).

٦) **كتابة عارفيهم أشياءَ كثيرة باسم الدين، لتصيُّد أموال الناس**، الآية (٧٩) من (البقرة).

٧) **إيمانهم ببعض الكتاب الذي أنزله الله، وكفرهم ببعضه الآخر، أي: يلتزمون ويعملون بما يوافق أهواءهم ومصالحهم، ويخالفون ما لا يوافق أهواءهم،** الآية (٨٥) من (البقرة).

٨) **تكذيبهم كلَّ الرسل الذين جاؤوا بشرائع تتصادم مع أهوائهم واستكبارهم عن إطاعتهم، فقتلوا بعضاً منهم، واكتفوا من بعضهم الآخر بالتكذيب فحسب!،** الآية (٨٧) من (البقرة).

٩) **حرصهم على الحياة الدنيا، أَيّة حياةٍ كانت وبأَي ثمن،** الآية (٩٦) من (البقرة).

١٠) **إِستعاضتهم عن اتِّباع الشرع باتباع السحر ومزاولته، لتحقيق أغراض خسيسة خبيثة،** الآية (١٠٢) من (البقرة).

١١) **إِستعمال تعابير وكلمات مُوهِمةٍ لمعاني غير لائقة، عند مخاطبتهم للرسول ﷺ خاصة والمؤمنين عامة،** الآية (٤٦) من (النساء).

١٢ و١٣) **إظهار الإِعتقاد بالأصنام والطواغيت التي يعبدها المشركون والكفرة، وتفضيل الكفرة وأديانهم الباطلة على أهل الإيمان ودينهم الحق، بغضاً وحسداً،** الآية (٥١) من (النساء).

١٤ و١٥ و١٦) **إبتلاء الله إياهم بالذل والإِستضعاف دَوْماً، باستثناءِ حالتين:**

أ) **العيش تحت ظل الحكم الإسلامي.**

ب) **عقد التحالفات مع الآخرين.**

واستحقاق غضب الله، والإِبتلاء بالفقر والمسكنة.

ومصداق الآية الكريمة واضح في حال اليهود اليوم، فهم بعد أن زال عن رؤوسهم ظل الحكم الإسلامي الذي سُعِدوا به قروناً متطاولة، لجؤوا الآن إلى عقد التحالفات مع الآخرين، وخصوصاً الدول النصرانية وفي مقدمتها أمريكا، الآية (١١٢) من (آل عمران).

١٧) **إعلان أقصى العداوة وأقساها مع أهل الإيمان**، الآية (٨٢) من (المائدة).

١٨ و١٩) **قذفهم مريم الصديقة عليها السلام بالزنا - حاشاها -، وادعاؤهم أنّهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، مع أنّهم كاذبون وواهمون، وإنْ صدَّقتهم النصارى جهلاً منهم، بل الله تعالى رفع عيسى إلى السماء، بعد أن ألقى شَبَهه على شخص آخر، وصلبوه باسم المسيح ظانين أنه هو**، وقد بيّنا هذا في السابق في ضوء آيات كتاب الله الصريحة بهذا الصدد، الآيتان (١٥٦ و١٥٧) من (المائدة).

٢٠) **تحريم الله تعالى عليهم طيبات كثيرة، عقوبة لهم على ما ارتكبوا من ظلم وانحراف، ومنع الناس عن دين الله، وبسبب تعاملهم بالربى مع انه محرَّم عليهم**، الآيتان (١٦٠ و١٦١) من (النساءِ).

ثانياً: خصائص النَّصارى:

وخصائص النّصارى، أو أبرزُها وأهمُّها، تبيّنها لنا هذه الآيات:

١. ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

٢. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ..﴾ [المائدة: ١٤].

٣. ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

٤. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد].

٥. ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ **[المائدة].**

٦. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ **[المائدة].**

وتدل هذه الآيات على الخصائص العشر الآتية التي ينفرد بها النصارى:

١) **ادعاؤهم الربوبية لعيسى عليه السلام، وأنه هو، والله تعالى، وجبريل (الروح القدس) هم الأقانيم الثلاثة الذين يشكّلون بمجموعهم (الله) تعالى!!** الآيتان (٧٢ و٧٣) من (المائدة).

وهذه الخرافة العجيبة لا يزال النصرانيون يروِّجون لها، مع أنها لا تدخل في أي عقل سليم، وقد حدث هذا الإنحراف الخطير في النصرانية بعد صُلْحِها مع الدولة الرومانية الوثنية، فتنازلت النصرانية عن التوحيد الذي جاءَ به كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ضمنهم عيسى، وتَركَت الدولة الرومانية مجموعةً من أصنامها وأساطيرها، فالتقى الطرفان في وسط الطريق، وقالوا - بلسان الحال - لا التوحيد المسيحي، ولا كل هذا الكَمُّ الهائل من الأوثان والأصنام، بل ثلاثة آلهة فحسب! ألا ما أسخف عقولَهم! فكيف سمحت لهم بتسوية رَبِّ الأرباب جلّ شأنه، ببعض خلقه الذي لم

يكن - من حيث جَسَدُهُ - سوى حَفَنَاتٍ[1] من تراب!!

٢) **حدوث البغضاء واستحكام العداءِ بينهم إلى يوم القيامة، الآية (١٤) من (المائدة)**، ومصداق قول الله تبارك وتعالى في الفرق المتناحرة النصرانية، منذ أن انحرفت عن جادة التوحيد، وإلى يومنا هذا، أوضَحُ من الشمس في الظهيرة، وقد حدثت حروبٌ داميةٌ ذَهَبتْ ضَحِيَّتَها ملايينُ الناس، بين الفرق الثلاثة النصرانية: الكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس، وخاصة في القرون الوسطى وفي أوروبا بالذات.

٣) **الإعتقاد جهلاً وتقليداً لليهود وترديداً لأقوالهم، بأن عيسى عليه السلام قد صَلَبَهُ اليهود والرومان، مع أن هذا ليس سوى كَذِبٍ لا يستند إلى دليل، وقد أَماط كتابُ الله العظيم اللِّثامَ عن هذه القضية، وبيَّن بحانه وتعالى بأوضح عبارة أن عيسى عليه السلام لم يُقتلْ ولم يُصْلَبْ، ما يَدَّعي كلٌّ من اليهود والنصارى، بل رفعه الله تعالى إليه، وصُلِبَ الشخص الذي جعله الله شبيهاً بعيسى، وأعدموه عِوضَاً عنه[2]، وهم يَحْسَبونه أنَّه هو!** الآيتان (١٥٧ و١٥٨) من (النساء).

٤ و٥) **زيادة عطف ورحمة وشفقة في القلب بخلاف اليهود القساة، وابتداع الرهبانية - أي: عَدَمُ التزَوُّج والتَقلُّلَ من الدنيا وترك الملذّات - ولكن عدم الوفاء بها، وعدم الإلتزام بمقتضياتها، الا قليلاً منهم،** الآية (٢٧) من (الحديد).

---

(١) الحُفنةُ والجمع حَفَنات: ملءُ الكفّين من الطعام. مختار الصحاح، ص١٣٩، لفظ: ح ف ن.

(٢) واسمه (يهوذا الأسخريوطي)، أنظر: التفسير (التطبيقي للكتاب المقدس) العهد الجديد. انجيل: متّى، الإصحاح: ٢٦، ص١٩٥٦، (خيانة يهوذا) «..عندئذ ذهب واحدٌ من الإثنى عشر وهو المدعو يهوذا الأسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال: كم تُعطونني لأسلِّمهُ إليكم؟ فوزنوا له ثلاثين قطعة من الفضة..».

٦ و٧) **إِتِّباع وتقليد أهواء أناس ضالّين، والإِشتهار بالضلال،** الآية (٧٧) من (المائدة)، وقد أوردنا هذه الآية سابقاً لدلالتها على (الغلو) الذي هو قاسم مشترك بين أهل الكتاب، ولكن بما أن السياق كله حديث عن النصارى، وبالأخص الآيات السابقة على هذه الآية، فأخذنا منها هاتين الخاصيتين للنصارى أيضاً، لانطباقهما عليهم بوضوح.

٨ و٩ و١٠) **قُرْبُهم من أهل الإيمان أكثر من اليهود والمشركين، بسبب وجود القسِّيسين والرهبان من بينهم، وعدم اتصافهم بالكبر مثل اليهود، والإيمان بكتاب الله ونبي الله الخاتم عند سماع تلاوة آيات الكتاب،** الآيتان (٨٢ و٨٣) من (المائدة).

وهذه الآيات وإِنْ كان سَبَبُ نزولها يُخَصِّصُ مفهومها بطائفة خاصة من النصارى، وهم النجاشي وأصحابُهُ، أو وفد نجران الذين قدموا المدينة وزاروا رسولَ الله ﷺ العام التاسع للهجرة، وسمعوا القرآن وَبيَّن لهم رسولُ الله الإسلام، وأسلموا[1]، ولكن مفهومُها لا ينحصر بتلك المجموعة التي أسلمت، بل يسري مع الزمان، ويتسع مع المكان، وينسحب على كل المواقف والحالات المشابهة لذلك الموقف ولتلك الحالة، ومصداق الآية الكريمة بادٍ بوضوح، إذ يجد المرءُ أن النصارى هم عموماً أَلْيَنُ موقفاً وأكثر تجاوباً مع المسلمين، ولا نقصد كُلَّهم بل بَعْضَهُم الذين لا يسيرون في ركاب اليهود، ولا يَنْسِجُون على مِنوالهم، وعَدَدُ الذين يُسْلِمون ويؤمنون بالنبي الخاتم ﷺ، يومياً في الدول الأوروبية وغيرها من النصارى، لا يقاس بعدد اليهود الداخلين في الإسلام، مع رعاية النسبة العددية بين الطائفتين!

---

(١) أنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢ ص٨٠-٩١، وانظر (لُباب النقول في اسباب النزول) للسيوطي، رقم: ص١١٠، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠.

٤) موقف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من الإسلام والمسلمين:ـ

وتُطْلِعنا هذه الآيات المباركات على موقف اليهود والنصارى، تجاه الإسلام والمسلمين:

١. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ..﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

٣. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ..﴾ [البقرة: ١٠٩].

٤. ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

٥. ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران].

٦. ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران].

٧. ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران].

٨. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

٩. ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء].

ونُدْرِج مواقِف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) التي تتراءى لنا في هذه الآيات البيِّنات، في البنود الستة الآتية:

١) **عدم رضاهم عن المسلمين إلّا إذا تركوا دينَهم الحق واتّبعوا مِلّتهم المنحرفة**، الآية (١٢٠) من (البقرة)، ومصداق هذه الآية الكريمة في واقع المسلمين اليوم، وضغوط اليهود والنصارى عليهم لترك دينهم والإِستسلام لمخططاتهم الفكرية والخُلُقية والسياسية، أجلى من النهار.

٢) **معرفتهم الأكيدة بحقانية الإسلام والقرآن وصدق محمد ﷺ، ولكن كَتْمُ ذلك الحق، وعدم البَوْحِ به - سوى المنصفين الذين يُسْلِمون باستمرار -**، الآية (١٤٦) من (البقرة).

٣) **تمنّيهم لو أن المسلمين يرتدّون عن دينهم، وذلك بدافع الحسد منهم، وبعد أن استيقنوا - أي: المُتَخصِّصون منهم - صدق الإسلام ورسوله النبي الأمي ﷺ**، الآية (١٠٩) من (البقرة).

٤) **اللجوء إلى أَخَسِّ الحِيَلِ، وشتّى الأساليب للتنفير عن الإسلام، وجعل المسلمين يرتدّون عنه**، الآية (٧٢) من (آل عمران).

٥) **ومنهم من هو في غاية الأمانة والنّزاهة، ولكن منهم من لا يرعوي عن الخيانة في أقل شيء، ويعتبرون أموال المسلمين حلالاً لهم، ولا حرج عليهم في أكلها والظفر بها بأي وسيلة**، الآية (٧٥) من (آل عمران).

٦) **ولكن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ليسوا كلهم على تلك الشاكلة، بل منهم من هو على طراز آخر مختلف تماماً، وقد أَثْنى الله تعالى على هؤلاء في آيات كثيرة، ووصفهم بأوصاف جليلة رفيعة،** هذه

بعضها:

١. قيام الليل وتلاوة آيات الله والسجود.
٢. الإيمان بالله واليوم الآخر.
٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٤. المسارعة في الخيرات.
٥. وكونهم أهل الصلاح وأهل التقوى.
٦. الإيمان بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم.
٧. الخشوع لله.
٨. عدم بيع آيات الله بثمن قليل.
٩. الصبر.
١٠. درء السيئة بالحسنة.
١١. الإِنفاق مما رزقهم الله.
١٢. الإِعراض عن اللغو.
١٣. الرسوخ في العلم.
١٤. اقامة الصلاة.
١٥. ايتاء الزكاة.

وهنا ننهي الكلام عن أهل الكتاب بخيرهم وشرهم وحلوهم ومُرِّهم، وننتقل إلى الكلام عن أوصاف وخصائص صنف آخر، من أصناف الكفار، وهم المشركون.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الثالث:
المشركون

المشركون هم النوع الثالث - حسب ترتيبنا لأصناف الكفار - من أهل الكفر، وبما أن الشرك بالله تعالى، هو نقيض توحيد الله تبارك وتعالى وتوحيد الله كما ذكرنا في أكثر من موضع، هو القضية المحورية والأساسية في دين الله الحق، بل لم ينزل الله كتبه، ولم يرسل رسله وأنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسلام، إلّا لأن يُوحَّد بالمعنى الشامل للتوحيد، لذا اهتم كتاب الله الحكيم بقضية الشرك والمشركين اهتماماً خاصاً، تقتضيه خطورة شأن الشرك، وما تترتب عليه من نتائج وخيمة، على مستوى الفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة.

وسنتحدث بإذن الله وتيسيره، عن معنى الشرك وأسبابه، والمشركين وأوصافهم وخصائصهم في الفقرات السّبع الآتية:

١. **حقيقة الشرك بالله تعالى.**
٢. **الإشراك بالله هو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله أبداً.**
٣. **الشرك الأكبر والشرك الأصغر.**
٤. **الأسباب الحقيقية للشرك بالله، ومبرّراته عند المشركين وتفنيدها.**
٥. **المشركون وأنواعهم.**
٦. **موقف المشركين تجاه الإسلام والمسلمين.**
٧. **تَلَبُّسُ المسلمين أحياناً بالشرك.**

١ ـ حقيقة الشرك بالله تعالى:

[يقال: (شَرِك فلانٌ فلاناً في كذا) إذا اشترك معه في أمر وساهمه فيه، ويقال: (أشرك فلانٌ فلاناً في كذا) إذا جعله سهيماً وشريكاً لَهُ فيه)][1].

وقد استعمل كتاب الله الحكيم لفظ (الشرك) على أساس معناه اللّغوي، وعليه: فالشرك بالله، هو أن يُجْعل لَهُ مشارك ومُساوٍ وسَهيمٌ في أَمرٍ من الأمور التي تخصّه سبحانه وتعالى.

الشرك بالله عموماً ثلاثة أنواع:

١. شرك في خالقيته وربوبيته ومالكيته:

بأن يوصف غيره – وليس ثمة غيره موجودٌ سوى مخلوقاته ومربوباته ومملوكاته – بنوع من الخالقية والربوبية والمالكية.

٢. شرك في أسمائه وصفاته وشؤونه:

بأن يسمّى ويوصف أحدٌ غيره، باسم من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته العُلى، أو ينسب إليه شيء من شؤونه المُثلى.

٣. شرك في ألوهيته وولايته وحاكميته:

بأن يتخذ غيره إلهاً أو ولياً أو حاكماً، في شيء من الأشياء، والمقصود باتخاذ غيره إلهاً والألوهية مُستَلْزِمةٌ لكلٍ من الولاية والحاكمية ـ و أن يُعْبد ويقدّم له شيء من العبادة التي هي خاصة به، ولا يجوز تقديم

(١) مفردات ألفاظ القرآن، راغب الأصفهاني، ص ٤٥١، ٤٥٢.

شيء منها لغيره بحال، وذلك كالدعاء، والإستغاثة، والطاعة المطلقة، وأقصى الحبّ والخشية والتوكل والتعظيم، والنذر، والذبح...

وللتعرّف على حقيقة الشرك الذي هو نقيض التوحيد، لِنتَدبَّر هذه الآيات المباركات:

١. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء].

٣. ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾﴾ [الزمر].

٤. ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ..﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٥].

٥. ﴿...وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٦. ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ ..﴾ [النساء: ٧٧].

٧. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس].

٨. ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

٩. ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

١٠. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى].

١١. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾! [فاطر].

١٢. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [فاطر].

١٣. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد].

١٤. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر].

١٥. ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وتتجلّى في هذه الآيات حقائق كثيرة، عن مفهوم الشرك وتعريف المشركين، نلخّصها في النقاط الخمس الآتية:

الأولى: كما أَنَّ توحيد الله في أُلوهيته، مستند إلى توحيده في خالقيته وربوبيته، كذلك الشرك به في أُلوهيته وعبادته، متفرّع عن الشرك به، في خالقيته وربوبيته ومالكيته:

أما كون وجوب توحيد الله في ألوهيته وإفراده بالعبادة، مستنداً إلى كون الله تعالى منفرداً بالخلق والملك والربوبية، فمصرّح به ومبيّن غاية البيان، في آيات كثيرة منها:

١) الآيتان (٢١ و٢٢) من (البقرة)، حيث يأمر الله تعالى الناس بعبادته معرّفاً نفسه بـ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ثم يبيّن سبحانه وتعالى بعض أوصافه وشؤونه التي هي مختصة به وحده، من جعل الأرض فراشاً، وجعل السماء سقفاً وبناءً، وإنزال الماء من السماء - أي من السحب التي تستقر في الجهة الفوقانية - وإنبات أنواع الثمرات به، ثم يقول سبحانه مستنتجاً عمّا سبق ذكره، من آثار خالقيته وربوبيته ومالكيته المطلقة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما دام أنتم تعلمون: أنه ليس لكم خالق ولا ربٌ ومالك ولا مدبّر ولا رازق سوى الله تبارك وتعالى، فلا تجعلوا له شركاء ونظراء في التعبّد له، والأنداد جمع (ندّ) وهو نظير الشيء ومثله وكفؤه[1].

٢) وكذلك تدل على الحقيقة المذكورة، الآيات (١٦٣ و١٦٤ و١٦٥) من (البقرة)، حيث يقرّر سبحانه في الآية (١٦٣) وحدانيّتهُ في الألوهية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم يصف نَفْسَه بالرحمة في الدنيا والآخرة، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ منبّهاً على أن الإله الحق، هو الذي يتصف

(١) مختار الصحاح، ص٥١٦، لفظ: ن د د.

بالرحمة والإِحسان والفضل، تجاه مخلوقاته، وأما من لا يملك شيئاً لا لنفسه ولا لغيره، فأنّى تكون له الألوهية على غيره، وبأي آمتياز أو مبرِّر؟!.

ثم يذكر سبحانه في الآية (١٦٤) برهان توحيده في ألوهيته، ووجوب ونه الإِله الوحيد الذي تُقَدَّم له العبادة، وذلك بسرد عشرة أنواع من الآيات الدالة على خالقيته وربوبيته المطلقة لكل شيء، وهي:

١ و٢. خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

٣ و٤. اخْتِلَافُ اللَيْلِ وَالنَّهَارِ، أي: تنوّعهما أو تعاقبهما.

٥. السفن الجارية في البحر، وكلمة (الفلك) تستعمل لجمع السفن ولمفردها أيضاً[1].

٦ و٧ و٨. إنزال الماءِ من السماءِ، وإحياء الأرض به بالنّباتات المختلفة، ونشر أنواع الحيوانات في الأرض من المائية والهوائية والأرضية، التي تعدّ عوالمها بالآلاف.

٩. تنويع هُبوب الرياح.

١٠. السّحاب المعلّق بين السماءِ والأرض بتسخير الله، حسب سننه الحكيمة.

ثم يعقب على كل ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾! ومعنى هذا أنه إِنْ كان عندكم عقلٌ، تعقلون به وتتفكرون به في هذه الآيات، لَأَوْصَلَكُم إلى حقيقة انه لا يوجد (إله) حق يعبد، سوى الخالق الرب المالك للوجود جلّ جلاله.

وفي الآية (١٦٥) يشير سبحانه وتعالى إلى انحراف بعض الناس عن توحيد الله، وتخصيصه كما ينبغي له بالعبادة والعبودية، وذلك باتخاذهم أنداداً سواه، وحبهم لهم كما يُحَبّ الله تعالى، ولكن أهل الإِيمان أكثر محبة لله تعالى من حبّ المشركين لآلهتهم المزعومة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ..﴾.

(١) المصدر نفسه، ص٥١١.

٣. وكذلك تدل على الحقيقة المذكورة، كل من الآية (٣) و(٤٠) من (فاطر)، و(١٦) من (الرّعد)، و(١٦ و١٧) من (غافر)، حيث يبيّن الله تبارك وتعالى في تلك الآيات، آثار خالقيته وربوبيته ومالكيته المطلقة التي ينفرد بها وحده، ثم يوبّخ الناسَ عموماً والمشركين خصوصاً على انصرافهم إلى عبادة غيره، واتخاذ غيره شريكاً له في العبودية، مع أنه هو المنفرد بالخلق والإيجاد والإنعام على الناس بأنواع النعم، في أنفسهم، وفي ما حولهم من السماء والأرض!

هذا بالنسبة لكون ألوهية الله وإفراده بالعبادة، مستندة إلى خالقيته وربوبيته.

وأما بالنسبة لكون الشرك بالله في ألوهيته متفرّعاً عن الشرك به في خالقيته وربوبيته، فنقول:

لولا أن المشركين كانوا يعتقدون - جهلاً وسفهاً - في شركائهم وآلهتهم المزعومة، شيئاً من الربوبية والخالقية والمالكية، لما عبدوهم، ولما أشركوهم في أُلوهية الله، إذْ ما الفرق بين معبوداتهم وبين غيرها، من المخلوقات، التي ما كانوا يعبدونها، لولا هذا التوقع المظنون؟!

وسيتوضح لنا هذا الموضوع فيما بعد أكثر، عندما نتحدث عن مظاهر الشرك عند المشركين، ولكن هنا أودّ التنبيه على مسألة مهمة، وهي:

أَن كتاب الله الحكيم بالرغم من أَنّه يقرّر أن المشركين إذا سُئلوا عن الخالق، والرب لهم وللخلق، لا يتردّدون في الإجابة بأن الله تعالى وحده هو الخالق الرب لهم ولكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾؟! ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . .﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف] نعم إنَّ كتاب الله على الرغم من تقرير هذه الحقيقة، وتسجيل هذا الإعتراف على المشركين، لم يكتف بإقرار المشركين واعترافهم هذا، بل أكثر - عند محاججته للمشركين في التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة وعدم الإشراك به -، من إيراد أدلة كثيرة وبمختلف الصيغ التعبيرية، على كون الله تعالى منفرداً بالخلق والتدبير والمالكية والربوبيّة، ونكتفي هنا بإيراد هذه الآيات:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل].

والسِرّ في ذلك - كما يبدو لي - هو أن الله تعالى يعلم أن المشركين على الرغم من إقرارهم بخالقية الله وربوبيته ومالكيته، فإن معرفتهم بالله تعالى وخالقيته وربوبيته، ليست سوى معرفة سطحية تقليدية باهتة، لذا يشرح لهم سبحانه كيفية خالقيته وربوبيته لكل شيء، ويبيّن لهم أوصافه الجليلة وأسماءهُ الحسنى وشؤونه المثلى، كي تتعمق المعرفة في عقولهم ويَعْبُروا المرحلة التقليدية السطحية، إلى مرحلة اليقين والتحقيق، فتتنوّر ـ نتيجة ذلك ـ قلوبُهم بمعرفة الله وجلاله وجماله، فيخشوه ويحبوه ويُجلّوه ويعظموه ويقدّروه، كما ينبغي له، ومن ثم يعبدوه العبادة اللائقة به، البعيدة عن الشرك، والخالصة من الأوشاب والأغيار! إذْ غير ذلك لا يصلح لله الواحد القهّار العزيز المتكبّر الجبّار جلّ شانه.

الثانية: إنَّ حقيقة الشرك بالله العظيم تتمثل في: أن يُنظَر إلى غيره سبحانه وتعالى، ويعامَل في شيء من الأشياء التي هي من خصائصه، كما يُنظَرُ إليه هو ويعاملُ، وبالأخص في العبادة:

عم إنَّ حقيقة الشرك، هي أن يُجْعَل غيرُ الله تعالى مثله، في أي شأن من شؤونه الخاصة به، سواء مما يتعلق بخالقيته، أو ربوبيته، أو أسمائه وصفاته وأفعاله أو ألوهيته وولايته وحاكميته، ومما يَدلُّ على هذه الحقيقة:

١) قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]، وكيفية دلالة هذه الجملة على الحقيقة المذكورة، هي:

إنَّ التوحيد (أي: إفراد الله تعالى بالعبادة) هو نقيض الشرك بالله، وقد أمر الله تعالى بالتوحيد في الآية السابقة، الآية (٢١) من (البقرة) بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ ثم

نهى عن ضدّه ونقيضه الذي هو الشرك بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ والأنداد كما ذكرنا جمع (ندّ)، والنِدُّ يعني المِثْل والشَّبيه، والمقصود به مَنْ يُجعلُ شريكاً لله في شيء من خصائصه، ولكن المفهوم الأكثر متبادراً إلى الذهن لكلمة الشرك بالله، هو الشرك به في العبادة، والذي ـ كما قلنا سابقاً ـ يستلْزِمُ دَوْماً الشرك في الخالقية والربوبيّة والأسماءِ والصفات، وهذا الثاني هو الذي يدفع صاحبه إلى الأول، وإلّا فما هي ميزة الآلهة المدَّعاة لى غيرها من المخلوقات التي لا تعبد، والتي تُرجِّح في أذهان المشركين، عبادَتهم لها دون غيرها؟!

٢) وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء].

وكيفية دلالة هاتين الآيتين اللتين تتضمنان اعترافَ المشركين على أنفسهم بالضلال، بسبب تسويتهم معبوداتهم بالله تعالى، هي:

أَن الله تعالى قال في الآية (٩٢)، وفي السياق نفسه الذي وردت فيه الآيتان المذكورتان: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾؟! إذن: فالمقصود بقول المشركين المخاطبين لشركائهم الذين عبدوهم من دون الله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ هو أَنَّهم يعترفون بأنهم كانوا في الدنيا في ضلال واضح، بسبب تسويتهم إياهم برب العالمين في العبادة!

٣) وقوله تعالى: ﴿...قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]، إذ يأمر الله تعالى نبيّه الكريم أن يقول: (أنا لست من المشركين) ثم يأمره أن يعلن بأن صلاته وذبحه وحياته وموته لله رب العالمين، لا شريك له، وهذا الكلام المبارك واضح الدلالة على أن الشرك المنفي الذي ينفيه النبي الخاتم عن نفسه، انما يَنْتَفي بِجَعْل الصلاة والذبح - أعظم شعائر التعبّد - والحياة والموت

لله تعالى، ولا يُشْرَك فيها غيره، في قليل ولا كثير.

الثالثة: ومن مظاهر الشرك بالله: دعاءُ غيره، كما يُدعى هو، وحبُّ غيره والخشية منه، والإعتماد عليه في دفع ضرٍ أو جلب نفعٍ، كحب الله والخشية منه والتوكل عليه:

ويدل على هذه الحقيقة:

١) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ..﴾ [البقرة: ١٦٥]، وعليه: فمن أَحبّ شخصاً أو شيئاً الحبّ الذي لا يليق إلا بالله، فهو جَعَلَ محبوبه هذا، نِدّاً وشريكاً لله تعالى، وهذه الآية واضحة الدلالة على أنه ليس من شرط اعتبار شيء شريكاً لله، أن يراه صاحبُهُ وعابِدُه مساوياً لله تعالى من كل الجهات، كما يزعم كثير من الجهّال! بل يكفي لاعتباره شريكاً لله - في ميزان شريعة الله - أَن يُشْرَك في شيء من الأشياء بالله تعالى، وأن يجعل له شيء مما هو مختص بالله تعالى، كأقصى الحبّ، وأقصى التعظيم مثلاً.

٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ..﴾! [فاطر: ٤٠].

وهنا يأمر الله تعالى النبي الخاتم، أن يقول للمشركين: أروني ما الذي أوجده شركاؤكم الذين تدعونهم من دون الله، مما هو على وجه الأرض!

كما نرى عرَّف الله تعالى الآلهة المدّعاة للمشركين - والتي يُسِّميها الله تعالى على الأكثر بالشركاء، ويَنْسِبُها إلى المشركين للتنبيه على أن تلك المخلوقات ليست شريكاً لله، إلا في أذهانكم المختلّة ومقايسكم المعوجّة! - يعرِّفها بكون المشركين يدعونها من دون الله: ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، إذن: مَن وما دعي من دون الله تعالى، فهو اعتبر شريكاً لله تعالى، وَمَنْ دعى غير الله لما هو مختص به تعالى، كدفع بلاء، وجلب نفع، وشفاء...الخ، فهو مشرك أشرك بالله مَدْعوَّه، أياً كان مَدْعوُّه.

٣) وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

[النساء: ٧٧]، وهذا وصف لبعض مرضى القلوب والمنافقين، إذ لا يعقل أن يخاف المؤمِنُ غير الله تعالى، مثل خوفه من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، ودلالة الآية واضحة على أن المؤمنين لا يخافون نهاية الخوف وأقصاه، إلا الله تعالى، لذا فمن خشي غير الله كخشيته لله تعالى أو أكثر، فهو أشرك بالله في هذه الناحية وبالتالي فهو مشرك.

٤) وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، أي: من كان مؤمناً بالله، فليتوكل وليعتمد عليه دون سواه، وعليه: فمن لم يعتمد على الله تعالى وحده دون سواه، من الأشخاص والأشياء، بأن يعتمد على غير الله مع الله، أو بدونه، فهو ليس من المؤمنين الموحِّدين، بل هو مشرك من المشركين المخلِّطين بين الإيمان والكفر والمُسَوِّين برب العالمين، ما خلقه الله تعالى من طين!

٥) وقوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ . .﴾ [هود].

وكيفية دلالة هذه الآيات على ما قلنا، هي:

بعد أن يجيب سفهاء قوم هود عليه السلام بقولهم: إنّ رأينا فيك: أن بعض آلهتنا أصابك بضرٍّ - ويقصدون به تغيّر عقله -، يجيبهم هود عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ . .﴾ أي: أنا اتخذ الله تعالى شاهداً، واشهدوا لي أنتم أيضاً بأنني: أُعلنُ براءَتي التامة عن آلهتكم المدّعاة التي تجعلونها شركاءَ لله . .

إذن:

فَمَنْ اعتقد في شيءٍ أو شخص، أنه يضرّ أو ينفع بنفسه، فهو مِمَّن اتخذه إلهاً وشريكاً لله تعالى.

الرابعة: وكذلك من مظاهر الشرك بالله العظيم، اتّخاذ غيره معه أو بدونه: مشرّعاً أو ولياً أو حكماً:

ويدل على هذه الحقيقة التي غفل عنها كثير من المسلمين في عصرنا هذا:

١) قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ..﴾ [الشورى: ٢١].

وكيفية دلالة هذه الآية على أن من اتخذ مشرّعاً غير الله تعالى، فهو أشركه بالله في التشريع والحاكمية، هي:

أَن الله تعالى سمّى الذين يُشَرّعون - وشَرَع وشرَّع بمعنى واحدٍ[1] - ديناً (أي منهجاً ونظام حياة) للناس، شركاءَ، وذلك لكونهم جعلوا أنفُسَهم شُركاءَ لله تعالى، ومن اعتقد فيهم حقانية ذلك التشريع والدين نظرياً، أو اتَّبعهم فيه عملياً وأطاعهم، وإِنْ لم يعتقد صوابه، فهو ممَّن جعلهم شركاءَ لله تعالى وعَبَدَهُم من دون الله تبارك وتعالى.

وأرى أن الله تعالى وضع قيد ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ في الآية الكريمة، كي يُستثنى من ذلك الوصف والحكم المُتَرتِّب عليه، ما يتم من التشريع والتقنين المقيّد الجزئي - والذي لا يصحّ تسميته تشريعاً إلّا على سبيل التجوّز - في إطار الشريعة الربانية على يد العلماء المجتهدين المستنبطين، للأحكام والقوانين الجديدة للقضايا المستجدّة في المجتمع الإسلامي، إذ هو ـ أي: ذلك النوع من التشريع الجزئي ـ تشريع في الدين فيما أَذِنَ به الله تعالى في دينه.

هذا بالنسبة لمن اتخذ مُشَرّعاً في الدين (أي في منهج الحياة) من دون الله وإذنه مبدئياً ونظرياً، وان لَمْ يَتَّبِعْهُ، وأما الدليل على أَنَّ مَنْ أطاع عملياً منهج غير الله تعالى، والذي يُحدِّدُ الحلال والحرامَ والأمر والنهي، من غير الرجوع إلى شريعة الله، مختاراً من غير إكراه، يعتبر مشركاً وخارجاً

(١) مختار الصحاح، ص٣٣٥.

من الإسلام، فهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، والسياق الذي وردت فيه هذه الآية المباركة، كُلُّه يتحدث عن مسألة أن الذبيحة التي يذكر اسم الله عليها عند ذبحها حلال، وأَنَّ التي لا يذكر اسم الله عليها حرام، ثم يقول تعالى للرسول الكريم ولأَتْباعه المؤمنين: ﴿...وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ أي: إذا أطعتم المشركين بأن تأكلوا من الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها، فإنكم تُعْتَبرون مشركين لإطاعتكم لهم، في قضية تشريعية واتِّباعكم لأهوائهم!!

٢) وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ..﴾ [الرّعد: ١٦].

ودلالة الآية الكريمة جلية على أن من اتخذ من دون الله ولياً، يعتبر تصرُّفه هذا جعله شريكاً لله، لأن الله تعالى هو وحده الولي المطلق، وبما أننا شَرَحْنا هذا الموضوع في الكتاب الثالث، فنكتفي هنا بهذه الإشارة.

٣) وقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ..﴾ [الأنعام: ١١٤]، ويأمر الله تعالى رسوله النبي الأمي ﷺ في هذه الآية، أن يقول مُستنكراً على المشركين: كيف أطلب غير الله تعالى حاكماً وحكماً، في حين هو أنزل كتابه مبيَّناً فيه كل ما أحتاجه في حياتي؟!

وعليه:

فلا يجوز لمن يؤمن بكتاب الله ديناً ومنهجاً وحُكْماً، أن يتخذ غير الله تعالى حَكماً، وذلك باتخاذ دين غير دينه، وكتاب غير كتابه، وحكمِ غير حكمه، منهاجاً لحياته.

وقد وضَّحنا هذه المسألة أيضاً في الكتاب الثالث، لذا نكتفي هنا بهذه الإشارة المختصرة.

الخامسة: وكذلك من مظاهر الشرك بالله، اتخاذ الشُفعاءِ من دون الله:

وتدل على هذه الحقيقة آيات كثيرة جداً، منها:

١) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر].

كما نرى يقرِّر سبحانه في هذه الآية أن الله تعالى، ينبغي أن يقدَّم له التديّن الخالص، والطاعة الخالصة، التي لا شائبة لمشاركة غيره فيها، ثم يبيِّن أن الذين يعبدون من دونه آلهة أخرى، يبرِّرون عبادَتهم تلك، بأنها ليست إلّا لأجل أن تُقرِّبهم تلك الآلهة المزعومة إلى الله تعالى بسببها، فيقول تعالى مُعَقباً على قولتهم تلك، وذلك التذرّع الواهي، بقوله: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فيُسمِّي تصرّفهم المذكور وتذرعهم السَّفيه: اختلافا، ثم يَصِمُهُم بالكذب والكفران، أما الكذب فلأنهم يحبون آلهتهم، ويُعَظِّمونها أكثر من الله تعالى، إذن: فهي مقصودة لذاتها وهدفٌ وليست وسيلة، وأما الكفران، فلأن من أشرك بالله في التعبد، بعض خَلْقه الذين لا يملكون شيئاً، فقد كفر نعمة الله تعالى.

ويدل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ...﴾ دلالة جليّةً على أن اتخاذ غير الله تعالى ولياً، عبادةٌ له من دون الله.

٢) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [يونس].

وفي هذه الآية إذْ يُبرِّر المشركون عبادَتهم لآلهتهم المدّعاة، التي لا ضرّهم ولا تنفعهم، بأنها شفعاؤهم عند الله تعالى! يأمر الله المولى الحليم الحكيم جلّ شأنه رسولَه، أن يوجِّه لهم هذا السؤال التوبيخي: أَوَ تُخبِرون الله تعالى بشيء، لا علم له به في السموات ولا في الأرض؟! والمقصود بهذا الكلام: نفي وجود تلك الآلهة المزعومة، لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في خلقه، فإذا لم يعلم الله تعالى شيئاً - أي: لم يجد

له وجوداً حتى يتعلق به عِلْمُهُ -، فهو ليس موجوداً، وإلّا لعلمه الله تعالى، ثم يقول تعالى - أو هو من تتمة الكلام الذي أمر الرسول ﷺ بتوجيهه للمشركين - أُنَزِّهُ الله تعالى شأنه، عمّا تتخيّلونه أن يكون شريكاً له!

وجديرٌ بالذكر أن الشفاعة موجودة وخاصة للملائكة الكرام، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم]، فهذه الآية نص على أن الملائكة يشفعون عند الله تعالى، ولكن الله تعالى قيّد الشفاعةَ المقبولَة عنده، بشرطين اثنين:

١. إذنُ الله تعالى للملائكة، بأن تشفع لمن يأذن الله أن تُقدَّم له الشفاعة ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٢. كون المشفوع له عند الله تعالى مرضياً له ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

إذن: هذه هي الشفاعة المثبتة في كتاب الله، وأما الشفاعة المنفية، فهي التي يتخيّلها المشركون ويتمنّونها، وهي أن تشفع لهم آلهتهم وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله تعالى.

وقال تعالى عن تلك الشفاعة المزعومة المُتَخَيَّلَةِ عند المشركين: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر].

وإنما عرّف سبحانه الشفعاء المزعومة المتخيلة للمشركين بـ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ لأنها إما هي ذَووا شعورٍ لا يملكون شيئاً، وهم كل من يُعبد من دون الله من جن وإنس وملائكة، إذْ لا يملك أحد شيئاً في هذا المجال من الله تعالى شيئاً، وإما هي جمادات لا شعور ولا عقل فيها، كالنجوم والشمس والقمر والأصنام والأوثان..

وبهذا ننهي الكلام عن موضوع (حقيقة الشرك بالله تعالى) وفي الفقرات الآتية أضواء مباشرة وغير مباشرة أيضاً على هذا الموضوع الخطير.

والآن إلى الفقرة الثانية.

٢ ـ الإشراك بالله، هو الذّنب العظيم الذي لا يغفره الله أبدا

قال سبحانه وتعالى بهذا الصّدد:

١. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء].

٢. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء].

٣. ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر .

٤. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١ .

٥. ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الروم .

وتُتْحِفُنا هذه الآيات المباركات الحقائق الأربع الآتية، حول مدى فظاعة جريمة الشرك بالله تعالى:

الأولى: الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يَقَعُ ضمْن دائرة العفو الرباني الواسع:

وهذه الحقيقة صرَّحت به آيات كثيرة، منها: كل من الآية (٤٨) والآية

(١١٦) من (النساءِ)، وكذلك الآية (٦٥) من (الزمر)، والآية (٨٨) من (الأنعام) حيث يذكر سبحانه وتعالى أسماء ثمانية عشر من أنبيائه الكرام في الآيات (٨٣ إلى ٨٦)، وهم على الترتيب المذكور في الآيات: (إبراهيم، إسحاق، يعقوب، نوح، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون،، زكريا، يحيى، عيسى، إلياس، إسماعيل، اليسع، يونس، لوط) عليهم الصلاة والسلام، ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وليست بعد هذه الجريمة البشعة التي يُحْبِطُ الله تعالى بها كافَّةَ الأعمال الصالحة لمرتكبيها، ولو كانوا أنبياء! جريمة.

الثانية: والشرك بالله أعظم افتراءِ على الله، وضلال بعيد ما بعده ضلال:

كما قال تعالى في النصف الثاني للآية (٤٨) من (النساء): ﴿...وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وكما قال في النصف الثاني من الآية (١١٦) من (النساء): ﴿... وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

وانما سمّى الله تعالى الشرك بالله (افتراءً عظيماً)، لأن المشرك يقول شيئاً، ويتخيّلُ وهماً لا أساس له في الوجود، إذ كيف يشارك المخلوقُ خالِقَهُ في شيء من خصوصياته، أللهم! إنَّ هذا لبهتان عظيم، فأين التراب من رب الأرباب جلّ شأنه! وكذلك اعتبره ضلالاً بعيداً، لأن الشرك بالله مع توحيد الله، هما على طرفي النقيض، والتوحيد هو الجادة المستقيمة التي تلتقي عليها كل من الفطرة السليمة والشريعة الحكيمة، وهل هناك شيء أبعد من الحق والصّواب، ممّا يناقض دين الله القويم ويتصادم مع الفطرة السليمة؟!

الثالثة: والشرك بالله مساوٍ للسقوط من السماء، بسبب اختطاف طيرٍ، أو جَزفِ ريح:

وهذا ما تصوّره لنا الآية (٣١) من (الحج)، ومن الواضح أنه لا يوجد مشهد مروِّع ومُفْزِعٌ، مثل حالة مَنْ يتخطفه طيرٌ جارح، ويطير به في السماءِ عالياً عالياً، ثم يُهْبِطُه من ذلك العلوّ الشاهق! أو تَجْرِفهُ الريحُ القوية التي

تُفْقِدهُ السيطرةَ على نفسه واتجاهه، ثم ترمي به بعيداً وتَقْذِف به في المهالك والمهاوي!

وكذلك حال المشرك الذي يُسْلِمُ نَفْسَهُ للشياطين ووساوسها، والطواغيت ودسائسها، ثم لا أحد يدري سوى الله تعالى المصير المظلم القاتم الذي ينتظره!

الرابعة: وقد ضَرب الله تعالى أمثلة كثيرة، لإظهار شناعة الشرك وبشاعة عاقبته:

ومن تلك الأمثلة، المثال الذي ضربه الله تعالى في الآية (٢٨) من (الروم)، حيث يخاطب الله تعالى المشركين، فيقول:

هل أنتم تشركون مماليككم وخدَمَكم الذين تحت أيديكم، في الممتلكات التي أعطيناكموها، بحيث تتساوون فيها أنتم وهم ولا امتياز لكم عليهم؟! والجواب واضح، وهو أن أحداً لا يقبل أن يُصْبِحَ خادِمُهُ ومملوكهُ مساوياً وشريكاً له فيما يملك! ثم يُعَقِّبُ سبحانه على هذا المثال بقوله: ﴿...كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهذا تنبيه لهم: أن يتفكّروا ويستعملوا عقولَهم في إدراك سخافَة الفكرة الشركية، وذلك بألّا يرضَوا - على الأقل - لله تعالى، ما لا يرضونه لأنفسهم، فكما لا يرضون ولا يقبلون أن يكون من هو تحت تصرفهم، شريكاً لهم ومساوياً لهم فيما يملكون، كذلك ينبغي - على الأقل ولله المثل الأعلى - ألّا يقبل عَقْلهُم أن يُسَوّوا بربِّهم العظيم، بَعْضَ مخلوقاته، ويعتبروهم - سفهاً - بأنهم شركاؤه في ربوبيته وألوهيته!

والآن إلى الفقرة الثالثة من هذا المطلب:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

٣ ـ الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

هذا التعبير لم يَرِدْ في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ - على ما أعلم -[1] وانما هو مصطلح أَبْدَعَهُ بعضُ العلماء للتفرقَة والتميز بين الشرك الذي هو نوع من أنواع الكفر، ويُخرجُ صاحِبَهُ من المِلّة، وبين بعض الألفاظ والتصرّفات التي أُطلِقَ عليها في السنة اسمُ الشرك، ولكن لا تعتبر مخرِجةً من الدين، مثل:

١. الحَلِف بغير الله تعالى - أي: بغير أسمائه الحسنى وصفاته العُلى - فقد قال رسول الله ﷺ **«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»** رواه الترمذي برقم: (١٥٣٥)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني.

٢. سمع رسول الله ﷺ يوماً خطيباً خَطب بين يديه، فقال «من خلال خطبته» (ما شاء الله وشئت) فقال رسول الله: **(أجعلتني لله نِدّاً؟! قل ما شاء وحده)**. رواه البخاري في الأدب المفرد برقم: (٧٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (١٠٩٣).

٣. وسمّى رسولُ الله ﷺ الرِّيَاءَ بالشِّرك الأَصْغَر، حيث قال: **«إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغَرُ يا رسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس**

---

(١) أي: لا يوجد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المشرّفة، مصطلح (الشرك الأكبر والشرك الأصغر)، ولكن ورد في بعض الأحاديث لفظ: (الشرك الأصغر)، لما هو دون الكفر الأكبر المُخْرِج من الملّة، من الشرك.

بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فأنظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!». (رَوَاهُ أَحمَد برقم: (٢٣٦٨٠)، عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ، تعليق شعيب الأرنؤوط: حَدِيثٌ حَسَنٌ رِجَالُهُ رجال الصحيح).

٤. ومثل العلماء لهذا النوع من الشرك - أي الشرك الأصغر حسب مصطلحهم - أيضاً بأن يقال: (لولا الله وفلان) والصحيح أن يقال: (لولا الله ثم فلانٌ).

٥. وكذلك سمّى رسول الله ﷺ بعض التصّرفات شركاً، كما جاء في بعض الأحاديث:

أ. «**إنَّ الرُّقىٰ والتمائم والتِّولة شرك**» (رَوَاهُ أَحمَد برقم: (٣٦١٥)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٣٨٨٣)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٣٥٣٠)، وَالحَاكِمُ برقم: (٨٢٩٠)، وَقَالَ: صَحِيح الإِسناد عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَين)

ب. «**الطِّيرةُ من الشرك، وما مِنّا ولكنَّ الله يُذهِبُهُ التوكل**» (رَوَاهُ أَحمَد برقم: (٣٦١٥)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٠٧٢)، وَحَسَّنَهُ الألباني).

ولكنّي أرى أن هذه الأشياء، وان كانت مشابهة للشرك، ولكن ليست هو، اللّهم إلا إذا صاحبتها نية، أو اعتقاد مثل اعتقاد المشركين، فحينئذٍ تنقلب شركاً حقيقياً، أو شركاً أكبر، وذلك بسبب ذلك الإِعتقاد الشركي، وليس بسببها هي.

وجديرٌ بالذكر أن بعض العلماء يعتبرون هذه الأشياء أكبر من الذنوب الكبائر - أي الكبائر التي هي دون الكفر - ولكنّي لا أرى لهذا الرأي وجهاً مقبولاً، لعدم وجود دليل يرتفع إلى مستواه!

والآن إلى الفقرة الرابعة:



٤ ـ الأسباب الحقيقية للشرك بالله، ومبرّراته عند المشركين، والردُّ الرّبانيُّ المُفحِمُ عليها:

وتتكون هذه الفقرة من ثلاث نقاط: في الأولى منها نُبيِّن الأسباب والدوافع الحقيقية للشرك بالله تعالى. وفي الثانية نوضِّح تعلّلات المشركين ومبرِّراتهم للإشراك بالله. وفي الثالثة نذكر الردَّ الرباني المفحم على تبريرات المشركين لشركهم بالله تعالى.

الأولى: الأسباب والدّوافع الحقيقية لشرك المشركين:

بعد تأمل هذه الآيات البيِّنات، نطّلع على الأسباب والدوافع الحقيقية التي دفعت وتدفع المشركين إلى الإشراك بالله تعالى:

١. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم].

٢. ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام].

٣. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام].

٤. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

٥. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

٦. ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص].

٧. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٨].

٨. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].

ونُدرِجُ أسبابَ شرك المشركين ودوافِعَه، في ضوء هذه الآيات، في البنود العشرة الآتية:

١ و٢) اتباع الظنّ والهوى:

ودليلهما الآيات (١٩ إلى ٢٣) من (النجم)، والظن خلاف العلم، والهوى هي كلّ ما تهواها النفسُ، على خلاف الشرع والعقل والفطرة السليمة.

٣) تلقينات الشركاء المضلِّلة:

ودليلهُ الآية (١٣٧) من (الأنعام)، والمقصود بالشركاء هنا، ليس الأصنام، إذْ هي لا تُزيِّن شيئاً ولا تُلَقِّنُ أحداً! بل المقصود بهم السادة والكبراء الذين بيدهم سلطة الأمر والنهي والتحليل والتحريم، في المجتمعات الجاهلية، ويمكن أن يكون المقصود بهم سَدَنةُ الأصنام وكَهَنَتُها القائمين عليها، الذين كانوا يوجِّهون الناسَ باسم الأصنام وعلى ألْسِنتهَا!

٤ و٥) السَّفه والجَهل:

ودليلهما الآية (١٤٠) من (الأنعام)، والسَّفه خلاف العقل، كما أن الجهل خلاف العلم.

٦) إيحاءات الشياطين ووساوسهم المزخرفة للباطل المُغرِّر:

ودليله الآية (١١٢) من (الأنعام)، وكذلك الآية (١٢١) منها.

٧ و٨ و٩ و١٠) التكبّر عن قبول الحق، والرغبة في الشقاق والخلاف، والتقليد الأعمى للأسلاف، والحسد:

ودليل هذه الأسباب والدوافع الأربعة، هو الآيات (١ إلى ٨) من (ص)، إذ قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ - والعِزَّة هنا هي التكبُّر، والشِّقاق يعني مخالفة الحق - يدل على الأول والثاني.

وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ ..﴾ دليل الثالث، إذ مقصود الكفرة المشركين بـ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أسلافهم الذين تقدموهم.

وقوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ ..﴾؟! دليل السبب الرابع، لأنهم حسدوا محمداً ﷺ أن يختاره الله تعالى من بينهم، كيف وهو كان يتيماً مُعْدِماً، وفيهم من الكبراء والأشراف كثيرون! كما قالوا في موضع آخر: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]، ويقصدون بالقريتين (مكة) و(الطائف) والرجل العظيم فيهما، بعضُ كبرائهما الذين يرونهم عظماءَ بمقاييسهم المعوجّة، التي لا ترى سوى الجاه والمال والغِنى، والتي لم تكن لِتُكْتَسب إلّا من طريق الظلم والجور وارتكاب المحرّمات!

نعم هذه هي الأسباب الحقيقية، والدوافع الخفيّة، التي تدفع المشركين على اختلاف أنواعهم، إلى الإشراك بالله في كل عصر ومصر، ولكن لننظر كيف يتعلّل المشركون أنفسهم لصنيعهم، وبماذا يبرّرون شركهم؟!

الثانية: تَعَلُّلات المشركين وتبريراتهم للإشراك بالله، ودحضها وتزييفها:

لنتأمل هذه الآيات المباركات، لمعرفة كيفية تبرير المشركين لشركهم:

١. ﴿... وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ..﴾ [الزمر: ٣].

٢. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ..﴾ [يونس: ١٨].

٣. ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص].

٤. ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ..؟﴾ [هود: ٨٧].

٥. ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ..﴾ [هود].

٦. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

٧. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ..﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٨. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ

ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۢ..﴾ [النحل: ٣٥].

ونُلَخِّصُ مبرِّرات المشركين وذرائِعَهم لارتكاب الشرك، في ضوء هذه الآيات، في النقاط الخمس الآتية:

١) تصوّرهم أن شركاءهم يقرِّبونهم إلى الله تعالى:

كما تدل عليه الآية (٢) من (الزمر).

٢) ظنهم بأن تلك الآلهة المزعومة، تشفع لهم عند الله تعالى:

وتدل على هذا الآية (١٨) من (يونس).

٣) التذرُّع باتِّباع الأسلاف، والحفاظ على طريقة الآباءِ:

ويدل عليه قوله تعالى على لسان الكفرة المشركين، في الآيتين (٦ و٧) من (ص)، والآية (٧٤) من (الشعراء).

٤) توقُّع الضرر في حالة غضب الشركاء، ورجاءُ النفع في حالة رضاهم:

والدليل على هذا، هو الآيتان (٥٣ و٥٤) من (هود)، وقد عَلقْنا عليهما سابقاً، والآيات (٦٩ إلى ٨٢) من (الشعراء)، حيث يحاجج إبراهيم أباه وقومه في عبادتهم الأصنام، ثم بعد أن يقيم عليهم الحجة، يقول: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ثم يعرِّف ربه العظيم جلّ شأنه رب العالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

فيصف إبراهيمُ الخليل عليه الصلاة والسلام (رب العالمين) بهذه الأوصاف والشؤون:

١. **الخَلْق** (أي: إيجاد الأشياء، بعد أن لم يكن لها وجود).

٢. **الهداية**: (أي: دلالة المخلوقات جميعاً والناس خصوصاً، إلى الوظائف الفطرية التي خلِقوا من أجلها).

٣. **الإطعام.**

٤. **الإسقاء.**

٥. **الشِّفاء.**

٦. **الإماتة.**

٧. **الإحياء.**

٨. **مغفرة الخطايا.**

وانما يصف إبراهيمُ ربَّه الكريم جلّ شأنه، بهذه الأوصاف والشؤون، كي يبيِّن لقومه المشركين، أنَّ الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده، هو ربُّ العالمين الذي له هذه الأوصاف والشؤون فحسب، وآلهتهم المزعومة لا تَتَمتَّعُ بهذه الأَوصاف والشؤون، بل ولا ببعضها، وانما يذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام هنا، هذه الصفات والشؤون الرَّبانية، في معرض الرّد عليهم، وفي معرض المقارنة بين ربّ العالمين جلّ شأنه المعبود الحق الوحيد، وبين الآلهة المزيفة التي لا تملك لنفسها شيئاً، فكيف لعابديها الجهلة السفهاء!!

٥) **التعلُّل والتذرُّع بمشيئة الله تعالى، والخَلْط بينها وبين رضاه سبحانه وبالتالي استنتاج النتيجة المغلوطة القائلة: لولا أن الله تعالى راضٍ عن عبادتنا لآلهتنا، لما سَمَح لنا بها:**

وتدل على هذا كل من الآية (١٤٨) من (الأنعام)، والآية (٣٥) من (النّحل).

هذه باختصار هي مبرّرات المشركين في لجوئهم إلى الشرك واتخاذ الشركاء لله تعالى في عبادته، والآن لِنَرى كيف يردّ الإله الحق سبحانه وتعالى، على هذه الذرائع والتعلّلات التي يحاولُ المشركون إشراكهم بالله تبارك وتعالى.

الثالثة: الردّ الربّانيّ المُفْحِم على تبريرات المشركين، التي يُبَرِّرون بها شركَهم بالله تعالى:

١) أما بالنسبة للمبرّر الأول، وهو الزَّعمُ بأَنَّ آلهتهم تُقرِّبُهم إلى الله، فيقول سبحانه في الردِّ على المشركين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فيُسمِّي سبحانه صنيعهَم الشركيّ اختلافاً، أي: مخالفةً لله تعالى ووحيه وأنبيائه، ثم يُعلن أنه لا يهدي كل من هو كاذب وكفور لنعم الله تعالى أو كثير الكفر به، إذن: قول المشركين وتبريرهم وعبادتهم لآلهتهم، كذب وكفرانٌ لنعم الله، أو كفرٌ به سبحانه، وعليه: دَعْ أن اتخاذهم تلك الأولياء المزعومة، لا يكون سبباً لتقريبهم إلى الله تعالى، بل هو سبب عظيم لإبعادهم عنه بعداً شاسعاً!

وكذلك يقول سبحانه وتعالى، في الردِّ على هذا التبرير الواهي للمشركين، في موضع آخر:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء].

وهنا يأمر سبحانه وتعالى نبيّه أن يقول للمشركين ويتحدّاهم، بأن يدعوا الذين يظنونهم آلهة من دونه، ثم يخبرهم مسبقاً بأنهم لا يملكون - لا لعابديهم ولا لأنفسهم - إزالة الضّرر الذي يدعونهم له، ولا حتى تحويل وجهة الضّرر!

ثم يقول جلّ شأنه: إن أولئك الذين يدعوهم المشركون - والمقصود بهم الملائكةُ والأنبياءُ وغيرهم ممن هم مَرْضيُّونَ لله تعالى - حتى مَنْ هو منهم أقرب إلى الله تعالى من غيره، يطلبون الوسائل التي تُقَرِّبهم إلى الله، وهم راجون رحمته وخائفون من عذابه، ثم يعقب على هذا بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

وعليه:

فإذا كان هذا هو حال المقرَّبين إلى الله تعالى - والذي يتمثَّل في ابتغاء الوسيلة المقرِّبة إلى الله، ورجاء رحمته ومخافة عذابه - فكيف بغيرهم!

٢) **وبالنسبة للمبرّر الثاني، وهو انتظار الشَّفاعة من آلهتهم، فقد ردّ تبارك وتعالى على المشركين في دحض تبريرهم ذلك في أكثر من موضع، ونكتفي منها بقوله تعالى:**

١. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الروم].

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام].

٣. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر].

أما في آيَتي الروم، فينفي الله تعالى الشفَاعةَ عن شركاء المشركين يوم القيامة، ويصف المجرمين - والمقصود بهم بدلالة السياق هم المشركون - باليأس والقنوط.

وكذلك في آيَتي الأنعام، يبيِّن الله تعالى أَنَّ المشركين يأتون ساحة المحشر والحساب، منفردين ومُنخَلعين من كل شيء، وتَنقَطع الصلة بينهم وبين من زعموهم شركاء لله وشفعاء لهم عنده!

وفي آيتي الزمر، يوجِّه سبحانه سؤالاً غيابياً توبيخياً للمشركين،

ويقول: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ..؟!﴾ وهذا يعني أَنَّ اتخاذ الشفعاء من دون الله، فعلة كبيرة وخطأ شنيع، ثم يبيِّن سبحانه أن الشركاء الذين يتوقع المشركون منهم الشفاعة لهم عند الله، إما أصنام لا يعقلون، أو بشر - أو ملائكة - لا يملكون شيئاً من الله تعالى، إذن: أنَّى تكون لهم الشفاعة عند الله؟

ويعقب سبحانه على كل هذا بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٣) وفي الردِّ على التذرع بالسَّير على منهج الأَسلاف والحفاظ على دين الآباء، قال سبحانه وتعالى:

١. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

٣. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة].

وخلاصة الرد هي: أنَّ السَّير على منهج أسلاف ضالِّين، مُتَمَثِّلٍ في الشرك الذي لا يسنده دليلٌ، وآباءٍ جهلة سفهاء، وتَرْك هداية الله تعالى المتمثلة في التوحيد، الذي يوافق العقل والفطرة، موقفٌ مُشين ومُزْرٍ بالإنسان، ومسوٌّ إياه بالحيوان البهيم! ولهذا قال سبحانه وتعالى بعد الآية (١٧٠) من (البقرة) مباشرة: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

٤) ودحضاً للمبرِّر الرابع للمشركين في لجوئهم إلى الشرك، قال سبحانه وتعالى نافياً قدرة الآلهة المزعومة، على أي شيء من النّفع والضرّ والتصرّف في الخلق:

١. ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان].

٢. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف].

٣. ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

٤. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج].

أ). ففي آية الفرقان، يبيِّن سبحانه: أنَّ الآلهة المزعومة للمشركين، مُتَّصِفَةٌ بدل الأوصاف الإيجابية، التي يجب أن يمتاز بها الإله عن عابديه، بالأوصاف السَّبعة السَّلبية التالية، التي يَقتضي كل منها سَلْبَ صفة الألوهية عنها، فكيف مجموعها! وهي:

١. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ وهذا يدل على أن غير الخالق سبحانه، ليس إلهاً، ولا يحقّ له ولا يليق به أن يُعْبَد، إذ المخلوقات كلها في المخلوقية سواء، لذا لا يجوز أن يعبد بعضُها بعضاً!

٢. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: إن تلك الآلهة، لا تملك حتى الوجودَ، بل وجودها موهوبٌ لها، ومن لا يملك أصل وجوده هو، كيف يملك شيئاً آخر؟!

٣. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أي: لا يقدرون على إبعادِ ضرر.

٤. ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أي: ولا يملكون لأنفسهم جَلْب نَفْعٍ، ومن لم يملك الضر والنفع لنفسه، فماذا يملك لغيره؟

٥. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ أي: لايقدرون على إبعاد شبح الموت، حتى عن أنفسهم، فكيف عن غيرهم.

٦. ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ أي: ليس بإمكانهم أن يهبوا حياة لأحد، ولا أن يسلبوها منه.

٧. ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ والنشور هو البعث والإنتشار بعد الموت والإندثار، وهذه أيضاً ليس في حوزة أحد، سوى الواحد القهّار.

ب). وفي آيات (الأعراف)، بعد أن يعلن تبارك وتعالى عُلُوَّ شأنه المطلق عن الشرك والشركاء، يصف الآلهة المزيفة للمشركين بالأوصاف السَّبْعَةِ الآتية:

١. ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾.

٢. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

٣. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ والإله إنما يُعبد ليُنْجِدَ عابديه ويُغيثهم في المُلِمّات، أما الّذي لا يملك نصراً لعابديه، فما أبعده عن الألوهية، وما أتعس عابديه المخذولين! ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

٤. ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي: دَعْ أن تلك الآلهة لا تَنْصُر عابديه، بل ولا تنصر حتى أنفُسَها!

٥. ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ أي: إنهم لا يَهدون غيرهم فحسب، بل حتى ولا يهتدون في أنفسهم، ولو دُعوا إلى الهُدى!

٦. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: إنَّ تلك الآلهة المزعومة، سواء

كانت أصناماً جامدةً، أو طواغيت ذوي شعور، (عبادٌ) مخلوقون مثلكم، فلا يملكون أية مزية عليكم.

٧. ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟!﴾ والمقصود بهذا الكلام، إما الأصنام الجامدة، أو الأجساد الخامدة، التي تُعبد من دون الله، وفي الختام يأمر تعالى نبيّه، أنَّ يقول للمشركين ويتحدّاهم بالقول: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وهذا نهاية تقليل الشأن والتهوين للآلهة المدَّعاة، التي لا تَحُلُّ شيئاً ولا تَربطُ.

ج). وفي آيات (هود)، يجيب (هود) عليه الصلاة والسلام قومه المشركين، الذين جَزموا بأن آلهتهم هي التي أصابته بسوء - في عقله - بقوله:

إني أَتَّخِذُ الله تعالى شاهداً وأَستشهدكم أنتم أيضاً، أَنَّني بريء مما تجعلونه شريكاً لله تعالى، لذا فاجتمعوا كلكم على صعيد واحد، وكيدوني كلكم ولا تُمْهِلوني لحظة، واعلموا أني توكلت على الله تعالى ربي وربكم، الذي لا توجد دابة، ليست ناصيتها بيده، وإِن ربي يتعامل مع مخلوقاته حسب صراطه المستقيم!

وقصد (هود) عليه السلام بكلامه هذا، وتحدِّيه الشديد اللهجة هذا، هو أن تلك الشركاء والآلهة المزعومة، التي تعتقدون أَنَّها أَضرَّتني، لا أُعِيرُها أ اهتمام، ولا أخافُها مقدارَ ذَرَّةٍ، لذا فافعلوا ما بدا لكم ضِدّي، واستعينوا بعضكم ببعض، وادعوا آلهتكم، ولا تُقَصِّروا بحقي!

ويبيِّن لهم أن عدم خوفه منهم ومن شركائهم، راجع إلى اعتماده على الله تعالى الذي هو ربّه وربهم، ورب كل شيء، وهو مُمْسِك بِأَزِمّة الأمور كلها، ولا يوجد مخلوق إلّا وناصيتُهُ بيده سبحانه وتعالى.

د). وفي آية الحج يخاطب ربّ العِزَّة البشر جميعاً، ويأمرهم بالإِستماع لِمَثَلٍ ضربه لهم، ليعرفوا من خلاله حقيقَةَ معبوداتهم المزيَّفة التي يدعونها ويعبدونها من دون الله، فيقول:

إن معبوداتكم لو أنَّها اجتمعت كلها، وتضافرت جهودها، وساندت

بعضها بعضاً على أن يخلقوا ذباباً، لم يتمكنوا منه! بل وأدهى من هذا: إذا ما سَلَبَ ذبابٌ شيئاً من تلك المعبودات، فإنها عاجزة كلها حتى عن استرداد المسلوب، أي: إن كلاً من الطالب للشيء المسلوب منه، والمطلوب الذي هو الذباب السالب للشيء، ضعيفان! ومعنى هذا أن معبوداتكم لم تتساو فَحَسْبُ في الضعف وقلّة الشأن، مع الذباب، بل وتنزّلَتْ عنه، إذْ لو ظلَمها الذباب بِسَلْبِ شيءٍ منها، لم تتمكن من استرداده منه! إذاً: كيف تُجيز لكم عقولُكُم عبادَتها؟!

٥). ورداً على المبرّر الخامس الذي اتخذه المشركون تكأة لعبادتهم للآلهة المزعومة، وهو نفس مبرِّر إبليس الذي نسب إغواءه إلى الله تعالى واعتبره (سبحانه) سبب غوايته، بقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف]، نعم رداً على هذه الذريعة الإبليسية التي أخذها المشركون من إمامهم الخبيث إبليس، قال جل شأنه دحضاً وتزييفاً لها:

١. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

٢. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام].

٣. ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف].

وسَنُدْرِجُ ما عقَّب الله تبارك وتعالى به على المبرِّر الخامس للمشركين، في البنود الثلاثة الآتية:

١). الآيتان (٣٥ و٣٦) من (النحل):

أولاً: قال سبحانه وتعالى تعقيباً على كلام المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: إن هذا الكلام وذلك التبرير الواهي لارتكاب الشرك والكفر، ليس شيئاً جديداً، بل هو نفس ما كان يَتذَرَّعُ به الكفار والمشركون في الأمم السالفة، وهؤلاء إنَّما يردّدون ما كان تلوكه ألسنة أولئك الذين سبقوهم، وقد ذكرنا سابقاً أن إبليس لعنه الله تعالى، هو أول من تذرَّع بمشيئة الله، لتبرير غوايته التي ارتكبها بمحض اختياره متبجِّحاً بها!

ثانياً: ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾! أي: ان الرسل عليهم الصلاة والسلام كلَّفهم الله تعالى بالتبليغ المبين، فإذا ما بلَّغوا دينَ الله ورسالته بصورة واضحة، لا يبقى للناس عذر لارتكاب الكفر والشرك والمعاصي، التي نهى الله تعالى عنها في شرعه.

ثالثاً: ثم قال سبحانه وتعالى، مبيِّناً أنه حرَّم الشرك المتمثل بعبادة الطواغيت، في كل شرائعه التي أرسلها عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وعليه: كل الرسل الكرام أمروا الناس طبقاً لأمر الله تعالى ودينه، أن يعبدوا الله وحده، وأن يتجنَّبوا عبادة الطاغوت، وقد ذكرنا من قبل، أن الطاغوت هو الشخص الذي يتألّه على الناس، بالأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع بغير ما أنزل الله تعالى، وقد فسَّره بعضُ العلماء بكل معبودٍ سوى الله تعالى[1].

رابعاً: ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وانما نسب الله تعالى الهداية إلى نفسه، لأن الله وحده هو الهادي تشريعاً وتوفيقاً، وإلّا فإن الإنسان هو الذي يهتدي، ولكن الذي

(١) مختار الصحاح، ص٣٤٨، لفظ: ط غ ا.

يَضِلُّ إنَّما يختار طريقَه بنفسه، ومن اختار الضلال، تَحِقُّ وتحلُّ عليه الضلالَةُ حسب سنة الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ..﴾ [الإسراء: ٢٠].

خامساً: ثم يقول تعالى منبِّهاً على أن الضال انما يضل باختياره الضلالة: ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والتكذيب فعل يرتكبه المكذب بنفسه، وانما قال تعالى تجوّلوا في الأرض وتأملوا مصير المكذِّبين المشؤوم، كي يعتبروا بعاقبتهم السيئة التي جرّها لهم تكذيبهم!

٢). الآيتان (١٤٨ و١٤٩) من (الأنعام):

أولاً: وعقّب سبحانه وتعالى على كلام المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ﴾، بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فاعتبر قولهم وتَذَرُّعَهم لتبرير شركهم بمشيئة الله تعالى، تكذيباً مثل تكذيب الأمم السابقة عليهم من أمم الكفر.

ثانياً: ثم أمر رسولَهُ ﷺ أن يسألهم موبِّخاً لهم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾!! أي: إِنَّ كلامكم ليس مبنياً على علم وبرهان، فإذا كان - على سبيل الفرض - عندكم علم بهذا الموضوع، فأرونا إياه!

ثالثاً: ثم يقول تعالى مبيِّناً أساس كلامهم هذا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: إِنكم لستم تابعين في كلامكم المذكور، إلا للظن، ثم إِنكم لستم سوى كاذبين، ومعنى هذا هو أن أساس كلامكم، هو الظن ومحتواه هو الكذب.

رابعاً: ثم يختم سبحانه ردّه عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: إِنَّ الله تعالى له الحجّة التامة الكاملة عليكم، لأنه أعطاكم الإرادة والإِختيار، تختارون ما تحبون وترغبون فيه، من كفر أو إيمان، وأيضاً أنزل إِليكم الهداية، وأرسل إِليكم الرسل ﷺ، ليُقيم عليكم الحجّة، ولا يبقى لكم عذر، ثم ان الله تعالى لم يشأ أن يجبركم على الذي يرضاه ويحبّه من الإيمان والطاعة والتوحيد، بل أراد أن يُخيّركم، والدليل على أنه لم يشأ إجبارَكمْ، هو أنكم منكم مؤمنون، ومنكم كفرة، ومن الواضح أن الله تعالى

يحب الإيمان، ويكره الكفر، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾ [الزمر]، إذاً: لو أنه أراد أن يُجبركم على ما يحبه ويرضاه من الإيمان والطاعة، لأجبركم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو شاء مشيئة إجبار وإكراهٍ، لَجعلكم كلكم مهديين وعلى صراط مستقيم، ولكنه لم يشأ هذا، بل شاء أن يخيِّركم، فتختاروا بإرادتكم ما تشاؤون وان كرهه هو، كما قال في موضع آخر: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا ومن يقرأ هاتين الجملتين بسطحية، ومن دون تدبّر، كما أمر الله تعالى به، يشعر بأن الله تعالى يؤيد قول المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك لأن المشركين يقولون: أنه لو شاء الله ما أشركنا، ويقول تعالى: لو شاءَ الله لهداكم أجمعين، ومعلوم أنَّ مَنْ هداه الله، لا يشرك، ومن لم يشأ الله شِركَهُ فقد شاء إيمانَه وتوحيدَه!

ولكن عند التدبّر، يتبيِّن لنا، أنَّ الأمر ليس هكذا، بل مقصود المشركين بقولهم هذا، هو التوصّل إلى نتيجة أن عبادتهم لآلهتهم شيء مرضيٌّ لله تعالى، بدليل أنه شاءها منهم، وما شاءه الله تعالى، فهو محبوب له ومَرْضيٌّ عنده! ولو صِغْنا قولَ المشركين هذا، في تبريرهم الشرك بالله، مُتذرِّعين بمشيئة الله صياغةً منطقية - حسب منطقهم المعوج - لصار كلامهم هكذا:

لو لم يشأ الله شِرْكَنا، لما أَشركَنا، لأنه لا يحدث شيء إلا بمشيئة الله، وبما أن الله تعالى لا يشاء إلّا ما يرضاه، فقد رضي مِنَّا الشِرْكَ!!

وخطأ هذه المعادلة المنطقية، يَكْمُنُ في جملة: (لا يشاءُ الله إلّا ما يرضاه) اذْ هذا لَيس صحيحاً، وهو قياس لله تعالى على خلقه، فإن الخلق لا

يشاؤون فعل شيء، إلا إذا ارتضوه وأحبّوه، لِذا فهم مشيئتهم ورضاهم متطابقان - باستثناء بعض الحالات النادرة ـ ولكن مشيئة الله تعالى، ليست هكذا، وذلك لأن الله تعالى خالق كل شيء، ولا يخرج شيء من نطاق مشيئته المطلقة أبداً، لذا، فهو شاء ويشاء حدوثَ كل الأشياء عموماً، سواء منها ما رضيه، أم كرهه، وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد ويحدث شيء، لم يرده هو سبحانه، لِذا فمشيئة الله تعالى ورضاه، ليسا متطابقين دَوْماً، بَلْ قد يتطابقان وقد يختلفان، والميزان الوحيد الذي نعرف به مَرْضيات الله ومحبوباته، من الأشياء والأفعال والأقوال، هو شرعه الحكيم، أو بتعبير آخر نقول:

إنَّ الأشياء كلَّها: المخلوقة منها[1] والمجعولة، مُراداتٌ لله تعالى، أي: إن الله تعالى أرادها وشاءها كلَّها، وإلا لَما لَبِسَتْ ثوبَ الوجود، ولكن ليست كلُّها مَرْضِيَّةً لله تعالى، بل ما وافق شريعته، فهو مرضي، وما خالفها، فهو مكروه ومرفوض، إذاً: نحن لا نعرف رضا الله تعالى عن الأشياءِ، بسبب إرادته ومشيئته لتكوينها وإيجادها، لأنه سبحانه أراد تكوين كلِّ الأشياء، ولا يمكن أن يوجد ما لا يريده هو، بل نعرف رضا الله عن الأشياء، من خلال شريعته التي رَضِيها لنا ديناً ومنهجاً، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ..﴾ [المائدة: ٣]، ومعنى هذا: أنَّ كلَّ ما أمر الله به في دينه القَيِّم (الإسلام) فهو مرضيٌّ له، كما أن كلَّ ما نهى عنه فهو مبغوض ومكروه، وقد أَمَرنا الإسلام بالإيمان والتوحيد، ونهانا عن الكفر والشرك، لذا فالإيمان والتوحيد مَرْضيّانِ عنده، ولكن الكفر والشرك، مبغوضان ومكروهان عنده، لأنه نهى عنهما.

وأما حكمة عدم إرادة الله الإيمان والتوحيد من الناس كلهم، إرادة إجبار وإرغام، مع أنهما محبوبان له ومرضيان عنده، بل إعطاءه إِياهم، حرية الإِختيار، أو عدم الإِختيار، تِجاهَهُما، فهي:

أَنَّ الله تعالى إِنَّما خَلَقَ الجن والإنس للإِبتلاء والإِمتحان، وانما يمكن

(١) قد فصّلنا القول في الفرق بين (الخلق) و(الجعل)، في الفصل الثاني من الباب الثاني. (أي في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة).

ابتلاءُ وامتحانُ، مَنْ يمتلك القدرة والإختيار، اللّذَيْنِ يستطيع أن يُحَصِّل بهما كلاً من النجاح أو الرّسوب، والعُلوَّ أو الهبوط، والإيمان أو الكفر، والتوحيد أو الشرك، وإلّا فما معنى اختبار، مَنْ لا يملك إزاء الأشياء والحالات المختلفة والمتباينة، إلّا خياراً واحداً فقط؟!

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]، ومعنى هذا: أن الله مع أنه خالق الناس وربُّهم، لم يشأ - مشيئة إجبارٍ وإكراهٍ - أن يؤمن كل مَن في الأرض، بل أراد تخييرهم، إذاً: أفأنت - يا محمد - مع أنك بشر مثلهم! - تُريد إكراهَهم - شفقة منك عليهم وحرصاً - حتى يكونوا مؤمنين كلّهم، رغماً عن أنوفهم؟! أي: إنَّ الله تعالى مع أنه خالق الناس ومالكهم وربهم، وله أعظم الحقوق عليهم، ولكن اقتضت حكمته البالغة، ألّا يُكْرِهَهُم على ما يحبه ويرضاه لهم من الإيمان، وذلك لأن هذا يخالف الحكمة التي خلقهم من أجلها، وعليه: فأنت أيضاً لا يحق لك أن تُكرِهَهم على ما تُحِبُّه لهم، لمضادّة الإكراه، الحكمَة التي خلقهم الله من أجلها، وهي ابتلاؤه إياهُم، وتخييره لهم، لانتخاب ما يريدون، واختيار ما يرغبون فيه!

٣). الآيتان (١٩ و٢٠) من (الزخرف):

وفي هاتين الآيتين، يخبر سبحانه وتعالى أن المشركين اعتبروا الملائكة الكرام إناثاً، جهلاً وحماقة، ثم يقول سبحانه تسفيهاً لهم، على قولهم ذلك البهتان: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾؟! أي: هل حضروا وقت خلق الله تعالى لهم، حتى يتسنّى لهم هذا القول عنهم؟ ثم يقول: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وبما أنه لا يجوز أن يشهد أحد على شيء، إلّا بعد شهوده له وعلمه اليقيني به، فمِمّا لا شك فيه، أن هؤلاء المشركين سيفتضحون عندما يسألون عن شهادتهم تلك، والتي بَنَوْهَا على مجرّد الوهم والسفاهة لا غير!

ثم يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ وهذا نفس مقولتهم السابقة، ويردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: إنَّ قولَهم هذا، مبنيٌّ على محض الجهل، وليس محتوى

كلامهم هذا سوى الكذب، ألا ما أَسفَهَ من يَتَقوَّل على الله تعالى ويفتري عليه على أساس الجهل!

والملاحظ أن الله تعالى يؤكّد أكثر من مرة، على أن التذرُّع بالمشيئة الربّانية المطلقة، لتبرير الإِشراك بالله وعبادة غيره، ناتجٌ عن الجهل والظن، وليس سوى ظن وقول بغير علم، وأرى أن هذا تنبيه على أن الكلام عن المشيئة الرّبانية المطلقة، وما يَرتبِط بها من مسائل القضاء والقدر، لا يجوز الخوض فيه، إلا على أساس الإِطلاع الكافي على العلم الحق النازل من الله تعالى عن طريق الوحي، وذلك لأن القدر والعلاقة بين مشيئة العبد الجزئية الحرّة، ومشيئة الله الكلية المطلقة، من القضايا العميقة والدقيقة التي لا تُفْهَمُ على وجهها الصحيح، إلا بعد الإِطّلاع الكافي والمحيط بأطراف الموضوع، وذلك بِجمع كل الآيات المباركة المرتبطة بالموضوع، والتي يُصَدِّق بعضُها بعضاً، ثم النظر إليها نظرة كليةً شمولية، تشمل كل زوايا الموضوع، والتي تتوزع الآيات الكريمة على زواياه المتعدّدة، ولا تكتمل صورة الموضوع إلا بمجموعها معاً.

نعم، هكذا يفنّد كتابُ الله الحكيم، كلَّ ذرائع المشركين ومزاعمهم التي يريدون أَن يبرِّروا بها ذلك الذنب العظيم: الإشراك بالله تعالى في ألوهيته، والذي لا يقوم إلا على أساس الشرك به، في خالقيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وشؤونه، كما وضّحنا ذلك سابقاً.

والآن إلى الفقرة الخامسة:

٥ ـ المشركون، وأنواعهم

وتتكوّن هذه الفقرة من نقطتين: ففي الأولىٰ منهما نُعَرِّفُ بالمشرك، والقواسم المشتركة بين المشركين، وفي الثانية منهما نَتَحدَّثَ عن أصناف المشركين السبعة ونُعرِّفهم من خلال أفكارهم ومعتقداتهم وتصرُّفاتهم:

الأولى: تعريف المشرك، والقواسم المشتركة بين المشركين:

المشرك هو كل من يتلبّس بالشرك بالله تعالى، سواء:

أولاً: في خالقيته وربوبيته ومالكيته، وذلك كمن ينسب شيئاً من الخلق، والتدبير في هذا الخلق إلى غير الله تعالى، من أفلاك كما كانت الفلاسفة اليونانيون، يتصورون، بناءً على خرافة العقول التسعة والأفلاك التسعة، وكذلك المجوس متلبِّسون بهذا النوع من الشرك، لأنهم يَنْسبِون خلْقَ الشرور إلى (أهريمن) خالق الظلمة، والخير إلى (يزدان) خالق النور، ولهذا سمّوا بالثنوية، وجديرٌ بالذكر أن النصرانية المحرَّفة أيضاً متلبِّسة بهذا النوع من الشرك، وذلك علاوة على شرك العبادة، وذلك لأنهم يعتبرون عيسى عليه السلام ربّاً وخالقاً، مع كونه إنساناً، ويقولون هو مُرَكَّبٌ من حقيقتين اثنتين: (لاهوت) و(ناسوت)، وقد نُسِبَ الخلقُ والتكوين والشفاء والمغفرة وغيرها من الأفعال التي هي مختصة بالله الخالق جلّ شأنه إلى عيسى عليه السلام في الأناجيل الأربعة المتداولة (متّى، مرْقُص، لوقا، يُوحنّا) في أكثر من موضع! ولهذا تُعتبرُ النصارى من هذه الناحية من المشركين الجامعين بين شرك الخالقية والربوبية، وشرك الأُلوهية معاً، بل وشرك الأسماء والصفات أيضاً، إذ هم يسمّون عيسى علاوة على (ابن الله): (الله) و(الرب) و(الخالق)

و(مالك الملكوت) إلى أسماءٍ وصفات أخرى كثيرة!

ثانياً: أو في ألوهيته، وهم كل الذين يعبدون غير الله تعالى من حجر وبشر وبقر وشيطان وملك وكوكب... بتقديم شيء من أنواع العبادة له، سواء في مجال العقيدة والتصور، أو في مجال شعائر التعبد، أو في مجال شرائع الحياة، على التفصيل الذي مرَّ معنا في البابين الثاني والثالث (أي الكتب: الثاني إلى الحادي عشر).

وهذا النوع من الشرك - الإشراك بالله في ألوهيته - يشمل كل أنواع المشركين كافة، وذلك لأن الإشراك بالله في العبادة، يستلزم دَوْماً الإشراك به في الربوبية والأسماءِ والصفات أيضاً، كما أن من يشرك بالله في خالقيته وربوبيته، يشرك به أيضاً في ألوهيّتهِ، وهذا هو واقع كل الذين يعلنون الإشراك بالله في الخالقية والربوبية قديماً وحديثاً، وقد مثّلنا لهم بكل من المجوس والنصارى، ويعبد المجوس النار ويقدِّسونها، كما أن النصارى يعبدون المسيح، ويُقَدِّمون له أنواعَ العبادات التي يعتقدونها!

ثالثاً: أو في أسمائه وصفاته وشؤونه، وهذا النوع في الحقيقة راجع إلى النوع الأول والثاني وله ارتباط بهما جميعاً، أو الأصح أن نقول: إنَّهما يشتملان عليه ويستلزمانه، وذلك لأن من اعتقد شيئاً من الخالقية والربوبية في مخلوق من مخلوقات الله، لا جرم أنه يُطْلِقُ عليه من الأسماء والصفات بحسب ما يعتقده فيه من الخالقية والربوبية، مما هو مختص بالله تعالى سبحانه، وكذلك من عَبَدَ غيرَ الله تعالى، فهو اعتبره إلهاً ومَنْ اعتبر شيئاً من المخلوقات إلهاً له، لا مندوحة له من أن يصفه بالصفات والأسماء والشؤون التي لا تَجوز إطلاقها على غير الإله الحق جل شأنه، فهو - أي المُتَّخِذُ غيرَ الله إلهاً - على الأقل ينسب إلى إلهه سَماعَ دعائه، واستجابته له بالشفاء لمرضه، ودفع الضرّ عنه، وجلب الخير له، ونصره على أعدائه... الخ.

وعند تعدادنا لأنواع المشركين، تتبدّى لنا صورة المشرك أكثر فأكثر.

ولكن قبل تعداد أنواع المشركين، لنذكر بعض الصفات التي هي قواسم مشتركة بين المشركين على اختلاف أنواعهم:

١ ـ كل المشركين يُقِرّون بوجود الله، وخالقيته، وربوبيته:

وهذا ما أكدته أكثر من آية مباركة، مثل:

١. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ..﴾! [الزخرف: ٨٧].

٢. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف].

٣. ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

٢ ـ وكُلُّهم يعبدون مع الله إلهاً آخر أو أكثر، وهذا على الأغلب هو السبب في تسميتهم بالمشركين:

وهذه الحقيقة صرَّحت به أكثرُ من آية كريمة، ونكتفي هنا بهذه الآيات التي يعرِّف الله تعالى من خلالها المشركين:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر].

كما نرى يعرِّف سبحانه المشركين، بأنهم الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر.

٣ ـ وكُلُّهم أو جُلُّهم يُكَذبون بالبعث والنشور، أو على الأقل يشكِّكون فيه:

كما قال تعالى في سياق آيات كلّها تتحدث عن المشركين: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون]، ويدل قوله تعالى متحدثاً عن المشركين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ على أن التكذيب بالبعث أو التشكيك فيه، هو دَيْدَنُ الكفار والمشركين كلهم.

٤ ـ وكُلهم مشتركون في الجمود الفكري والتَّعَصُّب والتقليد، لما كان عليه الأَسلاف، وإِنْ بدا عُوارُهُ وخَطؤُهُ:

كما قال تعالى متحدِّثاً عن المشركين الذين كانوا يحرِّمون بعض الحيوانات، على أساس اعتبارات جاهلية، ما أنزل الله بها من سلطان: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة]، وكذلك تدل على هذه الحقيقة الآيات (١٩ إلى ٢٥) من (الزخرف) والتي أشرنا إليها أكثر من مرة في مناسبات مختلفة.

٥ ـ وكذلك كُلهم أو جلهم مشتركون في إعطاءِ أيديهم بأيدي الشركاء الوَهْمِيِّين، من طواغيت وسادة وكبراء وسدنة، يأمرونهم وينهونهم ويُحَرِّمون لهم ويُحللون، حسب أهوائهم:

كما قال تعالى:

١. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٢. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

٣. ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب].

والآن لنعرِّج على أصناف المشركين ونعرِّف بكل صنفٍ منهم باختصار:



الثانية: أصناف المشركين:

بعد استقراء آيات كتاب الله الحكيم، واستقراء الواقع، تبيَّن لي أن المشركين عموماً، هم هذه الأنواع السبعة:

أولاً: عبدة الشيطان والشياطين:

والمقصود بهم من يعبدون الشيطان مباشرة، وإلّا فكل عابدٍ لغير الله تعالى عابدٌ للشيطان، أياً كان معبوده، وذلك لأن الشيطان هو المزيِّن لكل أنواع الكفر والمعاصي، وهذه بعض الآيات المباركات، كدليل على كون الشيطان والشياطين معبوداً لبعض الكفار والمشركين، قال سبحانه وتعالى:

١. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾! [يس].

٢. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

٣. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

وتبرير المشركين لعبادتهم الشياطين من الجن، هو أن الجنَّ هم بنوا الله تعالى! كما قال الله العظيم الحليم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات].

ثانياً: عبدة الملائكة:

وقال الله تعالى بهذا الصَّدد:

١. ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف].

٢. ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء].

ثالثاً: عبدة الأجرام السماوية، من الشمس والقمر والنجوم والكواكب:

وقال سبحانه وتعالى بهذا الصدد:

١. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصّلت].

٢. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

وقد رجّحنا من قبل في تفسير هذه الآيات، أن إبراهيم عليه السلام إنّما حاوَر نَفْسَه، ثم لما وصل إلى اليقين الذي جعله الله هدفاً لحوار إبراهيم الذاتي المذكور في الآيات، أَطْلَعَ قَوْمَهُ على النتيجة التي توصَّل إليها.

رابعاً: عبدة الأصنام والأوثان:

ويبدو أن هذا الصنف من المشركين، هم النّوع الأعم الأغلب منهم، وأكثر حديث كتاب الله الحكيم عن هذا النوع من المشركين، وأكثر الأنبياء محاججة لهذا النوع من المشركين، حسبما قصّه الله علينا في كتابه الحكيم، هو خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ قَصَّ تعالى علينا حواراته، مع عبدة الأصنام والأوثان في كل من هذه السُّور المباركة: (الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف).

والأصنام التي وردت أسماؤُها في كتاب الله، هي:

(اللّات والعزّى ومناة) في سورة (النجم)، و(ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونَسْر) في سورة (نوح)، و(بَعْل) في سورة (الصافات).

وكانوا يصنعون الأصنام والأوثان من مختلف المواد: الحجر، الطين، الحديد، الخشب... الخ

خامساً: عبدة الهوى:

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ..﴾ [الفرقان: ٤٣] ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ..﴾ [الجاثية: ٢٣].

وعبادة الهوى مفهومها شامل لكل المشركين، لأن المشرك لا يعبد غير الله تعالى إلا بناءً على اتّباع هواه، ولكن مفهومها أكثر انطباقاً - في نظري - على الذين لا يتعبّدون لصنم أو معبود ظاهري، ولكنهم مع ذلك لا يعبدون الله تعالى، ثم يفعلون ما تهواه أنفسهم، وقد صدق من قال:

ومَن أباح النفس ما تهواه   فإنّما إلهُهُ هواه

سادساً: عبدة الطواغيت من الرؤساء الدنيويين كالملوك والساسة، أو الدينيين كالأحبار والرهبان، والشيوخ المنحرفين عن جادة الكتاب والسنة:

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ

﴿أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ!...﴾ [الشورى: ٢١].

وقد ذكرنا من قبل أن الطاغوت هو كل من يُشَرِّعُ للناس ويأمرهم وينهاهم من عند نفسه، وحسب هواه أو هوى غيره، ويمكننا القول في تعريف الطاغوت اختصاراً: (**هو كل مُطاعٍ من غير إذن الشرع**)، وهذا التعريف يشمل كل الرؤساء الدنيويين، من ملوك وقادة وساسة، وكذلك مُنَظِّري المناهج البشرية، والزعماء الدينيين والروحيين من علماء وعبّاد وشيوخ، الذين يوجِّهون أتباعَهُم حسب أفكارهم وأهوائهم، من غير رجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتقيّد بقواطعهما التي لا يجوز تخطّيها وتجاوزها.

وقد وضَّحنا من قبل، أن مفهوم العبادة في اصطلاح كتاب الله، لا يقتصر على بعض شعائر التعبّد من الدعاء والركوع والسجود، بل يشمل كُلَّ أنواع الخضوع والطاعة، سواء ارتبطت بالشعائر أو الشرائع، أو قبلهما الإيمان والمعرفة والتصورات والقِيَم والموازين، فَمَنْ خضع لأَحَدٍ أو لجهةٍ، خضوعاً مطلقاً، وأطاعه بغير إذنَ الشرع، فهو قد عبد ذلك المطاع من دون الله، إذ ليس معنى العبادة في أصل اللّغة، إلا الخضوع والطاعة والذلّ، كما يدل عليه أوضح الدلالة، قولُهُ تعالى على لسان موسى عليه السلام، إجابةً لفرعون بعد أن مَنَّ عليه بأنه ربّاه وليداً في بيته: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء]، ومعلوم أن بني إسرائيل خضعوا لفرعون وأطاعوه مُكْرَهين، ولم يركعوا له ولم يسجدوا!! وكذلك يدل عليه قوله تعالى على لسان فرعون وملأه المستكبرين، عندما جاءهم موسى وأخوه هارون: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟! [المؤمنون]،

وقصد فرعون وَمَلَئِهِ من عبادة بني إسرائيل لهم، هو الخضوع والطاعة والذل، وليس الدعاء والركوع والسجود!

ولكن من الواضح أن من عُبِّدَ وطُوِّع من غير إرادة منه واختيار - كبني إسرائيل - فهو لا يأثم بخضوعه وطاعته الإجبارية، بخلاف مَنْ يُطيع غيرَه مختاراً راضياً طائعاً.

هذا وقد بينّا هذه المسألة في أكثر من موضع، ـ وخاصة في الكتاب الثالث ـ لضرورتها ولغفلة أكثر المسلمين عنها، تلك الغفلة التي لها أكبر الدور في تَلَبُّس كثير من المسلمين بالطاعة والخضوع للطواغيت، الذين تحكّموا عليهم وتجبّروا، ثم حكموهم بمناهج طاغوتية شرقية وغربية، كالعلمانية والإشتراكية والرأسمالية والليبرالية... إلخ.

سابعا: عبدة الحيوانات:

وذلك كالهندوس الذين يعبدون البقر ويُقَدِّسونَها، وكذلك في الهند وغيره من البلدان وخاصة في شرق آسيا، وفي أفريقيا هناك أقوام وشعوب يعبدون أنواع الحيوانات حتى الحيّات والفئران![1].

وقد عبد بنوا إسرائيل العِجْلَ الذي صَاغَه لهم السّامريُّ من الذهب والحُلِيِّ الذي حملوه معهم، في زمن موسى، ثم عاقبهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً - الذين لم يعبدوا العِجْلَ قَتَلوا الذين عبدوه - ثم لما نفّذوا العقوبة، تاب الله عليهم، كما قال تعالى بهذا الصدد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ [البقرة.

والآن إذ عدّدنا أصنافَ المشركين، فَلْنَسْتَمِع إلى كلام الله الحكيم مرة

---

(١) وفي سفري عام (٢٠١١) إلى (ماليزيا وكمبوديا) للمشاركة في مؤتمر البرلمانيين الآسيويين، في (فنوم بنه) عاصمة كمبيوديا، شاهدتهم كيف يُقدسون حية (كبرى) ويبنون له هياكل في كل مكان.

أخرى، لنعلم كيف دَحَضَ سبحانه وتعالى، شِرْكَ المشركين بكافة أنواعهم وأضرابهم:

ونكتفي في هذا المجال:

١ـ بآيتين في سورة (الأنعام)، يُفنِّد فيهما المولى الجبّار الواحد القهّار سبحانه وتعالى، فِكرةَ عبدة الشياطين وعبدة الملائكة، معاً، وقد بينّا سابقاً أن كلاً من عبدة الشياطين، وعبدة الملائكة، كانوا يُبرّرون عبادتهم للشياطين والملائكة، بأنهم أولادُ الله - أي الشياطين أبناؤه والملائكة بناته - تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

٢ـ وبآيتين في سورة (سبأ) يَرُدُّ فيهما العزيز الجبّار على المشركين بكل أضرابهم، وَينْسِفُ فِكَرَة الشرك نَسْفاً.

أ - ونبدأ بآيتي (الأنعام) يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

ويتمثل التفنيد الرباني للفكرة الخرافية الشركية، لكل من عبدة الشياطين وعبدة الملائكة، في البنود الستة الآتية:

أولاً: يبيِّن سبحانه وتعالى بدايةً، أن المشركين جعلوا لله تعالى شركاء - في الربوبية والألوهية - من الجن، ثم يقول معقّباً: ﴿وَخَلَقَهُمْ ۖ﴾ أي: مع أن الله تعالى هو الذي خلق الجن والشياطين، ولكن المشركين جعلوهم شركاء لله! ومن الواضح أن المخلوق، لا يمكن بحال أن يكون شريكاً لخالقه، إذاً: ففكرَتُهُم مهدومة الأساس منذ البداية.

ثانياً: ثم يقول تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ أي: وافتروا عليه واختلقوا له بنين (شياطين) وبنات (ملائكة) من غير أن يكون لهم أدنى علم بهذا الموضوع، وعليه: فكلامهم إفك وافتراء مبني على الجهل، لا تُشَمُّ منه رائحة العلم والبرهان.

ثالثاً: ثم ينزّه العلي الكبير نَفسَه فيقول: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا

﴿يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً له وعُلوّاً عن الخرافات التي يصفونه بها، وهذا دليل آخر على تفنيد فكرتهم، وذلك لأن الله الذي هو منزَّهٌ عن كل نقص وعيب، وعليٌ عُلُوّاً لا نهاية له عن مشابهة المخلوقات، لا يمكن أن يكون له بنون وبنات!

رابعاً: ثم يقول تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إن الله تعالى هو الخالق الذي أبدع السموات والأرض، ومن ضمنهما طائفتي الجن والملائكة، وعليه: فكيف يمكن أن يكون الخالق المبدع جل جلاله، والداً لمخلوقاته؟

خامساً: ثم يقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ؟!﴾ أي: من أين وكيف يمكن أن يحصل له ولد من دون (زوجة)، وأرى أن التعبير عن الزوجة بالصاحبة، حِكْمَتُها أن الزوجين يصاحب أحدهما الآخر ويلازمه، وبما أن الله تعالى ليس كمثله شيءٌ، إذْ لا يوجد شيء غيره، إلا وهو مخلوق له ومربوب ومملوك، إذن: كيف يمكن أن يوجد في مخلوقاته من يلازمه ويصاحبه ويماثله بصفة الزوجية؟!

سادساً: ثم يقول سبحانه في الختام: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومَنْ هو خالق كل شيء، لا يمكن أن يشبهه شيء، ومن هو بكل شيء عليمٌ، ثم ينْفي وجودَ البنين والبنات عن نفسه، قولُهُ هو القول الفصل الذي لا قول بعده!

ب - ويقول جل شأنه في سورة (سبأ): ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ].

والآن لنستخرج في هاتين الآيتين الكريمتين، خمسةَ أدِلّة مفَنِّدة، لفكرة الشرك بكل وجوهها المتعدِّدة:

أولاً: بداية يأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يتحدّى المشركين كلَّهم، وعلى صعيد واحد، ويقول لهم: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي:

أُطلبوا والتمسوا من كل الآلهة المزعومة الذين تعبدونهم من غير الله تعالى، على أساس الظن والزعم المجرّد، أن يُسعفوكم ويُغيثوكم!

ومن الواضح أن تعبير: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يشمل كافَّةَ المعبودات المُزَيَّفة التي تُعْبَدُ من دون الله، حجراً كانت أو بشراً أو بقراً، وكوكباً كان أو طوطماً. . .الخ.

ثانياً: ثم يبيِّن سبحانه وتعالى ماهية تلك الآلهة المزعومة، بقوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: إن تلك الآلهة المدَّعاة، تافهةٌ وعاجزةٌ إلى درجة، لا تملك، بأجمعها في كل السموات والأرض المملوئتين بالمخلوقات، التي لا يُحْصيها إلّا بارِئُها، ولو أَصْغَرَ شيءٍ كمثقال ذرة! وَمنْ لا يملك أَصْغَرَ شيءٍ، ولا يُسَيْطِرُ على أدنى مخلوقٍ، لا يصلح للألوهية، إذ الإله يجب أن يكون مالكاً لكل شيء، ومَلِكاً على كل شيء!

ثالثاً: ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي: كما أَنَّها لا تَملِكُ ولو أصغر شيءٍ استقلالاً، كذلك ليست لها شراكة في ملكية شيء مما في السموات والأرض أيضاً، فهي ليست مالكاً ولا حتى شريكاً!

رابعاً: ثم يقول: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ أي: كما أن تلك الآلهة المدعاة، ليست مالكاً لأدنى شيء في الخلق، بل وليست شريكاً، كذلك ليست مُعِيناً لله تعالى في شيءٍ، وذلك لأن الله تعالى غَنِيٌّ عنها وعن غيرها أيضاً، ثم إنَّها لا تملِك مِلْكاً ولا مُلْكاً[1]، إذن: كيف تعينُ الله تعالى المالِكَ لكل شيء، والمَلِكَ على كل شيء؟!

خامساً: ثم يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي: ان الشيء الوحيد الذي في وسع بعض هذه المخلوقات التي اتُّخِذَتْ ظُلماً وزوراً آلهة - وهم الملائكة والصالحون من البشر - هو الشفاعة عند الله تعالى، ولكن الشفاعة أيضاً مشروطة بإذن الله تعالى ورضاه، كما قال تعالى في مكان آخر: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ

---

(١) المصباح المنير، ص٢٩٩.

أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨﴾ [النبأ] وقال أيضاً: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ..﴾ [الأنبياء: ٢٨] وجلي أنه لا الملائكة يشفعون لمن أشرك بالله، لأنَّ المشرك ليس مَرْضياً لله، وهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه! ولا الله تعالى يأذن أن يَشْفَعَ الملائكة، لمن لا يَرتضيه هو.

ثم يُظْهِرُ الله تبارك وتعالى خَشْيَةَ الملائكة منه، وَوَجَلَهُمُ الشديد، بقوله: ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ومعنى (فُزِّع) أي سُرِّي عنهم، وذَهب عنهم الفَزَعُ[1]، فهم من شدّة الفزع والخوف، يَسْتَفْهِمُ بعضهم بعضاً عن قول الله تبارك وتعالى، في ذلك اليوم العظيم، وأفهم من هذه الجملة الشريفةِ أَنَّ المقصود بها: أن الملائكة مع طهارتهم من المعاصي، وكرامتهم على الله تعالى، يستولي عليهم الخَوْفُ والفَزَعُ في ذلك اليوم الرهيب من الله العظيم الجبار، بحيث يَفقِدون التركيز في الإستماع لكلامه، فيضطرون إلى أن يستفهم بعضهم بعضاً، ثم يقولون بأن الله الحق قال الحق، وهل يقول الحق جلّ شأنه، إلا الحق؟! ثم يصفونه سبحانه بصفتين مناسبتين للمقام، وهما العلوّ والكبرياء، فيقولون: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، وعليه: فإذا كان هذا هو حال أطهَرِ المخلوقات وأَقْربِها إلى الله تعالى، فما بالك بغيرها!!

وهكذا ردّ سبحانه وتعالى على مزاعم المشركين كلِّهم، وفَنَّدَ كُل تصوراتهم الخرافية، التي لا تستند إلا إلى الظن والهوى الناتجين عن وسوسة الشيطان، كما قال جلّ شأنه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ [النجم: ٢٣].

والآن إلى الفقرة السادسة:

---

(١) مختار الصحاح، ص٤٣٨، لفظ: ف ز ع، (الفَزَعُ: الذُعْرُ).

٦ ـ موقف المشركين تجاه الإسلام والمسلمين

ويتبيَّن لنا موقف المشركين تجاه الإسلام والمسلمين، بعد أن نتأمل هذه الآيات البيِّنات من كتاب الله المبين:

١. ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ..﴾ [المائدة: ٨٢].

٣. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة].

ونستخلص من هذه الآيات البيِّنات، كثيراً من مواقف المشركين تجاه الإسلام وأهل الإيمان، والذي يتمثَّل في البنود الثمانية الآتية:

١. **المشركون لا يودّون أيَّ خيرٍ ونفع للمسلمين:**

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٠٥) من (البقرة)، والملاحظ أن الله تعالى قَرَنَ هنا بين كفّار أهل الكتاب الذين يقصد بهم اليهود، كما يدلّ عليه سياق الآيات، وبين المشركين، في عدم إرادتهم ومودَّتهم أي خير وصلاح لأهل الإيمان، وكذلك قَرَنَ الله تعالى بينهما في شدَّة عداوتهم للمؤمنين، كما سنذكر بعد قليل.

ومصداق قول الله تبارك وتعالى في تأريخ المسلمين الغابر وواقعهم المعاصر، أظهر من الشمس، فالمشركون الوثنيون بكافة أنواعهم، واليهود، هم أخبث أعداء أهل الإسلام.

٢. **المشركون - مع اليهود - هم أشد أنواع الكفار عداوة للمسلمين:**

وهذا ما أعلنته الآية (٨٢) من ([المائدة]، إذاً: فالمشركون ليس أنهم لا يودّون أي خير للمؤمنين فَحَسْبُ، بل - إذا سنحت لهم الفرصة - يحاربونهم ويعادونهم أشد المحاربة وأشرس العداوة.

وكما أشرنا سابقاً، من يتأمل التأريخ الماضي والواقع الحاضر، لا يرى عدوّاً أضرَّ وأخطر على الإسلام والمسلمين من اليهود والمشركين، من الهنود المُقَدِّسِيْن للأبقار، وغيرهم من الوثنيين في بلاد شرق آسيا، وفي أفريقيا وغيرها من البلدان، وكذلك من النصرانيين المؤلّهين لعيسى ابن مريم، الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

٣. **وهم عندما يُفْسَحُ لهم مجال ما للإِضرار بالمسلمين، لا يُراعون فيهم قرابة ولا عَهْداً:**

كما نَصَّتْ عليه الآية (٨) من (التوبة)، وكلمة الـ(إلّ) تعني القرابة وصلة الرحم[1]، و(الذِّمَّة) هي العهد والميثاق الذي يُذَمُّ الإنسان على

(١) مختار الصحاح، ص٣٣، لفظ: أ ل ل.

الإِخلال به ونقضه[1].

٤. وهم يحاولون إرضاءَ المسلمين واقناعهم باللسان، ولكن قلوبهم مملؤة بالحقد والبغض:

وهذا ما نَصّ عليه أيضاً الآية السابقة، والمقصود بقوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ هو ما نسمِّيه في هذه الأيام بالمجاملة، وقوله تعالى: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ تصويرٌ لمدى تَمَكن الحقد والبغض في قلوبهم، ككوابيس سود هيمنت عليهم، ولا تسمح لهم حتى بالمجاملة اللسانية المجردة مع أهل الإيمان.

٥ و٦. وهم يستعيضون عن آيات الله، مكاسب تافهة، ويمنعون الناس عن سلوك صراط الله المستقيم:

كما بيّنت ذلك الآية (٩) من (التوبة)، والمقصود بالثمن القليل الذي يشترونه بآيات الله، هو المحافظة على بعض مصالحهم الشخصية والفؤوية اللاّشرعية، التي تتحقق لهم في ظل سلطة الكفر المبنية على استحمار الجماهير واستغلالهم واستضعافهم!

٧ و٨. عدم مراعاة قرابة ولا عهد في حق أي مؤمن، واتخاذ الإِعتداءِ دَيْدناً:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٠) من (التوبة)، وقد كرَّر سبحانه عَدمَ مراعاة المشركين لصلة الرحم وللعهود والمواثيق، في هذه الآية، تأكيداً لهذه الخصلة الخبيثة فيهم، والفرق بين الموضعين اللَّذَيْن وردت فيهما الجملة المذكورة، هو أنه في الأول ذكرت هذه الخصلة في المشركين، في حالة الخطاب مع الرسول ﷺ والجماعة المؤمنة معه، ولكن في الثاني ذكرت في حالة الحديث عن موقف المشركين تجاه أهل الإيمان عموماً، وذلك تنبيهاً على أن المشركين مُتَّصفون بالغدر والظلم وعدم الحفاظ على صلة الرحم والعهود، مع كل المؤمنين وفي كل زمان ومكان.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٦، لفظ: ذ م م.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ فيفيد حصر الإعتداء والظلم وتجاوز الحدود في المشركين، مبالغة في وصفهم بالإعتداء، وكأنه لا معتدي سواهم.

والآن إلى الفقرة السابعة والأخيرة من هذا المطلب:



٧ ـ قد يتلبّس المسلمون بالشرك

نعم قد يَقعُ بعضُ المسلمين في شِراك الشرك.

ولهذا حذَّرنا الله تعالى في كثير من آيات كتابه الحكيم من الشرك، وكذلك حَذَّرنا منه رسولُ الله ﷺ في جملة من أحاديثه الشريفة، وهذه أمثلة من الآيات المباركات بهذا الصّدد، ثم نذكر بعدها مجموعة في أحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بهذا الأمر:

قال الله تبارك وتعالى:

١. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

٢. ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

٣. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ

يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس].

٤. ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴿١٤﴾﴾؟ ... ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴿١١٤﴾﴾؟... ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام].

٥. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم].

٦. ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

٧. ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

٨. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

٩. ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾...﴾ [الزمر].

١٠. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

ومعلوم أن الخطاب في هذه الآيات كلها، إنَّما هو مع أهل الإيمان عموماً، أو مع رسول الله ﷺ خصوصاً، ولولا أنه من الممكن والجائز أن تلبّس المؤمنون بالشرك بالله تعالى قليلاً أو كثيراً، لما كان خطاب الله تعالى مع نبيّه، ومع أهل الإيمان بهذه الصورة، ومن الجليّ أن رسولَ الله ﷺ

بريء وبعيد من الشرك خَفِيِّه و َلِيِّه، وكبيره وصغيره، ولكن تنويهاً بخطورة شأن الشرك، وتنبيهاً لأهل الإيمان: أنَّ الشرك لا يُتسامح فيه مع أحد، وأنه من الجائز أن يتطرق الشرك إلى إيمان المؤمنين، جرى أسلوبُ هذه المخاطبات مع نبي الله الخاتم ﷺ، بهذا الوضوح والحسم.

والمقصود بكلمة الظلم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ هو الشرك، كما جاء في حديث الرسول ﷺ الذي رواه البخاري، وذلك لما ثقلت على الصحابة هذه الآية، وفهموا كلمة الظلم بمعناها المتبادر إلى الذهن، وهو التجاوُز على حقوق الآخرين، أو الإثم مطلقاً، وقالوا: وأيّنا لم يظلم نَفْسَهُ؟! فوضح لهم رسول الله ﷺ أن المقصود بالظلم هنا هو الشرك[1]، ومعلوم أن هذا المعنى لكلمة الظلم هنا، هو المتعيِّن عند التأمل في السياق الذي وردت فيه، إذ الآيات السابقة لها واللاحقة بها كلها تتحدث عن الشرك.

وهذه بعض أحاديث رسول الله ﷺ بصدد التحذير - أي تحذير المؤمنين - عن التلبّس بالشرك:

١. «**من مات يشرك بالله شيئاً دَخَلَ النار**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٤٦٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٧٢)، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ).

٢. عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله عالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِلَ عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشِرْكَهُ**» (رواه مسلم: ٢٩٨٥).

٣. «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَل قبْرِي وَثَناً، لَعَنَ الله قَوْما اتَّخذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ**

---

(١) عن عبدالله قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأيُّنا لم يظلم نَفْسَه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ رواه البخاري: ٤٦٢٨.
عن عبدالله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله! أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك، رواه أحمد ١/ ٤٤٤.

مسَاجِدَ» (رَوَاهُ أَحمَد برقم: (٧٣٥٢)، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَقَالَ شعيب الأرنؤوط: إسنادُهُ قَوِيّ).

٤. «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَل قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ**» (رَوَاهُ مَالِك برقم: (٥٩٣)، عَنْ عَطَاءِ بنِ يَسَارٍ مُرسَلاً، وَصَحَّحَهُ الألباني في (المشكاة) برقم: (٧٥٠)).

٥. «**لَعَن الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (١٢٦٥)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٢١٢)، عَنْ عائشَةَ ﷺ).

٦. «**لا تُشرِك بِالله شيئاً، وَإِنْ عُذبت حُرِّقت**» (رَوَاهُ الطَّبَرانيُّ برقم: (٧٩٥٦) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل ﷺ، وَحَسَّنَهُ الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) رقم: (٥٦٩)).

٧. «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشرِك بِك وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا أَعلَمُ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ في (الأدب المفرد) برقم: (٧١٦)، عَنْ أَبِيَ بَكر ﷺ، وَصَحَّحَهُ الألباني في (صحيح الأدب المفرد) رقم: (٥٥٤)).

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ - وكما قلنا سابقاً ـ والذي كان في القمة العليا من الإيمان والتوحيد، كان بريئاً براءة تامة من كل أنواع الشرك، ولكن قال ما قال، تعليماً لأمته، ثم إنَّه كان يعتبر أذنى التفاتة إلى المخلوقات في مجال الإنشغال بها، مُخِلاًّ بتوحيده التام ونقصاً فيه، ولهذا يستعيذ بالله تعالى منه ويستغفره عنه.

وجديرٌ بالذكر أن المسلم كلّما رسخ الإيمانُ والتوحيد في قلبه، بسبب اتِّباعه لكتاب ربّه جلّ شأنه وسنة نبيّه ﷺ، بعد عنه الشرك وأطيافه الجَلِيَّةُ والخفيَّة، والعكس صحيح أيضاً.

وانما دخل الشرك في الأمة الإسلامية أكثر ما دخَلَ، بكل أنواعه وأشكاله، عن طريق الشيعة، والمبتدعة من الصوفية، وهما عموماً أبعد الفرق عن الكتاب والسنة، وأكثرها انشغالاً بالمستحدثات والبدع.

وللإكثار من قراءة سورتي التوحيد: - الكافرون والإخلاص: مع

التدبّر، تأثير عظيم في ترسيخ التوحيد علماً وحالاً في القلب، وإبعادِ شبَح الشرك، ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ تلاوتهما في كثير من صلواته المندوبة.

وسورة (الإخلاص): بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ مشتملة على التوحيد العلمي الإعتقادي لله تعالى، على أتم وجه.

كما أن سورة (الكافرون): بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ مشتملة على التوحيد العملي العبادي بأكمل صورة، وأرى أن حكمة تقديم (الكافرون) على (الإخلاص) في ترتيب سور القرآن، وإنْ كان العلم قبل العمل وأساسه، هي التنبيه على أهمية التوحيد العملي الذي هو مختصٌّ بأهل الإيمان، إذ قد يكون المرء كافراً مع علمه بالتوحيد، لأن العلم ما لم يُثمِر العَمل، فلا يُغْني صاحِبَه شيئاً.

وأختم هذا الموضوع بهذه التوضيحات المختصرة، عن سورتي التوحيد المباركتين:

أ. سورة الإخلاص:

١) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يعني: أَعْلِنْ أيها النبيّ! ﷺ أَنَّ الله تعالى (أحدٌ) أي لا ثاني له، ولا مِثْل، ولا شبيه، ولا نِدٌّ، ولا ضدّ.

٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ أي: إنَّ الله تعالى غَني عن غيره، وكل ما عداه محتاج إليه.

٣) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ أي: ليس له فرع يتفرَّع عنه، كما يدَّعي كثير من المشركين الجهلة، وخاصة النصرانيّون منهم، وليس له أصلٌ يرجع إليه، فهو لم يَلِد ولم يَتَفرَّع منه أحدٌ، ولم يُولَد ويَتفرَّغ هو عن أحد.

٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي : ولا أحد نظيرٌ ومكافيءٌ له.

وجديرٌ بالذكر أن هذه الجمل الأربعة، بعضها تأكيد لبعض، وكلٌّ منها يتضمَّن أَو يَسْتَلْزِمُ البواقي.

ب. سورة الكافرون:

١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ يعني: أيها النبي أَخْبِرِ الكافرين قائلاً: لا أعبد ما تعبدونه أنتم من المعبودات! وهذا دليل على أن الكفارَ كلَّهم يعبدون شيئاً ما، وليس أحدٌ منهم خِلْوٌ عن إلهٍ يتألَّهه ومعبودٍ يعبده؛ شيطاناً كان، أو إنساناً، أو صنماً، أو كوكباً، أو حيواناً، أو هوىً..

٢) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ أي: واعلموا أيها الكفّار! أنكم أيضاً لا تعبدون ما أعبده أنا، وهو الله الأحد الصمد، إذ لو كنتم تعبدون الله تعالى، لما أشركتم به بعض مخلوقاته!

٣) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ أي: وفيما أستقبل من الزمان أيضاً، لا أعبد معبوداتكم.

٤) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ أي: وكذلك أنتم فيما يأتي من الزمان، لا يمكنكم أن تكونوا عابدي معبودي جل شأنه، ما دمتم تشركون به معبوداتكم.

٥) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ أي: فلكم دينكم ومنهجكم المُتَمثِّلُ في الكفر والشرك، ولي منهجي وطريقي المتمثِّل في الإيمان والتوحيد.

وهذه الآية الأخيرة دليل قاطع على أن كل منهج للحياة يلتزمه الناس، يعتبر ديناً، فإِنْ كان من الله تعالى، ولم يغيّر ولم يُحرَّف فهو الدين الحق، وإِنْ كان من غير الله تعالى أصلاً - وذلك مثل العلمانية والإشتراكية واللِبرالية - أو كان في الأصل من الله، ولكن دخله التحريف والتغيير - وذلك كالنصرانية واليهودية والمجوسية والصابئيّة - فهو دين باطل.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الرابع:
المنافقون

المنافقون هم الصنف الرابع - حسب ترتيبنا في هذا الكتاب - من أصناف الكفار، وهم شرُّ أنواع أهل الكفر وأخبثها وأضرّها على الإسلام والمسلمين، ويكفيهم في كونهم شر الكفار، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

وسَنُلقي ضوءَ آيات كتاب الله الحكيم على هذا الصنف الغريب العجيب الخبيث من الكفار، في ثلاث فقرات:

(١). تعريف النفاق والمنافقين.

(٢). خصال المنافقين، ومواقفهم في مجال التعامل مع الإسلام والمسلمين.

(٣). بعض ملاحظات ختامية عن ظاهرة النفاق والمنافقين.

(١) تعريفُ النفاق والمنافقين

النفاق مأخوذ من (النَّفَق) وهو السرداب تحت الأرض له مدخل ومخرج، أو من (النافقاءِ) وهي جُحْرُ اليربوع، يحفرها تحت الأرض ويجعل لهُ مخرجين، ففي أيهما هوجم، خرج من الآخر[١].

هذا من حيث الأصل اللّغوي، وفي اصطلاح الشرع أطلق اسم (المنافق) و(المنافقين) على صنف من الناس وجدوا في المجتمع الإسلامي الأول أظهروا الإسلام تَقِيَّةً وخوفاً، واستبطنوا الكفر قناعةً، فكانوا في الظاهر مسلمين وفي الحقيقة كافرين.

لذا يمكننا أن نعرِّف المنافق باختصار، ونقول:

(المنافق هو الكافر الذي أظهر الإسلام كذِباً، وأَخفى كُفره عن المسلمين)[٢].

وعندما عرَّف رسولُ الله ﷺ المنافق بقوله: «**أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالِصاً، ومن كان فيه خصلةٌ منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذبَ، وإذا وَعَدَ أَخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر**» رواه البخاري: ٣٤، ومسلم: ٥٨.

إنما عرَّف المنافق ببعض صفاته وخصاله الأساسية التي إذا لم يَحذَرها المسلمون، فَسَيَتلبَّسون بها قليلاً أو كثيراً.

---

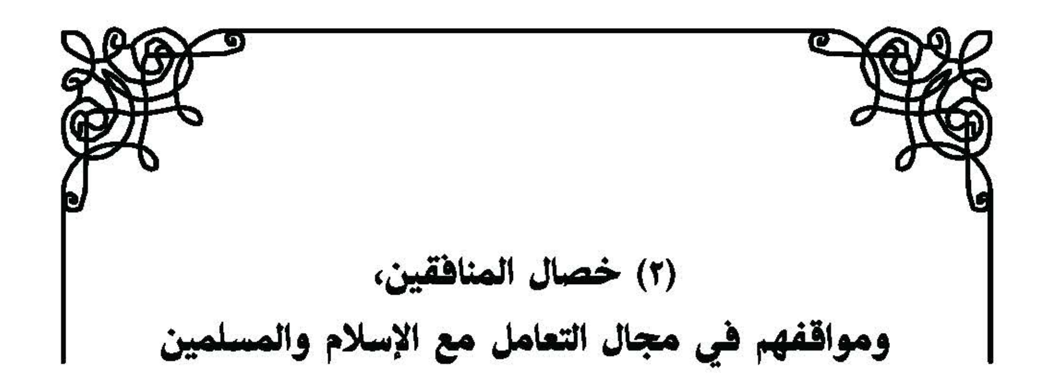
(١) أُنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص٤٣١.

(٢) المصباح المنير، للفيومي، ص٣١٨.

وفي الفقرة التالية وعندما نسلّط ضوءَ آيات كتاب الله العظيم، على خصال ومواقف تلك الطائفة الضالّة، سنتعرَّف أكثر على شخصية المنافق المعوجَّة المتلوِّنة، التي لا يعلم كلَّ خفاياها وأسرارِها، إلا فاطرُها الذي هو عليم بذات الصّدور جلّ شأنه وتبارك اسمه.







(٢) خصال المنافقين، ومواقفهم في مجال التعامل مع الإسلام والمسلمين

ذكر الله تعالى المنافقين في كثير من سور القرآن الكريم، وفصَّل في بيان خصالهم، وإبراز نواياهم، وكشف مخططاتهم ومكائدهم ضد الإسلام والمسلمين، وكانوا بحق - في عصر الرسول ﷺ - خَنجراً مسموماً في خاصرة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، حيث كانوا يَحيكون المؤامَرةَ تِلْو المؤامرة، ويعملون ويخطِّطون في الخفاء مع أعداءِ الإسلام من يهود ومشركين ونصارى، ولولا أن كتاب الله المبين سلَّط عليهم نورَهُ الكَشَّاف، لأصابوا الإسلام وكيانه الفتي بأَفْدَح الأَضرارِ، ولكن لم يُبْقِ لهم وحيُ الله المتمثل في كل من القرآن العظيم وسنة نبيّه الكريم، عورة لم يكشِفْها، ولا مخططاً وكيداً لم ينفضح.

وقبل أن نشرع بتعديد خصال المنافقين المذمومة ومواقفهم المفضوحة، أودّ أن أُشير بإيجاز إلى كيفية توزيع مساحة الآيات المباركات المتعلقة بالمنافقين، على سور القرآن الكريمة:

خارطة سور القرآن الكريم التي ذكر فيها المنافقون وأوصافهم

١) - ففي بداية سورة (البقرة) هناك عشرون آية مباركة، توزّعت بالشكل التالي:

خمس (٥) آيات في التعريف بالمتقين، وآيتان تعرِّفان بالكافرين، ثم ثلاث عشرة (١٣) آيةً تعرِّف بالمنافقين، من دون ذكر اسمهم المشهور.

٢) - وفي سورة (آل عمران) وفي التعقيب على أحداث غزوة (أحد)، هناك تنديد بالمنافقين وموقفهم الخاذِل[1]، وأعذارهم الباردة، وتبريراتهم الواهية.

٣) - وفي سورة (النساءِ) جرى ذكر المنافقين في مناسبات أربع:

أ. التحاكم إلى الطاغوت، بدل الله ورسوله.

ب. التردّد والتلكّؤ عن الجهاد، وهو على الأبواب.

ج. قضية الحكم بين الناس بالعدل.

د. قضية الإرتباط بأهل الكفر.

٤) - وفي سورة (المائدة) ذكر المنافقون في قضية موالاة اليهود والنّصارى.

٥) - وفي سورة (الأنفال) والتي نزلت في أعقاب غزوة بدر، وعلّقت على أحداثها أيضاً، ورد ذكر المنافقين وبعض مواقفهم.

٦) - أما السورة التي فَضَحت المنافقين ولم تُبْقِ لهم مَخْبأً يختبؤون فيه، فهي سورة (التوبة) والتي سميت أَيضاً بـ(الفاضحة) لفضحها المنافقين.

٧) - وفي سورة (النور) والتي سجِّلت فيها حادثة الإِفك الشنيعة التي حاك خيُوطَها رأسُ النفاق (عبدالله بن أبي بن سلول) أشير إلى دور

---

(١) خَذَلَ يَخْذُلُ خَذْلاً وخِذْلاناً فلاناً وعنه: تَرَك نُصْرَتَهُ وإعانَته فهو خاذلٌ، ج: خُذّال، وذاك مَخذول ج: مخاذيل، المنجد ص١٧١، ط١٧.

المنافقين، وكذلك في موقف بعضهم في تولِّيه عن التحاكم إلى رسول الله، جاء ذكر ذلك الصنف من الناس.

٨) - وكذلك أشير إليهم باختصار، وجرى ذكر اسمهم المعروف، في بداية سورة (العنكبوت).

٩) - وفي سورة (الأحزاب) التي نزلت في أعقاب غزوة (الخندق)، والتي عرِّفت أيضاً بالأحزاب، جرى ذكرهم في عدة مواقف مُخزيةٍ لهم.

١٠ و١١) - وفي كل من سورتي (محمد) و(الفتح) أيضاً إشارات إليهم.

١٢ و١٣ و١٤) - وكذلك في كل من (الحديد) و(المجادلة) و(الحشر) ورد ذكرهم، وهناك إشارات إلى بعض مواقفهم المعروفة عنهم.

١٥) -وآخر سورة جاءَ فيها ذكر المنافقين، هي سورة (المنافقون) التي اختصر فيها ذكر عدة مواقف مهمة وخطيرة من مواقفهم، ومجموعة من خصالهم.

إذن: هذه خمس عشرة سورة مباركة، جاء فيها ذكر المنافقين، وكُلُّها (مدنية) باستثناء سورة (العنكبوت) إذ هي مكية النزول.

والآن لنتأمل هذه السور المباركة وآياتها الكريمات، التي جرى فيها ذكر المنافقين، وشُخِّصَتْ فيها صفاتُهم، وَكُشِفَتْ فيها أسرارُهم وخفاياهُم، وسجِّلَتْ فيها مَواقِفُهم المُشينة والمُخْزِية لهم.

وبما أنَّني شعرت بأن معرفة المنافقين، واطّلاع أهل الإيمان على خصالهم وأفعالهم وتصرّفاتهم النابعة من نِفاقهم، ضرورية جداً في عصرنا هذا، والذي يشتدّ فيها ساق التيار الإسلامي، ويضطر كثير من الحاقدين على الإسلام والمسلمين إلى إخفاء أنفسهم، فقد تأمّلتُ واستقريتُ الآيات الكريمة وسياقاتها التي وردت فيها، كي أُسجِّل كلَّ خصلة من خصالهم الخسيسة، وأَجْمَع جميعَ أفعالهم ومواقفهم اللئيمة الخبيثة، كي يعرفهم المسلمون عامةً، والعاملون للإسلام خاصةً، ولا ينخدعوا بظواهرهم الجميلة المزركشة الحاوية على بواطن خَرِبةٍ خاويَةٍ.

إِدراج مائة وسبع خصلة من خصال المنافقين

والآن نبدأ بإحصاء خصالهم وفعالهم، ونُرتِّبها حسب السور الواردة فيها، ولكن إذا ورد ذكر خصلة أو موقف لهم، في أكثر من موضع أو أكثر من سورة، فلا أكرر تسجيل ما قد سجلته سابقاً، وأُشير إلى أرقام الآيات في نهاية الجملة التي أَقْتَبِسُ منها الخصلة أو الموقف.

١). **في سورة (البقرة)**: الملاحظ أن الله تعالى لم يُسمِّ المنافقين في سورة [البقرة] باسمهم المعروف، وانما ذكرهم بتَعْبير ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ تنبيهاً – حسبما أفهم – على أن هذا الصنف من الناس يُعْرفُون بخصالهم وأفعالهم ومواقفهم، قبل أن يُعرفوا بأسمائِهم وعناوينهم الظاهرة!

وأحصيت للمنافقين في الآيات: (٨ إلى ١٢) من بداية (البقرة) ثلاث عشرة خصلة:

١. **أولى خصالهم أَنهم أُناسٌ غامضون وغير واضحين**: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾.

٢. **إدّعاءُ الإيمان كذِباً**: ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣. **مخادعة المؤمنين بإظهار الإسلام**: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٤. **وهم لو كانوا يَمْلِكون أدنى حَدٍّ من الشعور الإيماني، لَعَلِموا أَنما يخدعون أنفسَهم فقط، أما الله تعالى فحاشاه وسبحانه، وأما المؤمنون فما داموا مؤمنين حقاً لا ينخدعون، كما قال عمر ﷺ: (لستُ خَبّاً ولا الخَبُّ يخدعني)**: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

٥. **وهم ذوو قلوبٍ مريضة**: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والنفاق أخبث الأمراض القلبية المعنوية.

٦. **ويشتد مرضهم من جرّاءِ تلك المواقف والتصرّفات**: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

٧. **وهم أهل كذب، بَلْ ضالعون في الكذب**: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

٨. وعندما يوجَّه لهم النصح، بدل الإنصياع يَشرَعون في مدح أنفسهم وتزكيتها، ويدَّعون لا الصلاح فحسب، بل الإصلاح أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

٩. وهم مع كونهم هم المفسدين على الحقيقة، ولكن غرورهم وإعجابهم بأنفسهم صار حجاباً لهم، عن الشعور بفسادهم وإفسادهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

١٠ و١١. ويعتبرون أنفسهم عقلاء أذكياءَ، والمؤمنين سُفهاءَ سُذجاً، مع أنهم هم أَسْفَهُ الناس وأحمقهم، ولكن الجهل (عدم العلم) حَجَب عنهم سَفَهَهُم وحماقَتَهُم، لذا فعندما يُدعَون إلى إيمان حقيقي كإيمان المؤمنين، يجيبون بجواب لا يليق إلّا بهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

١٢ و١٣. وهم عند لقائهم أهل الإيمان، يُظهرون لهم وجهاً إسلامياً، ويؤكِّدون لهم إيمانَهم، ولكن عند الإختلاء برؤسائهم في الكفر، يبدون لهم وجههم الحقيقي الكفري، ويُطَمْئِنونهم على أنهم معهم وأنَّهم ليس لهم هدفٌ في التواصل مع المؤمنين إلّا الإستهزاءِ بهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾.

إذاً: فهذه ثلاث عشرة خصلة وموقفاً لهم في سورة البقرة.

٢). <u>في سورة (آل عمران):</u>

١٤. وهم لا يَهُمُّهم سوى أنفسهم ومصالحِهم، وإنْ أصاب أهل الإسلام ما أصابهم: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

١٥. وتصوّراتهم عن الله تعالى وتوقُّعاتهم جاهلية صِرفة، لا علاقة لها بالإيمان: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ويفهم من السياق أن المقصود بـ ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هنا هو ظنهم أن الله تعالى لا ينصر

دينه ونبيّه ﷺ.

١٦. **وهم من جرّاء خَلفيّاتهم العقدية والفكرية الجاهلية، دَيدَنُهم سوء الظن بالقيادة وانتقادها والتشاؤم والتذمُّر، ولكن لا يجرؤون على إبداءِ أكثر هذه الأشياء بل يضمرونها في أنفسهم:** ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾.

١٧. **وهم بعد أن يجري قدر الله تعالى، حسب سنن الله وتَظهَرُ النتائج العملية للأسباب، ويفوت الأوان، يبكون حَظَّهم ويتجرَّعون الغُصَص باللجوء إلى كلمة (لَوْ)، التي لا تُغني أحداً شيئاً، وانما تفتح الباب للشيطان لإِلقاء الوساوس في القلب كما قال رسول الله ﷺ: (... فإن "لَوْ" تفتح عمل الشيطان)[1]:** ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾، ويبيّن الله تعالى لهم ولغيرهم، أن ما جرى به القَدَر الذي يجري من خلال الأسباب، لا يمكن تغييره بل الذي مضى فات: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾.

١٨. **وهم عند اشتداد الأزمة وحين يُطالَبون بمشاركة المجاهدين جهاداً في سبيل الله، أو على الأقل دفاعاً عن الأرض والعِرْض، يَتذَرَّعون بأعذار واهية، نجاةً بأنفسهم عمّا يتوقَّعونه من أخطار:** ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ..﴾، فهذا هو حالهم قبل القتال والنزال، وظهور معادن الرِّجال!

١٩. **وأما ديدنهم بعد القتال، فهو:**

أ ـ الشماتَة والتنديد بموقف المجاهدين المُستَبْسلين الذين لم يسمعوا

---

(١) **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِص عَلَى ما يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصابَكَ شَيءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنّي فَعَلْتُ كانَ كذا وكَذا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٦٦٤)، عن أَبي هُرَيرَة ﷺ.

لتثبيطهم، ولم يتأثروا بإرجافهم، بل أطاعوا قيادتهم، فهم بين شهيد، ومجروح، ومنتظرٍ لكرة أخرى.

ب ـ وإظهارُ بُعدِ النظر والكياسة، لمّا لم يَخُوضوا المعركة وبقُوا سالمين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

والجواب المُفْحِم لأقوالهم الخاذلة هذه، هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إنكم ان لم تُقْتَلوا في ميدان الجهاد والدفاع المُشَرِّف، فستموتُنُّ لا محالة في بيوت الذلِّ والمهانة، ولا نجاة لكم من الموت بحال، وينطبق على هؤلاءِ المنافقين الجبناء، قولُ الشاعر:

إذا كنت في أمرٍ مرومٍ ... فلا تقنعْ بما دون النجـم

فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

ويرى الجبناءُ أن الجبن حَزْمٌ ... وتلك خديعة الطبع اللئيم

٢٠ و٢١. وأهل النفاق يَفرحون بما يرتكبون من خطايا، ويَودُّون أن يمدحوا ويُثنى عليهم على ما لَمْ يفعلوه من الأعمال الصالحة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ وهذه الآية الحكيمة فيها أبلغ الذم للمنافقين، إذْ تصفهم بأنهم جمعوا بين فعل السيئات وترك الحسنات، ثم لم يقنعوا بهاتين الخصلتين المذمومتين، حتى أضافوا إليهما ثنتين أخريين وهما: الفَرَحُ بالسيئة بَدَلَ الحزن والبكاءِ عليها! والتطلّع والسعي إلى إقناع الناس، بأن يُثْنُوا عليهم بفعل الحسنات التي هم خِلْوٌ عنها!!

وهذه ثمان خصال أخرى للمنافقين في (آل عمران).

٣). <u>في سورة (النساءِ):</u>

٢٢. **وهم من جراءِ استبطانهم الكفر بالله وبكتابه وبرسوله ﷺ، لا يتحاكمون إلى شريعة الله تعالى للفصل في قضاياهم، بل يدفعهم**

كفرهم إلى التحاكم إلى الطاغوت - وهو كل حاكم يحكم بغير شريعة الله -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

٢٣. ثم لما تصيبهم مشكلة ومصيبة، من جرّاء تحاكمهم إلى الطاغوت ورفضهم الخضوع لشريعة الله والقيادة الشرعية للمجتمع الإسلامي، يلوذون بالقيادة ويبدؤون كعادتهم بسرد التبريرات، مُقسِمين بالله أنهم لم يروموا من فعلتهم تلك سوى الإحسان والإصلاح - كأن اتّباع شريعة الله إساءةٌ وإفسادٌ، قاتلهم الله! -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

٢٤ و٢٥. وهم يعتبرون السلامة نعمة كبرى، عندما تصيب المسلمين مصيبة بسبب الجهاد، ولكن عندما يصيب المسلمون بفضل الله نصراً وغنيمة، يتندَّمون على عدم مشاركتهم لهم، وبالتالي حرمانهم من تلك الغنيمة التي يعتبرون نيلها فوزاً عظيماً!: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾[1].

٢٦ و٢٧. ومن معتقداتهم وتصوراتهم التي لا تنبع الا من ينبوع الكفر، أَنّهم يخشون الناس الكفار عند المواجهة والقتال، قَدَر خشيتهم من الله تعالى، أو أشدّ!، ثم يعاتبون الله تعالى وينتقدونه - ان لم يكن ظاهراً وباللسان فباطناً بالقلب - أَنّه: لماذا استعجلت فرض القتال علينا؟!: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ

(١) الذي أُرجِّحُهُ أن هذه الآيات (٧٢ ـ ٨٣) تَتحدّث عن بعض المسلمين الذين في قلوبهم شيء من مرض الشك والتردّد، وليس المنافقين، وقد فصّلت القول في تفسير هذه الآيات في تفسيري لسورة [النساء]. باللغة الكوردية ..

خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾.

٢٨. **وهم عندما يصيبون - مع المؤمنين المجاهدين وبسببهم - نصراً أو غنيمة، أو تتحقق لهم مصلحة دنيوية، يُرْجِعونها إلى الله تعالى، وهذا حق، ولكن عندما يُصابون بضرٍّ أو سوء - في تصورهم - يشرعون بانتقاد القيادة ويسندونه إلى سوء تدبيره، وهذا باطل، وذلك لأن للحياة الدنيا بصورة عامة، والجهاد في سبيل الله خاصة، تكاليف ومشاق لا بدّ منها، وهذه سنة الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا..﴾ [الانشقاق] لِذا لا بدَّ من بذل الجهد والكدح وتحمُّل المشاق: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

٢٩. **والمنافقون يظهرون الطاعة والإلتزام بأوامر القيادة عَلَناً، ولكن يكيدون لها ويُخَطِّطون ضِدَّها سرّاً وفي الخفاءِ، ويريدون أن يسيروا بالأمور في غير الإتجاه الذي تريده القيادة:** ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾.

٣٠. **ومن عاداتهم السيئة أنهم عندما يصلهم خَبَرٌ مرتبِطٌ بأمور الأمن والخوف والحرب والسلم، سارٌّ أو مُحزنٌ، يُذيعونه بدون إذن القيادة واستشارتها:** ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ..﴾.

٣١. **ومن خُبْثِهم وسوء طَوِيَّتِهم أنّهم يودُّون لو أن المؤمنين يرتدّون عن الإسلام والإيمان، ويرجعون القهقري عن دينهم، كي يُصْبِحوا مثلهم، وهكذا الفاسد الشرّير، يحب لو أن الناس كلَّهم صاروا فاسدين وأشراراً:** ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾.

٣٢. **وهم يسعون جهدهم لتوريط القيادة في الأخطاء، وَيبْذُلون وسعهم لِخداعِها و جعلها تتَّخِذُ قرارات خاطئة:** ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ..﴾.

٣٣. **ومن دَيْدَنهم اتخاذُ الكفار من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم أولياء**

بدل المؤمنين: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

٣٤ و٣٥. وهم يتربّصون بأهل الإسلام المصائب والنكبات، ويسعون أنْ يَلْعبوا على كلا حَبْلي الإسلام والكفر، فلأيهما كانت الغلبة، مالوا إليه، للمشاركة في الأرباح فحسب!: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ..﴾.

٣٦ و٣٧ و٣٨. والمنافقون لا يُصلّون - إنْ صلّوا - إلّا كسلانين، وذلك مراعاةً للناس فقط، وهم قلّما يذكرون الله تعالى، (وذلك لمناسبة تقتضي ذلك، وليس حباً له وخشية منه): ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٣٩. وهم دَوْماً يمسكون العصى من الوسط، ويَقْضُون حياتَهم في حالة تململٍ وتذبذبٍ، وفي وضعٍ غير مستقرٍ، فيما بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فهم كالريشة التي في مهبّ الريح تميل معها أينما اتجهت: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ..﴾.

وهذه ثماني عشرة خصلة أخرى للمنافقين في سورة النساء، وجديرٌ بالذكر أنّي تردّدْتُ مدةً في كتابة بعضها وإدراجها في قائمة خصال ومواقف المنافقين، حذراً من أن يكون المقصود بها ضِعافَ الإيمان من المسلمين، ولكن أخيراً ترجّح لديَّ إدراجها، ولا يشترط في كل من اتصف ببعض هذه الصفات، واشترك فيها، أن يكون منافقاً كامل النفاق، إذْ قد يتلبَّس أهلُ الإيمان في حال ضعف إيمانهم، ببعضِ تلك الخصال والفعال النفاقية، ولكن سياقُ الآيات وجوُها اضطرني أن أُرجِّح أن يكون المقصود بأهل هذه الصفات الذميمة والمواقف المُشِينة، هم أهل الشك والتردّد وذَوُوا القلوب المريضة، سواء كانوا أهل نفاق كامل أو نفاقٍ جزئي.

٤). <u>وفي سورة (المائدة):</u>

٤٠. وهم يتسابقون في موالاة اليهود والنصارى والعمالة لهم، ويبرّرون صنيعهم هذا بأنهم يخافون تقلُّبات الزمان وتصاريف الدهر (وبما أنهم ساسة مجرِّبون بعيدوا النظر في الأمور يفعلون ما يفعلون): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ... ﴾ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ..﴾.

وهذه خصلة شنيعة أخرى لهم في سورة المائدة، ولم أعتبرها تكراراً لما سبق ذكرها في سورة النساءِ، رقم (٣٣) لأن تلك عامة في تولّي الكفار، كافة وهذه خاصة بأهل الكتاب (اليهود والنصارى).

٥). <u>وفي سورة (الأنفال):</u>

٤١. وهم عندما يشاهدون بطولات أهل الإيمان، وتضحياتهم في ميادين القتال، يُعلِّلون شجاعتهم وبسالتهم بالتهوّر والإغترار بسبب دينهم: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ..﴾، هذا وعند التأمل في السياق يبدو واضحاً أن مقصود المنافقين بـ(هؤلاء) هم المسلمون المجاهدون.

ويدل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أَنَّ (المنافقين) و﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ صنفان مستقلان، وأنا أرى أن المقصود بالذين في قلوبهم مرض ههنا، هم المنافقون الذين لم يكتمل نفاقهم، وربما يكون عندهم شيء من الإيمان الضعيف، وذلك بسبب اقترانهم بالمنافقين، إذْ لا بدَّ من أن يكون لهم وضع آخر، وإلّا حدث التكرار الذي لا يليق بكلام الله البالغ أرفع درجات البلاغة والإيجاز، ولكن عندما يرد ذكر ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ منفرداً في سياق، فأرى - والله هو العليم الحكيم - أن المقصود بهم المنافقون عموماً.

وهذه خصلة أخرى في سورة الأنفال.

٦). <u>وفي سورة (التوبة):</u>

٤٢. والمنافقون بخلاف المؤمنين الصادقين الذين (يَكْثُرون عند الفَزَع،

َيقِلّون عند الطَّمَع) هم يكثرون عند الطمع ويقلّون عند الفزع: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

٤٣. وهم كعادتهم وبسبب عدم ثقتهم بأنفسهم، يَحْلِفون دَوْماً للقيادة تغطية على مواقفهم المتخاذلة عند الخروج للقتال والدفاع: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

٤٤. وهم لا يهيّؤون أَنْفُسَهم ولا يستعدُّون وقت الإستعداد للجهاد، كي يعتذروا إذا جدَّ الجِدُّ، بعدم إِعداد العُدَّة!: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

٤٥. وحتى عندما يشاركون في معركة من المعارك كَرْهاً وعلى مَضَض، فَشَرُّهم وضررهم أكثر من خيرهم ونفعهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

٤٦. وهم كلّما واتَتْهم الفُرْصَةُ، كادوا المكائد ضد أهل الإيمان، وخصوصاً حين يكون بهم ضعفٌ، ولكن عندما تَقْوى شوكة المسلمين، يسكتون على مضض، ويتجرَّعون مرارة الحقد والغُصَص: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

٤٧. وهم لتضمين القعود في البيت مع الخوالف وقت القتال، لا يتورَّعون من التذرُّع بأعذار هي أوهن من بيت العنكبوت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

ونزلت هذه الآية في (الجد بن قيس) عندما اعتذر لرسول الله ﷺ في الذهاب معه إلى غزوة (تبوك) قائلاً: يا رسول الله اني امرؤ صاحب نساءٍ،

ومتى أرى نساءَ بني الأصفر أُفتَتن، فأْذَن لي ولا تَفتِنّي[1].

٤٨ و٤٩. **وهم يحزنون بمسرّات المؤمنين، ويفرحون بأحزانهم:** ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

٥٠. **وإذا ما اضطرّوا يوماً إلى الإنفاق، فينفقون كارهين وعلى مرارةٍ ومضض:** ﴿...وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾.

٥١. **ويحلفون بالله للمؤمنين بأنهم منهم، خوفاً على أنفسهم وترضيةً لهم:** ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ... يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

٥٢. **وهم يعيبون القيادة وينتقدونها في أمر الإنفاق، إنْ لم يُعطَوا وإنْ لم يَستَحِقُّوه، وانْ أُعطوا رضُوا:** ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٥٣. **وهم يؤذون القيادَةَ باتّهاماتٍ جوفاء، ويفسّرون صَبرَهَا وحِلْمَها وسماحَتَها بالغفلة والسّذاجة، وذلك للؤمِ طِباعِهم وفساد أَمْزِجَتِهم:** ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

٥٤. **وهم يعيشون في خوف ووجل دائمٍ، وقلق شديد، حَذراً من انكشاف**

---

(١) أنظر: (لُباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، رقم: ٥٤٦، وقال: أخرج الطبراني وأبو نُعَيم وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك. قال للجَدِّ بن قيس: يا جَدّ بن قيس! ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساءٍ ومتى أرى نساءَ بني الأصفر أُفتَتَنُ، فأْذَن لي ولا تَفتِنّي!
وانظر: (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج٢، ص٢٨٠، ٢٨١، إذ قال في تخريجه: صحيح.
وانظر (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للشيخ الألباني، ج٦، ص١٢٢٥، ١٢٢٦، رقم ٢٩٨٨.

أمرهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ..﴾.

٥٥. وهم عندما يُضبَطون بدعايات وأراجيف، يبرِّرونها بأنّها كانت على سبيل المزاح والنكتة، فيعتذرون بما هو أقبح من الذنب، ولهذا وصمَهُم الله تعالى بالكفر الصّراح، بعد النفاق الخفي: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩. وهم يتولّى بعضهم بعضاً ذكوراً وإناثاً، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف - عكس أهل الإيمان - ويمسكون أيديهم عن الإنفاق، وهم ناسون لله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

٦٠. وهم من عادتهم أو عادة بعضهم، أنهم يعاهدون الله تعالى أنه لو أغناهم وأثراهم لفعلوا وفعلوا، ثم إذا ما تحققت أُمنيتّهم، أخلفوا وعدَهم مع الله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

٦١. وهم ينتقدون المتطوعين المنفقين في سبيل الله، سواءٌ أنفقوا كثيراً أو قليلاً، فمن أنفق كثيراً، قالوا له: يرائي! ومن أنفق قليلاً - لعدم غناه - قالوا: وما حاجة الإسلام بهذا المقدار الضئيل!: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

٦٢ و٦٣. والمنافقون يفرحون بتَخَلُّفِهم عَنِ الجهاد في سبيل الله لكراهتهم له، ويُثبِّطون الناسَ بنشر الأراجيف، كتخويفهم من حرارة الجوّ (أو برودته): ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ﴾.

٦٤. **وخصوصاً الأغنياء وأصحاب السَّعة منهم، يتذرّعون بشتّى الذرائع، لتركهم مع العجائز في البيوت، وعدم خروجهم إلى حيث الرجال والنـزال:** ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

٦٥. **وعند عودة المجاهدين من القتال، يأتون إلى القيادة ويعتذرون لها بأنواع المعاذير، ويُقسِمون أغلظ الإيمان لينجوا من المحاسبة والمعاتبة:** ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ... سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

٦٦ و٦٧ و٦٨. ومن مخططات المنافقين الإبليسية أن يحاربوا الإسلام والكيان الإسلامي، ويَسْعوا للنيل منه من خلال مؤَسَّساته ومظاهره، لابسين ثوب الإسلام إيغالاً في الخداع والتمويه، وهدفهم الأساسي هو تفريق جمع المسلمين وتصديع صفهم أولاً، ثم جعل تلك المؤسسات والمظاهر أوكاراً للتجسُّس، لحساب الأعداء التقليديين للإسلام وقواعد سرِّية لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ ...لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ ..﴾.

وَنَزَلَت هذه الآية وثلاث آيات أخرى بعدها، في حادثة[1] (أبي عامر

---

(١) عن ابن عباس قال: إنّ أُناساً من الأنصار بَنَوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: إبتنوا مسجدكم واستمِدُّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإنيّ ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم فآتي بِجُندٍ فأُخرِجُ محمداً وأصحابَهُ. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: لقد فرغنا من بناءِ مسجدنا، فنُحِبُ أن تُصلّي فيه، فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، رقم: ٥٨٧، أخرجهُ ابن مردوديه وغيره.

وانظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢، ص٣٢٩، إذ قال عن سند هذه القصة: حسن، وذلك بعد إشارته إلى مظانِّه، مثل جامع البيان للطبري (١١/١٨، ١٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/١٨٧٨، ١٨٧٩)، و(الدر المنثور) للسيوطي (٤/٢٨٤) وغيرهم.

الراهب) المنافق، الذي بنى مسجداً في قومه كي يتخذه قاعدة للتجسس على الإسلام لصالح الروم النصرانيين، واجتماع من معه من أهل النفاق فيه! وطلب من رسول الله ﷺ أن يذهب إليهم ويصلّي لهم فيه ليباركه لهم، وكان غَرَضُهم أن يحصلوا لمسجدهم على الشرعية، فأنزل الله تعالى جبريل على النبي ﷺ، وأخبره بقصة هذا المسجد والهدف الذي بنيَ من أجله، ونهى الله تعالى نَبِيَّه عن الصلاة فيه، بعد أن همَّ بالذهاب إليهم.

٦٩. **وعندما تتَبَيَّنُ حقائِقُ الإسلام من خلال نزول آيات كتاب الله الحكيم وتلاوته، يقول أولئك المنافقون قياساً على أنفسهم المريضة، وتهكُّماً بأهل الإيمان وتكذيباً لكتاب الله، إذ يقول:** ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا..﴾ [الأنفال]، **نعم يقولون: مَن مِنكُم ازداد إِيمانُهُ بهذه الآيات؟!:** ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا..﴾؟!، ولكن صدق كتابُ الله وكَذَب المنافقون، وانما يَقْصدُ كتابُ الله أهلَ الإيمان، وليس المنافقين الذين فَسَدَتْ أَمْزِجَتُهُم الروحية، فصاروا يتضرّرون بكتاب الله بدل الإنتفاع، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، والإنسان كما أنه عند فساد مزاجه البدني، يتضرّر بالأغذية الجيِّدة وتَعافُها نَفْسُهُ، ورُبَّما يشتهي ما فيه ضَرَرُه وحَتْفُهُ الأكيد، كذلك الروح إذا فسدت بالكفر والنفاق، لا تَنْتَفِعُ بكتاب الله المبارك، الذي فيه أحسن غذاء للروح، وأفضل شفاء لأمراض النفس، وأعظم بركة من كل الجهات، وهذا مجرَّب ومحسوس لأهل الإيمان، والحمد لله ذي الفضل العظيم.

٧٠. **وهم ضِيقاً وَتبرُّماً بسماع كلام الله وتوجيهات القيادة، وخوفاً من انكشاف عوراتهم عندما يحضرون المجالس الإيمانية، يحاولون بشتى الأساليب الإختفاء والهروب:** ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وهذه تسع وعشرون خصلة أخرى للمنافقين، في سورة التوبة.

٧). **وفي سورة (النور):**

٧١. **وهم يسعون بشتّى الأساليب، ويستخدمون كافة الوسائل، للنّيل من سُمْعَةِ القيادة، ولو بإلصاق التُّهَم بأهله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾.

وهذه الآية وخمس عشرة آية بعدها، أي الآيات (١١ إلى ٢٦)، كُلُّها نزلت بمناسبة حادثة الإِفك التي حاك خيُوطَها (عبدالله بن أبي بن سلول) رأس النفاق وقطب رحاه في المدينة، تلك الحادثة الأليمة الأثيمة التي خلاصتها: اتِّهامُ أُمِّ المؤمنين الصديقة بنت الصديق ﷺ بالزنى، مع (صفوان بن معطل السهمي) الصحابي الجليل ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات الست عشرة من فوق سبع سموات، وبرّأت السيدة عائشة وصفوان ﷺ، وجُلِدَ كل الذين ثبت عليهم بالدليل الشرعي الضّلوع في ذلك القذف الأثيم، ولكن (عبدالله) نجا من العقاب، لأنه لم يثبت عليه بالدليل الشرعي الواضح، الضلوعُ في الإفك، وإِنْ كان هو المخطِّط والمدبِّر من وراء الستار[1].

٧٢. **ومن دَيدَن المنافقين أنّه بما أنّهم اعتادوا جَوّ الرِّجس والدَّنَسِ والقذارة، فلا يطيقون العيش في جوّ العفاف والطّهر، لذا يسعون لتكدير الجوّ الطّاهر، وتعكير العين الصافية للمجتمع الإسلامي، وإِن كان بنشر الإشاعات الهابطة الكاذبة، وذلك كي يعتاد الناسُ سَماعَ الخُبْثِ والفُحْش ويستمرؤوه ثم يمارسوه:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾، وجديرٌ بالذكر أن المقصود بالفاحشة هنا ليس الزنى، بل هو الكلام القبيح والفُحْش، والحديث عن الخنا وقذف الناس... الخ.

(١) أُنظر القصة بطولها في: صحيح البخاري: ٤٧٥٧، وصحيح مسلم: ٥٨.

٧٣. وهم يُعْرِضون عن التحاكم إلى الشريعة الإسلامية والقيادة التي تُطَبِّقُها، إلّا إذا رأوا فيه تحقيق مصالحهم الذاتية، وشعروا بأن الحكم سيكون من صالحهم، فحينذاك يرضخون، ولكن ليس إيماناً والتزاماً بل طمعاً في مكسب عن هذا الطريق، إذ يرى أولئك أنّ تحقيقَ المصلحة المادية، هو الهدف أياً كانت الوسيلة: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وهذه ثلاث خصال أخرى للمنافقين في سورة النور.

٨). **وفي سورة (العنكبوت):**

٧٤. وهم يَدَّعون الإيمانَ، ولكن عند تَعرُّضهم لشيء من الأذى بسبب الإسلام، وحسب سنة الله تعالى بابتلائه لمن يُعْلِنون الإيمان، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾؟! [العنكبوت]، نعم عند تعرُّضهم لشيء من الأذى من قِبَلِ أعداء الإسلام المناوئين له، يعتبرون ذلك الأذى الدنيوي البسيط بالنسبة لعذاب الآخرة، مثل عذاب الله، ويَسْتَثْقِلُونه ويستعظمونه جداً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ..﴾.

وهذه خصلة أخرى لهم في سورة العنكبوت، السورة المكية الوحيدة التي ذكر فيها اسم المنافقين.

٩). **وفي سورة (الأحزاب):**

٧٥. وهم إذا ما شاركوا في قتالٍ ما مضطرِّين، فما أن تشتدَّ عليهم وطْأَةُ الحرب، حتى يَشْرَعوا بإخراج ما في قلوبهم من رجس ودَنَسٍ وكفر، بضيق وتبرُّم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾، ولهذا قيل: (عند الإمتحانُ يُكْرَمَ المرءُ أو يهان).

٧٦. وهم حتى في خِضَمِّ المعركة، يحاولون الهروب والإبتعاد من ساحة القتال، ولكن تحت ستار الإستئذان بذرائع واهية: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

٧٧. وهم لا يكتفون بالقعود بأنفسهم عن الجهاد، بل ويحاولون تثبيط الآخرين وتقويتهم، ويبذلون في هذا قُصارى جهودهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

٧٨. وبِقَدَر ما هم جبناءُ عند اللقاءِ، فهم أيضاً بُخَلاءُ في ميدان الإنفاق، وقلَّما ينفك الجبن عن البخل، لأن البُخلَ جبن في إنفاق المال، والجبن بُخلٌ في بذل الروح: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾.

٧٩. والمنافقون واجمون وعَيِيّون عند القتال والمخاطر، لكنهم سليطوا اللّسان ثرثارون في وقت السلم في المحافل وعلى المنابر: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ..﴾.

٨٠. وحتى عندما تنفرج الأزمة لا يقتنعون بسهولة، بأن الشدَّة قد ذهبت، وذلك لتغلغل الخوف والوَجَل في أعماق نفوسهم المريضة، فهم متشائمون دَوماً من شدة الهَلَعِ والفَزَعِ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ ..﴾.

٨١. وعندما يتوقَّعون خطراً ما، أو يرونه، يَتَمنَّون أن لو لم يكونوا ساكنيكم في بلدكم، بل كانوا بعيدين عنكم بحيث يتسمَّعون أخباركم من هنا وهناك: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ﴾.

٨٢. وهم كالدّواب الفواسق والحشرات الضارّة المؤذية، دَيدَنُهم إيذاءُ الله تعالى ورسوله ﷺ وأهل الإيمان، ذكوراً وإناثاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

وهذه ثمان خصال أخرى لتلك الفئة المريضة، في سورة الأحزاب.

١٠). وفي سورة (محمد) ﷺ:

٨٣. **وهم بسبب انشغال أذهانهم، وتعلُّق قلوبهم بالدنيا وما لهم فيها من متاع ومصالح، عند حضور مجالس العلم وتوجيهات القيادة، لا ستوعبون ما يقال، ثم بعد انفضاض المجلس، يَستفهِمون أهلَ العلم عمّا جرى وعمّا قيل:** ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾.

٨٤. **وهم عندما يتولّون - أي: يُعرِضون، أو تُسْنَد إليهم ولايَةُ وظيفةٍ أو أمرٍ ما - قَلَّما يُفَكِّرون في الإحسان إلى الأقارِب والإصلاح في المجتمع، لذا فهم مستعدّون لقطع صلة الرحم، لأتفه الأسباب ولا يُهمُّهم الفَسادُ الحاصل في الأرض من جرّاء تصرّفاتهم، إذا ما أَشْبَعوا غَرائِزَهم، وحَقَّقوا أغراضَهم، فهم أنانيُّون لا يفكرون في غير أنفسهم:** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾!.

٨٥. **وأهل النفاق بسبب تغلغل الكفر في قلوبهم، ومن جرّاء تصرُّفاتهم ومواقفهم الشرّيرة، تعطَّلت لديهم القوى الإدراكية من قلب وسمع وبصر:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾؟!.

٨٦. **وهم على الرغم من سعيهم للتخفي والتمويه، يعرفهم الحصيفُ اللَّبيبُ من لَحْنِ قولهم، ومن خلال تعبيراتهم المزدوجة المتكلِّفة:** ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ..﴾.

وهذه أربعة مواقف، وأربع خصال أخرى لهم، في سورة (محمد) ﷺ.

١١). وفي سورة (الفتح):

٨٧. وهم يُسيؤون الظنَّ بالله العظيم سبحانه وتعالى، والجَرَّةُ تَنضَحُ بما فيها، وهذا الظن السيء يحتمل أنواعاً كثيرة من الظنون، وهم أهلٌ لها كلِّها: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ﴾، وقد سبق أن ذكرنا في سورة (آل عمران) في الخصلة رقم (١٥) ظَنَّ المنافقين بربِّهم، ولكن كان ذلك ظن الجاهلية وهذا ظن السوء، ومعلوم أن ظن الجاهلية نوع من أنواع ظن السوء، وإنْ كان في نفسه يشتملُ على مفردات كثيرة.

وهذه خصلة أخرى لتلك الفئة الضالَّة، في سورة الفتح.

١٢). وفي سورة (الحديد):

٨٨ و٨٩. ومن خصالهم الخبيثة أيضاً الإرتياب، والإغترار بالأماني المعسولة الكاذبة: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا الحوار بين المؤمنين والمنافقين، وإنْ كان في الآخرة، ولكن تَتَبدَّى فيه بعض خصال المنافقين، التي اتَّصفوا بها في الدنيا، وهل المصير الأخروي إلا انعكاسُ ما كان في الدنيا؟!

وهاتان خصلتان أخريان لهم في سورة الحديد، مع حذف ما سبق ذكرها في السور السابقة.

١٣). وفي سورة (المجادلة):

٩٠. وخَصْلَةٌ أخرى من خصالهم الذميمة، هي أنَّهم يتناجون فيما بينهم بما لا يرضي الله ورسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ..﴾.

٩١. وهم عندما يُحَيُّون القيادة، لا يراعون الأدب الإسلامي اللائق بالقيادة، وانما يتَّبِعون عادات الجاهلية في التحيّة، كما في سائر تصرُّفاتهم: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ..﴾.

٩٢. وهم إذْ يتولّون أهلَ الكفر عموماً، واليهود والنصارى خصوصاً، يتولّون اليهودَ بوجهِ أخصّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ..﴾.

٩٣. وهم جعلوا من أَيْمانهم الكاذبة تِرساً على رؤوسهم وسِتْراً على عوراتهم، فما أن تنكشف تحت ضغط الأحداث والأزمات خَبِيئَةٌ من خباياهم الشِّرِّيرة، إلّا ويلجؤون إلى الحَلِف بالله تبرئة لموقفهم وتزكية لأنفسهم، وإقناعاً للقيادة خصوصاً ولأهل الإيمان عموماً: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾.

٩٤. وهم قوم تسلَّط عليهم الشيطانُ، وسيطر عليهم سيطرةً تامةً، بحيث أنساهم ذِكر الله تعالى، فصاروا حزب الشيطان بحق: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وهذه خمسة مواقف وخمس خصال أخرى للمنافقين، في سورة المجادلة، باستثناء التي سبق ذكرها في السور السابقة ولم نكرِّرها.

١٤). وفي سورة (الحشر):

٩٥. ومن مواقف المنافقين، أنهم يَعِدون أهلَ الكفر المناوئين للإسلام والمسلمين، وعوداً كثيرة، ولكن إذا جدَّ الجِدّ نكصوا على أعقابهم ونكثوا مواثيقهم ووعودَهم: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ملاحظة: ولكن يجب التنبّه إلى أَنَّ إخلافَ الوعد ونَقْضَ الميثاق هذا، من المنافقين مع أوليائهم من أهل الكفر، إِنَّما يكون عندما يرون الإسلام قوياً ويحسون بالخطر من قبل المسلمين، فثمة يُخْلِفون وعودَهم، وذلك لأنّهم طلاّبِ مصالح سهلة المنال، وليسوا أصحاب مباديء ولا رجال، حتى يتحمّلوا الأَضرار ويُقَدِّموا التضحيات، وفاءً بالعهد وتنفيذاً للوعد، وهكذا كان واقع حال المسلمين في عصر الرسول ﷺ، وخاصة عند نزول هذه الآيات، إذْ كانت للإسلام هيبة في نفوس الأعداءِ، وللمسلمين شوكة وأي شوكة.

ولكن عندما يرى المنافقون، أَنَّ المجتمع الإسلامي صَيدٌ سهل المنال، فهناك يتغيّر الموقف وَيَتبدّل الحال! وانما وضَّحْتُ هذه المسألة، كي لا يحتار أحدٌ في تفسير هذه الآيات وتطبيقها على الواقع، وهو يرى تنافُسَ المنافقين العملاء في خدمة أهل الكتاب عامة، واليهود منهم بوجه خاص، وتَعاونهم في تنفيذ مخططاتهم ضدَّ الإسلام والمسلمين، فيرى - بِظَنِّه - أن هناك تناقضاً بين ما تقوله الآيات المباركة وبين الواقع!

وهناك قاعدة مُهِمةٌ تَجِبُ مراعاتُها وجعلها في الحُسبان، كلّما أَرَدْنا أن نَفْهَم مقاصِدَ هذا النوع من الآيات فهماً صحيحاً، وهي:

إنه ينبغي الإِطلاع الكافي والفهم العميق على الأَجواءِ والملابسات التي نزلت فيها الآيات المباركات، وذلك كي نتَمكَّنَ من المقارنة بين ذلك الجوّ والواقع الذي نزلت فيه الآيات، والواقع الذي نُرِيْدُ إنزال الآيات فيه وتطبيقها عليه، وقديماً قال علماؤنا رحمهم الله تعالى وجزاهم الله تعالى عنّا خير الجزاء: انه لا بدّ للمفتي أو القاضي من علمين (أي نوعين من العلم): علم بحكم الله تعالى، وعلم بالحادثة والواقعة التي يُراد تطبيق حكم الشرع عليها، وإصدار الفتوى أو الحكم القضائي حولها، وقد فصّل القول في هذه المسألة (ابن قيم الجوزية) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيّم: (إعْلامُ الموقِّعين عن ربِّ العالمين).

٩٦. والمنافقون وإن كانوا يتبجّحون على أهل الإسلام، ويفتخرون عليهم

وقت السِّلْم، فإنَّهم في حالة المواجهة يَرْهبونهم ويهابونهم أكثر من رهبتهم من الله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

٩٧. وهم لا يجرؤون على مواجهة المؤمنين في ميدان مكشوف، وانما يَتسترّون بالحصون والبيوت: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

٩٨. وهم فيما بينهم، بعضهم أقوياء وأشدّاء على بعض، عندما يتواجهون في قتال أو نزاع، أي: فهم ليسوا جبناء في الواقع، ولكنَّهم ضعفاء وخائرون في مواجهة أهل الإيمان: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ..﴾.

٩٩. والمنافقون وإنْ كنت تتصورهم ـ قبل أن تَعرِفَهم وتَخبُرَهم عن قربٍ ـ أنهم جماعة متراصّة ويد واحدة، ولكنهم في الواقع ليسوا كذلك، وذلك من جرّاء عدم امتلاك الإيمان الذي يجمعهم، ويُوجههم وجهة واحدة، بل قلوبهم متنافرة ونياتهم متباينة ووجهاتهم مختلفة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

وهذه خمس خصال أخرى للمنافقين الخبثاء، في سورة الحشر.

١٥). وفي سورة (المنافقون):

١٠٠. والمنافقون بما أنهم لا يمتلكون الإيمان بالفعل، ويريدون إظهارَ أنفسهم كمسلمين، لذا فهم يضطرّون لتحقيق ذلك المأرب، إلى اللجوء للإدعاءات الفارغة والأيمان الكاذبة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

١٠١. والمحصّلة النهائية لكل مخطّطاتهم وجهودهم التي يَبذُلونها، هي الصَّدُّ عن سبيل الله ومنع الناس من السَّير على منهاج ربهم، والإتّباع لنبيّهم، والإنضواءِ تحت راية قيادتهم الإسلامية وتجريد الولاءِ لها: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

١٠٢ و١٠٣. وهم ذَوو مظهرٍ خلّاب، وباطن خرابٍ، وكلام معسول، وقلبٍ مخذول، فيُعجِبونَ الرّائيَ والسامع إلى أن يَخبُرَهُم، لذا ينطبق عليهم المثل القائل: (أُخبُرْ تَقْلَهُ): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ..﴾.

١٠٤. وهم بما أنهم غير نظيفي الذيل، فهم دائموا الحذر والتخوّف والترقّب، فينطبق عليهم المثل السائر: (الخائن خائفٌ): ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

١٠٥. وهم إذا ما دعاهم ناصح أمين إلى التوبة والتطهّر من الرِّجس، الذي عانون منه، والتصالح مع القيادة التي طالما خانوها، يُعْرِضون كبراً وعِناداً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

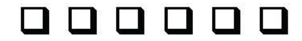
١٠٦. ومن مخطّطات المنافقين الشيطانية، محارَبَةُ المسلمين في قُوْتِهم، والسَّعي لِضَرْبِ الحصار الإقتصادي عليهم، كي يتفرّقوا عن قيادتهم تحت ضَغْط الفقر والحاجة: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾.

١٠٧. وأخيراً يودّ المنافقون ويريدون إنْ تيسّر لهم، إخراجَ المؤمنين من البلد، كي يخلو لهم الجوّ الآثِم الذي عكره عليهم صفاءُ الحق وطهرُه وعَبِيرهُ، إذ هم من جرّاء فساد أَمْزِجَتهم المعنوية، صاروا كالجعلان التي تدفع بأنفها النّتن ويَدُوخُ رأسُها، إذا ما شمّت ريحاً طَيِّباً! كذلك المنافقون اعتادوا جوّ الخُبْث والدّنس، ويَصْعُبُ عليهم التكيّف مع جوّ الحق النَّقي الصافي العَطِر: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

وهذه ثمان خصال أخرى للمنافقين، في سورة (المنافقون)، ومجموع خصال أهل النفاق ومواقفهم التي يتعاملون بها مع أهل الإيمان

- كما نرى - صارت مائة وسبع خصال، وكل منها داءٌ عُضال، أعاذَنا الله بِمَنّه وكَرَمِهِ من التلوُّث والتلبُّس بشيء منها.

وننتقل الآن إلى الفقرة الثالثة والأخيرة في موضوع المنافقين:





(٣) ستّ ملاحظات ختامية عن ظاهرة النفاق والمنافقين

الأولى: حكمة تفصيل كتاب الله الحكيم في ذكر خصال المنافقين وتسليط الضوء عليهم، كما نرى هي - والله هو العليم الحكيم - أن المنافقين يُظْهِرون الإسلام ويَسْتَبْطِنونَ الكفر ويُخْفوُنَه، لذا: فلا سبيل إلى معرفتهم والإِطّلاع على شخصيتهم الملتوية المزدوجة، إلّا من خلال أوصافهم ومواقفهم التي تَظْهَر عليهم قليلاً أو كثيراً، من خلال التعامل واحتكاكهم بأهل الإيمان.

الثانية: قلّما تظهر ظاهِرَةُ النفاق إلا في مجتمع يملك فيه الإسلام والمسلمون السلطة والهيبة، أو على الأقل شيئاً من السلطة والقوة، يُحْسَبُ لها حسابٌ، وإلّا فما المُلْجِيءُ للإِختفاء والتستُّر لأهل النفاق! ولهذا لم تظهر ظاهرة النفاق في المرحلة المكية من حياة رسول الله ﷺ، بل ظهرت في المرحلة المدنيَّة التي أصبحت للمسلمين فيها شوكة وهيبة ودولة.

الثالثة: لا يشترط في خصال النفاق، أن تكون كل واحدة منها كُفْراً مُخْرِجاً من الملّة، ومِنْ ثَمَّ صاحبها المُتَّصِفُ بها كافراً في كل الأحوال! بل فيها ما هو كفر وفيها ما هو دونه، ولكن خصال النفاق كُلّها - أي حتى التي ليست بكفر - كبائر.

الرابعة: إذا ما أُريدَ للمجتمع الإسلامي أن يكون بِمَنْأى من تأثير المنافقين، ويتمتّع تجاههم بالحصانة الكافية، يجب:

أولاً: تثقيف أفراده بالعلم الشرعي[1] - أي العلم بالكتاب والسنة - ومن ضمنه معرفة المنافقين، والإطّلاع الكافي على خصالهم ومواقفهم.

ثانياً: تحصين أفراده بالتقوى بالمعنى الشامل لكلمة التقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ..﴾ [المائدة]، ومن الواضح أنَّ الإهتداء لا يحصل إلا بعد فهم دين الله تعالى فهماً صحيحاً، ثم الإلتزام التام الجادّ بشريعة الله على كافة الأصعدة، وهذا هو التقوى بعينه الذي ضمن الله للمتصفين به، السلامة من كيد الكفار ومخططاتهم الإبليسية، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ..﴾ [آل عمران].

الخامسة: بما أن النفاق هو أخبث أنواع الكفر، والمنافقين هم أسوأ أصناف الكفار وأضرُّهم على الإسلام والمسلمين، وأنّ للنفاق ثماراً خبيثةً جَمّةً، لذا ينبغي للمسلمين الحَذَرُ والتوقّي الشديد، من التلطّخ بشيء من خصال أهل النفاق، والتلبّس بشيء من مواقفهم، وكان أصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم، وهم أرسخ المؤمنين إيماناً، وأفضلهم طاعة، وأكثرهم تقوىً، وأغزرهم علماً، وأعمقهم فقهاً، وأشدُّهم اجتهاداً، وأزكاهم نفساً، وأحسنهم خُلُقاً، وأكملُهم عبادةً، وأرجحهم عقلاً، يتخوفون على أنفسهم من التلبّس بشيء من أحوال أهل النفاق وخصالهم.

السادسة: بما أن النفاق له جذورٌ عميقة وفروع كثيرة، إذ هو كفر مضاعَفٌ، لذا اشترط الله الحكيم جلّ شأنه لتوبة المنافقين، أربعة شروط، وذلك لأن الدواء يجب أن يكون متناسباً مع الداءِ، فقال تعالى في كيفية توبة المنافقين والشروط التي يجب توفرها فيها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

---

(١) يُقصد بـ(العلم الشرعي) العلم الصادر من الوحي المُتجسد في القرآن والسنّة، وإلا فالعلوم النافعة كلها شرعية، أيّاً كان مصدرها.

فاشترط سبحانه وتعالى في التوبة التي تكون دواءً ناجعاً لداءِ النفاق العُضال:

أولاً: الرجوع إلى الله تعالى، أي ترك العصيان وفعل الطاعة باطناً وظاهراً، إذ التوبة ليست كلمة تقال باللسان، بل هي حالة تحصل في القلب، وتُسمّى (الإنابة) ثم تنعكس على أَعضاءِ الإنسان الظاهرة، متمثلة بترك المعاصي وعمل الطاعات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

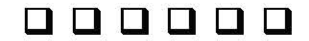
ثانياً: تدارك ما أُحْدِث من فساد بالإصلاح، فينبغي أن يَفْعلَ التائب من الإصلاح بِقَدَر ما أحدث من فساد على الأقل، كي يَرأَبَ الصَّدْعَ: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾.

ثالثاً: الإِعتصام بالله، والمقصود به التوكُل عليه سبحانه وتعالى، والإِستسلام التام له، وتفويض الأمور إليه، وكذلك الإستمساك بكتابه، والإلتزام بمنهاجه وشريعته: ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

رابعاً: إخلاص الطاعة والخضوع لله تعالى وتطْهيره من الشوائب كلّها، إذْ لا يليق بالله تعالى إلا كلّ خالصٍ جيّد: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

ويقول تعالى في ختام هذه الشروط: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: فالَّذين - من أهل النفاق - حَقّقوا في أنفسهم هذه الشروط الأربعة، فهم وجدوا - بفضل الله - لدائهم الدفين، ومرضهم العُضال، دواءً ناجعاً، وسيشفيهم الله تعالى بسبب استعمال ذلك الدواء المركّب من تلك الأَخلاط الأربعة: (التوبة، والإصلاح، والإِعتصام بالله، وإخلاص الدين له) من دائهم الخبيث ويُصبِحون في عداد أهل الإيمان، بعد أن كانوا معدودين من أهل الكفر، بل وأخبثهم على الإِطلاق!

وهنا ننهي الكلام عن الصنف الرابع من أهل الكفر - حسب ترتيبنا لهم في كتابنا هذا - وننتقل إلى الصنف الخامس والأخير، وهم المرتدّون:



المطلب الخامس:
المرتدّون

المرتدّون هم الصِّنف الخامس والأخير، من أصناف أهل الكفر، حسب ترتيبنا لهم في هذا الكتاب.

ولمعرفة المرتدِّين، وكيفية الإرتداد، وأسباب ارتداد المسلم عن دينه، وعاقبة المرتد وعقوبته، لِنتدبَّر هذه الآيات المباركات من كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد:

١. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٣. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

٤. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران].

٥. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

٦. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف .

٧. ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة .

٨. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة].

٩. ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل .

١٠. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ

فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ [الحج].

١١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ [محمد].

وسنتحدَّث عن المرتدين في ضوء هذه الآيات البيِّنات في الفقرات الأربع الآتية:

(١). مَنْ هو المُرْتد؟!

(٢). بِمَ يَرْتَدُّ المؤمنُ عن دينه؟!

(٣). أسباب الإرتداد عن الدين.

(٤). عاقبة المرتد وعقوبته.



(١) مَنْ هو المُرتدُّ؟!

نقول باختصار:

(إن المرتدّ هو المؤمن الذي آمن إيماناً صحيحاً، ودخل في الإسلام، ثم ارتدّ عنه ودخل في الكفر، بأحد الأسباب التي عَدَّها الله تعالى ورسوله مُكفِّرةً ومُؤدِّية إلى الكفر).

وطبقاً لهذا التعريف: لا يُعَدُّ الإنسانُ مُرتدّاً ما لم يَسْبِق كفْرَهُ إيمانٌ وإسلام، أي: مَنْ لم يكن في يوم من الأيام مؤمناً وداخلاً في دائرة الإسلام، فهو وإنْ أتى بما هو كفر، لا يصيرُ مرتدّاً، بل هو إمّا كافرٌ أصليٌّ، أو منافق، أو فَتْريٌّ - أي من أهل الفترة الذين لم يبلغهم البلاغ المبين -.

ودليل ما قلناه في تعريف المرتد، هو أن الله تعالى لم يتحدَّث عن المرتدّ في كتابه إلا في السياقات التي تتحدَّث عن أهل الإيمان والدين والهداية، إذن: فالمرتد هو من يرجع من الإيمان إلى الكفر، ومن دين الله الحق إلى الدين الباطل، ومن الهدى إلى الضلال، وعندما نعيد النظر في هذه الجمل القرآنية المباركة تتجلّى حقيقة ما قلناه كالشمس في الظهيرة:

- ﴿... وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ..﴾ [البقرة: ٢١٧].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ..﴾ [المائدة: ٥٤].
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ..﴾ [محمد: ٢٥].

إذن:

دلالة كتاب الله واضحة على المطلوب: المرتدُّ هو: مَنْ كان عنده إيمان حقّ، ودين صحيح، وكان على هدىً، ولكن بأي سبب من الأسباب، كَفَر بعد إِيمانه، وترك دِينَهُ، وضَلَّ بعد هدىً كان عليه.

وأقول:

إنه لا معنى للمرتدِّ ما لم يكن مؤمناً ومتديناً ومهتدياً قبل ارتداده، إذ المرتد اسم فاعلٍ من الإِرتداد، يقال: (ارتدَّ يرتدُّ ارتداداً فهو مرتدٌّ)، والإِرتداد هو الرجوع إلى الوراء والعودة إلى سابق الحال من كفرٍ وضلال[1].

لذا فلا ينطبق اسم المرتد إلا على المؤمن الذي كان مهتدياً وعلى دين الله تعالى، ولكن رجع عنه وتركه، وانما وضَّحت هذه المسألة، لأن كثيرين من الشباب الذين هم كثيروا الحماسة، ولكنّهم قصيروا الباع في العلم الشرعي، يُطْلِقون اسم المرتد على كثير من الناس، بدون أنْ يَنْطبق عليهم تعريف المرتد!

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



(١) المصباح المنير، للفيومي، ص١١٨، ومختار الصحاح، ص٢٣٩.

(٢) ِمَ يَرتَدّ المؤمن عَنْ دينه؟!

طالما أن الإِرتداد يعني انقلاب المرءِ ورجوعه عن الإيمان ودخوله الكفر، ومعلوم أن الكفر هو عكس الإيمان وضدّه في كل الوجوه، كما بيّنا ذلك تفصيلاً في الكتاب الثاني، إِذن:

يُصْبِحُ المؤمن مُرتدّاً بالإتيان بِضد ما صار به مؤمناً، وقدْ بيّنا في الموضع المشار إليه آنفاً، أن مكوِّنات الإيمان عموماً أربعة أشياء، وهي:

١. المعرفة العقلية

أي: المعلومات الصحيحةُ المخزونة في العقل عن الإيمان والإسلام.

٢. الأعمال القلبية

كالتصديق والحبِّ والإذعان والقبول والرضى. . .الخ.

٣. إقرار اللّسان

أي: تلفظ اللسان بما يتوقف عليه َدُّ اعتبار الإنسان مؤمناً ومسلماً.

٤. أفعال الجوارح

أي: تنفيذ الطاعة الواجبة التي يتوقف عليها الإيمان.

وقد وضَّحنا في محلِّه[1] أن أصلَ الإيمان ومُعْظَمَه وجَذْرَه، هو ما استقرَّ في القلب، من تصديق وحُبٍّ وإذعانٍ وقبول واستسلام ورضىً واطمئنان وخشية وتعظيم، وما إقرار اللِّسانِ وأعمال الجوارح، إلا ثمار وآثار وتجلّيات للحقيقة المستقرّةِ في القَلْب، ولكن لا يمكن أن تنفك تلك الآثار والثمار عن أصل الإيمان وجذره المستقر في القلب، بل تلازمه دَوْماً، إذ

(١) في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة.

الإيمان كالشجرة المثمرة التي لا بدّ وأن تؤتي ثمارَها، ما دامت حيّة ولَمْ تَيْبَس! نعم قد تقل الثمار والآثار وتكثر، تبعاً لحيوية الإيمان وضعْفه وقوته، ولكن لا يمكن أن يكون الإيمان موجوداً في القلب، ثم لا يستتبع آثاره وثماره الظاهرة على اللسان وبقية الجوارح.

ولكن المعرفة العقلية، شأنها يختلف، إذ هي وان كانت ضرورية لتكوين الإيمان، لأنَّ الإيمان لا يُبْنى على الجهل، ولكن لا تُعَدُّ الفاصل والفارق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، لأنها قد تكون موجودة في عقل إنسانٍ، مع كون قلبه خاوياً من الإيمان غير ذائق طعمه، وذلك مثل آل فرعون الذين كانوا مستيقنين بصدق موسى وأخيه هارون عليهما السلام، والآيات البيّنات التي أجراها الله تعالى لهما، ولكن على الرغم من يقينهم العقلي، ظلوّا كفاراً جاحدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

لذا فلا تتدخل المعرفة العقلية، في قضية الإِرتداد والكفر بعد الإيمان، بل هي تظل باقية مع كفر المرءِ، إذ هي وان كانت شرطاً لحصول الإيمان، ولكنها لا تمنع من حدوث الكفر بعد الإيمان، وطروئه على قلب الإنسان، لأنها قلّما تدخل تحت سيطرة القلب والإرادة.

ولكن كلاً من:

أعمال القلب، وتعبيرات اللسان، وأفعال الجوارح، تتدخل في حدوث الإِرتداد والكفر، كما ارتبطت بها مكوِّنات الإيمان.

ونقول موضِّحين:

أولاً: كما أن كلاً من (التصديق والحبُّ والتسليم) من أعمال القلب الإيمانية التي لا يوجد الإيمان بدون أي منها، كما قال تعالى:

١. ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر].

٢. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٣. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

كذلك عكوسها وأضدادها وهي: (التكذيب والكراهة والرفض) من أعمال القلب الكفرية، التي متى حصل أحدها في القلب، يُعَدُّ ذلك القلب قلباً كافراً، كما قال تعالى:

١. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر].

٢. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد].

٣. ﴿. . . يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ. .﴾ [التوبة: ٨].

كما نرى جعل الله سبحانه وتعالى كلاً من (تكذيب دين الله، وكراهية ما أنزله من كتابه ووحيه، وإباءِ ورفض القلب) سبباً لكفر الكافرين والمشركين.

ثانياً: وكما أن إعلان الإيمان باللِّسان، والإقرار بالإسلام، عَدَّهُ كتابُ الله تعالى مكوِّناً من مكوِّنات الإيمان، وشرطاً لاعتبار الإنسان مسلماً، كما قال تعالى:

١. ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

إذ نرى أن الله تعالى في الآية (١٣٦) من (البقرة) يأمر نبيَّه والمؤمنين بالإعلان عن إيمانهم وإسلامهم، وعليه: فالإعلان عن الإيمان والإسلام واجب من واجبات الإيمان الأساسية، وفي الآيات (٨٣ و٨٤ و٨٥) من (المائدة)، يُثْني الله تعالى على طائفة من النصارى جاؤوا إلى الرسول، ولما سمعوا كتاب الله تعالى من نبي الله الخاتم ﷺ، تَأَثَّروا وَبَدأَتْ عيونهم تفيض بالدموع، ثم طلبوا من الله تعالى أن يكتبهم في عداد الشاهدين الذين يشهدون بصدق (محمد) ﷺ، وحقانية كتاب الله العظيم، وأعلنوا عن إيمانهم وإسلامهم، وعقّب الله تعالى على قولهم وموقفهم الإيماني، بقوله: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ ..﴾، وهذا أيضاً دليل على أن التَلفُّظ والإِقرارَ بالإيمان والإعلان عنه، مطلوبٌ ومُوجِبٌ لثواب الله تعالى المتمثل في جناته ورضوانه.

كذلك في المقابل جعل الله تعالى التلفظ بكلمة الكفر أو التعبيرات التي منشأها الكفر، كالإستهزاء والسخرية بالله تعالى وآياته ورسوله، سبباً من أسباب الكفر والإِرتداد عن الإيمان، كما قال تعالى:

١. ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ...﴾ [التوبة].

٢. ﴿ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ...﴾ [التوبة].

ويتبيّن لنا من هذه الآيات بوضوح، أن التعبيرات الكفرية، سواء منها

التلفظ بالكفر الصريح: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾، أو السخرية والإستهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله، وأيِّ شيء يتصل بالله تبارك وتعالى، وبدينه القيم، وبرسوله الكريم: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾!، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ...﴾ نعم، تدل هذه الآيات على أن التعبيرات الكفرية - وهي كل ما عَدَّهُ الشرع كفراً - سبب لإخراج الإنسان من الإيمان والإسلام، أي: أن التلفظ بالكلمات والتعبيرات الكفرية، ناقض لكل من الإيمان القلبي الحقيقي، المستلزم للإسلام الظاهري دَوْماً، وللإسلام الظاهري الذي يُعَدُّ صاحبه مسلماً في أحكام الدنيا، وإنْ كان كافراً عند الله وفي أحكام الآخرة، وذلك لأن الله تعالى عقّب على اعتذار المنافقين الذين كانوا يستهزؤون بالإسلام في مجالسهم الخاصة، ثم لما ينكشف سِرُّهم يعتذرون للرسول ﷺ، بأنه لم يكن لهم دافع لصنيعهم ذلك، سوى اللعب والمزاح وتَمْضِيَةِ الوقت، بقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وكذلك عقّب على موقف المنافقين الذين كانوا يتلفظون بكلمات الكفر، ثم يُقْسِمون بالله أنهم لم يقولوا ما حُكِيَ عنهم من التلفظ بالكفر، بقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

وبناءً على ما مَرَّ ذكرهُ:

فقد ثبت بنص كلام الله تعالى، أن التعبيرات الكفرية تنقض كلاً من الإيمان والإسلام.

ثالثاً: كذلك سمّى الله تعالى بعضَ الأعمال الصالحة والطاعة إيماناً، كما قال تعالى:

١. ﴿.. وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢. ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ⑤﴾ [المائدة].

حيث سمّى الله تعالى (الصلاة) إيماناً في الآية (١٤٣) من (البقرة) وطَمْأَن المؤمنين الذين قلقوا على صلواتهم التي صلّوها قِبَلَ الأقصى - قَبلَ تحويل القبلة إلى الكعبة - أن تكون غير مقبولة، فطمأنهم الله تعالى في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ اذ قال المفسرون: على أَنَّ المقصود بـ(إيمانكم) هنا، هو صلاتكم[1]، وقد وضّحنا هذه المسألة في الفصل الأول من الباب الثاني (أي الكتاب الثاني من هذه الموسوعة) عند الحديث عن مكوِّنات الإيمان وثماره وآثاره.

وكذلك سمّى الله تعالى الإِلتزام بالشريعة - أي الطاعة - في مجال الحلال والحرام من الطعام والنساء، إيماناً، فقال بعد أن ذكر بعض أحكام الشريعة الحكيمة: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فَعَدَّ سبحانه وتعالى الطاعة المتمثلة في الإِلتزام بأحكام الشريعة، إيماناً، والمعصية المتمثلة في الحيدة والإِنحراف عنها، كفراً!

كذلك سمّى الله تعالى في المُقابل بعض الأعمال السيئة، والتولّيَ والإِعراض عن الشريعة، كفرا، كما قال تعالى:

١. ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور].

---

(١) عن البراء ﷺ: (أن رسول الله ﷺ، صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وإنه صلّى أو صلّاها، صلاة العصر وصلّى معه قوم فخرج رجل فيمن كان صلّى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صلّيت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل قِبل البيت رجال قُتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة]).

صحيح البخاري: ٤٤٨٦.

وقال (عبدالرحمن ناصر السعدي) في التعقيب على هذه الآية: (...في هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. ص٧١.

٢. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة].

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة].

كما نرى عدّ الله تعالى تولّي وإعراضَ بعض الناس مِمَّن يدَّعون الإيمان بالله وبالرسول والإطاعة لهما، قولاً، ولكن يخالفون عملياً، ادّعاءهم المذكور كفراً، في الآية (٤٧) من (النور)، نعم عدّ الله تعالى تولِّيَهم وعصيانَهم ومخالَفَتهم للشريعة، كفراً، حيث قال صريحاً: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وواضح أن من لم يكن من المؤمنين، فهو من الكافرين بلا شك.

وكذلك في الآيات (٣١ إلى ٣٥) من (القيامة) يعرِّف الله تعالى الإنسان الكافر - كما يدل على ذلك السياق بوضوح - بكونه: خالياً عن التصديق والصلاة، ومتصفاً بالتكذيب والإعراض، فَقَرن الله تعالى بين التصديق القلبي والصلاة العملي من طرف، وبين التكذيب القلبي والتّولّي العملي من طرف آخر، وذلك لأن من استقر الإيمان والتصديق في قلبه، أثمر فيه الطاعة لا محالة - والصلاة أفضل الطاعات -، كما أن من تعشعش الكفر والتكذيب في قلبه، فَرَّخَ فيه التولِّي والعصيان لا محالة!

وفي الآية (٥١) من (المائدة) عَدَّ الله تعالى تولِّي اليهود والنصارى، سبباً لارتداد المؤمن عن إيمانه، وصيرورته في حكم اليهود والنصارى!

مِمّا سبق ذكره ثبت بوضوح، أن المؤمن إنَّما يُعَدُّ منحرفاً عن دينه، ويُعتبر مرتداً بعد أن كان مؤمناً، وكافراً بعد أن كان مسلماً، - كما قلنا في البداية - بأحد هذه الأمور الثلاثة:

١. **الأعمال القلبية المنافية والمضادّة للأعمال القلبية المكوّنة للإيمان في القلب.**

٢. **التعبيرات اللسانية المعاكسة والمخالفة للإقرار بالإيمان والإسلام.**

٣. **التولّي والإعراض الكلّي عن الإلتزام بالشريعة، أو ترك عملٍ عَدَّه**

الشارعُ جلّ شأنه ضرورياً لتكوين الإيمان كالصلاة، وتولّي أهل الإيمان، والتحاكم إلى الشريعة.

وبيّن أنه لا يشترط لاعتبار امرئٍ ما مرتدّاً عن دينه، اتّصافُهُ بكل الأعمال القلبية المنافية للإيمان، أو تَلَفظهُ بكل أنواع التعبيرات الكفرية، أو تركُهُ كل الأعمال الصالحة التي عَدَّ الشارع الحكيم جلّ شأنه كلاً منها مُكَوِّناً للإيمان وشرطاً لحصوله!

بل يكفي كل واحد من الأعمال القلبية التي عُدَّتْ آحادُها كفراً، وكذلك أحد الألفاظ أو صيغ التعبير التي عَدَّ الشارع كلّ واحد منها على حدة كفراً، كما ويكفي الإعراض والتولّي عن القيام بأحد الأعمال التي عَدّ الشارعُ كلاً منها ضرورياً وشرطاً لاعتبار الإنسان مؤمناً.

ولكن هناك قضية مهمة يجب التنبّه لها، وهي:

مع أن الأعمال القلبية الإيمانية والكفرية، هي أساس الإيمان والكفر، إذْ ليست تعبيراتُ اللّسان وأفعال الجوارح إيجاباً وسلباً، إلا تجلّياتٌ وانعكاساتٌ وثمارٌ وآثارٌ لها، ولكن الحكم بإسلام المرءِ أو بكفره، لا ينبني عليها، بل ينبني على ما يصدر من اللسان، أو يظهر على الجوارحِ فقط، وذلك لأن القلب وأسراره، وما يستقر فيه من إيمان أو كفر، غيبٌ وسِرٌّ لا يطّلع عليه إلّا الله الخالق الباري العليم بذات الصدور، والدليل على هذا: أن الله تبارك وتعالى عَدَّ كلاً من الأعراب المدّعين المانّين بإسلامهم، والمنافقين الكاذبين المخادعين، مسلمين، على الرغم من خُلُوِّ قلوبهم من الإيمان! كما قال تعالى:

١. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾ ... يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات].

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ

﴿وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة].

كما نرى: فقد سمّى سبحانه كلا من (الأعراب) المدّعين والمانّين على الرسول ﷺ بإسلامهم، و(المنافقين) الذين أمر الله نبيّه بأن يجاهدهم - أي جهاد البيان وليس السِّنان - ويغلظ عليهم، سمّى كليهما مسلمين، وبيّن بأن عندهم نوعاً من الإسلام: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُم﴾ و﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾، مع أنهم يُعَدّون كفاراً في ميزان الله لخلوّ قلوبهم من الإيمان!

وقد عامل رسولُ الله ﷺ كلا من المنافقين والأعراب، مُعاملة أهل الإسلام، وأجرى عليهم كسائر أهل الإسلام أحكام الإسلام الظاهرة، واستنبط العلماءُ من هذه النصوص وأمثالها، ومن معاملة الرسول ﷺ تلك للمنافقين والأعراب الذين شهد الله عليهم بِخُلُوّ قلوبهم من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون]، نعم استنبط العلماءُ من كل هذا، القاعدة الشرعية التالية: (**نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر**) وذلك كأساس شرعي للتعامل مع كل من يعلن الإسلامَ، ويُظْهِرُ نَفْسَه كمسلم، سواء كان صادقاً، وإعلانه الإسلامَ والإيمانَ نابعاً من إيمانٍ مستقرٍّ في القلب، أو كان كاذباً، وكان إعلانه عن الإيمان والإسلام، ادعاءً وتفاخراً أجوف، كادعاءِ الأعراب وتفاخرهم! أو كان نفاقاً وخداعاً للمسلمين، كتظاهر المنافقين بالإسلام!

وجليٌّ أن كلمة الإسلام في هذه الحالة - أي: في حالة كونها عنوانا للأعراب والمنافقين - استعملت بمعناها الظاهري، الذي هو الخضوع الظاهري والطاعة الشكلية المنفصلة عن الإيمان القلبي، وليس بمعناها الحقيقي الذي هو مرادف للإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات] اذ عُدَّتْ كلمتا (المؤمنين) و(المسلمين) مترادفتين، وقد ذكرنا سابقاً في الكتاب الثاني، عند

بحثنا حول مفهوم كل من الإيمان والإسلام، أن كلمة (الإسلام) في كتاب الله، استعملت بثلاثة معانٍ: أحدها ـ وهو الأكثر استعمالاً – هو الطاعة والإستسلام الكامل لله تعالى باطناً وظاهراً وقلباً وقالباً، وثانيها – وهو الأقل استعمالاً – هو الخضوع الظاهري والإلتزام الشكلي بدين الله، وثالثها هو اسم وعنوان لدين الله الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهنا أَودُّ أن أُوضِّحَ مسألتين كي تكون صورة كيفية ارتداد المؤمن عن دينه، أوضحَ وأجلى:

الأولى: الإيمان مرتبط بكل من القوى الأربع في الإنسان: الإدراك والإرادة والتعبير والتنفيذ:

نعم إنَّ في الإنسان أربع قوىً:

١. القوة الإدراكية والمعرفية، ومركزها العقل، والحواس والخيال جنودها.

٢. القوة الإرادية، ومركزها القلب.

٣. القوة التعبيرية، وأداتها اللِّسان.

٤. القوة التنفيذية، ووسيلتها الجسد وأعضاؤه.

وللإيمان ارتباط بكل منها:

١ ـ أما القوة الإدراكية المتمثلة في العقل وجنوده، فيستخدمها الإنسانُ لكسب العلم بما يجب الإيمان به، وهو الإسلام المتمثل في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

٢ ـ وأما القوة الإرادية المتمثلة في القلب، فيستعملها الإنسانُ لاختيار الإيمان وترسيخ جذوره في القلب.

٣ ـ ويستخدم الإنسان لسانَه، للتعبير عمّا آمن به واستقرَّ في قلبه، والإِقرار به.

٤ ـ كما ويستخدِمُ جسمه وأعضاءَهُ، لفعل ما يقتضِيهِ الإيمان وتنفيذه، من الطاعة والعمل الصالح.

إذن: فالإيمان الحقيقي يشمل كلَّ وجود الإنسان وكيانه، قلباً وقالباً وباطناً وظاهراً، وقد فصَّلنا القول في هذا الموضوع في الكتاب الثاني مع بعض اختلاف وتنُّوع في التعبير، وكل ذلك حرصاً على زيادة توضيح المقصود، وقد استشهدنا هناك بالآيات المباركات لذا لا نكرِّر ذكرها هنا.

الثانية: إنما قلنا بأن أصل الإيمان ومعظمه هو ما يستقر في القلب، لأن المستقر في القلب هو الفيصل بين المؤمن والكافر فقط:

أما أن مُعْظَمَ الإيمان ولُبَّه وأصلَه هو الذي يستقر في القلب، فقد بيّنّاه مفصلاً في الموضع المشار إليه آنفاً، واستشهدنا بآيات مباركات ولا داعي للتكرار هنا، وأمّا أن الفيصل بين المؤمن والكافر، هو الإيمان المستقر في القلب، فيحتاج إلى توضيحٍ، ونقول مختصرين للحديث:

أولا: إنَّ (المعرفة العقلية) وإِن كانت للإيمان بمثابة الأساس للجدار، إذْ ما لم يعرف المرءُ دين الله الحق (الإسلام)، وما يحتوي عليه، كيف يمكنه الإيمان – بما يجب الإيمان به – والطاعة بمعناها الشامل؟! ولكن مع هذا، فليست المعرفة الذهنية والقناعة العقلية، هي الفيصل بين المؤمن والكافر، وذلك لأنَّها لا تستلْزِم سائر مكوِّنات الإيمان بالضرورة وفي كل الأحوال، بل – وكما قلنا سابقاً واستدللنا عليه – قد يكون عند الإنسان معرفة بل يقين بدين الله وبيِّناته، ولكن مع ذلك يظل كافراً جاحداً حاقداً على الحق ورافضاً له ولأَتْباعِهِ، كما كان هذا هو موقف كل من فرعون ومَلَئِهِ المستكبرين، وأبي جهل وبقية الملأ المستكبرين المترفين من قريش، تجاه كل من النبيين الكريمين موسى كليم الله ﷺ، ومحمد خليل الله عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات.

هذا بالنسبة للمعرفة العقلية.

ثانياً: وأما بالنسبة لكل من إقرار اللّسان وعمل الجوارح، فقد وضّحنا قبل: أنَّ كلاً من الأعراب والمنافقين، ما كان يَنْقُصُهم الإعلان عن الإسلام وادّعاءُ الإيمان، ولا القيام بفرائض الإسلام الظاهرة، أو على الأقل التظاهر بالقيام بها، حيث كانوا يصلّون الصلوات مع المسلمين، بدليل قوله تعالى: ﴿. . .وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ. . ﴾ [النساء]، وكانوا يتظاهرون بالصيام، بل ويشاركون في بعض الغزوات - التي يرونها غير مُكْلِفةٍ! - ولكن كلّ هذا لم يَمْسَح عنهم عنوان النفاق والإسلام الشكلي! وذلك بسبب افتقادهم إلى تلك الحقيقة الإيمانية التي تستقر في القلب، ثم تثمر كلّ الثمار والآثار الباطنة والظاهرة التي وضّحناها في مظانّها.

ولكنّي أُنبِّه هنا على حقيقة أخاف أنْ يُساءَ فهمها، وهي:

عندما نقول: إنَّ الفيصل والفارق بين المؤمن والكافر، هو الإيمان القلبي، لا أقصد به أنه يُكْتَفى في المؤمن، بإيمانه القلبي، إذ هو الأصل والأساس في إيمانه! كلّا لا أقصد هذا، وذلك لسببين اثنين:

أولهما: إنَّ الحقيقة الإيمانية المستقرة في القلب، لا يمكن أن يكون لها وجود في القلب، ثم لا تُثمِرُ ثِمارَها وآثارَها المتمثلة في الأعمال القلبية المتعدّدة، والطاعات اللسانية، والبدنية المختلفة، بل إنّما يستدل على وجود تلك الحقيقة في القلب، بوجود الطاعة والإلتزام، وبما أننا قد وضّحنا هذه المسألة في مظانّها فلا نُطيل الكلام عنها هنا.

وثانيهما: إنَّ الله تعالى سمّى كلا من الحقيقة المستقرة في القلب، وإقرارِ اللّسان وإعلانِهِ عن الإيمان، وقولِ الحق، والطاعةِ والإلتزام العملي، إيمانا، كما أنه بخلافه: سمّى كُلا من حقيقة الكفر المستقرة في القلب، والتعبيرات والأفعال الكفرية، كفراً، وبَديهيٌّ أن ما سمّاه الله تعالى إيماناً، أيّاً كان نوعه، فهو إيمان، وما سمّاه كفراً، أيّاً كان صنفه، فهو كفرٌ.

وانما قصدنا بقول: (**إن الفيصل والفارق بين المؤمن والكافر هو الإيمان القلبي فقط**):

أن المؤمن هو وحده الذي ينفرد بامتلاك الإيمان القلبي، ولا يشاركه

فيه الكافر، وذلك بخلاف كل من المعرفة العقلية والمعلومات الذهنية، والأقوال والتعبيرات اللسانية، أو الكتابة البيانية، والطاعات والأعمال الظاهرية، إذ قد يكون عند الكافر كل أو بعض من هذه الثلاثة، مع كونه كافراً، وذلك كالجاحدين المستكبرين الذين يعرفون الحق، ولكن لا يُقِرّوْن به، وبالأحرى لا يلتزمونه، وكالمنافقين والأعراب الذين يلتزمون ببعض مظاهر الإسلام وأعماله.

ثم إنَّ الحقيقة الإيمانية القلبية، تَسْتَلْزِمُ دَوْماً سائِرَ مكوِّنات الإيمان، ولا يتخلَّف أي منها عنها أبداً، أما المعرفة العقلية، فهي أساسها التي تُبْنى عليه، لذا لا يمكن وجود الحقيقة الإيمانية، من دون أن تسبقها المعرفة، وأما كل من إقرار اللسان وتعبيراتها المختلفة الواجبة الأخرى، والطاعة وعمل الجوارح، فهي كما قلنا آثارها وثمارها وتجلِّياتها التي لا يسلَّم بـوجـودها - أي بوجود الحقيقة الإيمانية - إلا بها.

ولكن أياً من مكوِّنات الإيمان الأخرى، لا يستلزِمُ لا بوحده، بَلْ ولا حتى مجتمعة كلِّها، الحقيقة الإيمانية المستقَّرةَ في القلب، كما هو واقع المنافقين والمتظاهرين بالإسلام، الذين قد يأتون بكثير من مظاهر الإسلام، من دون أن يملكوا شيئاً من حقيقة الإيمان المستقرة في القلب، وكذلك الحال بالنسبة للجاحدين الذين يعرفون الحق، ولكن لا يقرّون به، بل وقد يقرّون به لسانا، ولكن لا يحبّونه ولا يرتضونه ولا يقبلونه قلباً، ولا يلتزمونه عملا.

وأخلُصُ من كل ما مرَّ ذكره مُلَخَّصا، فأقول:

جواب سؤال: بِمَ يرتدّ المؤمن عن دينه؟!

أنه يرتد المؤمن عن دينه، إذا ما صدر منه وظهر منه شيء من الأعمال القلبية، أو التعبيرات اللسانية - والكتابية -، أو الأعمال الظاهرية، مِمّا اعتبره الشارع سبحانه وتعالى كُفراً، فيرتدّ المؤمن إذاً عن دينه بـ:

١) **كُل عمل قلبي مخالف للإيمان، ومما اعتبره الشارع جلّ شأنه كفراً، مثل: تكذيب الله تعالى وتكذيب رسوله ﷺ في شيء ممّا جاءَ به،**

أو بُغضُهُ وعدم الرِّضا به، أو التكبُّرُ عليه ورفضه، أو اعتقاد فكرة تخالف ما بيّنه الله تعالى في دينه القيم، سواء في كتابه أو سنة رسوله ﷺ... وغير ذلك من الأعمال القلبية المخالفة والمضادّة للإيمان، والتي لا يمكن أن تستقر في قلبٍ، إلّا بعد خُلوِّه من الإيمان.

٢) كُلّ تعبير لساني أو كتابي مناقض للإيمان، ومما عَدّهُ دينُ الله الحكيم كفراً، وذلك مثل: التلفظ بالكفر الصريح، والإِستهزاءِ بشي من الدين، وسَبِّ الله تعالى أو الرسول أو القرآن أو السنة أو الدين الإسلامي... وغير ذلك من التعبيرات التي تضادّ الإيمانَ، ولا ينطق بها لسانٌ إلّا وقَلْبُ صاحبه لم يبق فيه شيء من الإيمان، وانما نقول هذا إيضاحاً فحسب، وإلّا فالحكم بالإِرتداد والكفر على من تجري على لسانه أو قَلَمه ألفاظ الكفر وتعبيراته، يَترتّبُ على نفس الألفاظ والكلمات المسموعة أو المقروءة، ولا اعتبار بادِّعاء صاحبه الإيمان القلبي، طالما أنَّ الكلمات والألفاظ الكفرية واضحة لا تحتمل التأويل.

٣) كُلّ تصرّفٍ وموقف ظاهري، سلْباً بترك عمل اشترطه الشارع في تكوين الإيمان، وإيجاباً بفعل عملٍ، وإبداءِ موقفٍ، عَدّهُ الشارع كفراً، وذلك مثل: ترك الصلاة المفروضة، وترك الموالاة مع أهل الإيمان، وترك التحاكم إلى شريعة الله، بالنّسبة للمحكومين، وترك الحكم بما أنزل الله، بالنسبة للحكام، هذا من الجانب السلبي، ومن الجانب الآخر (أي: فعل ما هو كفر من الأعمال) كَتَولي الكفار، والتحاكم إلى الطاغوت، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، ومعاداة المؤمنين، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي اشترط الشارع وجودها في الإيمان، والأعمال المحرّمة التي جعل الشارع تجنّبها لازماً لتحصيل الإيمان.

ولكن وكما قلنا من قبل، عَدُّ الأعمال القلبية الكفرية المنافية للإيمان

كفراً مُخرِجاً من الدِّين، وناقضاً للشهادتين، انما هو بالنظر إلى ميزان الحقيقة الشرعية، وإلى أحكام الآخرة، وإلّا فبالنظر إلى ميزان ظاهر الشرع وأحكام الدنيا، فلا حساب إلّا على الأقوال والأفعال المسموعة والمنظورة، وذلك لأن الله وحده هو المطّلع على القلوب وأعمالها وأسرارها، وما استقر فيها من كفر أو إيمان.

وبناءً على هذا، نقول:

إن كلَّ ما ينقض الإسلامَ، من النواقض القولية والفعلية التي عدَّها الشرعُ مكفراتٍ للإنسان المؤمن والمسلم، ينقض الإيمان أيضاً، ولكن قد ينتقض الإيمان ويبقى الإسلام - وهذا إذا أخذنا من الإسلام معنى الإلتزام الظاهري، وليس معناه الحقيقي المرادف للإيمان - إذْ قد يطرأ على قلب المؤمن كفرٌ فينتقض إيمانه، ولكنه بسبب بقائِهِ على التزامه الظاهري وإقراره اللساني، يَبْقى مُسلماً في حكم الشرع، مثله في هذا مثل المنافقين وغيرهم من المتظاهرين بالإسلام، من غير امتلاك الإيمان.

وبهذا نختم هذه الفقرة الثانية وننتقل إلى الفقرة الثالثة التي نُلْقي فيها أضواءً أخرى على مفهوم المرتد، وكيفية الإرتداد:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(٣) أسبابُ الإرتداد عن الدّين

لا شك أن أسباب ارتداد المؤمنين الذين يرتدّون عن دينهم، كثيرة كمّاً ونوعاً، ومن الواضح أَن لاختلاف ظروف وأحوال المجتمعات المسلمة، تأثيراً في تنوّع تلك الأسباب وتعدّدها، لذا فمن الصَّعب إحصاءُ تلكم الأسباب كلها، ولكن هذه أهمها وأبرزها حسب رأيي، وفي ضوء استقرائي المشوب بالقصور والتقصير لآيات كتاب الله المرتبطة بهذا الموضوع، وبما أننا قد فصّلنا - إلى حدٍّ ما - القول في كيفية ارتداد المؤمن عن دينه في الفقرة السابقة، نكتفي هنا بالسَّرْد المختصر لتلك الأسباب، التي نُجْمِلُها في البنود الاثني عشر الآتية:

١. استحباب الحياة الدنيا وإيثارها على الآخرة:

نعم هذا هو أول وأهم أسباب ارتداد بعض المؤمنين عن دينهم وأكثرها شيوعاً، قال الله تبارك وتعالى في كون حبّ الدنيا ومتاعها - أكثر مما أجازه الشرع - سبباً للإرتداد من الإيمان إلى الكفر: ﴿...مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ [النحل].

وكذلك تدل على أن التعلُّق بالحياة الدنيا واحتضانها والهيام بها، سبب عظيم بل هو أعظم الأسباب للردّه عن الدين عند بعض ضعاف الإيمان، الآيات (٧٥ إلى ٧٨) من (التوبة) وهي: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ

ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾؟!.

وقد ذُكِر لسبب نزول هذه الآيات الأربع قصة، مفادُها أن رجلاً من الأصحاب وكان فقيراً عاهد الله تعالى لإن أغناه ليفعلن بأمواله ما يرضي الله تعالى، ولكن لما استغنى وأرسل إليه رسولُ الله ﷺ جُباةَ الزكاة، تباطأ بإعطاء الزكاة واستكثرها.. وقد شّك المحققون في سند هذه القِصّة![1].

ولكن على أي حال مفهوم الآيات واضح جداً، على أن شخصاً أو جماعة عاهدوا الله تعالى، على أن يكونوا متصدقين بأموالهم وصالحين إن أعطاهم الله إياها، ولكن لما أعطاهم الله، أخلفوا الوعد مع الله تعالى، فدخل النفاق في قلوبهم من جرّاءِ ذلك!

٢. إِتباع الهوى:

والدليل في كتاب الله، على أن اتّباع الهوى سبب آخر للإرتداد عن الدين، هو قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا

---

(١) أُنظر: (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي، رقم: ٥٦٦، وقال: أخرجه الطبراني وابن مرُدويه وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي أُمامة، وذكر أن اسم ذلك الرجل: (ثعلبة بن حاطب).

ولكن المحققين من أهل الحديث، ضعّفوا سند هذه القصة، بل قال بعضهم بوضعها. أنظر حاشية (لباب النقول...) ص ١٣٠، عبدالرزاق المهدي.

وانظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٢ ص٢٩٧-٣٠٠، إذ اعتبر الرواية المطوّلة لهذه القصة باطلة، والرواية المختصرة لها ضعيفة، على الرغم من إيراد كل من (الطبري - جامع البيان، ج١٠ ص١٣٠)، و(ابن أبي حاتم - التفسير، ج٦ ص١٨٤٩)، و(السيوطي - الدر المنثور، ج٤ ص٢٤٧)، و(لباب النقول، ص١٢١)، و(البيهقي- دلائل النبوّة، ج٥ ص٢٨٩) لها.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ . . .﴾ [الأعراف].

وقد تحدثنا في مناسبة أخرى عن هذه الآيات، لذا أكتفي هنا بالقول:

إذا رتّبنا المراحل التي مرّ بها ذلك العالم السيء، الذي ضرب الله تعالى به المثل، إلى أن وصل إلى دركِ الغواية، تكون المراحل بالصورة التالية:

إتّباعُ الهوى ← الإخلادُ إلى الأرض ← الإنسلاخ من الآيات (العلم) ← إمساك الشيطان به ← الوصول إلى درك الغواية.

نعم إنَّ الذي يُسْلِمُ قِيادَهُ وزِمامَه للهوى، فإنّها تؤدّي به لا مُحالة إلى اللصوق بالأرض وشهواتها، وهذا يجعله يهمل العلم والإيمان والهداية، ومن جرّد نفسه من دِرْعِ الإيمان، وانخلع من سلاح العلم، وترك جُنَّةَ الهُدى، يمسك به إبليسَ وجنوده المتربّصون به ويأسرونه، ومن أمسك به إبليس واتخذه أسيراً، لا يقوده إلا إلى قعر بئر الغواية، ويسجنه هناك إلى النهاية!

والهوى: مشتهيات النفس التي لا يَرْضاها الشرع[1]، ولهذا ربط الله تعالى دخولَ الجنة، بالخوف من مقامه، وبنهي النفس عن الهوى، فقال:

---

(١) قال الراغب: (الهوى: مَيْلَ النفس إلى الشّهوة، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل: سُمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية).

مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٤٩.

وقال الفيومي في تعريف (الهوى): (مَيْلَ النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في كل مذموم). المصباح المنير، ص٣٣١.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات].

٣. عدم محبّة الله حباً صادقاً:

والدليل عليه هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ...﴾ [المائدة: ٥٤]، حيث وصف الله تعالى القوم الذين يأتي بهم ويختارهم لاتّباع دينه، بعد ارتداد بعض أهل الإيمان عنه، بأوصاف أوّلها وثانيها: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

ويفهم من هذا أن المرتدّين عن الدين، يفقدون أول ما يفقدونه: حُبَّ الله تعالى لهم، وحُبَّهم لله تعالى.

ويستحيل أن يترك دينَ الله إلى غيره، مسلمٌ يحبُّ الله تبارك وتعالى حباً يليق به سبحانه.

٤. عدم الخضوع لشريعة الله والإلتزام بأحكامه:

وهذا سبب آخر لارتداد بعض المؤمنين عن دينهم، إذْ يتركون الطاعة والإلتزام بالشرع شيئاً فشيئاً غالباً، أو مرة واحدة في بعض الأحيان، وواضح أن التزام الشريعة والأعمال الصالحة للإيمان، بمثابة الزيت والنفط للمصباح، أو السّلك الكهربائي للمصباح الكهربائي، بل هي بمثابة الماءِ للسّمك، إذن: فكيف يضيء مصباح من غير وقود، أم كيف يعيش سمك من دون ماءٍ؟!

والدليل في كتاب الله الحكيم على أن ترك الإلتزام بالشريعة، يؤدّي إلى الإرتداد والكفر، هو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [النور].

٥. عدم موالاة أهل الإيمان:

ومن أسباب الإرتداد عن الإسلام، هو عدم تولّي أهل الإيمان، وذلك لأن المؤمن قليل وضعيف بنفسه، كثيرٌ وقويٌ بأخيه، وقد قال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: «**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (١١٤)، وَالتِّرمِذِيُّ

برقم: (٢١٦٥) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيح غَريب، وَابْنُ حِبَّان برقم: (٧٢٥٤)، عنْ عُمر ﷺ، وصحَّ ـهُ الألباني).

وَقَال: «**يَدُ الله مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَالشَّيطَان مَعَ مَنْ خَالف يَركض**» (رَوَاهُ البيهقي برقم: (٧٥١٢).

وَقَال: «**إنَّ المُؤمِنَ لِلْمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**» وَشَبَّكَ أَ ـابِعَهُ (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢٤٤٦)، وَمُسْلِم برقم: (٢٥٨٥)).

ويـدل قـولـه تـعـالـى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أنَّ فقد المؤمن الموالاة مع أهل الإيمان والتآخي والتواصل معهم، سبب من أسباب ردَّته وكفره، وذلك لأنَّ الله تعالى بعد أن خاطب أهل الإيمان وحذَّرهم من الإرتداد عن الدين، عرَّف الجماعة الذين يأتي بهم، بدلاً من المرتدين وعوضاً عنهم بأنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعلومٌ أن صفات البديل ينبغي أن تكون على العكس من صفات المُبدَلِ، إذن: فإذا كان من صفات الجماعة البديل أنهم أذلّة على المؤمنين، فالجماعة المُبْدلون يفتقدون هذه الصفة، وقد بينّا في السابق أن المقصود بالذِّلَّة على المؤمنين، هو اللِّينُ والرحمة والعفو والسَّماحة، والمقصود بالذلة هنا، هو اللِّين والموالاة والأخوة الإيمانية.

وهذا شيء مجرَّب ومشاهد، فما ابتعد مسلم عن أهل الإيمان وانقطعت صلته بهم، إلّا وظفر به الشيطانُ وصيَّره من حزبه المخذول.

٦. إطاعة أهل الكفر:

وإطاعة أهل الكفر أيضاً سبب من أسباب الردَّة عن الدِّين، وهذا ما بيَّنه الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه، وحذّر منه المؤمنين، قال الله تعالى:

١. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران].

٢. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠﴾ [آل عمران].

٣. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦﴾ [محمد].

إذ نرى أن الله تعالى حذّر المؤمنين من إطاعة أهل الكفر عموماً، وأهل الكتاب منهم خصوصاً، لئلا يَرُدُّوهم عن دينهم ويكفّروهم، في الآيتين (١٠٠) و(١٤٩) من (آل عمران)، ثم بَيَّن سبحانه وتعالى في الآيتين: (٢٥ و٢٦) من (محمد) أن سبب ارتداد بعض المرتدين هو وعدهم الكفارَ المبغضين لدين الله والكارهين لما أنزل الله، أن يطيعوهم في بعض الأمر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ..﴾!

فَعَدَّ سبحانه مجرّد الوعد مع الكفار بإطاعتهم في بعض الأمر، وليس في كل الأمور، سبباً للإرتداد، إذن: كيف يكون حال من يطيع الكفار فعلاً وفي كل الأمور!!

٧. الموالاة مع الكفّار:

وتولّي أهل الكفر وعقد الموالاة معهم، سبب آخر من أسباب ارتداد بعض المؤمنين عن الدين، كما تدلّ عليه بوضوح الآيات (٥١ إلى ٥٤) من (المائدة)، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ..﴾ ثم يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ..﴾ فيذكر سبحانه قضية الإرتداد عن الدين، بعد ذكر قضية الموالاة مع الكفار، كي ننتبه إلى أنَّ بين القضيتين ارتباطاً وثيقاً، فمن اتجه نحو موالاة الكفار، أدّت به تلك السّبيل المعوجة إلى الكفر والإرتداد عن الدين، ولهذا وصف الله سبحانه الجماعةَ البديلَ الذين يختارهم لاتّباع دينه القيِّم، بكونهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وذلك بخلاف المرتدين عن دينهم الذين يستكبرون

على أهل الإيمان، بدل أن يوادّوهم ويوالوهم، ويخضعون للكفار ويتذلّلون لهم، بدل إبداءِ العزّة والترفّع عليهم، ثم يذكر سبحانه في الآية (٥٥)، الجهة الوحيدة التي ينبغي أن يوليها أهلُ الإيمان وجوهَهُم بالولاية، وهي جهة الله تعالى ورسوله والمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٨. ضغوطات أهل الكفر:

وسبب آخر لارتداد بعض أهل الإيمان عن دينهم، هو ممارسة الكفار الضغوط والشدّة عليهم، إلى حدِّ القتال والحرب العدوانية المستمرّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟..﴾ [البقرة: ٢١٧]، ومن الواضح أن محاولات أهل الكفر مع أهل الإيمان لإرجاعهم إلى مستنقع الكفر، لا تقتصر على استعمال القوة، بل يَلْجؤون إلى كافة الوسائل التي يجمعها الثالوث المشؤوم: (الإرهاب والتخويف، والإطماعُ والترغيب، الإعلام والتزوير).

وإذا كانت الجملة المقتبسة السابقة من الآية (٢١٧) من (البقرة) تدل على استعمال أهل الكفر (الإرهاب والتخويف) لردِّ المؤمنين عن دينهم، فقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ..﴾ [البقرة: ١٢٠] يدل على الوسيلة الثانية (الإطماع والترغيب)، كما أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران] يدل على ثالثة الأثافي: (الإعلام والتزوير).

٩. التفرّق والإختلاف:

وسبب آخر من أسباب ارتداد بعض ضعاف الإيمان عن دينهم، هو تفرُّق صفِّ المسلمين وتشرذمهم واختلافهم فيما لا يجوز الإختلافُ فيه، لأنه ليس من المجال الذي يَسَعُ التنوُّعَ والتعدُّدَ في الإجتهادات والآراءِ، وذلك كالقضايا الأساسية في العقيدة، والعبادة - بمعناها الشعائري -، وأصول السياسة، والمسائل الواضحة المحسومة في مجال

المعاملات والحلال والحرام، وذلك لأن القضايا الأساسية في مجال العقيدة ومجال العبادة، والقواعد العامة الواضحة في مجال السياسة والمعاملات والحلال والحرام، تُمَثِّل الإطارَ العام للأمة الإسلامية، ولا يجوز تجاوزها وتخطِّيها، ومتى تخطّاها بعض المسلمين من جرّاء ابتعادهم عن الكتاب والسنة، حدث التفرق والإِختلاف المذموم في الأمة، وهذا بدوره يُفسِحُ المجال أمام الشيطان لإلقاء الوساوس والشك والإِرتياب في قلوب المسلمين تجاه دينهم، لأن الأوضاع والأحوال السيئة المُزرِية لأي مجتمع، تُخدِثُ لدى أفراده الأفكارَ والتصوراتِ الإِنهزامية المُزدية! والدليل من كتاب الله الحكيم على ما قلنا هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

كما نرى: ينهى الله تعالى المسلمين عن التفرّق والإِختلاف، من بعد مجيء البيِّنات، ويحذِّرهم أن المتفرِّقين والمختلفين في الدين، لهم عذاب عظيم يوم القيامة، ثم يبيِّن سبحانه وتعالى أن يوم القيامة ستبيضّ وجوه بعض الناس وتسوَدّ وجوه بعضهم الآخر، ثم يوضح أن المسودَّة وجوههم هم الذين كفروا بعد الإيمان، ويقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب كفركم، وأما المبيضّة وجوههم - وهم المستمرون على الإيمان - فهم يخلّدون في رحمة الله تعالى.

وجليٌّ جداً في السياق، أن المقصود بالكفر في قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ..﴾ هو: أتفرّقتم واختلفتم بعد إخوتكم ووحدتكم التي حَباكُم الله بها بسبب إيمانكم؟ فسمَّى الله تعالى التفرق والإِختلاف (كفراً) وجعلها - أي التفرق والإِختلاف - سبب اسوداد الوجوه، والخلود في العذاب يوم القيامة، كما أَنَّ البقاء على الأخوة والألفة والوحدة، سبب ابيضاض الوجوه، والخلود في نعم الله ورحمته.

١٠. ترك الجهاد في سبيل الله تعالى:

وهذا أيضاً سبب آخر من أسباب الردّة عن الدِّين، لبعض ضعاف الإيمان من المسلمين، وذلك لأن المسلمين إذا تركوا الجهاد في سبيل الله وتكاسلوا عنه وتثاقلوا، تسلطت عليهم الأعداء وغَزَوْهُم في عُقْرِ ديارهم وأذلّوهم، وتتمخض من ذلك بلا شك - لمن هو ضعيف في إيمانه - فتنة وتنازلٌ وتردّد ومروق من الدين.

والدليل من كتاب الله على هذا، هو:

أولاً: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران]، والدليل على أن المقصود بهذه الآية ما ذكرنا، هو أن الله تعالى أنزل هذه الآية في وسط آيات سابقة ولاحقة، كلها تتحدّث عن الجهاد والقتال في سبيل الله، ويحذر الله تعالى أهل الإيمان في الآية المذكورة، أنهم إذا أطاعوا الكافرين في ترك الجهاد والنكوص عن القيام به، فسيؤدّي بهم هذا، إلى الإرتداد عن دينهم على أعقابهم قهقرياً، ومِنْ ثمَّ خسرانهم!

ثانياً: أن الله تعالى وصف الجماعة البديل الذين يختارهم للقيام بأمر دينه، بكونهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ وبما أن صفات البديل - كما ذكرنا - بعكس المُبْدَل، لذا فإذا كانت الجماعة البديل مجاهدة في سبيل الله، فالجماعة المُسْتَبْدَلَة عنها قُومٌ تاركون للجهاد!

١١. عدم الصّبر على الإبتلاء والثبات فيه:

لقد أخبرنا ربُّنا الكريم الحكيم جلّ شأنه، أنه سيبتلي أهلَ الإيمان، ولا يترك أحداً يمرّ بمجرّد ادِّعاءِ الإيمان، بل يمتحنهم ويبتليهم إلى أن يتميّز الخبيث من الطيّب، و إلى أن تخرج مكنونات صدورهم وقلوبهم في خِضَمِّ الإختبار، كي تشهد على كل شخص أو لَهُ: أعمالُهُ ومَواقِفُه وتصرُّفاته، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا

﴿يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ..﴾ [آل عمران: ١٧٩]، والدليل على أن عدم الإستقامة على جادة الشرع والإنحراف عنها تحت ضغط الإبتلاء، وعدم الصبر والثبات في الإبتلاء، سبب لردّة بعض ضعاف الإيمان عن دينهم، وانقلابهم على أعقابهم من الإيمان إلى الكفر، هو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج].

حيث يصوِّر الربُّ الحكيمُ تبارك اسمه وتعالى جِدُّه، حالَةَ ذلك المؤمن الضعيف المصلحي الذي يعبد الله تعالى، ليس على أساس ابتغاءِ رضوانه وثوابه في الآخرة، وأن يُحقِّق له العُبودِّيَة، ويُثْبِتَ له وفاءه، ويؤدِّي شُكْرَ نِعَمِهِ، بل يعبده مبتغياً من خلال تديُّنه: تضمينَ مصالحه ومنافعه الدنيوية، أجل يُصوّرها الربُّ الحكيم في حالة مَنْ هو واقف على حافة سطح أو جبلٍ، فإذا جاءت الرِّياح حسبما اشتهاه واتفق مع مصالحه، فهو باقٍ على وضعه، ولكن ما أنْ تتغيّر وجهة الرياح صوب مكان ووضع آخر، معاكس لما يريده هو، إلا وتراه يسقط من الحافة ويهوي إلى حيث الحتف والهلاك، ولا يتحمل حتى صَدْمَةً واحدة من صَدَمات الإبتلاءِ، ولا يصمد ولو بُرْهَةً أمام المصيبة والبلاءِ!! وبالنتيجة: يخسر كلاً من دنياه التي باع من أجلها أخراه، وأخراه التي أضاعَها في سبيل نيل دنياه، فيخسرهما معاً: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

١٢. التأثُّر بالشُّبُهات الفكرية التيَ يثيرُها أعداءُ الإسلام عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً، حول الإسلام:

والوقوع تحت تأثير الشُّبَه التي يُثِيرَها الكفّارُ عامة، وأهل الكتاب خاصة عن الإسلام (القرآن والسنة والنبي ﷺ)، سبب آخر من أسباب ارتداد بعض البسطاء السذَّج من المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن

﴿تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران]، يدلان على أن المسلمين إذا ما اتبعوا الكفار وأسْلَموا لهم زِمامَهم، سواء في الشؤون السياسية، أو الإقتصادية، أو الفكرية والثقافية، يؤدي بهم ذلك التقليد والإتباع والمحاكاة، إلى الإرتداد عن الدين.

وبهذا ننهي الكلام عن هذه الفقرة الثالثة وننتقل إلى الفقرة الرابعة والأخيرة عن المرتدّين:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



(٤) عاقبة المرتدّ وعقوبته

ونوضِّحُ عاقِبَة المرتد الوخيمة الدنيوية والأخروية عند الله تعالى، في النقاط الست الآتية، أما بالنسبة لكيفية التعامل مع المرتد وعقوبته من قبل السلطة الشرعية، فَسَنَتَحَدث عنها بإذن الله وتوفيقه في المبحث الثاني من الفصل الرابع:

الأولى: حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة:

نعم إن ارتداد المسلم عن دينه، يجعل أعماله الصالحة التي عَمِلَها وقت امتلاكه الإيمان، كُلَّها باطلةً وذاهبةً أَدراجَ الرياح، وذلك لأن الإيمان أساس الأعمال الصالحة وروحها، ومعلوم أن ما لا أساس له فمهدوم، وما لا روح له فهالك!

وقد نصَّ كتابُ الله الحكيم في الأقل في ثلاثة مواضع، على أن أعمال المرتد باطلة ومحبطة، وهي:

١. ﴿...وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ..﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ..﴾ [المائدة: ٥٣].

٣. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

الثانية: ضرب الله الملائكة القابضين لأرواحهم، وجوههم وأدبارَهم عند قبض أرواحهم:

وهذا ما صرّحت به الآية (٢٧) من (محمد): ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

الثالثة: حُلولُ غضبِ الله سخطِهِ عليهم:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٠٦) من (النَّحل): ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾.

الرابعة: إسوداُ الوجه يوم القيامة:

وهذا ما بيّنته الآية (١٠٦) من (آل عمران): ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؟!.

الخامسة: الخسران المبين:

وهذا أيضاً بيَّنته أكثر من آية مباركة من الآيات التي تتحدث عن المرتدين وعاقبتهم الوخيمة، منها:

١. الآية (١٤٩) من (آل عمران): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

٢. الآية (١١) من (الحج): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

٣. الآية (٥٣) من (المائدة): ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

السادسة: الخلود في عذاب جهنَّم والبقاء فيها أبداً:

وهذا أيضاً صرَّحت به أكثر من آية، منها:

١. قوله تعالى: ﴿...وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في الآية (٢١٧) من (البقرة).

٢. وقوله تعالى: ﴿...وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآية (١٠٦) من (النَّحل).

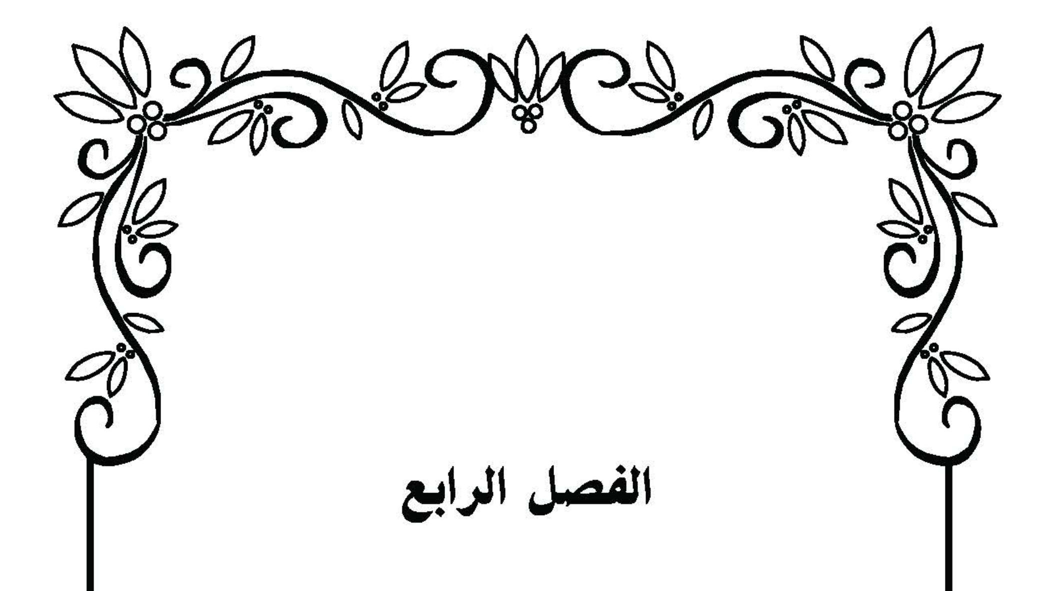
٣. وقوله تعالى: ﴿...فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ من الآية (١٠٦) من (آل عمران).

ولا شك أن عاقبةً وعقوبةً كهذه التي تمثَّلت في هذه النقاط الست، وخيمة جداً، بل ربَّما لا توجد عاقبةٌ أخروية وعقوبة ربانية أعظم وأسوأ منها، عافانا الله منها بِمنِّه وكَرَمِهِ.

وهنا نختم الكلام عن المرتدين الصنف الخامس والأخير من أصناف أهل الكفر، وبه نختم المبحث الثالث من الفصل الثالث من الكتاب الثاني عشر، وننتقل بعد إذن الله واستمداد العون والتوفيق منه سبحانه، إلى الفصل الرابع والأخير.



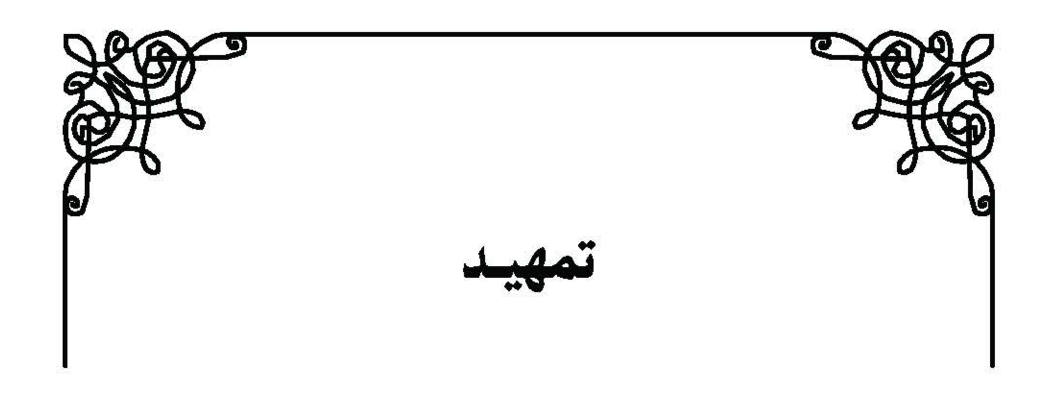




الفصل الرابع

التعامل الشرعي مع الكفّار عامة ومع كل صنفٍ منهم على حدة


لە تۆڕە کۆمەڵایەتییەکان لەگەڵتانین
Stay in touch on social media
نحن معكم عبر مواقع التواصل الاجتماعي
MediaAmeerOffice
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapirw/عەلی باپیر
AliBapir1
archive.org/details/@alibapir
AliBapir/عەلی باپیر
AliBapir
AliBapir / عەلی باپیر
www.alibapir.net
کوردی - عربي - English
ڕاگەیاندنی مەکتەبی ئەمیر



تمهيـد

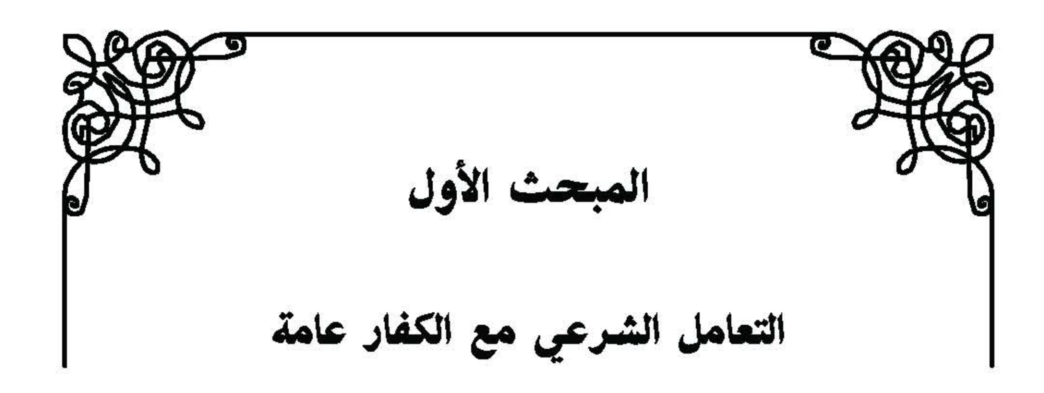
سنتحدّث بإذن الله وتوفيقه في هذا الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب (أي الكتاب الثاني عشر من هذه الموسوعة)، عن موضوع كيفية التعامل مع الكافرين عموماً، ومع كل صنفٍ منهم من أصنافهم الخمسة خصوصاً، في مَبْحثين:

المبحث الأول: التعامل الشرعي مع الكفار عامة.

المبحث الثاني: التعامل الشرعي مع كل صنفٍ من أصناف الكفار الخمسة على حدة.

والآن إلى المبحث الأول الذي خصَّصْناه للحديث عن موضوع كيفية التعامل الشرعي مع الكفار عامة، أي بِغَضِّ النظر عن الصنف الخاص الذي ينتمون إليه من أصناف الكفار الخمسة:





المبحث الأول

التعامل الشرعي مع الكفار عامة

سنوضّح - بتوفيق الله - موضوع هذا المبحث (أي التعامل الشرعي مع الكفار عامة) في ثلاثة مطالب، وذلك لأن الكفار عموماً لا يخلو موقفهم مع أهل الإسلام من حالتين:

فهم إمّا محاربون، أو مسالمون، ثم إِن كليهما لا يعدوان إمّا أن يكونا خارج المجتمع الإسلامي وخارج إطار سلطته الشرعية، أو داخله - أي خاضعين للسلطة الشرعية -.

ولهذا يجب أن نبحث ثلاثة مواضيع في ثلاثة مطالب، وهي:

المطلب الأول: القواعد العامّة للتعامل مع الكفار عامة، مسالمين كانوا أو محاربين.

المطلب الثاني: كيفية التعامل مع الكفار المسالمين.

المطلب الثالث: كيفية التعامل مع الكفار المحاربين.

***

المطلب الأول:
القواعد العامّة للتعامل مع الكفار عامة مسالمين كانوا أو محاربين

بعد استقرائي لآيات كتاب الله الحكيم، في مجال كيفية التعامل مع أهل الكفر، أرى أن أهمَّ الأصول والقواعد العامة التي يجب أن يُعامل الكفار وفقها عامةً، سواء كانوا مسالمين للإسلام والمسلمين، أو محاربين، هي هذه القواعد السَّبع الآتية:

القاعدة الأولى: إِكرامُهم واحتِرامُهم من حيث كونُهم إنساناً:

نعم إِنَّ النّاس من حيث إنسانيَّتهُم وكونُهم بني آدم، يجب على أهل الإسلام أن يحترموهم ويكرموهم، كما أكرمهم الله تعالى وفضَّلهم على كثير ممّا خلق تفضيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء]، وبما أننا قد ألقينا ضوء كتاب الله الكريم، على هذه المسألة في الفصل الأول من هذا الكتاب، نحيلُ على ما ذكرناه هناك ولا داعي للتكرار.

القاعدة الثانية: عدم جواز ممارسة أي نوع من الضغط والإكراه عليهم، لترك أديانهم ومعتقداتهم، وقبول الإسلام:

وهذه أيضاً قاعدة أخرى وأصلٌ عظيم آخر في مجال التعامل مع أهل

الكفر عموماً، وتنبثق هذه القاعدة العظيمة من حكمة خلق الله تعالى للإنسان، وهي ابتلاؤه إيّاه، بإلزامه بتقديم العبادة له سبحانه وتعالى، إذ لا بدَّ للمُبتلى المُمتحنِ - كي يتميّز نجاحه من فشله - من أن يُعطى حُريَّة ومجالاً للتصرّف كما يختار ويرغب، وليس من دون تلك الحرية، وذلك الإختيار أي معنى للإبتلاء والإختيار!

وهذا ما بيّناه بجلاء في أكثر من موضع من هذا الكتاب، وخاصة في الفصل الأول من هذا الكتاب، وذلك في الأصل الثاني: (الناس أَحرارٌ لا يُكْرهون على اعتناق دين أو فكرة) من المبحث الخامس منه، ولهذا نكتفي هنا بالتذكير ببعض الآيات المباركة بهذا الصَّدد:

١. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ..﴾ [الملك: ٢].

٢. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

٣. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾؟! [يونس].

٤. ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ..﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٥. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ..﴾ [الكهف: ٢٩].

ولكنّي هنا أَودُّ التنبيه على مسألة مهمة، وهي:

إن كثيراً من المفسرين القدامى رحمهم الله تعالى، ذكروا في تفاسيرهم أنَّ الآية الكريمة (٥) من (التوبة)، والمشهورة بـ(آية السّيف) وخاصةً الجملة الأخيرة منها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ...﴾ قد نسخت كثيراً من الآيات المكية والمدنية السابقة لها، والتي تأمر بالعفو والصّفح والصَّبر في مجال التعامل مع الكفار، معلّلين قولهم ورأيهم ذلك، بأن تلك الآيات التي تأمر بالكفِّ عن الكفار والصبر عليهم، والعفو والصفح عنهم.. إنما نزلت عندما كان بالمؤمنين ضُعْفٌ،

فلمّا تقوّوا، أنزل الله تعالى الأمر بالقتال، وخاصة آية السيف[1] التي تأمر بقتال المشركين، وبما أنه لا يمكن إعمال هذه الآيات معاً، فلا بدّ من أن نقول بمنسوخية سوابقها بلواحقها!

ولكنّي مع احترامي وتقديري لأولئك العلماء، أرى أنّهم أخطؤوا والدليل الذي استندوا إليه، ليس سوى سوء فهم لتلك الآيات التي زعموا أنها منسوخة، وهي كلّها بمنأى من أن تناله يد النسخ - هذا إذا سلّمنا أصلاً بوجود النسخ في الآيات المباركات الموجودة الآن في كتاب الله، وأرى أنه لا توجد في القرآن آيةٌ منسوخة بالمعنى الإصطلاحي للنسخ ـ[2].

والآن لنتأمل بعضاً من تلك الآيات التي حَسَبوها منسوخة بآية السيف، ولننظر هل يمكن أن تناله يَدُ النسخ أصلاً؟:

١. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية].

٢. ﴿...وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

٣. ﴿...وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

٤. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾ [الكهف: ٢٩].

٥. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾! [يونس].

---

(١) وهذا نصها: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

(٢) في كتيب لي بعنوان: (تقييم وجود النسخ وعدمه في القرآن)، باللغة الكردية أثبت فيه عدم وجود النّسخ في القرآن، وبيّنت أنّ العلماء القدامى إنما استعملوا كلمة النسخ، بمعنى تخصيص العام، وتقييد المطلق، والتدرّج، وتبيين المجملّ، وليس بالمعنى الإصطلاحي المشهور عند العلماءِ المتأخرين، وهو إزالة حكم سابق بحكم لاحق!

هذا وقد أشار إلى هذه الحقيقة عدد من العلماء منهم على سبيل المثال: (ابن قيم الجوزية) في (إعلام الموقعين) وكذلك القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن) والشاطبي في (الموافقات)، أنظر: (محاسن التأويل) لجمال الدين القاسمي؛ ج١ ص ٣٢ ـ ٣٤.

٦. ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل].

٧. ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ.. ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأقول:

أولاً: أما قوله تعالى في الآيتين (٢١ و٢٢) من (الغاشية): ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ فتقرير لحقيقة بديهية جلية، وهي أن رسول الله ﷺ لا يملك سلطة على عقول الناس وقلوبهم، لِيُقْنِعها ويُدخلَ فيها الإيمان، بل وظيفَتُهُ تجاههم في هذا المجال، تختصر في التذكير والدعوة والتفهيم، فَحَسْبُ، وقد أكَّد سبحانه هذه الحقيقة في أكثر من آية، فقال تعالى ـ على سبيل المثال ـ في الآية (٥٦) من (القصص): ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ..﴾، وكذلك قال في الآيتين (٢٢ و٢٣) من (فاطر): ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وكذلك قوله تعالى في الآية (٤٥) من (ق): ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ يؤكِّد فيها سبحانه نفس الحقيقة الواضحة السابقة، وهي أن النبي ﷺ ليس بإمكانه – على فرض كونه مباحاً – أن يُجْبِر الناسَ على قبول الإسلام والإيمان به، بل إنما وظيفته عبارة عن دعوتهم إليه، وتذكيرهم بحقائق القرآن فقط.

والآن لننظر!

هل يمكن أن تُنْسَخ تلك الحقيقة البديهية، أي: هل يمكن أن يُصْبِح رسولُ الله ﷺ أو غيره، مِمَّن ينوب عنه في الدعوة إلى الله، مسيطراً على قلوب الناس ومُهيمناً على عقولهم، بحيث يمكنه أن يُجبِرَهُم ويُكرِهَهُم على الإيمان؟!

والجواب بلا شك: لا، وذلك لسببين اثنين:

أولهما: إنَّ كونَ الناس مخلوقين للإبتلاء والإختبار، يقتضي أن يكونوا أحراراً في قبول الهداية أو رفضها، ومختارين بين الإيمان والكفر، وحقيقة كون الناس مخلوقين للإمتحان من قبل ربِّهم، حقيقة جلية بل هي أساس الدين الربّاني من ألفِهِ إلى يائِه، إذن: فإجبار الناس على الإيمان - على سبيل فرض كونه ممكناً - غير جائز شرعاً أصلاً، لمناقضته حكمة وجودهم، وحكمة خلق الله تعالى إياهم!

ثانيهما: إن إجبار الناس وإكراهَهم على قبول دين وعقيدة لا يريدونه ولا يختارونه، غير ممكن في ذاته أصلاً، وهذا لا يحتاج إلى إيضاح وبيان، بل مجرّد تَصوُّره كاف لاقتناع الإنسان به، إذ كيف يمكن جعل إنسانٍ ما يُحِبُّ بقلبه الذي هو تحت سلطان إرادته هو فقط، ديناً أو عقيدة ما؟!

إذن:

قوله تعالى مخاطباً لرسول الله ﷺ في مجال تعامله مع الكفّار: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ و﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ مع كونه حقيقة دينية وشرعية، تعلن عدم جواز إجبار الناس على الدين والهداية الربانية، فهو في ذات الوقت، حقيقة كونية وقدرية أيضاً، بأن أحداً من الناس حتى خاتم الأنبياء وأفضل العباد، لا يمكنه إكراهُ الناس على التدين والإيمان، لأنّ الله تعالى خلق الناس - من حيث الإرادة والإختيار - أحراراً، لا يقدر أحدٌ على جعلهم يعتقدون ما لا يريدون، ولا يرغبون فيه!

ثانياً: وأما الآيتان (٨٥) من (الحجر)، و(١٢٧) من (النحل) وهما: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ و﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فيأمر فيهما الله العظيم نبيَّه الكريم، في مجال التعامل مع الكفار، بالعفو والصفح الجميل، وبالصبر وعدم الحزن وعدم ضيق الصدر، والآن نتساءَل:

هل يمكن أن يتعامل رسول الله ذو الخلُق العظيم، مع الكفار، إلا

على أساس تلك الأخلاق الحسنة؟! أي: هل يمكن أن يُنسخ - في مجال التعامل - العفو والصفح، بالإنتقام وأَخْذِ الثأر، والصبرُ، بالعَجَلةِ والجَزَع، وعدم الحزن، بالإغتمامِ والحزن، وعَدَمُ ضِيقِ الصَدْر، بعكسه؟! أَللهم لا وكلاّ وحاشا لرسول الله ﷺ أن يعامل الناس كلهم كفاراً وغيرهم، إلا على أساس خُلُقه العظيم!

فَلِمَ القولُ بالنَّسخ، وفِيم النَّسْخُ إذن؟!

ثالثاً: وأما قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فليس سوى تقرير حقيقة كون الناس أحراراً، ومالكين لمشيئة جزئية حرة، يختارون ويفعلون بها ما يشاؤون ويرغبون فيه من إيمان وكفر، ولولا أن الناس - كفاراً وغيرهم - يمتلكون فعلاً مشيئة حرة، يختارون بها ما يريدون ويرغبون فيه، لما قال سبحانه قولَهُ الحكيم هذا: ﴿... فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، إذن: فأنّى يتوجّه النّسخ إلى هذه الحقيقة العظيمة، والتي أعلنها سبحانه في أكثر من آية كريمة؟!

رابعاً: وكذلك قوله تعالى في سورة (يونس): ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾؟! يبيّن فيه سبحانه وتعالى حقيقة ذات ثلاثة أبعاد، وهي:

أ.) أَنَّ مشيئة الله تعالى مُطْلقة وليست مقيَّدة بشيء، لذا فلو شاء أن يؤمِنَ الناسُ كلُّهم جميعاً رغماً عن أنوفهم - أي مجبَرين ومُكْرَهين - لآمنوا كلُّهم، ولم يتخلّفْ أحدٌ منهم عن الإيمان.

ب.) ولكنّه لم يشأ أن يؤمنوا مُجْبَرين مُكْرَهين، بل أراد أن يؤمنوا أولا يؤمنوا بمحض إرادتهم، بدليل أنه قد آمن بعضهم فعلاً، ولم يؤمن بعضُهُم الآخر، وإيمان بعضهم وكفر بعضهم، دليلٌ على عدم مشيئته إيمانَ كُلِّهم مُجْبرِيَن، وإلّا فلو شاءه، لكان الوضع على غير ما تَرى!

ج.) لِذا طالما لم يشأ الله إيمانَ الناس مكرهين ومُجْبَرين، مع أنه ربُّهم

وخالِقُهُم، بل أراد أن يُخَيِّرهم ليختاروا بأنفسهم ما يشاؤون: أفأنت - أيها النبي! - تريد (حرصاً منك على إيمانهم وشفقةً على مصيرهم) أن تُكْرِهَهَم وتُجْبِرَهَم على الإيمان؟! ولا شك أن هذا السؤال الموجَّه إلى رسول الله ﷺ من النوع الإستفهامي الإنكاري الذي يتضمن جوابه في طيّاته، والمقصود منه بيان: أن رسولَ الله ﷺ لا يجوز له شرعاً، ولا يمكنه قَدراً، أن يُكْرِهَ الناسَ على الإيمان، لأن هذا ليس في وُسْعِ أحد سوى الله تبارك وتعالى، ثم هو لم يفعل هذا لا شرعاً ولا قَدراً، أي: لا من حيثُ الدِّينُ، ولا من حيث التكوينُ، بل أراد تخيير الناس في هذا المجال، وذلك كي تتحقق حكمة الله البالغة في خلقه للناس، وهي امتحانه إياهم بالعبودية الإختيارية لربهم.

خامساً: وأما قوله تعالى في الآية (٢٥٦) من (البقرة): ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ.. ﴾ فهو بيان وإعلان من الله الحكيم للحقيقة الشرعية الموافقة للفطرة البشرية، وحقيقتهم الكونية القدرية، وهي أن الناس أحرارٌ في مجال التديُّن - وقد بينّا في السابق أن كلمة الدّين المعرَّف بالألف واللّام يقصد بها دين الله الحق (الإسلام) - وسبب نزول الآية الكريمة التي تحدثنا عنه في المبحث الخامس من الفصل الأول من هذا الكتاب[1]، يتطابق مع هذا المعنى هنا لكلمة الدين، حيث نهى الله تعالى بعض المسلمين في المدينة، عن إجبار أولادهم على ترك اليهودية والنصرانية واعتناق الإسلام.

(١) أنظر: (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي. رقم: ١٧٣، ص ٤٧، بتحقيق عبدالرزاق المهدي، وهذا نَصُهُ:

[عن ابن عباس: إنَّ المرأةَ منَ الأنصارِ تكونُ مِقلاةً لا يَكادُ يَعيشُ لها ولَدٌ، فتَجعَلُ على نفسِها إن عاش لها ولَدٌ، أن تُهَوِّدَه، فلمَّا أُجلِيَت يَهودُ بني نَضيرٍ، كان فيهم من أبناءِ الأنصارِ، فقالوا لا ندَعُ أبناءَنا فأنزلَ آيَةُ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾].

وأخرجه أبو داود: ٢٦٨٢، والنسائي: ٦٨، ٦٩، وابن حبان: ١٤٠، وقال مؤلفا (الإستيعاب في بيان الأسباب) ج١ ص١٩٥: قلنا: وهذا سند صحيح كالشمس.

وهذه الحقيقة الشرعية المتطابقة مع فطرة الإنسان، والحقيقة الكونية التي تتمثل في كونه حرّا مختاراً غير مكرهٍ على قبول شيء، لا يرغب فيه ولا يريده، لا يمكن أن يعتريها النّسخ والإزالة بحال من الأحوال!

وعليه:

فقد تبيّن لنا بِجلاءٍ أن القول بأن آية السيف - أو غيرها من الآيات، التي أمرت بالجهاد والقتال في سبيل الله - قد نسخت الآية الفلانية، والآية الفلانية. . .الخ، قول لا يستند إلى دليل، ومعلوم أن: (أقوال العلماء يُستدلُّ لَها ولا يُستدلُّ بها) لذا فما لا دليل عليه من أقوالهم وآرائهم، بل الأدلة تُخالِفُهُ، لا يعتبر في دين الله تعالى وفهمه شيئاً!

وزيادة في الإيضاح، لمسألة أنه لا يجوز استعمال أي نوع من الضّغط والإكراه على الناس - أي الكفار منهم - لترك أديانهم وعقائدهم، واعتناق الإسلام، أقول:

من الواضح أن كفر النفاق ـ كما بينّا في السابق ـ أسوأ أنواع الكفر، والمنافق أخبث أهل الكفر وأشدهم عقوبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]، ثم لا شك فيه أن شريعة الله الحكيمة، تختار دائماً أعظم المصلحتين من بين مصلحتين متضاربتين، كما وتختار دَوْماً أهون الشرّين من بين شرّينِ لا مندوحة من تحمّل أحدهما، وهاتان القاعدتان[1]، من القواعد الشرعية التي اتفق عليها العلماء قاطبة، لدلالة آيات وأحاديث كثيرة عليهما، علاوة على تأييد بداهة العقول لهما، وبناءً على ما سبق، نقول:

بما أن إجبارَ النّاس و إكراههم - أي الكفار منهم - على الإيمان والإسلام، على الرغم من رفضهم له بقلوبهم، رغماً عن أنوفهم لا يؤدي

(١) أي: قاعدة: (جلب أعظم المصلحتين، بتفويت أدناهما) وقاعدة: (تحمّل أهون الشرّين وأخف الضررين، لدرء أكبرهما).

بهم إلا إلى حالة النفاق، وبالتالي فيصبحون - نتيجة الضغط عليهم - كفاراً منافقين بعد أن كانوا كفاراً عاديين - من أهل كتاب ومشركين وملاحدة ومرتدّين -.

وهذا يعني: أنَّ ممارسة الضغط والإكراه عليهم، أدّى بهم إلى التحوّل من كفر عاديٍّ عَلَني، إلى كفر نفاقي مُبَطَّن، أي: إنَّهم تحوّلوا من أهون الشرَّين إلى أعظمهما، ومن أخف الضَّررين إلى أخطرهما!! ومن الجليّ أن هذا مناقضٌ لقاعدة: (اختيار أهون الشرين، وتحمّل أخفّ الضَّررين) والتي اتفق عليها علماء الإسلام كافة.

القاعدة الثالثة: عدم جواز سَب مقدَّساتهم ومُعتقداتهم:

وقد صرَّحت بهذه القاعدة الثالثة الآية (١٠٨) من (الأنعام): ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

والسبّ (الشتم) هو كل ما يحتوي على معنى يَشينُ الطرفَ المسبوب، ويَجْرَحُ شعورَه، ويحسُّ معه بالإهانة[1]، والمقصود بـ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هو كل الآلهة التي يعبدها الكفار من دون الله، وهذا يَشْمُلُ كلَّ أنواع المعتقدات الباطلة التي يعتقدونها، والمقدّسات التي يقدّسونها، والمناهج التي ينتهجونها.

وعليه: فلا يجوز لأهل الإسلام، أن يوجِّهوا الإهانة إلى معبودات الكافرين ومقدّساتهم، سبّاً وشتماً، أو بما هو في معنى السبّ والشتم، وقد علَّل سبحانه وتعالى تحريم سبّ معبودات الكفار، بقوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّ سبّكم لمعبوداتهم الباطلة، يفتح الباب لأمر عظيم فظيع، وهو سب الله تعالى، لِذا: فسدّاً للذريعة لا تسبّوا معبوداتهم الباطلة، وان كانت مستحقة لذلك، لما ينتج من ذلك الشرّ المذكور.

بل وعلاوة على سدِّ الذريعة وغلق الباب أمام الكفار وردِّ فعلهم

---

(١) مختار الصحاح، ص٢٥٤، لفظ: س ب ب، (السبّ، الشّتم، القطع والطعن).

المتمثل بالسب والشتم، فالمسلم لا يليق به أن يكون سابّاً وشاتماً، كما قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطَّعّان ولا اللعّان ولا الفاحِشِ ولا البذيء**» رواه الترمذي: ١٩٧٧ عن ابن مسعود، وقال: حديث حسن صحيح.

ثم يذكر سبحانه أن تديُّن الأمم وانتهاجهم المناهج المختلفة، إنَّما يجري بمشيئة الله تعالى ووفق سننه، حيث ترى كل أمة أن دينها خير الأديان وأفضلها، ثم مصير الكل ومرجعهم إلى ربِّهم، فَيُخْبِرُهم بأعمالهم، ومعنى هذا أن محاسبة الناس ومجازاتهم على أديانهم ومعتقداتهم، إنَّما هو شأن الله تعالى، وليس شأن أحد غيره، ولهذا فليُسامِ بعضكم بعضاً في هذا المجال، ولا يُهِنْ أحدٌ غيرهَ، بسبب معتقده الذي اختاره بالمشيئة التي أعطاه الله إياها، لأجل الإبتلاء والإمتحان!

القاعدة الرابعة: الإلتزام بالعدل تجاههم في كل المجالات:

وقد تحدثنا عن العدل في أكثر من موضع من هذا الكتاب، من حيث إيضاح مفهومه، ومن حيث تأكيد الشرع على الإلتزام به، ومن حيث شمولُ مفهومه لكافة مجالات الحياة الشخصية والجماعية[1]، فلا نعيد ما قلناه سابقاً في أكثر من موضع.

ومن الآيات الدالّة على أن العدل واجب مع الناس جميعا، حتى مع الكفّار، بل وحتى مع المحاربين منهم، قوله تعالى:

١. ﴿...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

٢. ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

---

(١) العَدلُ: الإنصاف، وهو إعطاءُ المَرءِ ما لَهُ، وأَخْذُ ما عليه، المعجم الوسيط، ص ٥٨٨.

٣. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..﴾ [الحديد: ٢٥].

القاعدة الخامسة: الحرص على هدايتهم ودعوتهم إلى الله ودينه القيّم، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال معهم بالتي هي أحسن:

هذه أيضاً قاعدة أخرى من قواعد التعامل مع أهل الكفر عموماً، وهذه القاعدة نابعة من صميم دين الله الحق، وصميم رسالة نبي الله الخاتم محمد ﷺ، وهذه بعض الآيات التي تدل على هذه القاعدة العظيمة:

١. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾ [النساء].

٢. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾ [النساء].

٣. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾ [الأنفال].

٤. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء].

٥. ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف].

٦. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء].

٧. ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ [النحل].

وتُتْحِفُنا هذه الآيات المباركاتُ التي ليست سوى أمثلة قليلة لآيات كثيرة مثلها، الحقائقَ الأربع الآتية، في مجال وجوب حرص أهل الإيمان

المتمثل بالمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، على هداية الناس جميعاً، ومن ضمنهم أهل الكفر، بكل أصنافهم وأضرابهم:

الأولى: إنما أنزل الله كتابَه العظيم برهاناً ونوراً مبيناً، ليُدخِلَ به النَّاسَ الإيمانَ المؤدِّي بهم إلى رحمته وفضله ورضوانه:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٧٥) من (النساء)، إذن: فعلى أهل الإسلام الحاملين لمشعل القرآن للبشرية، أن يكونوا بمستوى قرآنهم الذي همّه الوحيد هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من براثن الكفر والشرك والضلال، والإتيان بهم إلى ظِلال الإيمان والتوحيد والهداية الوارفة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم]، وقال مخاطباً أهل الكتاب (اليهودية والنصارى): ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة].

الثانية: وأرسل الله تعالى رسوله النبيّ الأمي محمداً ﷺ بالحق، ورحمةً لكل العالمين بلا استثناء:

كما صرَّحت بهذا الآية (١٧٠) من (النساء)، والآية (١٠٧) من (الأنبياء) ـ وينبغي لمن يُريد أن يحسب في عِداد أَتبْاع النبي المبعوث رحمة للعالمين، أن يكون في الحرص على هداية الناس، والتحرّق على خيرهم وصلاحهم، في مستوى نبيِّه ﷺ وسمّو غايته.

ومما لا شك فيه أن خطاب الله تعالى في الآية (١٧٠) من (النساء): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ..﴾ موجَّه إلى الكفار لأن الله تعالى يطالبهم بمنتهى اللطف والكرم، بالإيمان برسوله الذي جاءهم بالحق من ربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ..﴾ وهذا هو الذي ينبغي

لأهل الإيمان التابعين للرسول الخاتم ﷺ، أنْ يَتَحلَّوا به في تعاملهم مع أهل الكفر.

الثالثة: وكان نبيُّ الله الخاتم ورسوله الأعظم محمداً ﷺ، كاد أن يموت غمّاً وحسرةً من فَرْطِ شفقته على الكفار، وحرصه على هدايتهم:

وهذا ما بيَّنته كل من الآية (٦) من (الكهف) والآية (٣) من (الشعراء)، وكلمة ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ..﴾ أي قاتلها ومُهلكها[1]، لأن البَخْعَ عبارة عن قطع البِخاعِ، وهو الشريان المحيط بالعنق.

وكفى برسول الله حرصاً على هداية الكفار واهتماماً بهم واغتماماً من أجلهم، أن ينهاه ربّه الرحيم الحكيم في أكثر من آية، من الإفراط والمبالغة في الإغتمام من أجلهم والأسف عليهم، وأن يأمره في أكثر من آية بالإعراض عنهم وإهمالهم بعد حصول اليأس من اهتدائهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا..﴾ [النجم: ٢٩]، وقال ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الذاريات].

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة الكاملة الشاملة لأمته الإسلامية في كل شيء، ومن ضمنها الحِرْصُ على خير البشرية وصلاحها، المتمثِّلِ في الإهتداءِ إلى الإسلام: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾ [الأحزاب: ٢١].

الرابعة: دعوة الكفار إلى دين الله الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجِدال معهم بالتي هي أحسن:

وهذا ما صرَّحت به الآية (١٢٥) من (النحل)، وبما أننا قد فصَّلْنا القول في قضية الدعوة إلى الله تعالى وكيفيتها ووسائلها في المبحث الرابع من الفصل الثاني من الكتاب الحادي عشر، فلا داعي لتكرار ما قلناه هناك.

---

(١) مختار الصحاح، ص ٥٠، لفظ: ب خ ع.

ومن المواقف الجديرة بالذكر هنا هو موقف الخليفة الراشد (عمر بن عبدالعزيز) رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى والذي كان قد أسلم في عصره بسبب تقواه وعدله وزهده وسَيْره على نهج الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، عددٌ كبيرٌ من أهل الكتاب (النصارى واليهود)، ومعلوم أنه كانَ من أسلم من أهل الذمة ترفع عنه الجزية، فكتب إليه أحد ولاته على مصر من أمصار الإسلام، أن يُجيزَه بعدم رفع الجزية عن من يُسْلِمُ من أهل الكتاب، مبرّراً ذلك الإقتراح بأنه إذا ما استمر الأمر على هذا المِنْوال، فَسَيَخْلو بيت المال من المال!!

فكتب إليه الخليفة الصالح رَحِمَهُ اللَّهُ في جوابه رسالة جاء فيها: (إنَّ الله تعالى بعث محمداً بالحق ﷺ هادياً ولم يَبْعَثْهُ جابياً) وكتب إليه ما معناه: انه ليت أهل الكتاب يُسْلمون كُلُّهُم، ثم لا نِجدُ أنا ولا أنت ما نَتَعَيَّش به، إلا من كسب أيدينا!![1].

القاعدة السادسة: الردُّ على الإِعتداءِ الجماعي منهم، بمثله، والصَّبر على الإِعتداءِ الشخصي واستعمال العفو، ما دام يتحقق به الخير والصلاح، ولا يجرّ إلى ما هو أسوأ:

ودليل هذه القاعدة السادسة، هو الآية (١٩٤) من (البقرة): ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

هذا بالنسبة للشق الأول من هذه القاعدة - أي الردّ بالمثل على الإعتداء الجماعي، من قبل الكفار - وسنُلقي مزيداً من الضوء بتوفيق الله العليم جلّ في علاه، على كيفية التعامل مع مسألة اعتداء الكفار وظلمهم الجماعي، سواء كانوا خارج المجتمع الإسلامي، أَمْ كانوا تحت سلطته وفي حوزته، في المطلب الثالث من هذا المبحث، والمعنون: (كيفية التعامل مع الكفار المحاربين)، وأما بالنّسبة للشق الثاني منها، فدليلهُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) طبقات ابن سعد، ج٥، ص٢٨٣، و(آثار الحرب) للدكتور وهبة الزحيلي، ص٥٧١.

إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

ولكن ممّا يجب التنبّه له هنا، هو أن اعتداء الكفار الشخصي هذا، إنما يُحبَّذُ في مقابله العفو - طالما يُحّققُ العَفْوُ صلاحاً وخيراً، ولا يفسَّر بالضعف والخور، ويجرّ إلى الأسوأ - إذا كان الإِعتداء لم يجاوز حدود كلمة نابية، أو تصرُّفٍ مُزْعجٍ، ولكن إذا جاوز الإِعتداءُ والظلم الشخصي تلك الحدود، ووصل إلى ارتكاب ما يُوجِبُ عقوبةً شرعية، فهناك يتغيّر الحكم، وهذا ما سنتحدث عنه في المطلب الثالث بإذن الله.

وبما أننا قد وضّحنا هذه المسألة في الفصل الأول من هذا الكتاب، وذلك في المبحث الخامس (الأصول الكلية للتعامل مع الناس)، لذا نكتفي هنا بهذه الإشارة.

القاعدة السابعة: عدم جواز موالاتهم، ووجوب التبرّؤ من أديانهم الباطلة وعقائدهم الزائفة:

نعم إن حرمة موالاة الكفار ووجوب التبرّؤ من أديانهم الزائفة ومعتقداتهم الباطلة، قاعدة مهمة أخرى من قواعد التعامل معهم عموماً، وبما أننا قد بحثنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية - على ما أرى - في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وذلك في المبحث الثاني المعنون: (واجب المؤمنين في مجال التعامل بينهم أفراداً ومجتمعاً) وذلك في القاعدة الثالثة منه والمعنونة: (تجنّب تولّي الكافرين ووجوب البراءَة منهم)، لذا لا أتطرّق إلى الخوض في تفاصيله هنا، ولكن أودّ التنبيه على مسألة أرى أن التنبُّه لها ضروري، وهي:

قد يتصور البعض أن بين هذه القاعدة السابعة، وبعض القواعد السابقة التي مرَّ ذكرها، شيئاً من التصادم والتناقض: إذْ كيف يمكن إكرام من تحرم عليك موالاتُهُ؟ أم كيف يمكن أن تُشْفِق على مَنْ يجب أن تتبرّأ من دينه ومعتقده وطريقه، وأن تحرص على هدايته؟!

والجواب:

كلاّ لا يوجد أي تصادم وتناقض بين هذه الأشياء، إذا فُهِمَتْ كلُّها على الوجه الصحيح، ونُظِرَ إليها من الزوايا التي يجب أن يُنظر إليها منها، وهاك إيضاحَ المسألة:

إن كون إنسانٍ ما كريماً ومُحْتَرماً من حيث إنسانيَّته وآدميَّته، لا يَسْتلْزِم بالضرورة أن تكون سائر شؤونه محترمة، من دين باطل يتدين به، وفكرة خرافية يحملها، وخلق سيء يتخلّق به. . .الخ، وكذلك في المقابل: إنَّ كون دينِ إنسان ما باطلاً، ومُعْتَقَدهِ زائغاً، وخُلُقِهِ معوجاً، لا يعني أنه فقد انتماءه إلى أبيه آدم، وانتسابه إلى إخوته البشر، بل هو آدمي على كل حال، وهو بشر من البشر، صالحاً كان أو طالحاً!

وبما أن الله تعالى أعلن في محكم كتابه أن كلّ الناس من حيث آدميَّتُهُم وبَشرِّيتهُم مُكَرَّمون عنده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ. .﴾ فنحن أيضاً نكرِمهم من هذه الحيثية، تَبَعاً لإكرام الله تعالى إياهم، وكذلك بما أن الله تعالى أعلن أن غير الإسلام، تعتبر كل الأديان الأخرى باطلة، وأن ما سوى العقيدة التي أعلن عنها الإسلام، كل العقائد الأخرى زائغة وزائفة، كما قال تعالى: ﴿. . . ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ. .﴾ [المائدة].

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ. .﴾ [النجم].

وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

فنحن نَتَّبِعُ كلامَ ربِّنا تبارك وتعالى في هذا أيضاً، ونقول بما قاله ربُّنا الحكيم العليم جلّ شأنه.

وكذلك بالنسبة لكل من الشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، من جانبٍ، وعدم تولِّيهم وقطع صلة الأخوة والموالاة معهم، وإعلان البراءة

منهم، من جانب آخر، كلاهما ـمّا أمر الله تعالى به، في محكم كتابه، ونحن نَتَّبع كلامَ الله تعالى، وواضحٌ أن شفقتك على شخصٍ، وحرصك على هدايته إلى الله تعالى ودينه الحق، كي ينجو من شقاء الدنيا وخزي الآخرة وعذابها، شيءٌ، وتَبَرُّؤُكَ من ولايته ومحبَّته ومُناصرته، شيءٌ آخر مختلف عنه تماماً، ولا يتنافيان أبداً، إذْ أنت تُشفِقُ عليه ويتحرَّق قَلْبُكَ عليه كإنسان خلَقَه الله تعالى لعبادته، أن يَتَصَّيدَهُ الشيطانُ الخبيثُ ويُدخِلَه في سلك حِزْبه المخذول، وفي الوقت نفسه، تُعْلِنُ براءَتك عن كفره، وتقطع صِلَتك به ككافر انقلب على ربّه، وكفر نعمته عليه.

ونختم هذا الموضوع بهاتين الآيتين، المباركتين اللّتين يعلن الله تبارك وتعالى في إحداهما طرده للكافرين من رحمته ولعنه إياهم، وفي أخراهما أمر نبيّه الكريم أن يدعو الكافرين المحاربين لله ودينه ورسوله ويُطْمِعَهم في غفرته ورحمته، إنْ هم تابوا وثابوا إلى ربهم الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

❑❑❑❑❑❑

المطلب الثاني:
كيفية التعامل مع الكفّار المسالمين

إن الكفار المسالمين للمسلمين المتمثلين في كيان إسلامي، لا يخرجون عن إحدى حالتين:

الحالة الأولى: أن يكونوا خارج المجتمع الإسلامي، أي خارج سلطة الكيان الإسلامي.

الحالة الثانية: أن يكونوا داخل المجتمع، وتحت كنف سلطته الشرعية.

ولهذا فسندرس موضوع كيفية التعامل مع الكفار المسالمين في فقرتين، كل فقرة مخصَّصة لأحدى تينك الحالتين المذكورتين، ونبدأ بالحالة الأولى في الفقرة الأولى، ولكن بعد هذا التمهيد الذي يرتبط بكيفية التعامل مع الكفار المسالمين عموماً، سواء كانوا خارج أطار المجتمع الإسلامي، أو داخله:

تمهيد في كيفية تعامل المسلمين وكيانهم الشرعي، مع المسالمين من الكفّار

لقد ذكرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، وذلك في المبحث الخامس المعنون (الأصول الكلّية للتعامل مع الناس) أربعة أصول كلية في بيان كيفية التعامل مع الناس عموماً - ومن ضمنهم الكفار المسالمون - فلا نعيد ما ذكرناه هناك، ولكن نُنَبِّه هنا خصوصاً على الأصل الثالث من تلك الأصول الأربعة، وهو: (الناسُ يُعامَلون على أساس العَدْل والإحسان) وقد استشهدنا هناك بعدد من الآيات الكريمة، التي استقينا منها هذا الأصل، وأخذنا من تلك الآيات الحقائق الخمس الآتية، في مجال التعامل مع الناس عامة، وهي:

١. **إن العدل والإحسان، هما مما أمر الله تعالى به في كتابه الحكيم.**

٢. **ورسولُ الله ﷺ مأمورٌ من الله تعالى أن يعامل جميعَ الناس بالعدل.**

٣. **ويجب على المسلمين أن يكون الإحسان قولاً وعملاً، قاعدة تعاملهم مع الناس.**

٤. **وإقامة القسط بين الناس، هي الهدف الأعلى - فيما يتعلق بحياة الناس - الذي أرسل الله تعالى جميع رسله لتحقيقه.**

٥. **والمسلمون أفراداً ومجتمعاً، مأمورون بالعدل حتى مع أعدائهم، وبالبرّ والإقساط إلى الناس جميعاً، ولو كانوا كفاراً، شريطة عدم معاداتهم لأهل الإسلام أو عدم معاونة أعدائهم عليهم.**

ونكتفي هنا بإلقاء شيء من الضوء على الحقيقة الخامسة من هذه

الحقائق الخمس، لارتباطها الوثيق والمباشر بما نحن بصدد بحثه الآن، فنقول قال الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

بيِّن الله تعالى لنا في هاتين الآيتين اللتين وردتا في سياق يتحدَّثُ فيه عن كيفية التعامل مع الكفار، الحقائق الأربع التالية:

الأولى: إنَّ الكفار الذين لم يقاتلوكم ولم يحاربوكم من أجل دينكم أولاً، وثانياً لم يخرجوكم من دياركم وأوطانكم، لا ينهاكم الله أن تعاملوهم على أساس البرِّ بهم والإقساط إليهم، أي أن تُحْسِنوا إليهم معنوياً ومادياً.

إذن: يجب على أهل الإسلام، أن يعاملوا الكفارَ المسالمين لهم ـ عموماً ـ على أساس البرِّ بهم وَمدِّ يَدِ العون إليهم، وانَّما فهمنا الوجوب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ إذْ يجب على المسلمين، أن يسعوا إلى الإتصاف والتحلِّي بكل وصفٍ وعمل يحبّه الله تعالى.

الثانية: لكن ينهاكم الله تعالى فقط عن تولِّي الكفار الذين قاتلوكم من أجل دينكم، وأخرجوكم من دياركم وعاونوا على إخراجكم من دياركم، ومَنْ يتول أولئك الكفار المحاربين للمسلمين، فهو الظالم حقاً.

الثالثة: ويفهم من هاتين الآيتين، أن هناك ثلاثة موانع، كل منها يَمْنَعُ المسلمين من التواصل مع الكفار، والبرِّ والإقساط إليهم، وهي:

١. كون أولئك الكفار من المحاربين والمعادين للمسلمين، لا لشيء سوى دينهم! ﴿قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

٢. كونهم مُخْرِجين للمسلمين من أوطانهم، أي: إضرارهم بأهل الإسلام مادياً ودنيوياً، بصورة مباشرة ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

٣. كونهم متعاونين مع الكفار المُخرِجين للمسلمين من ديارهم ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾، وهذا يعني: إضرارَهم بأهل الإسلام بصورة غير مباشرة.

الرابعة: والملاحظ أن الله تعالى استعمل كلمة (التولِّي) بدل ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ في الآية الثانية التي استثنت الكفار الذين لا يجوز للمسلمين التواصل معهم، وأرى أن الحكمة من هذا التغيير في التعبير، هي:

أولاً: الإيحاء بأن البِرَّ بالكفار المسالمين، والإقساط إليهم، نوع من الموالاة الجزئية الجائزة، في مثل تلك الحالات الإستثنائية.

ثانياً: إفهام المسلمين، بأن البِرّ بالكفار المحاربين المعادين، والإقساط إليهم، نوع من التولِّي المحرَّم، وانْ خلا البِرُّ والإقساط من أي مُلابساتٍ أخرى، مثل حُبِّهم ونُصْرَتِهم! - والله هو العليم الحكيم.

والآن بعد هذا التمهيد، نرجع إلى توضيح كلتا حالتي الكفار المسالمين في المجتمع الإسلامي، وكيفية تعامل المسلمين معهم فيهما، كل منهما في فقرةٍ مستقلّة:

❑❑❑❑❑❑



١ ـ الحالة الأولى: كيفية التعامل مع الكفار المسالمين الخارجين عن الكيان الإسلامي

الكفار المسالمون الخارجون عن إطار المجتمع والكيان الإسلامي، لا يخلو حالهم من احتمالين:

فهم إمّا أن يكونوا معاهَدِين للمجتمع الإسلامي، أي تربط بينهم وبين المجتمع الإسلامي وكيانه السياسي، اتفاقيةٌ وميثاق مُبْرَمٌ، أو أن يكونوا موادعين ومتاركين للمسلمين، غير متعرِّضين لهم بأذى مباشر أو غير مباشر، والآن لنلقي الضوء القرآني على كلا الإِحتمالين:





«أولاً»: كون الكفار المسالمين الخارجين عن الكيان الإسلامي، على عَهدٍ وميثاقٍ مع المسلمين

في هذه الحالة يجب على أهل الإسلام، أن يوفوا بالعهد الذي أبرموه مع الكفار المسالمين، وأن ينفّذوا كلَّ البنود التي أُدرجتْ في الإتفاقية المبرمة من دون الإخلال بشيء منها، وهذه بعض الآيات المباركات في هذا المجال، والتي يأمر فيها المولى جلَّ شأنه المسلمين بالإلتزام التام بالإتفاقيات التي يُبرِمونها بينهم وبين الكفّار خصوصاً، والوفاء الكامل بالعهود والمواثيق التي يعقدونها عموماً:

١. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ.. ﴾ [المائدة: ١].

٢. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل].

٣. ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة].

٤. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

٥. ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال].

وتُتْـفُنا هذه الآيات المباركات، بالحقائق الخمس الآتية:

القاعدة الأولى: يجب الوفاء بكلِّ ما يُبْرِمُهُ الإنسان المسلم كفرد، أو المسلمون كجماعة، من عَهدٍ وعَقدٍ:

وهذه الحقيقة نصّت عليها آيات كثيرة في كتاب الله الحكيم، منها الآية (١) من (المائدة) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ..﴾.

والفرق بين العهد والعَقْد، هو أن العقد أوسع مفهوماً من العهد، إذ العهد هو الإتفاق والميثاق بين طرفين أو أكثر، ولكن العقد اسم لكل ما يعقد عليه الإنسان قَلْبَه ويُقَرِّر فِعْلَه والإلتزام به، سواءٌ كان بينه وبين نفسه، أو بينه وبين غيره[1]، بدليل أن الله تعالى استعمل في كتابه لفظ (العقد) لكل

(١) أُنظر: مختار الصحاح، ص٣١٩، لفظ: ع ق د، وص ٤٠٣، لفظ ع هـ د.
لكن الفرق بين (العقد) و(العهد) مما أستنتجتُهُ بنفسي، بعد تأمُّلي في الآيات التي ورد فيها اللفظان.

من النكاح واليمين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ..﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ..﴾ [المائدة: ٨٩]، وإذا كان عقد النكاح بين طرفين: الزوج والزوجة، فاليمين عقد وعهد يُبْرِمه الإنسانُ بينه وبين نفسه.

القاعدة الثانية: والإلتزام بالعهود والمواثيق والوفاءُ بها، واجب في كلِّ الأحوال، ولا يُبَرَّرُ نَقْضُ العهد بِأَيِّ عذرٍ من الأعذار، مثل تحقيق مصلحة ما، أو التذُّرعِ بأنَّ الطَّرف المقابل كافرٌ:

وهذه الحقيقة أكَّدتها وبيَّنتها أوضح بيان، الآيات (٩١ إلى ٩٦) من (النحل)، ونوضح دلالة الآيات المذكورة على المطلوب، في هذه البنود المتدرجة الثمانية عشر الآتية:

أولاً: بدايةً يسمِّي الله تعالى العهودَ المُوَثَّقة بين المسلمين وغيرهم (أي الكفّار) باسمه العظيم، كي يبيِّن لنا قُدسيَّتها وعَدَمَ جواز المِساس بها بأي سبب: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ..﴾.

ثانياً: ثم يُسمِّيها أيماناً مؤكَّدةً، وينهى عن نقضها: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

ثالثاً: ثم يبيِّن أنَّ الله تعالى هو الكفيل على تلك العهود والمواثيق، التي يُبْرِمُها أهل الإيمان مع غيرهم: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، وإنما اعتُبِرَ الله تعالى كفيلاً على المسلمين، في العهود المبرمة بينهم وبين غيرهم، لأن أهل الإسلام يُحسَبون على الله تعالى وعلى دينه، في كل تصرّفاتهم ومعاملاتهم، ويُوَقِّعون ما يوقعون باسم الله تعالى وعلى أساس دينه.

رابعاً: ثم يعلن الله تعالى عن إحاطة علمه بكل أعمال المسلمين وتصرّفاتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، إذن: هذه أربعة أنواع من التأكيدات على الوفاء بالعهود والمواثيق، في آية واحدة!

خامساً: ثم يصوِّر الله تعالى نَقْضَ العهود في صورة مُزرِيةٍ جداً، حيث

يُشَبِّه ناقِضَ العهد بالمرأة البلهاء التي كانت تغزل غَزلها بالمِغزَلِ من الصباح إلى المساء، ثم في المساء تنقض ما غَزَلَتْهُ وتجعله أنكاثاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا..﴾، وكانت تلك المرأة تسكن مكة، وكانت مشهورة بِصَنيعها ذلك، كما ذكر المفسِّرون[1].

سادساً: ثم يذكر سبحانه إحدى الذرائع التي يتذرع بها ناقضوا العهود، وهي أن يجد الناقض للعهد، جماعةً أخرى غير التي أبرم معها العهد، هي الأكثر عدداً، والأقوى شوكةً من طرفه الذي عاهَدَه، فينقض عهده مع الطرف الأول لِيَعْقِدَ عهداً مع تلك الجماعة الأكثر عدداً والأقوى شوكة، تحقيقاً لمصلحة يتوخاها من وراءِ ذلك النقض والإبرام: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

سابعاً: ويبيِّن سبحانه وتعالى أن وجدانَهم ذلك الطرف الجديد الذي يحسبونه أكثر عدداً، بعد عقد الميثاق مع الطرف الأول الذي يرونه ضعيفاً، إنما هو من ابتلاءِ الله تعالى إياهم، هل يصبرون على الوفاء، مع غَضِّ الطَّرْف عن تلك المصلحة المتوقعة، أم ينقضون عهدهم بُغْيةَ تحصيلها؟!: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

ثامناً: ثم يبيِّن الله الحكيم لأهل الإيمان، أنَّه سيُخبِرهم يوم القيامة بعواقب كل اختلافاتهم ونتائجها: وأرى أن المقصود هنا بجملة: ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هو تنوّعُ وتعدّد مواقف الناس تجاه القضايا عامة، وتجاه العهود والمواثيق والإلتزام بها خاصة، ومن الواضح أن الوفيَّ والناقض لا يستويان.

تاسعاً: ثم يُفَنِّدُ سبحانه وتعالى ذريعةً أخرى، من ذرائع نقض العهود، وهي أن يكون كفر الطَّرف المقابل، مبرِّراً لنقض العهد وعدم الوفاءِ به: فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ..﴾ أي كونكم مختلفين في الدين والعقيدة، ليس مُبَرِّراً لعدم الوفاء، وذلك لأن كونَ الناس مختلفين فيما يدينون به نابع من مشيئة الله الحكيمة،

---

(١) أنظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص ٧٤٢.

فهو الذي اقتضت حكمته أن يكونوا هكذا، وإلّا فلو شاء الله تعالى أن يجعلكم كلكم أمة واحدة مجتمعة على الإيمان والإسلام، لصيّركم هكذا، ولكن لم يشأهُ بل شاءَ أن يضلّ بعضكم لاختياره الضلالة بنفسه، ويهدي بعضكم الآخر لرغبتهم في الهدى واختيارهم له!

عاشراً: ثم يؤكّد سبحانه وتعالى مرة أخرى نهيه عن نقض العهود، وجعلها وكأنّها شيء مَنخورٌ من الداخل، إذ الدَّخَلُ اسم للشيء الغريب الذي يخالط شيئاً وهو من غير جنسه، فيصبح ذلك الشيء مَدْخولاً مَنخوراً[1]: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ..﴾.

حادي عشر: ثم يصوّر سبحانه عاقِبَةَ نَقْض العهد الوخيمة، في حالة امرىء كانت قَدَمُهُ راسخة ثابتةً، ولكن فَجأةً زلّت قَدَمُهُ وسقط: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾.

ثاني عشر: ثم يبيّن سبحانه وتعالى أن مِنْ سنن الله الحكيمة، أنَّ مَنْ نَقَضَ العهد، سَيَذُوقُ وبالَ سوء صنيعه في الدنيا قبل الآخرة، وأقل عقوبة له: أنه يفقد ثقة الناس به في التعامل: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾.

ثالث عشر: ويرتب سبحانه ذوق العقوبة السيئة الدنيوية على نقض العهد، ويعتبر نَقْضَ العهد سبباً لمنع الناس عن دين الله وصراطه المستقيم: ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

وحكمة جعل نقض العهد، سبباً لصدّ الناس عن سبيل الله:

أن المسلمين إذا لم يَلْتَزِموا بعهودهم ومواثيقهم مع الناس، يُشوّهون بفعلتهم تلك وجه الإسلام المشرق، ويُحَمِّل الناسُ الإسلامَ، تلك التصرّفات اللاّشرعية، التي هو منها براء في الأصل، ولكن الناس يشاهدون الإسلام، في مرآة مواقف وأحوال وتصرّفات أتباعه!

رابع عشر: ثم يعلن سبحانه بأنه علاوة على كل ما مرَّ ذكره، فإِن

---

(١) مختار الصحاح، ص١٨٧، لفظ: د خ ل.

عذاباً عظيماً أيضاً بانتظارهم - أي: بانتظار ناقضي العهود من المسلمين -: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

خامس عشر: وينهى الله تبارك وتعالى كرةً أخرى، عن نقض العهد ويَعُدُّ ناقِضَ العهود متاجراً بعهد الله، وبائعاً عهد الله بثمن قليل: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

سادس عشر: ثم يبيّن لهم أن أجر الله المذخور لهم في مقابل الوفاءِ بالعهد، خيرٌ لهم من تلك الفائدة التافهة التي تُستَحْصَلُ من جرّاء نقض العهد، لو أنهم يمتلكون العلم الذي يطّلعون به على هذه الحقيقة: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

سابع عشر: ثم يبيّن سبحانه كيفية خيرية وفضل ما عنده، بسبب الوفاء، على ما يتوقّعونه من جرّاء الغَدْر: فيقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ ومعلوم أن الفاني لا يتساوى مع الباقي!

ثامن عشر: ثم يختم سبحانه هذه التأكيدات، على الوفاء بالعهود وعدم نقضها والإجتناب عن الغَدْر: بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّ الذين صبروا على الوفاءِ بالعهود والمواثيق، ولم ينقضوها تحت ضَغْط المصالح أو العواطف سيجزيهم الله تعالى أجرَهم بِحَسَبِ أحسن أعمالهم التي عملوها.

ولا يتصور وجود تأكيدات أقوى مِمّا في هذه الآيات البيّنات، على الوفاء بالعهود والمواثيق في مختلف الأحوال، وعدم نقضها والمساس بها، تحت غطاء أي ذريعة من الذرائع.

وقبل أن نترك هذا الموضوع، أرى من الضروري أن أشير إلى مسألة مهمة ذاتِ ارتباط بهذا الموضوع، وهي:

أنَّ الله تعالى بيّن في الآية (٧٢) من (الأنفال)، أنَّه يجب على الكيان الإسلامي، إذا ما استنصره المؤمنون الذين لم يهاجروا ليلتحقوا بالكيان الإسلامي، وبقوا تحت سيطرة أهل الكفر، لأي سبب من الأسباب، فإذا

تعرَّضوا لظُلْمٍ واعتداءٍ يجب عليه نُصْرَتهم والإستجابة لطلبهم، طالما أن الظلم الذي تعرَّضوا له، سببُهُ دينُهم وإيمانُهم، وليس شيئاً آخر، ولكن تحرُمُ عليهم هذه النصرة والإستجابة، إنْ كان الظلم والإعتداء الواقع على الفئة المؤمنة المضطهدة، من قبل طرف كافر معاهَدٍ مع الكيان الإسلامي، وذلك حفاظاً على العهد والميثاق المُبْرَمَ بينهما! وهذا يعني أن دين الله القيِّم، يَغُضُّ الطرْف عن مظلومية بعض المؤمنين المستنجدين المستغيثين بالدولة الإسلامية، لأن نصرة الكيان الإسلامي ونجدته لهم في تلك الحالة، يُؤدِّي إلى نقض العهد المبرم بينه وبين ذلك الطرف الكافر المعتدي، على أولئك المؤمنين الباقين تحت سلطة أهل الكفر! وهذا الموقف قمة في الوفاء بالعهد والإلتزام بالميثاق مع الكفار، وعدم نقضه، ولو بذريعة نجدة المسلمين المضطهدين بسبب تديّنهم! ولنقرأ الآية الكريمة والتي قد تحدثنا عنها من قبل أيضاً، بمناسبة البحث عن موضوع الموالاة بين أهل الإيمان، وذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

القاعدة الثالثة: ولكن إذا ما نقض الطَّرف المقابل العهد، فحينئذٍ يكون المسلمون في حِل من البقاءِ على العهد المنقوض:

وهذه الحقيقة هي التي تتحدَّث عنها الآيات (١ إلى ٤) من (التوبة)، وسنوضِّح دلالة تلك الآيات على الحقيقة المذكورة في البنود المتدرجة الأربعة الآتية حسب تسلسل الآيات:

أولاً: يُعلن الله تبارك وتعالى براءته وبراءة رسوله ﷺ إلى كل المشركين، الذين كانت تربطهم بالنبي والمؤمنين عهودٌ ومواثيق مبرمة، ولكن نقضوها أو حاولوا التَّمَلُّص منها بصورة من الصور: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾، وانما علمنا أن المشركين الذين أعلن الله تعالى براءته وبراءة رسوله منهم، مع كونهم معاهَدين مع المجتمع والكيان

الإسلامي، لم يكونوا كل المشركين الذين كانت لهم اتفاقيات مع رسول الله والمسلمين، بل كان النّاقضون للعهود منهم فحسب، من الآية الرابعة التي ستأتي بعد قليل.

ثانياً: ولكن مع أن أولئك المشركين نقضوا عهودهم، أو ظهرت منهم بوادر النقض، ومحاولة التملُّص منها، لم يفجأهم الله تعالى بانتهاء مُدَد تلك العهود - وذلك حرصاً على الوفاء والإلتزام الشديد بالعهد - بل أَمْهَلهم أربعة أشهر، ثم بعدها يكون المسلمون في حِلٍّ تجاههم، وأَخْبَرهم سبحانه مسبقاً مهدِّداً إياهم، أَنَّهم لا يُعجزون الله تعالى وجُنْدَه المؤمنين، بل سيُهزمون وسَيخْزَونَ: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝﴾.

ثالثاً: ثم يعلن سبحانه براءته وبراءة رسوله من كافة المشركين - سواء منهم من كان ذا عهد، أو كان غير ذي عهدٍ - وأعلن تلك البراءة باسمه وباسم رسوله ﷺ، يوم عرفة الذي سمّاه (يوم الحج الأكبر)، لأن الوقوف بعرفات هو الركن الأعظم للحج، وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة النبوية، والتي بعث فيها رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج، ثم لما نزلت هذه الآيات وبداية سورة التوبة، أرسل ﷺ علياً وراءه ليُبَلِّغَ عنه تلك الآيات إلى مسامع المشركين، كما جاء في صحيح البخاري وغيره[1]. ثم وجَّه إعلانَ براءته وبراءة رسوله تلك من المشركين إلى كافة الناس مسلمهم وكافرهم، ثم خاطب المشركين، بأنّهم إذا ما تابوا (أي: رجعوا عن الشرك إلى التوحيد، أو عن نقض العهد إلى الوفاء) فهو خيرٌ لهم، وإلّا - أي: إنّ استمروا على ما هم عليه - فهم لا يفوتون الله تعالى، ثم أمر

(١) وهذا هو نصُّ ما جاء في (صحيح البخاري) عن أبي هريرة: قال: [**بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحجةِ في مؤذنينَ بعثهم يومَ النَّحرِ يؤذِّنون بمنًى: أن لا يَحُجَّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعليِّ بنِ أبي طالبٍ فأمره أن يُؤذِّنَ ببراءةَ، قال أبو هريرة: فأذَّن عليٌّ معَنا يومَ النحرِ في أهلِ منًى ببراءة، وأن لا يَحُجَّ بعدَ العامِ مشركٌ ولا يطوفَ بالبيتِ عريانٌ**]. صحيح الخاري: ٤٦٥٥.

رسول الله ﷺ أن يبشر الكفار كافة بعذاب أليم: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

ومن الواضح أن المقصود بهذه الآية الكريمة، يختلف عمّا قصدته الآية الأولى، والبراءة المعلنة هنا، غير البراءة المذكورة هناك، حيث البراءة المذكورة في الآية الأولى، هي البراءة من المشركين المعاهَدين، الذين لم يكونوا يلتزمون بعهودهم، بل كانوا ينقضونها كلّما واتتهمُ الفرصة، وتراءى لهم بريق مصلحة، والبراءة المقصودة هنا - في هذه الآية الثالثة - هي البراءة المبدئية من الله تعالى ورسوله من كافة المشركين من حيث شركُهم ودينُهم الباطل الزائف، وذلك لأن المشركين العرب، كانوا يدّعون بأنّهم يعبدون الله، وأنّهم يحترمون بيته وأنهم وأنهم..! فكذّبهم الله تعالى في هذه الآية، وأعلن أنهم مبتوتوا الصلة به وبرسوله وبدينه.

رابعاً: ثم يستثني سبحانه من براءته وبراءة رسوله العهدية - وليست المبدئية، إذ هي ثابتة في كل الأحوال - المشركين الذين بقوا ملتزمين بعهودهم، فلم ينقصوا من الوفاء بالعهد، لا بصورة مباشرة، بأن يحاربوا المسلمين بأنفسهم، ولا غير مباشرة، بأن يعاونوا أعداءَهم عليهم، ويأمر سبحانه أهلَ الإيمان أن يُتِمُّوا لهم عهودَهم إلى آجالها المضروبة لها، لأنَّ الوفاء بالعهد من صميم التقوى، والله يحب المتقين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

وهذه الآية المباركة هي التي توضّح لنا أن البراءة المعلنة في الآية الأولى، انّما هي مختصة بالمشركين الناقضين لعهودهم، أو الذين ظهرت منهم بوادر الخيانة والغدر، وليست عامة لجميع المشركين المعاهدين، إذْ

يستثني ربُّنا تبارك وتعالى في هذه الآية، الملتزمين من المشركين بعهودهم، من ذلك الإعلان، الذي هو في الحقيقة نبذٌ للعهود المنتقضة مِنْ قِبَل المشركين إليهم.

وكذلك تدل على هذا - أي: أن البراءة المعلنة في الآية الأولى مختصة بالمشركين الناقضين لعهودهم ـ فحسب، الآيات (٧ إلى ١٠) الواردة في نفس السياق، والتي يبيِّن فيها الله تعالى عَدَم التزام المشركين بالعهود والمواثيق، وانتهازهم الفُرَصَ للإيقاع بالمؤمنين، وعدم رعايتهم في التعامل مع المؤمنين لا لقرابة وصلة رحم، ولا لعهد ووعد: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

القاعدة الرابعة: وعند التخوّف من غدْر الكفار المعاهدين، يجب أن يُنبذ إليهم عهودُهم، ويُعْلموا بذلك قبل الإقدام على أيِّ إجْراءٍ ضدَّهم:

وهذه الحقيقة صرَّحت بها الآية (٥٨) من (الأنفال): ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

والمقصود بهذه الحالة هو أن يكون هناك عهد وميثاق بين الكيان الإسلامي، وطَرَفٍ أو أكثر من أهل الكفر، ولكن تظهر منهم بوادر الغدر والخيانة، ففي هذه الحالة لا يجوز أن يبادر الطرف الإسلامي بناءً على ما ظهر له من تلك القرائن والبوادر، إلى إقدامٍ مضادٍّ، بل يجب أن يُخْبِر الطَّرفَ الكافِرَ بانتهاء العهد، بسبب ظهور بوادر النقض من قبلهم، ثم بعد الإعلان والإخبار، يكون الطرفان في حالة حرب ولا يبقيان في حالة سلمٍ.

والآيات المباركات في بداية سورة (التوبة) والتي أشرنا إليها قبل قليل، كلّها - على ما أرى - إعلامٌ من الله تعالى للكفار المعادين غير الملتزمين بعهودهم، كي يكون كلٌّ من الطرفين على بيِّنة من أمرِهِ، وأنه في حالة حربٍ مع الطرف الآخر، وذلك كما قلنا بسبب نقض المشركين لعهودهم، أو ظهور قرائن خيانتهم وغدرهم واستغلالهم لحالة السلم الصورية، للظفر بالمسلمين والنَّيْلِ منهم.

ويبدو من الآية (٥) من (التوبة) أنه من الأفضل - ان لم يكن من الواجب - أن تُحَدَّد مدَّةٌ معيَّنة ظرْفاً للنبذ وإعلام الطرف الكافر، بأن العهد مُنْتَقَضٌ وبعد مُضيِّ المدَّة المحدَّدة، يكون كل طرف في حِلٍّ بالنسبة لكيفية التعامل مع الطرف الآخر، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ أي: فإذا انقضت المدَّة المحدَّدة التي حرِّم فيها القتال - وهي أربعة أشهر - فاقتلوا المشركين (الناقضين لعهودهم) أينما ظفرتم بهم وأْسِروهم وترَصَّدوهم في الكمائن، ولكن إذا تابوا إلى الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فَأَطْلِقوا سَراحَهم لأن الله غفور رحيمٌ بعباده، انْ هم تابوا ورجعوا إليه.

والمقصود هنا بـ(الأشهر الحرم) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ ليس الأشهر الحرم المشهورة، وهي: (رجب، ذوالقعدة، ذوالحجّة، محرَّم) بل المقصود بها الأشهر الحرم التي أعطاها الله فرصة للمشركين الناقضين للعهد، في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [التوبة].

وربما ههنا يثور تساؤل في بعض الأذهان بالنِّسبة للآية (٥)، والتي يأمر الله تعالى فيها أهلَ الإيمان - بعد مضيِّ المدة المضروبة للمشركين الناقضين لعهودهم - أن يقتلوا أولئك المشركين، ويقوموا بِأَسْرهم وشَدِّ الخِناقِ عليهم، بكل ما أوتوا من قوة، إلى أن يدخلوا في الإسلام! وموضع التساؤل ههنا:

أَوَلَيْسَ تخيير المشركين بين القتال - الذي يتمخّضُ عنه قَتْلُهُم أو أَسْرُهم - وبين الإسلام، إكراهاً وإجباراً لهم على الدخول في الإسلام، والذي قد نهى الله تعالى عنه في أكثر من آية، كما بُيِّنَ ذلك في السابق؟!

والجواب: كلا ليس في الآية الكريمة أي إكراه وإجبار على الدين، إذا فُهِمَتْ على وجهها الصحيح وحسب ورودها في سياقها، ولإيضاح المطلب نقول:

قد وضَّحنا - وهو جليّ كالشمس لمن تأمّل سياق الآيات - أنَّ المقصود بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ...﴾ ليس كل المشركين، بل المقصود المشركين الذين لم يلتزموا بعهودهم مع المسلمين، أي: أن الألف واللام (أل) على (المشركين) هي للعهد وليست للجنس، فالله تعالى أمر رسوله والمؤمنين أن يقوموا بقتال وقتل وأسر وتضييق الخناق على المشركين الناقضين لعهودهم، وذلك بعد إعلامهم بأن عهودهم التي لم يراعوها ولم يفوا بها، أصبحت مَلْغِيَّةً بعد أربعة أشهر، هم فيها أحرارٌ في التحرك، واتّخاذ أي قرار يرونه في صالحهم.

هذا أولاً، ثم ليس في الآية تخيير المشركين بين القتال والقتل والأسر، وبين الدخول في الإسلام كلا، بل الآية تتحدَّث في الجملة الأخيرة منها: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عن حالة ما بعد الأسر للمشركين الناقضين للعهد، فيأمر الله تعالى المؤمنين بِعَرض الإسلام والدخول في دين الله الحق، على المشركين الأسرى في أعقاب الحرب الشاملة المعلنة عليهم، بسبب نقضهم للعهد، فيقول: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ - وهم في حالة الأسر - أي: آمنوا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي: التزموا أعمال الإسلام، ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: أطلقوا سَراحَهم من الأسر،! إذن: فليس في الآية تخيير للمشركين بين القتال الذي يتمخض عنه القتل أو الأسر، وبين الإسلام، كي يترتب عليه الإجبار والإكراه في الدين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

إذْ (إخلاء السبيل) لا يكون قبل القتال، بل هو بعد القتال والأسر، لأن إِخلاءَ السبيل أو إِطلاقَ السَّراح، انما يتحقق في حق الأسير الذي هو تحت اليد، وبناءً عليه نقول:

إن التخيير في الآية الكريمة، إِنَّما هو تخيير بين البقاء في الأسر عقوبة على جريمة نقض العهد، وبين الإسلام، وإِنَّما لم تُبح الآية الكريمة في هذه الحالة الخاصة، إِطلاق سَراح المشركين المأسورين، إلّا إذا دخلوا في الإسلام وأعلنوا الإلتزام به، لأنهم بسبب ما اقترفوهُ سابقاً من جريمة الغدر ونقض العهد، فلا ثِقَةَ للمسلمين بهم، أَنهم إذا أُطلق سَراحُهم وهم باقون على كفرهم، لا يعودون إلى سابق حالهم، من خيانة وظلم واعتداءٍ!

والدليل على ذلك أمران:

أولاً: في غير تلك الحالة الإستثنائية الخاصة - أي: حالة وقوع المشركين الناقضين للعهد في الأسر - لَمْ يأمر الله تعالى أهلَ الإيمان الآسرين للكفار في الحرب، أن يُلْزِمُوا الكفارَ الأَسرى، باختيار أحد الأمرين: البقاءِ في الأسر، أو الدخول في الإسلام، بل أمرهم أن يُطْلِقوا سراحَهم وهم كفار، إمّا بأن يَمُنّوا عليهم ويُخْلُوا سبيلَهم بدون مقابِلٍ، وإما أن يأخذوا منهم فدية، وذلك كإطلاقهم مقابل إطلاق أسرى المسلمين عند الكفار، أو أخذ مقدار من المال أو...الخ، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد].

كما نرى، لم يذكر في الآية الكريمة عَرْضُ الإسلام على الكفّار المأسورين أصلاً! إذن: عَرْضُ الإسلام على المشركين، كبديل للبقاءِ في الأسر، في الآية (٥) من (التوبة)، ليس قاعدة عامة في معاملة أسرى الكفار، بل كان ذلك إجراءً خاصاً لنوع خاص من الكفار، وهم كما قلنا الناقضون للعهد، الذين فقد الكيان الإسلامي الثقة بهم، وذلك لعلَّ أنْ يأمن الكيان الإسلاميُّ جانِبَهُمْ بالإيمان، بعد أن لم يأمنْ مِنْ شَرِّهم بالأَيمان!

ثانياً: ودليل آخر على ذلك، هو أن الله تعالى أمر رسولهُ ﷺ، أن يُجيرَ ويُؤَمِّنَ المشرك الذي يريد أن يطّلع على الإسلام، ويَفْهَمُه عن قُرْبٍ، ويستمع إلى كلام الله، ثم أن يُبْلِغَهُ مكانه الذي يأمن فيه، سواءٌ آمن أم لم يؤمن، وعلَّلَ سبحانه هذه المسألة، بكون المشركين جاهلين بالإسلام (دين الله الحق)، فَمِنْ حَقهم إذاً، أن توفَّر لهم فرصة الإطِّلاع على الإسلام، كي يتخذوا موقفهم منه، على علم وبصيرة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة].

وواضحٌ أنه لو كان قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ...﴾ يُقصد به كل المشركين، لما قال سبحانه وتعالى، ما قاله في الآية (٦)، إذْ ما دام أن قتل جميعهم مباح، لمجرد كونهم مشركين من دون سبب آخر، فَلِمَ إبلاغهم إلى مأمَنهم بعد الإستماع إلى كلام الله، من دون أن يُعلنوا موقفاً إيجابياً واضحاً، تجاه الإسلام؟!

هذا ولنا عودة إلى هذا الموضوع بإذن الله في المطلب الثالث من هذا المبحث، والمعنون: (كيفية التعامل مع الكفار المحاربين).

القاعدة الخامسة: ومتى طلب طرفٌ من أطراف الكفار المحاربة للكيان الإسلامي، الدُّخولَ في السلم مع أهل الإسلام، تجب الإستجابة لِطلبهم:

وهذه الحقيقة صرَّحت بها الآية (٦١) من (الأنفال): ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾، والحكمة في هذا أَنَّ دينَ الله الحق، هو دعوة حق، والحق إنَّما يمكن فهمه والتعرُّف عليه في جوّ الأمن والسَّلام، والأمن والسَّلام إحدى نعم الله الكبرى على الناس، كما قال تعالى ممتنًا على قبيلة قريش التي كانت توفَّرت لهم بسبب جوار بيت الله الحرام نعمتا الرزق والأمن: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ

﴿ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش].

وقال تعالى متحدّثاً عن بلدة، كان قد أنعم الله عليها بالأمن والسلام والإطمئنان والعيش الرغيد، ولكن بسبب كفرهم، سَلَبَهُم الله نعمتي الأمن والعيش الرغيد، مُبْدِلاً إياهما بالجوع والخوف، عقوبةً لهم على كفرهم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل].

وجليٌّ أن دين الله القيم يسعى لِتَحصيل وتأمين ما عَدَّهُ الله تعالى أعظم نعمه للعباد، وهما السِّلم والرزق.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمد] فله تفسيران - كما أرى -:

أولاً: لا تبادروا لِمَدِّ يَدِ السلام إلى الكفار، بسبب رؤية أنفسكم ضعفاء، بل أنتم أقوياء - بسبب إيمانكم - والله تعالى معكم يؤيّدكم، ولن ينقصكم أجور أعمالكم.

ثانياً: إذا كنتم متفوِّقين على الكفار عدداً وعُدَّةً، فلا تضعفوا عن لقاءِ أعدائِكم الكفار، طالبين السِّلم منهم، والله معكم..

ومن الواضح أن الآية الكريمة بكلا تفسيريها مُنسجمة مع آية الأنفال (٦١)، وليس بينهما أي تصادم كما يخيَّل للنظرة السطحية.

وبهذا ننهي الكلام من الإحتمال الأول في الحالة الأولى، وننتقل إلى الإحتمال الثاني منها، وهو:



«ثانياً»: كون الكفار المسالمين الخارجين عن الكيان الإسلامي مُوادعين ومتاركين للمسلمين

وتتمثل المعاملة في هذه الحالة في عدم تعرّض المسلمين للكفار الموادعين المحايدين، ما داموا محافظين على حالة الحياد والموادعة بنزاهة وجدية.

وبيّنت هذه المسألة الآيتان (٨٩) و(٩٠) من (النساء) بوضوح ليس بعده وضوح، حيث قال سبحانه متحدثاً عن الكفّار المنافقين، الذين كانوا يعاونون أهل الكفر المحاربين على المسلمين، في الآية (٨٩): ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

كما نرى حرّم سبحانه وتعالى على المسلمين اتخاذ أولئك الكفار المنافقين أولياء، ما لم يهاجروا ويلتحقوا بالكيان الإسلامي، بل ويأمرهم - إنْ هم استمرّوا على تولِّيهمْ - أن يأسروهم ويقتلوهم أينما وجدوهم! ثم يستثني سبحانه وتعالى في الآية (٩٠) الكفارَ المسالمين الذين لهم ارتباط وصلة بِطرفٍ كافرٍ، بينه وبين الكيان الإسلامي عهد وميثاق، أو هم يرون أنفسهم مُحْرَجين من أن يقاتلوهم نصرة لقومهم الكفار، أو يقاتلوا قومَهم نصرةً لَهُم، لذا اختاروا الحياد ولم يميلوا إلى أحد الطرفين، ثم يقول تعالى: ولو أراد الله أن يُسلِّط أولئك عليكم بالقتال، لفعل ولقاتلوكم، - ولكنه لم يفعل ذلك -، إذن: ما داموا يعتزلونكم ويعلنون لكم السَّلام، ليس في شرع الله لكم مجال في محاربة أولئك الموادعين المعتزلين المسالمين، ولنقرأ الآية الكريمة التي وضعت النقاط على الحروف، بوضوح

تام في هذه المسألة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾.

وكما هو واضح في الآية المباركة ذكر الله تعالى سببين، لاختيار أولئك الكفار الحياد والإعتزال، تجاهَ الدولة الإسلامية:

أولاً: ﴿يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: هم جماعة لهم ارتباط وصلة ما بين طرفٍ من الأطراف الكافرة، بينكم وبينه ميثاق وعهد، فهم بسبب ارتباطهم بذلك الطرف المعاهَدِ معكم، لا يرغبون في محاربتكم واختاروا مُسالَمَتَكُم وموادَعَتَكُم، من دون أن يكون بينكم وبينهم عهد أو ارتباط مباشر.

ثانياً: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ أي هم فئة تحسُّ بالضِّيق تجاه قتالكم، وكذلك تجاه قومهم - الذين يقاتلونكم - فهم في وضع مُحْرِجٍ أمامكم وأمام قومهم، لِذا آثروا الإعتزال وعدم القتال، ضدَّكم مناصرة لقَومهم، أو ضدَّ قومهم مناصرة لكم.

ويفهم من ذكر هذين السببين، أنه يجب على الدولة الإسلامية، أن ترحِّب بالحياد والموادعة للكفار، بأي سبب كان ذلك الحياد، وتلك الموادعة.

وهنا ننهي الكلام عن الحالة الأولى للكفار المسالمين للدولة الإسلامية، وهي حالة كون الكفار المسالمين خارجين عن إطار الدولة الإسلامية، وننتقل إلى الحالة الثانية:



٢ ـ الحالة الثانية: كيفيّة التعامل مع الكفّار المسالمين، داخل إطار الدّولة الإسلامية

ونوضِّح كيفية التعامل مع الكفار المسالمين الساكنين في ظل الدولة الإسلامية، في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: من هم الكفّار الذين يَسْمح لهم الإسلام، أن يعيشوا كمواطنين في الدولة الإسلامية؟!

المسألة الثانية: كيف يُعامَل الكفار المواطنون في الدولة الإسلامية؟!

المسألة الثالثة: ما هو أساس ارتباط المواطنين غير المسلمين بالدولة الإسلامية؟!

ونبدأ بالمسألة الأولى:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المسألة الأولى: من هم الكفار الذين يَسمَح لهم الإسلامُ، أن يعيشوا كمواطنين في ظل دولته؟!

وللإجابة على هذا السؤال نقول:

إنَّ كل أصناف الكفّار الخمسة، يَسْمَحُ لهم الإسلامُ أن يعيشوا في ظل دولته وكيانه الشرعي، أي: (الملحدين، وأهل الكتاب، والمشركين، والمنافقين، والمرتدين).

وذلك اُستناداً إلى الأَدلَّة الخمسة الآتية:

أولاً: إن الله تعالى أعلن أنه خلق الناس كلَّهم وبلا استثناء، للإبتلاءِ والإختبار، ويتمثل ابتلاؤه إياهم بفرضه العبادة له عليهم، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، ومعلومٌ أنه لا معنى للإبتلاء والإمتحان، إذا لم يكن للمُبْتَلى والمُمْتَحَنِ حرية التصرُّف والإختيار في كيفية الإجابة على الأسئلة الموجهة إليه! ولهذا أعطى الله الحكيم كامِلَ الحرية والإختيار التام للناس جميعاً، وخيَّرهم أن يختاروا ما يرغبون فيه، وما يريدونه بمحض إرادتهم ورغبتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ..﴾ [الكهف: ٢٩] وقد وضَّحنا هذه المسألة في أكثر من مناسبة، لذا نكتفي هنا بهذه الإشارة، ونقول:

بما أن الكيان الإسلامي كيانٌ ينشأ في ظل الإسلام، ويؤسَّسُ على الإيمان وعلى الشريعة الإسلامية، وكيان يتبنَّى الإسلامَ تصوراً وعقيدة وعبادة وخلقاً ومنهج حياة، لذا فهو يتعامل مع الناس وفق ما يُملي عليه دينُ الله الحق، ومما يُمليه عليه دين الله الحق، بل ويؤكّد عليه كثيراً: أن الناس خلَقهم ربُهم ليبتليهم في هذه الحياة المؤقتة الدنيوية، ثم يجزيهم حسب نتائج ابتلائهم، في الآخرة، ويتمثَّل ذلك الإبتلاء - فيما يخص ارتباطهم بربهم - أن يختاروا بأنفسهم كيفية التعامل مع ربهم، من الإيمانِ به، والشكرِ له، والوفاءِ بعهده، والتقديرِ لربوبيته، والقيام بعبادته، أو على العكس: الكفرِ به، والكفرانِ له، ونقضِ عهده، وعدمِ التقديرِ لعظمته، وعصيانِه، بدل طاعته وعبادته!

نعم إن كياناً إسلامياً يتخذ من دين الله وشريعته الحكيمة منهاجاً لتصرفاته، لا يسعه إلا إفساحَ المجال لكل مواطنيه الساكنين في ظلّه، الحرية الكاملة فيما يتعلق بما بينهم وبين ربّهم الحكيم الحليم الكريم، الذي لو شاء أن يفرض عليهم الإيمانَ والطاعة جبراً وكرهاً، لما كان في وسع أحدِ منهم سوى الإستجابة الكاملة، لما يريده الله تعالى منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ..﴾ [يونس: ٩٩].

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشورى].

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

ولكن الله تعالى لم يشأ ذلك، بل شاء أن يخلق الناس (وكذلك الجن) أحراراً، يختارون بإرادتهم ما يرغبون فيه ويهوونه، من إيمانٍ أو كفرٍ، وهدىً أو ضلالٍ، وشكرٍ أو كفرانٍ.

ثانياً: إنَّ الله تعالى بيّن في كتابه العزيز، أن بقاء الناس منقسمين على كفارٍ ومؤمنين، ورافضين للحق ومؤيِّدين له، حقيقة ثابتة وقائمة أبداً، كما

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ [التغابن].

وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف].

وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾ [الإسراء].

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ].

ومعلوم أن ما جعله الله تعالى حقيقة ثابتة ودائمة في حياة الناس، لا يمكن أن يُمحى من الوجود برغبات الناس وأهوائهم، والكيان الإسلامي يربأ بنفسه، أن يتخذ لنفسه سياسة تتصادم مع الحقائق الوجودية، ومع سنن الله في الخلق والحياة.

ثالثاً: إنَّ الله تعالى أمر الرسول النبي الخاتم ﷺ أن يخاطب الكفار جميعاً بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، والشاهد هو قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ حيث أَقَرَّ رسولُ الله ﷺ في هذه السورة القصيرة العظيمة، التي كان يقرأ بها مع سورة الإخلاص في كثير من صلواته المندوبة، أن يكون للكافرين أديانُهم، كما يكون له دينه، أي: أن للكافرين جميعاً بكل أصنافهم وأشكالهم أن يحتفظوا بأديانهم ومعتقداتهم الكفرية، أياً كانت، وأن يمارسوها في حياتهم الدنيوية، إذ ليس معنى ملكية الإنسان لدينه - أي: نهج حياته ومُعْتَقَدِه - واحتفاظه به، سوى الإلتزام به، وممارسة ما فيه من أحكامٍ وتعاليم في حياته.

رابعاً: إنَّ الله تعالى حرَّم استعمال الإكراه والإجبار على الناس في قبول دينه الحق، كما قال: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ.. ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقد وضَّحنا مفهوم هذه الآية المباركة في السابق، أكثر من مرة، وذكرنا قصة نزولها، فلا داعي للتكرار هنا.

ولكن نقول: قد أعطى الله تعالى الحرية الكاملة في سورة (الكافرون) لكل الكفار أن يكون لهم دينهم الذي يرتضونه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾، وفي الآية (٢٥٦) من (البقرة) حرَّم إجبار الناس وإكراههم على دينه الحق: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، إذن: الأديان الباطلة التي يختارها أتباعها الكفرة، كلُّها مجازةٌ ومباحةٌ لهم، والدين الحق لا يجوز فرضه بالإكراه والضغط، فالنتيجة: أنْ يُقبلَ من أنواع الكفرة جميعهم، أن يعيشوا كمواطنين في ظل الدولة الإسلامية، محتفظين بأديانهم وعقائدهم، ولا يجوز أي نوع من الضَّغط والإكراه عليهم، من أجل رضوخهم لدين الله الحق (الإسلام).

خامساً: ثم إن الله تعالى إنما أنزل كتابَه العظيم، وأرسل رسولَه الكريم محمداً ﷺ، لكافة الناس بجميع شعوبهم وألوانهم ولغاتهم، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ..﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ..﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لذا يجب على الأمة الإسلامية - وجوباً كفائياً - أن تبذل جهودها لإيصال دين الله الحق إلى كل البشرية، بل يجب عليها أن تَسْعى لِتَبْسُطَ سُلْطَةَ دين الله الحق على الأرض كلِّها، بحيث تستظلُّ البشريَّة كلُّها بدين الله الحق، وذلك تحقيقاً لأمر الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٢٨﴾ [الفتح].

وهنا نتساءل:

إذا فُرِضَ أنَّ الأمة الإسلامية استعادَتْ عافيتها، من كل ما ابتليت به من أمراض، والتي تتمثل كلها في البعد عن دين الله إيماناً والتزاماً، واستطاعت أن تُخْضِعَ كلَّ الأرض، بجميع مَنْ عليها من أمم وشعوب، لسلطان الإسلام، ولم يبق شِبْرٌ من الأرض إلا وَرفْرَفَتْ عليه راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فحينئذٍ يا تُرى: كيف يكون مصير الكفار بجميع أصنافهم؟!

١. أَوَ يُكْرَهون على الإسلام؟! وقد بينّا أن هذا حرامٌ في دين الله ومتصادم مع حكمة الله في خلق الناس: ﴿...وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود]، وهو علاوة على ذلك، غير ممكن في ذاته - بغض النظر عن عدم شرعيته - إذْ أقصى ما يمكن فعله، مع الذين يكرهون على الإسلام، هو أن تجعلهم منافقين، يطيعون الله ظاهراً ويكفرون به باطناً!! وهذا أَسوَأُ إِساءَةٍ لدين الله!

٢. أم هل يُقْتَلون جميعاً؟! وهذا منافٍ لكثير من آيات كتاب الله الحكيم، والتي أعطت المجال للبشر كلِّهم، أن يختاروا أياً من الكفر، والإيمان، والكفران، والشكر، بإرادتهم: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف]، و﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، ثم هو متصادمٌ مع حكمة الله في خلق الناس، ومع كون النبي الخاتم (رحمة للعالمين)، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

٣. أم هل يُسْجَنون جميعاً؟! وأي السجون تسع كل الملل الكافرة، التي أكَّد كتاب الله في أكثر من آية أنهم سيَظلُّون أكثرية البشرية دَوْماً: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]، ثم كيف يتسنى سجنهم بسبب اختيارهم للكفر ورفضهم للإيمان، في ظل كيان

إسلامي، قام أساساً لتحرير الناس من سجون الطواغيت، وإنقاذهم من أنيارهم[1] الفكرية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية، وجعلهم يشعرون بكرامتهم الإنسانية، ويمارسون حياتهم الإبتلائية الدنيوية بإرادتهم الحرة؟!

إذن:

لم يبق إلا احتمال أخير، وهو تخييرهم فيما يريدون ويختارون من أديان وعقائد، من غير ممارسة أي نوع من الإكراه والإجبار.

هذا وربما سبَّب الفهم الخطأ لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ..﴾ [الأنفال: ٣٩]، إشكالاً لبعض الناس في هذا المجال، ولكن سَنُؤَجِّلُ رَفْعَ ذلك الإشكال، بتفسير الآية الكريمة تفسيرها الصحيح، إلى المطلب الثالث: (كيفية التعامل مع الكفار المحاربين) بإذن الله.

والآن بعد أَن استشهدنا بآيات كتاب الله، واستدللنا في ضوئها بخمسة أدلة على أن الإسلام يَسْمَحُ لكلِّ أصناف أهل الكفر، أن يعيشوا تحت ظل حكْمِهِ كمواطنين عموماً، فلْنَنْظُر الآن إلى كل صنفٍ منهم على حدة خصوصاً، زيادة في إيضاح هذا الموضوع المهم:

أولاً: أمّا الملاحدة - الصنف الأول من الكفار حسب ترتيبنا إياهم في هذا الكتاب - فقد ذكرنا في المبحث الثالث من الفصل الثالث، أنه لم يَرِد ذكرهم صريحاً في كتاب الله الكريم، وأرجعنا علة ذلك الإهمال لذكرهم، إلى كونهم قلة نادرة شاذة في طول التأريخ البشري، وذلك بسبب فَطْرِ الله تعالى البَشَرَ على معرفته، والإعتقاد بخالقيته وربوبيته، ولكن على أيِّ حال لَفْظُ الكفر يشملهم فيما يشمل من أصناف الكفر، والملاحدة قريبوا الشَّبَه

---

(١) أنيار ونيران جمع (نير): الخَشَبَة المعَرَّضَة في عُنُقِ الثورين. مختار الصحاح، ص٥٩٠، لفظ: ن ي ر.

بالمشركين في جهلهم بالله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإنكارهم للنبوّة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والبعث والجزاءِ، وليس إقرار المشركين بربوبيّة الله تعالى وخالقيته، سوى إقرار صوري سطحي، لا يجعل لهم امتيازاً ما على الملاحدة، وسنتحدث عن المشركين بعد قليل، والملاحدة في حكمهم، ولهذا فما نستشهد به من الآيات المباركات عن المشركين، تكون شاملة لهم أيضاً.

ثانياً: وأما **أهل الكتاب** - اليهود والنصارى وغيرهم مِمَّن يدّعون الإِنتساب إلى كتاب سماوي ونبيٍّ من الأنبياء - فهم مع شمول لفظ الكفر والكفار لهم، إذ هم صنف منهم، ولكن إضافة إلى ذلك نقول:

إن تمكين الإسلام أهل الكتاب من العيش في ظل حكمه كمواطنين، واضح جداً في كتاب الله تعالى، وفي سيرة رسول الله ﷺ العملية، حيث كانت القبائل اليهودية الثلاث: (بنو قينقاع) و(بنو النّضير) و(بنو قريظة) يعيشون مع الرسول ﷺ والمسلمين في المدينة جنباً إلى جنبٍ، وكانت بينهم وبين رسول الله ﷺ ودولته الإسلامية عهود ومواثيق، إلى أن نقضوها بدافع الحقد والبغض والحسد تجاه الإسلام والمسلمين، فاضطرّ المسلمون إلى أن يُخْرِجوهم من المدينة ويُبْعِدوهم عن أنفسهم، كي يأمنوا شرّهم.

وبما أننا سنتحدّث عن أهل الكتاب وكيفية التعامل معهم على حدة في المبحث الثاني من هذا الفصل، نُرجىءُ الإستشهاد بالآيات المباركة إلى هناك، ونكتفي هنا بإيراد هذه الآية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وجليٌ ان دعوة أهل الكتاب للحوار بشأن النقاط المشتركة بينهم وبين المسلمين، أقوى دليل على القبول بكونهم مواطنين في ظل الحكم الإسلامي.

ثالثاً: وأما **المشركون** وهم الصنف الثالث من الكفّار حسب ترتيبنا إياهم في هذا الكتاب، إضافةً إلى الأدلة التي سبقت - على أن الكفار كلّهم

يُسْمَحَ لهم أن يكونوا مواطنين في الدولة الإسلامية، مع من بقائهم على شركهم وكفرهم - نقول:

١ ـ إن جواز كون المشركين معاهدين مع الكيان الإسلامي، ثم إلزامَ الله تعالى رسولَهُ والمؤمنين بالوفاء في عهدهم معهم والإستقامة لهم ما داموا هم مستقيمين، كما في الآية (٧) من (التوبة)، لَدليلٌ قاطِعٌ على أن الإسلام يَسْمَح للمشركين أن يكونوا مواطنين في ظل حكومته، وخاصة إذا علمنا أن سورة التوبة كلَّها، ومن ضمنها تلك الآية التي تضمَّنت ما أشرت إليه، قد نَزَلَتْ في السنة التاسعة للهجرة، وبعد غزوة تبوك، ومعلوم أن في ذلك الوقت كان الإسلام قد هيمن على الجزيرة العربية بأكملها، أي: صار المشركون كلهم تحت سلطة الكيان الإسلامي! قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة].

٢ ـ إنَّ الله تعالى أمر المسلمين ألّا يسْمحوا للمشركين بعد ذلك العام الذي نزلت فيه سورة التوبة - أي: العام التاسع للهجرة النبوية - بأن يقتربوا من المسجد الحرام بغرض أداءِ مناسكهم الشركية، التي توارثوها جهلاً باسم دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة].

وهذا دليل قاطع آخر على القبول بكون المشركين الباقين على شركهم مواطنين في الدولة الإسلامية، وإلّا - أي: لو لم يكن الإسلام يسمح ببقاء المشركين المواطنين في ظل كيانه، على دينهم الشركي - لم يَكُنْ تَدْعُ حاجَةٌ إلى إصدار الله تعالى هذا الأمر الصارم ـ لحماية بيته الحرام من رجس المشركين ـ إلى المؤمنين، بمنع المشركين من زيارة المسجد الحرام، الذي طالما دنّسوه بِشركهم!

٣ ـ وكذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ، بإجَارةِ من يطلب الجِوارَ من المشركين، بغية الإستماع إلى كلام الله والإطلاع على دينه القيم، ومن ثم

إيصاله إلى المكان الذي يأمن فيه، أي: إرجاعه إلى بلدته وأهله، دليل آخر على ما قلنا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة].

٤ ـ وكذلك أمر الله تعالى بإطلاق سَراحِ الأسرى الكفّار مَنّاً أو فداءً، دليل آخر على سماح الإسلام للمشركين بالمواطنة في ظل حكمه، وذلك لأن الكفّار المحاربين للإسلام في ذلك الوقت، لم يكونوا سوى المشركين، وقلة من اليهود الذين نقضوا العهود، اذن: المقصود بالكفّار في الآية التي نستشهد بها توّاً، هم المشركون بالدرجة الأولى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد].

ونكتفي بهذه الأدلة الأربعة، والتي كلٌّ منها كافٍ لإثبات المطلوب فكيف بمجموعها!

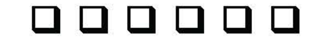
وربما يثور إشكال هنا في بعض الأذهان بالنسبة لقضية الجِزية التي ذكرت في كتاب الله في معرض الحديث عن أهل الكتاب، لذا يتصور البعض بأنها مختصة بهم، من بين أصناف الكفار، ومن الواضح أن أخذ الجزية قرينة القبول بالمواطنة، إذن: مَنْ لا تؤخذ منه الجزية، لا يقبل منه أن يكون مواطناً في الدولة الإسلامية!! ولكن سَنُرْجِيءُ الحديثَ عن هذا الموضوع إلى المسألة الثانية بإذن الله تعالى.

رابعاً: وأما **المنافقون**، أخبث أنواع أهل الكفر والصنف الرابع منهم حسب ترتيبنا، فالقبول بكونهم مواطنين في الدولة الإسلامية، أوضح من أن يحتاج إلى دليل، حيث كانوا مكوِّناً أساسياً من مكوِّنات المجتمع الإسلامي الأول، من حيث كثرتُهم العَدَدية، ومن حيث المشاكل والقلاقل التي كانوا وراءها، وقد نزلت آيات كثيرة بِشأنهم، ولكن بما أننا قد ألقينا أضواءً كاشفة على كل خصائصهم المذمومة ومواقفهم المُشِينة، نكتفي بما سبق عنهم، ولنا عودة إلى الحديث عن كيفية التعامل معهم في المبحث الثاني من هذا

الفصل إن شاء الله تعالى، ونكتفي هنا بإيراد الآية الأولى من سورة (المنافقون) السورة التي خُصِّصَت للحديث عن أولئك المواطنين السّوء في الدولة الإسلامية: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون].

خامساً: وأما **المرتدُّون** فنرجِيءُ الكلام عنهم إلى المبحث الثاني من هذا الفصل بإذن الله، والذي سنتحدَّث فيه عن كيفية التعامل مع كل صِنْفٍ من أصنافِ الكفار الخمسة على حِدَةٍ، في الجوانب التي تخصّ كل صنفٍ منهم.

والآن إلى المسألة الثانية:





المسألة الثانية: كيف يُعامَل الكفّارُ المواطنون في الدولة الإسلامية؟!

سَنُدرِجُ هنا الأُسُسَ الشرعية التي تُشَكِّل الإطارَ العام للتعامل مع المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، وهي عَشْرةُ أُسسٍ، والتي تشترك فيها جميع أصناف أهل الكفر، وأما المسائل التي تخصّ كل صنفٍ منهم على حدة، فستتحدث عنها في المبحث الثاني، عند الحديث عن كيفية التعامل مع كل صنفٍ من غير المسلمين على حدة، بإذن الله الكريم:

١. **العدل**: قال الله تعالى في سياق آيات تتحدَّث عن الكفّار، مخاطباً نبيَّه الكريم، مبيِّناً له كيفية التعامل مع الكفار: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى].

إذن: رسولُ الله ﷺ مأمورٌ من الله تعالى، أن يعدل مع الكفار، وأن يعدل بينهم وبين المسلمين.

٢. **البرُّ بهم والإِقساط إليهم**: وقد تحدثنا عن هذه المسألة في أكثر من مناسبة، ولا شك أن البرَّ مع الكفار المواطنين في الدولة الإسلامية، والإِقساط إليهم (أي: إعانتهم مادياً) آكد وأوجب منه مع غيرهم، وقال تعالى بهذا الصدد: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

٣. **المساواة المطلقة بينهم وبين المسلمين في مجال القضاء**: وقد تحدثنا في أكثر من مناسبة عن قصّة المنافق (طعمة ابن أبيرق) مع اليهودي الذي اتهمه ظلماً وبهتاناً بالسرقة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية (١٠٥ إلى ١١٥) من (النساء)، دفاعاً عن اليهودي المتَّهم ظلماً، وتبرئةً له، وإدانةً للسارق الحقيقي (طعمة)[1]، وتبدأ الآيات بقوله تعالى مخاطباً نبيّه الكريم، ومحذِّراً إياه من الوقوع في الجور في الحكم بسبب عدم التبيّن الكافي قبل الحكم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

وقد تحدَّثنا عن هذا الموضوع في الكتاب الحادي عشر في الفصل الثاني منه، عند كلامنا عن القضاء في الدولة الإسلامية.

٤. **كل طائفة من الكفار لها الحرية الكاملة في مجال تديُّنها وممارستها للأعمال والشعائر التي يأمرها بها دينه**:

والدليل على ذلك علاوة على الواقع العملي لتعامل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ مع أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ثم المجوس، والصابئة... الخ، هو قوله تعالى متحدثاً عن اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة].

حيث يدلّ قوله تعالى ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ على أن أهل الكتاب لهم الخيار

---

(١) أخرج تلك القصّة الترمذي: ٣٠٣٦ وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) (١٥/٤) رقم: ١٩٥٨، والطبراني في الكبير: ١٥، والطبري في جامع البيان (١٧٠/٥، ١٧١) وابن أبي حاتم في التفسير: ٥٩٣٣... وغيرهم، وقال المؤلفان في (الإستيعاب): هذا مرسل صحيح الإسناد... فالحديث يرتقي بمجموعهما لدرجة الحسن لغيره، أنظر: ج٢ ص٤٩٧.

في أنْ يراجعوا القضاء الإسلامي في حلّ مشاكلهم الداخلية، أو يحتكموا إلى محاكمهم الخاصّة بهم.

وكذلك يدل قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ أن السلطة القضائية في الدولة الإسلامية أيضاً، لها الخيار بينَ أن تتولّى الفصل في منازعاتهم الداخلية، أو تتركهم وشأنهم، وذلك لأن الأصل في هذا المجال هو أن تقوم كل طائفة من الأقليات الدينية - ونَقْصدُ بكلمة (الدين) مفهومها الشامل الذي يشمل كل المناهج الحياتية - بحلِّ مشكلاتها الداخلية بنفسها، وحسب دينها ومعتقدها، ويدل على أن هذا هو الأصل قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾؟! أي: بما أن التوراة المحتوية على حكم الله - في تلك الحادثة التي نزلت الآيات بِشأنها، وهي زنى رجل وامرأة محصنين من اليهود - تحت أيديهم، فَلِمَ يراجعونك ولا يطبقون حكم الله الموجود في التوراة عليهما، وهو الرجم؟!

ومن الأدلة - في كتاب الله - على أن المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية لهم الحق في أن يُحِلُّوا مشاكلهم الداخلية حسب أديانهم، قوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ..﴾ [المائدة: ٤٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ ..﴾ [المائدة: ٤٨] حيث يعلن سبحانه وتعالى، أنه جعل لكل من اليهود والنصارى والمسلمين - المذكورين في السياق - شريعة ومنهاجاً خاصاً، كل في مرحلة خاصة، ولو شاء الله لجعل البشرية من بداية تاريخها تَتّبِعُ شريعةً واحدةً، وتنتهج منهاجاً واحداً، ولكنه لم يشأ ذلك، بل شاء وهو الحكيم العليم أن يجعل لكل مرحلة من مراحل تاريخ البشرية ولكل أمة وبيئةٍ، شريعةً خاصة، إلى أن بلغت البشرية، ذروة نضوجها الفكري، والذي يُؤَهِّلُها لتلتفَّ حول شريعة واحدة، ورسول واحد، فأنزل الله تعالى شريعته الخاتمة الكاملة المصدِّقة للشرائع السابقة والمهيمنة عليها جميعاً، وأرسل نبيَّه الخاتم محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ومتمِّماً لرسالات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام.

ولكن هذا الحق لغير المسلمين منحصرٌ في دائرة مشاكلهم الداخلية فيما بينهم، أما في مجال القضايا العامة التي تَعُمُّ المجتمع الإسلامي ككل، ومن ضمنها المشاكل التي تحدث بينهم وبين المسلمين، في هذا المجال لا بد من تدخل الدولة من خلال الجهاز القضائي، لحسم في تلك القضايا والمشاكل المرتبطة بالمجتمع ككل، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ..﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي مثل تلك الأحوال تطبق أحكام الشريعة الحكيمة العادلة على الجميع بالسَّويَّة، من دون أي تفرقة بينهم بسبب الدين أو الجاه أو اللّغة...الخ، فالكل، أمام الشريعة الإسلامية سواء، وينبغي أن يخضع لها الكل بدءاً بوليِّ الأمر الأعلى، و إلى أصغر مواطنٍ يعيش في ظل الدولة الإسلامية، كما قال تعالى مخاطباً نبيّه الخاتم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية].

٥. لا يُسْمَحُ في ظلِّ الدولة الإسلامية بأي نوع من أنواع الظلم والتعدِّي، على أيّ شخصٍ كائناً من كان:

ويكفي دليلاً على هذا قوله تعالى: ﴿... لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وبخصوص ظلم أهل الذمة والإعتداء عليهم قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ آذى ذمياً فأنا خَصْيمُهُ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**» (أَخْرَجَهُ الخَطِيب في تاريخ بغداد، ج٨ ص ٣٧٠، عن ابن مسعود، وَضَعفَ الألباني في (ضعيف الجامع) رقم: (٥٣١٤)).

وقال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدَاً أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئاً بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ برقم: (٣٠٥٢)، وَصَححَه الأَلباني في (السلسلة الصحيحة) رقم: (٤٤٥)).

وأما إذا تجاوز غير المسلمين على حقوق المسلمين، فَتطبقُ عليهم

أحكامُ الشريعة، كما تطبق على المسلمين، وذلك في القضايا التي تُرْفَعُ إلى القضاء، مثل التجاوزات التي توجِبُ العقوبات الشرعية المحدَّدة، من قتل وزنىً وسرقة وحرابةٍ وقذفٍ، وكذلك في المقابل من تجاوز من المسلمين على أحد من أهل الدار[1] فيما يوجِب العقوبات الشرعية، تُجْرى عليه العقوبة التي استحقها بتجاوزه، كما قال تعالى كقاعدة عامة في المسلمين وغير المسلمين: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء].

٦. لا يُسْمَحُ لأحد أن يجرح شعور أحدٍ، خاصة فيما يخصّ دينه ومقدّساته ومعتقداته:

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ..﴾ [العنكبوت: ٤٦] وانما استثنى الذين ظلموا منهم، لأن من ظلم غيره، بتعبير جارح أو كلمة نابية، يستحق الردَّ بالمثل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ..﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ..﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وهذا هو حكمة عدم السّماح للمشركين بزيارة المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ..﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى بالنسبة لإبعاد المشركين عن المساجد عامة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ..﴾ [التوبة: ١٧]، وقد بيّن سبحانه وتعالى كيفية صلاتهم الشركية التي هي أشبه باللعب منها بالجدِّ، عند بيت الله الحرام: و﴿كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ..﴾ [الأنفال: ٣٥]، ولهذا مُنِعوا مِنْ أن يدنِّسوا مساجِد المسلمين الطاهرة، بتلك التُرّهات التي اعتبروها عبادة!!

---

(١) من أهل الدار، أي غير المسلمين القاطنين في الدولة الإسلامية، وكلمة (أهل الدار) مصطلح اصطلح عليه علماء مجال السياسة الشرعية، كعنوان عام لغير المسلمين المواطنين.

وبناءً على هذه القاعدة - عدم السماح لأحد بتجريح شعور الآخرين الديني - قال فقهاء الإسلام: إنه لا يجوز للذمي أن يمارس أي نشاط يخصّ دينه ومعتقده، مما يخالفُ دينَ المسلمين والآدابَ العامة الإسلامية، في أسواق المسلمين وأماكنهم العامة، وذلك مثل بيع الخمر وشربها، وبيع لحم الخنزير.

٧. لا يُجْبَرُ أحد على ترك دياره ووطنه الذي خَلَقه الله فيه، وكذلك لا يجوز التعرُّض للخصوصيات القومية للشعوب عامة، وللأقليات الدينية خاصة:

والدليل على ذلك بالإضافة إلى السنة النبوية، والسنة الراشدية المنبثقة من السنة النبوية - أي: واقع تعامل النبي ﷺ وخلفائه الراشدين مع غير المسلمين الساكنين في الدولة الإسلامية - هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ..﴾ [الحجرات: ١٣]، وبما أننا قد تحدثنا عن هذه الآية الكريمة في الكتاب العاشر من هذه الموسوعة نكتفي بما قلناه هناك.

وقد ذكَرْنا سابقاً أنَّ إخراجَ الرسول ﷺ القبائل اليهودية من المدينة، كان من جرّاء خيانتهم ونقضهم العهود، وصيرورتهم خناجر مسمومة في خاصرة الدولة الإسلامية، فلم يكن بدّ من إبعادِ شَرِّهم وفسادِهم، وتأمين الدولة الإسلامية الفتية من جانبهم، ومن الواضح أن ذلك الإجراء النبوي العادل والحكيم، لم يكن إلا بعد إنذارات عدة من رسول الله ﷺ إياهم، من العاقبة الوخيمة للغدر والخيانة، والتواطؤ مع الأعداء المتربِّصين بالإسلام والمسلمين! أي: إنَّ الرسول ﷺ انما اضطرَّ لإخراجهم من المدينة، وإبعادِ شرِّهم، بعد أن أقام عليهم الحجة مراراً، وبعد أن تحوّلوا - حسب اصطلاح عصرنا - إلى طابور خامس لأهل الكفر المتربصين.

وإنما وضَّحتُ هذه المسألة، تجليةً للحقيقة التي جعلناها عنواناً لهذا الأساس الشرعي السابع: (لا يُجْبَرُ أحدٌ على ترك دياره ووطنه الذي

خلقه الله فيه، وكذلك لا يجوز التعرُّض للخصوصيات القومية للشعوب عامة، وللأقليات الدينية خاصة).

ومعلوم أن هذه الحقيقة أول ما يقتضيها إكرام الله تعالى لبني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء]، وأي كرامة تبقى للإنسان إذا ما جرِّد من أرضه ومائه ولغته وخصوصياته الأخرى؟!

٨. **لكل مواطن من مواطِني الدولة الإسلامية الحق في العيش بِكرامَة، ومزاولة أي كسبٍ أو عمل يرغب فيه - ما لم يكن إضراراً بالآخرين -، ومن لم يتمكن من تأمين رزقه، أُعين مِن قِبَلِ المجتمع أو الدولة:**

أما أن كل مواطنٍ من مواطني الدولة الإسلامية، له الحق في أن يعيش في ظلِّ الدولة الإسلاميّة العادلة عيشاً كريماً، وأن يزاول أيَّ عَملٍ أو كسبٍ يرغب فيه لتأمين رزقه، فهذا من البديهيات الشرعية اللازمة لأصل سماح الإسلام لغير المسلمين أن يعيشوا في ظل دولته، إذْ ليس معنى العيش في ظل الدولة الإسلامية، الا العيش الكريم الذي يليق بالإنسان المكرَّم من الله تعالى، والمُجاز في أن يعيش على هذه الأرض، وَيقْضِيَ فترة ابتلائه، وقد بيَّن الله تعالى في آيات كثيرة، أشرنا إلى بعضها في الفصل الأول من هذا الكتاب، أنه وضع هذه الأرض لكل الناس، وأنه ملأها بالخيرات والنِّعَم للبشر جميعاً، وأنه سخّر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً - أيَ لجميعهم -، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا..﴾ [الجاثية: ١٣]، ومعلوم أن الخطاب في هذه الآيات مع كل البشر - بل في

آيات (الرحمن) مع الجن أيضاً -، إذن: فلكل البشر أن يتمتعوا في حياتهم الأرضية هذه، بكل ما خلقها تعالى على الأرض، من النِّعَم وسخر لهم من الإمكانيات.

وأما بالنسبة لوجوب إعانة العاجزين الذين عجزوا عن تأمين رزقهم ومعيشتهم، فدليله علاوة على سنة رسول الله ﷺ وعمل الخلفاء الراشدين[1]، عمومُ الآيات الكريمة التي تأمر بالإحسان إلى العناصر الضعيفة في المجتمع ومساعدتهم مادياً وإطعامهم، كاليتامى والمساكين والفقراء والغارمين وابن السبيل والأسير، وقد ذكرت أسماء هذه الأصناف بإطلاق من غير تقييد، لذا فالإحسان المأمور به، والإعانة المفروضة لهم، يشملانهم جميعاً سواء كانوا مسلمين، أو غير مسلمين، إلا إذا خَصَّتْ قرينةٌ ما مفهومَ أحد الألفاظ في سياق معين، بأهل الإسلام أو بغير أهل الإسلام.

وهذه بعض الآيات كأمثلة فقط في هذا المجال:

١. ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ..﴾ [البقرة: ١٧٣].

---

(١) ومما يجب ذكره في هذا المجال ما ذكره (أبو يوسف) في كتابه (الخراج) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث سجَّل هذه الحادثة:

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً يهودياً طاعناً في السنّ يتسوّل، فسأله عمر - وهو خليفة المسلمين - عن سبب سؤاله الناس، فقال، يا أمير المؤمنين! السّنُّ والحاجة والجزية، فقال عمر رضي الله عنه: والله ما أنصفناك، أن نأكل شبيبتك ونتركك عند هَرِمك، فأخذ بيده وذهب به إلى (الخازن) [أي مسؤول بيت المال] وقال له: أنظر هنا وأضرابه من أهل الكتاب (أي المسنين أو المرضى والزَّمنى العاجزين عن الكسب) فَضَعْ عنهم الجزية، ووظِّفْ لهم من بيت المال ما يتعيَّشون به!

أنظر: الخراج، لأبي يوسف، ص١٢٦، و(منتخب كنز العمال) من مسند أحمد، ج٢، س٣٠٩، و(آثار الحرب) للدكتور وهبة الزحيلي، ص٧٥٩.

٢. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ..﴾ [النساء: ٣٦].

٣. ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان].

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة]، نصٌ في أنَّ الإنفاق في سبيل الله، وابتغاءَ مرضاته، يشمل المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي، لأن الله تعالى بعد أن قال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ..﴾ ذَكَرَ الإنفاق، وذلك كي لا يحول كفر الكافر دون الإنفاق عليه، في المجتمع الإسلامي والكيان الإسلامي.

هذا بالنسبة للنصوص عموماً، وهناك نص قرآني خاصّ بالإنفاق على غير المسلمين المسالمين والبرِّ بهم، وهي الآية (٨) من (الممتحنة) والتي تحدثنا عنها أكثر من مرة، لذا نكتفي هنا بتكرار إيرادها فقط: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

٩. في مجال التعامل الإجتماعي، ينبغي للمسلمين أن يُكرِموا غيرَ المسلمين أكثر من إكرامهم إيّاهم، أو على الأقل مثله:

ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء].

ولفظ التحيّة تشمل كل الكلمات والتعابير التي يستعملها الناسُ لإبداءِ احترام بعضهم لبعض، وبما أنَّ فعل: (حُيِيّتم) مجهول الفاعل فهو شامل لكل الناس، بل المتبادِر للذِّهن من مثل هذا التعبير، أن المقصود به غير المسلمين، وذلك الخطاب موجَّه للمسلمين، والذي يُحيِّي المسلمين هو من غير المسلمين!

وقد أمر الله تعالى أهلَ الإيمان أن يَرُدّوا على تحيَّة غيرهم، بأحسن منها، أو على الأقل بمثلها، ثم حذرهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾.

وإذا كان واجباً على المسلم أن يردّ على تحية كل مَنْ يُحيِّيه بِتَحيَّةٍ أحسن منها[1]، أو على الأقل بمثلها، إذن: يشكِّلُ هذا المسلك (إكرام الغير أكثر من إكرامه إياك أو بقدره)، قاعدةً عامةً في سائر المعاملات الإجتماعية الجارية، بين المسلمين وغيرهم، وأقول: وهل يَجْدُرُ ويليق بالمسلمين، إلّا كونَهم أكرمَ من غيرهم، وأحسنَ خُلُقاً، وأكثرَ فَضْلاً؟!

١٠. الجزية كانت رمزا لخضوع غير المسلمين (أهل الكتاب وغيرهم) للدولة الإسلامية، وقبولهم المواطنة فيها، وما كان أخذها لازماً، بل كان متوقفاً على كيفية العقد المبرم بين الطرفين:

والدليل على جواز أخذ الجزية من المواطنين غير المسلمين القاطنين في الدولة الإسلامية، سواء كانوا أهل كتاب أو غيرهم، هو قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وهذه الآية هي الآية الوحيدة في كتاب الله تعالى عن الجزية وأخذها من غير المسلمين، وبما أن الآية الكريمة ذكرت في معرض أخذ الجزية: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والمفهوم المتبادِرُ إلى الذهن من هذا التعبير، حسب السياقات القرآنية هو اليهود والنصارى والذين ذكرهم الله تعالى في الآية الثانية مباشرة ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠].

---

(١) قال عبدالرحمٰن بن ناصر السعدي: (ويدخل في رَدِّ التحيَّة كلُّ تحيَّةٍ أعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمورٌ بردِّها أو أحسن منها...) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان، ص١٩١ .

أجل، بناءً على ما مرّ ذكره، ظنّ بعض العلماء أن اليهود والنصارى هم الطرف الوحيد الذي تؤخذ منه الجزية من غير المسلمين، ثم جعلوا هذه المسألة «التي لا تصحّ» أقوى الأدلة على أن غير اليهود والنصارى، لا يجوز لهم العيش في ظل الدولة الإسلامية كمواطنين!



بحث حول الجزية

نقول - لإيضاح هذا الموضوع كما وعدنا سابقاً -:

أولاً: إن هذه الآية المباركة دَعْ أنه لا يَصحّ الإستدلال بها على أن الجزية لا تؤخذ من غير أهل الكتاب، بل بالعكس هي دليل على جواز أخذها من جميع غير المسلمين الذين يختارون المواطنة في الدولة الإسلامية، وذلك لأن الآية الكريمة تصف أولئك الذين أُمر المسلمون بقتالهم من أهل الكتاب، إلى أن يخضعوا للدولة الإسلامية، والذين يتمثّل خضوعهم بإعطاء الجزية، بأوصاف هي نقاط مشتركة بينهم وبين غيرهم من أصناف الكفار، وهي:

١ و٢: الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله، وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ.

٣: وَلا يُحَرِّمُونَ مَا رَّمَ الله رسُولُهُ.

٤: وَلا يَدِينُون دِينَ الْحقِّ.

أجل هذه الأوصاف الأربعة هي نقاط مشتركة بين أهل الكفر بكل أصنافهم، ومعلوم أن جملة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ليست سوى تمييز هذا الصنف من الكفار من غيرهم من الأصناف.

إذن: ليس أخذ الجزية من هذا الصنف من الكفار لكونهم (أهل الكتاب)، بل لكونهم مواطنين غير مسلمين. وعليه: فكل المواطنين غير المسلمين، لهم نفس الحكم الذي لأهل الكتاب.

ثم نقول:

قد ثبت في السنة النبوية أن رسول الله ﷺ أذِنَ بأخذ الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو واضح في هذه النصوص:

١ - **«كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، . . . ثم قال «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ثم ادعهم إلى الإسلام، فإنْ هم أجابوك فاقبل منهم كف عنهم. . . فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا استعن بالله وقاتلهم»** (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٧٣١)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (١٦١٧)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٢٣١٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ).

٢ - **«قال رسول الله ﷺ: إني أُريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية»** (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ برقم: (٣٢٣٣)، وَقَال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ).

٣ - **«قال مغيرة بن شعبة لعامل كسرى في وقعة نهاوند: أمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية»** (رَوَاهُ البُخَاريُّ برقم: (٢٩٨٩».

٤ - **«عن عبدالرحمٰن بن عوف ﷺ أن النبي ﷺ ـ أخذها ـ يعني الجزية ـ من مجوس هجر»** (رَوَاهُ البُخَاريُّ برقم: (٢٩٨٧)).

إذن:

يمكن أن تؤخذ الجزية من كل أنواع أهل الكفر، وليس خاصاً بأهل الكتاب منهم.

ولكن: هل أخذ الجزية حتميّ ولازمٌ من كل المواطنين غير المسلمين؟ سنُجيب على هذا السؤال في البند الثاني:

ثانياً: أخذ الجزية ليس شيئاً حتمياً ولازماً، لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم من المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، والدليل على هذا:

١ - لم تؤخذ الجزية من القبائل الثلاث في المدينة: (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة)، بل ظلّوا ساكني المدينة المنورة ومواطنيها حسب الوثيقة المبرمة بينهم وبين رسول الله ﷺ والمسلمين، والتي اشتهرت في كتب السيرة بـ(الصحيفة) وتتكون من (٤٧) بنداً، وكانت بمثابة دستور لتنظيم مكوّنات المدينة المتعددة، وكيفية تعامل بعضها مع بعض.

٢ - الذي يُحدد كيفية تعامل الدولة الإسلامية مع الأطراف غير الإسلامية التي ترغب بالمواطنة في الدولة الإسلامية. من حيث أخذ الجزية أو عدم أخذها، وغيره من الأمور، هو شكل الإتفاق والعهد الذي يُبرم بين الطرفين، فعلى سبيل المثال: هناك طرف يريد أن يقف على الحياد بين الكيان الإسلامي وغيره من الكيانات السياسية، من دون أي التزام مادي أو غيره، تجاه الدولة الإسلامية، فهذا يجب أن يعامل كما اتُفِقَ معه، كما قال تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء].

٣ - قد ثبت في التاريخ الإسلامي عامة وخاصةً في عصر الخلافة الراشدة، أن المسلمين رضوا من بعض غير المسلمين، أن يساعدوا المسلمين على أعدائهم مادّياً أو معنوياً أو كليهما ولا يدفعوا الجزية، وهذان مثالان في هذا المجال:

* جاء في كتاب (سُوَيد بن مقرّن) أحد قواد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأهل دهستان وسائر أهل جرجان: «إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعنّا

به منكم، فله جزاؤه في معونته عوضاً على جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وشرائعهم ولا يُغيِّر شيء من ذلك»[1].

* وجاء في صلح آخر مع الجراجمة: «ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم الجزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين»[2].

ثالثاً: يَدلّ السياق الذي وردت فيه الآية الوحيدة التي ذكرت فيها الجزية (الآية ٢٩ من التوبة) والحالات التي ضُربت فيها الجزية على غير المسلمين، على أن الجزية تؤخذ من الكفار المحاربين للدولة الإسلامية، بعد إنهائهم القتال وميلهم للصلح والسلم:

أ - إذ قوله تعالى ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]. يتبيّن منه بوضوح أن بعضاً من أهل الكتاب يجوز قتالهم وليس كلهم، وذلك لدلالة (من) التبعيضية في ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عليه، وكذلك لدلالة جملة ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ عليه، إذ المقصود بإعطاء الجزية عن يدٍ وبصغارٍ، وهو دفع الجزية طواعيةً وبخضوعٍ لسلطة الدولة الإسلامية.

ب - الحالات التي ضُربت فيها الجزية على طوائف من غير المسلمين، كذلك يتبيّن فيها بجلاء، أن الجزية فُرضت عليهم بعد خوضهم الحرب مع الدولة الإسلامية، وإنهزامهم، أو إعلانهم الحرب ثم نكوصهم عنها، ورضاهم بدفع الجزية، وقول رسول الله ﷺ: «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوك فاقبل منهم كف عنهم... فإن هم أبوا فسلهم**

---

(١) تفسير المنار، ج٧، ص٢٩٧، و(آثار الحرب) د.وهبة الزحيلي، ص٦٨٧.

(٢) فتوح البلدان، للبلاذري، ص١٦٨، وآثار الحرب، ص٦٨٨.

الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٧٣١)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (١٦١٧)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٢٣١٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَن أبِيهِ).

كذلك هو واضح الدلالة على أن الجزية إنما تؤخذ من الأعداء المحاربين من غير المسلمين، وذلك بعد قبولهم السلم وإنهاء الحرب والقتال ضد الدولة الإسلامية.

ولكن وكما قلنا سابقاً، ليس أخذ الجزية حتى من الكفار المحاربين المستسلمين أو المنتهين عن القتال، شيئاً لازماً، بل هو مجرّد أمرٍ جائزٍ ومباح، وهو في حدود صلاحية السلطة الشرعية، سواء بالنسبة لأخذها أو مقدارها، أو بالنسبة للذين تؤخذ منهم، ولهذا اختلفت الأنظار وتعددت الإجتهادات في كل من هذه الأمور، كما هو واضح في كتب السيرة وكتب السياسة الشرعية.

وإنما ركزت على مسألة حصر أخذ الجزية من أهل الكفر المحاربين، الذين يختارون المواطنة في الدولة الإسلامية، ويُنهون حالَةَ الحرب والعداء، كي لا يظن ظانٌ بأن حكم المواطنين غير المسلمين الآن - أهل كتاب وغيرهم -، هو نفس ذلك الحكم السابق المطبق تأريخياً على غير المسلمين القاطنين في الدولة الإسلامية! كلا، بل حكم غير المسلمين الآن في الدول الإسلامية يشبه حكم القبائل الثلاث في المدينة: (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة) الذين ارتبطوا بالدولة الناشئة على أساس عقدٍ مكتوب بين الطرفين، كان بمثابة دستور باصطلاح العصر، والذي وضّح مسؤوليات كل الأطراف تجاه بعضها البعض، وتجاه الدولة والمجتمع على كل الصُعد: العسكري والإقتصادي والأمني والقضائي.

إذن: يجب أن يُعاملَ المواطنون غير المسلمين في هذا العصر، والذين أصبحوا جزءاً من المجتمع الإسلامي والكيان السياسي للمسلمين،

على أساس دستور توضع فيه النقاط على الحروف، لكيفية إدارة المجتمع الدولة، بصورة تَضمَنُ حقوق وحريات ومسؤوليات كل الأطراف، وكل الأفراد على قدم المساواة، إلّا ما كان من الخصوصيات الدينية والتي يجب أن تُصان لأصحابها، كما جاء في سورة (الكافرون) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾، وكذلك جاء في أحد بنود (الصحيفة): «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم»[1].

والآن بعد هذا البحث المختصر، ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن: الجزية كانت رمز خضوع غير المسلمين «أهل الكتاب وغيرهم» للدولة الإسلامية وقبولهم المواطنة فيها، وما كان أخذها لازماً، بل كان متوقفاً على كيفية العقد المبرم بين الطرفين.

وبما أن الجزية كانت رمز خضوع غير المسلمين للكيان الإسلامي وقبولهم المواطنة فيها، فقد اكتفى المسلمون في كثير من الأحيان بثبوت هذا الخضوع للدولة، وإن لم يكن بإعطاء الجزية، وذلك كاختيار الموادعة والحياد بين الكيان الإسلامي وغيره من الكيانات، كما وادع رسول الله ﷺ (بني ضمْرة)، حسبما جاء في السيرة النبوية لأبن هشام[2].

أو كاشتراط المسلمين عليهم أن يساعدوهم على أعدائهم المحاربين، كما ذكرنا من قبل وأتينا بمثالين لإسقاط المسلمين الجزية عن بعض الطوائف من غير المسلمين، لمعاونتهم الجيش الإسلامي على أعدائهم المناوئين، وهذان مثالان آخران بهذا الصدد:

* معاهدة (سراقة بن عمرو) مع أهل أرمينية سنة (٢٢هـ)، واشتراطه عليهم الإشتراك في الجهاد مقابل إعفائهم من الجزية، كما جاء في نص المعاهدة: "فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمرٍ ناب أو لم

---

(١) أنظر: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) محمد حميد الله، الطبعة الثامنة، ١٤٣٠، البند (٢٥).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٣١٨، ط١٤٢٧، دار ابن الهيثم.

ينب.. رآه الوالي صلاحاً على أن توضع عنهم الجزاء عمّن أجاب إلى ذلك»[1].

* صلح (حبيب بن مسلمة الفِهري) مع أهل انطاكية، والذي ولّاه (أبو عبيدة) أمرها، فلم يقاتله أهلها ولكنهم بَدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على: «أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في (اللّكام) وألّا يؤخذوا بالجزية»[2].

هذا وعندما يتبين لنا أن الجزية كانت رمزاً لدخول غير المسلمين في حالة السلم والوئام مع الكيان الإسلامي، نعلم أن الجدال الذي خاض فيه بعضُ أهل العلم بصدد علة تشريع الجزية، هل هي تعويض عن الزكاة، أو الجهاد والدفاع؟! لا جَدوى منه، ولكن من المؤكد أن الجزية ليست - كما قال البعض - عقوبة عن كفر الكافرين، إذ من المستحيل أن يعاقب الله الحكيم الكافرين عن اختيارهم الكفر في الدنيا، التي هي دار ابتلاء وليست دار جزاء، إذ هو أعطاهم حق الإختيار بين الإيمان والكفر، فقال ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

أجل ليست الجزية سوى رَمزٍ لخضوع غير المسلمين للكيان الإسلامي، ودخولهم في حالة السلم معه، وقبولهم المواطنة في ظله، ولهذا اكتفى الكيان الإسلامي من غير المسلمين، بإبداء السلم والوئام معه، وإن لم يتجسد ذلك السلم والوئام في اعطاء الجزية، إذ الذي يريده الكيان الإسلامي من غير المسلمين، هو الدخول في حالة السلام والإحترام المتبادل، أيّاً كان شكله، وكيفما كانت آلياته، المهم هو أن يكون هناك التزام علنيّ بالكيان الإسلامي من المواطنين غير المسلمين، وخضوع وانقياد لسياساته العامة، مثلهم في ذلك مثل المسلمين، ولهم الإحتفاظ بخصوصياتهم الدينية، كما

(١) تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٣٦، وانظر (آثار الحرب..) ص٦٨٧، ٦٨٨.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري، ص١٦٦، وانظر (آثار الحرب...) ص٦٨٨.

قلنا في السابق، وهذا هو الأساس الذي عليه قرّر العلماءُ كلُهم أو جُلُهم أن المواطنين غير المسلمين الذين ضربت عليهم الجزية، عندما يُقررون الدخول في سلك الجيش والدفاع الوطني في الكيان الإسلامي، ستسقط عنهم الجزية تلقائياً[1].

وبناءً عليه:

فلا وجه في هذا العصر والواقع الذي نعيشه، للحديث عن الجزية، بالنسبة لغير المسلمين الذين أصبحوا مواطنين في الدولة الإسلامية، وأثبتوا التزامهم بالكيان الإسلامي، بأكثر من صورة، كالإلتزامات المالية من ضرائب ونحوها، والدخول في الجيش...الخ.

وفي ختام هذا البحث حول الجزية، نُعرِّج على الإجابة عن بعض الأسئلة التي كثيراً ما تثير الجدل، ولكن بإيجاز:

١ - ما سبب ذكر الجزية في سياق الكلام عن أهل الكتاب المناوئين للكيان الإسلامي؟!

السبب هو أنه لم يكن في وقت نزول آية الجزية وجودٌ لغير أهل الكتاب، لهم وجود في دائرة نفوذ ونقاط تماس الدولة الإسلامية، إذ المشركون إمّا أنهم آمنوا ودخلوا في الإسلام صادقين، أو أسلموا ظاهراً واستَبطَنوا النفاق، ولم يبقوا على دينهم الشركي السابق.

ومن الواضح أن الروم كانوا نصارى، ويدعون اتِّباع المسيح عليه السلام، وكان الفرس المجوسيون، وإن لم يكن لهم كتاب متفق عليه، فهم في الأقل كان لهم شبهة كتاب، ولهذا قال رسول الله ﷺ في حق المجوس «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ**» (رواه مالك برقم: (٩٦٨) وَضَعَّفَهُ الألباني في (إرواء الغليل) رقم: (٢٢٥٣»

(١) المحلى لابن حزم، ج٧، ص٢٣٤، وشرح النيل: ج١٠، ص٤٠٨، والمدخل للفقه الإسلامي للأستاذ محمد سلام مدكور، هامش: ٥٠، و(آثار الحرب..) ص٦٨٧.

٢ – ما معنى كلمة الجزية؟!

كلمة الجزية فِعْلة من الجزاء، والجزاء هو ما يؤخذ أو يُعطى مقابل شيء آخر، سواء كان إيجابياً أو سلبياً، كما قال تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [الواقعة].

هذا وقد أشرنا سابقاً إلى أن بعض العلماء يرون أن الجزية تؤخذ ممّن تؤخذ منهم، جزاءً على كفرهم، وبعضهم الآخر يرون أن الجزية بدل عن الجهاد والدفاع عن الوطن والدولة!

ولكنّي أرى أن الأصح أن نقول:

إن الجزية رمز لخضوع غير المسلمين للكيان الإسلامي وقبولهم المواطنة فيه، وهي في الوقت ذاته جزاء لهم على محاربتهم للكيان الإسلامي ومعاداتهم له، وهذا هو السبب في تسميتها بـ(الجزية) التي تفيد معنى العقاب! ومن المنطقي جدّاً أن يُعاقب الكيان الإسلامي من حاربه وعاداه من غير المسلمين، على محاربتهم ومعاداتهم، ولكن ليس من المنطقي أن يعاقبهم على عدم إعطاء الزكاة، أو ممارسة الجهاد والدفاع، إذ كلاهما من شعائر الإسلام وعباداته التي لا تَلزَمُ غير المسلمين!

٣ – ما معنى كلمة (أهل الذمة)؟

جاء في (مختار الصحاح): «أهل الذمة: أهل العقد، قال أبو عبيدة، الذمة: الأمان في قوله ﷺ: «**يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ**» (رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ برقم: (٢٧٥١)، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٢٦٨٥) وَقَالَ الشيخ الألباني: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) وأذَمَّه: أجاره[١].

أهل الذمة هم أهل العهد الذين يرتبطون بأهل الإسلام وكيانهم السياسي بعهد وعقد مبرم بين الطرفين، وإنما سمي المواطنون غير المسلمين بـ(أهل الذمة) لأن لهم عهداً وعقداً في ذمّة المسلمين وكيانهم السياسي،

---

(١) انظر: ص ٢٠٦، لفظ: ذ م م.

فيجِبُ عليهم أن يحفظوهم في دينهم ودنياهم، وأن يُعاملوهم حسب قاعدة: (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)[1]، وعلى اساس البرّ بهم، والإقساط إليهم، كما ذكرناه في السابق.

٤ – ما معنى كلمة (صغار) في الآية (٢٩) من (التوبة)؟

جاء في (مختار الصّحاح): الصّغار بالفتح: الذُّلّ والضَّيْم[2]. وههنا يثور سؤال: كيف ولماذا يُجبِرُ الإسلام أهل الكتاب على الذلّ والإنقياد وهم يُعطون الجزية؟!

والجواب: إن هذه الآية نزلت في جوّ كان الصّراع بين الكيان الإسلامي الناشيء، وأهل الكتاب المتربصين به في كل الجهات، والمتمثّلين في اليهود والنصارى والمجوس، على أشدّه، وعندما نأخذ بعين الإعتبار الجوّ والملابسات التي نزلت فيها الآية المباركة، ثم فهِمنا كلمة الصّغار بمعناها اللغوي بعيداً عن المفاهيم المستحدثة التي علّقها الفقهاء بها، لا نرى يها أيّ إشكال، إن من المنطقي أن يُطلب من القوى التي خرجت توّاً من ميدان معركة خاسرة ضد الكيان الإسلامي، ورضيت بالصلح ومالت إلى السّلم، أن تُثبت صدقها مع الكيان الإسلامي، بإعطاء جزية وضريبة في حالة خضوع وانقياد، كما يُطلب من الجندي الذي يريد الإستسلام وسط المعركة، أن يُلقي سلاحه ويرفع يديه، تطميناً للطرف المقابل، بأن موقفه هذا ليس خدعة وكيداً.

٥ – ما مدى جواز إسناد الوظائف العامة للمواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية؟

نقول وبإختصار شديد:

أما في مجال شؤونهم الداخلية الخاصة بهم وعلى مستوى مجتمعاتهم

---

(١) أنظر: مجموعة الوثائق السياسية... ص١٢٧.

(٢) انظر: ص٣٢٣، لفظ: ص غ ر.

وكياناتهم ومؤسساتهم، فهم أحرار كيف يُنظمون أمورهم الدينية والدنيوية، ولا تتدخل الدولة في شؤونهم إلا في حالة تستوجب التدخل، كأنتشار الفوضى والإعتداء فيما بينهم. وأما في مجال الشؤون العامة للدولة ووظائفها، فلم يُحدِّد لنا كتابُ الله تعالى - حسب فهمي - إطاراً محدداً في هذا المجال، لذا أرى أن للدولة الإسلامية والقائمين عليها والرّاسمين لسياساتها، مجال واسع في الإجتهاد وإسناد مختلف الوظائف إلى ذوي الكفاءة من غير المسلمين.

وذلك باستثناء تلك المهام والوظائف التي لها صبغة دينية، مثل رئاسة الدولة وسلطاتها الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) وقيادة الجيش، والإمامة والخطابة، ومن الواضح أن لغير المسلمين، سواء أهل الكتاب وغيرهم، نفس الحق فيما يخصّ شؤونهم الدينية الخاصة، فلهم مطلق الحرية في كيفية إدارتها، ولا يجوز للمسلمين التدخل فيها، لا من قريب ولا من بعيد، وهناك أدلة كثيرة على هذا، منها:

* ما جاء في كتاب النبي ﷺ لأهل نجران: «..**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمّة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم ومِلّتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيّر أُسقف من أُسقُفيَّتِهِ، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دَنيّةٌ، ولا دم جاهلية، ولا يُخسرون ولا يُعشرون، لا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النّصف، غير ظالمين ولا مظلومين**»[1].

* وجاء في كتاب الذمة من الرسول ﷺ لثقيف: «..**وإذا طعن طاعن على ثقيف أو ظلمهم ظالم، فإنه لا يُطاع فيهم من مالٍ ولا نفسٍ، وان الرسول ينصرهم على من ظلمهم والمؤمنون، ومن كرِهوا أن يَلِجَ عليهم من الناس، فإنه لا يَلِجُ عليهم، وإن السوق والبيع بأفنية البيوت، وإنه لا يؤمّر عليهم إلا بعضهم على بعض، على بني مالك أميرهم، وعلى الأحلاف**

(١) فتوح البلدان، ص٧٢، والخراج لأبي يوسف، ص٧٢.

أميرهم...»[1].

ويبدو جلياً من هذين النصين أن الكيان الإسلامي الأول، قد أعطى الطوائف غير الإسلامية المنضوية تحت لوائه من الحقوق السياسية والإجتماعية والعسكرية والإقتصادية، بالإضافة إلى الحقوق الدينية، ما يجعل كياناتهم تتمتّع بكثير من الحقوق والمزايا، التي تتمتع بها في عصرنا الحالي الأقاليم الفيدرالية أو حتى الكونفيدرالية.

والدليل على أن الكيان الإسلامي يجب عليه أن يُعامل المواطنين غير المسلمين كما يُعامل المسلمين سواء بسواء، بأستثناء الأمور التي لها صبغة دينية، وتقتضيها الطبيعة الإسلامية للكيان الإسلامي، هو الآيات المباركة الكثيرة التي يأمر الله تعالى فيها نبيّ الله والمؤمنين بالعدل وإقامة القسط، في كافة المجالات ومع كل الناس، ومن البدهي أن العدل والقسط يستلزِم المساواة ويقتضيها، بل العدل والمساواة متداخلان إلى حدّ كبير[2]، وهذه بعض الآيات التي تأمر بالعدل والقسط:

١. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

٢. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل].

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء].

---

(١) الأموال، لأبي عبيد، ص١٩١.

(٢) عادل بين الشيئين وعدلتُ فلاناً بفلان، إذا سويت بينهما، وتعديل الشيء: تقويمه. مختار الصحاح: ص٣٦٨ لفظ، ع د ل.

٤. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة .

وبناءً عليه: يجب أن يُعامل المواطنون غير المسلمين، على أساس العدل والمساواة، سواء في مجال إسناد الوظائف العامة إليهم، أو في غيره من المجالات، وذلك لأن الله تعالى أعلن أنه أرسل رُسله الكرام جميعاً لتحقيق القسط وتثبيت العدل بين الناس كلهم، بغضّ النظر عن أديانهم وألوانهم، وكذلك أمر الله بالعدل أمراً مطلقاً، وأمر نبيّه والمؤمنين، أن يبالغوا في القيام بالقسط والعدل، وجليٌ أنّه لا يتحقق العدل والقسط والمساواة، إلا إذا عومل المواطنون كلهم معاملة واحدة، وفي كلّ المجالات وكل الأحيان.

ثم الدليل على أنه لا يجوز إسناد الوظائف العامة التي لها صبغة دينية وتقتضيها الطبيعة الإسلامية للكيان الإسلامي، إلى غير المسلمين، كالإمامة (رئاسة الدولة)، وقيادة الجيش، والخطابة، ورئاسة السلطات الثلاث، هو: أن الله تعالى ألزم المسلمين أن يُحكِّموا عليهم شريعة الله ولا يتحاكموا إلا إليه، كما قال تعالى:

١ - ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٢ - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء .

وكذلك أمر الله المؤمنين أن يطيعوا الله ويطيعوا الرسول ﷺ - أي يلتزموا بالكتاب والسنة - وأن يلتزموا أوامر ونواهي مسؤوليهم المسلمين:

٣ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء .

ومن المعلوم أنه لا تتحقق ولاية المؤمنين على أنفسهم، وكذلك لا

يتمكنون من تطبيق شريعة الله تعالى في كافة جوانب حياتهم، ما لم يكن على رأس كل من السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية، مسلم كفؤ قدير، إذن: التزام المؤمنين بالقرآن والسنة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وإطاعتهم لولاة أمور مؤمنين ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ وحلّ مشاكلهم وفَضّ نزاعاتهم بإرجاعها إلى كتاب الله وسنة رسول الله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ومن ثم عدّهم من المؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ﴾. كلّ هذا متوقفٌ على كون ولاة الأمور مؤمنين، أي: من أهل الإيمان، وذلك لأن أولي الأمر المؤمنين هم الذين يؤمنون بكتاب الله والسنة، وبالتالي يطيعون الله ورسوله ﷺ، من خلال التزامهم بالكتاب والسنة في ذات أنفسهم وفيمن تحت ولايتهم.

ومفهوم كلمة الولاية (أولي الأمر) وإن كان في أصله شاملاً لكل المستويات، ولكن المتبادر إلى الذهن منه هو أعلى مستواه، والذي يتمثّل في رئاسة السلطات الثلاث: التشريع والتنفيذ والقضاء.

إذاً:

لا يجوز أن يتولّى رئاسة هذه السلطات الثلاث في أعلى مستواها، إلا أهل الإيمان.

وأما بالنسبة لإمامة الصلاة والخطابة وقيادة الجيش، فمن البيّن أن الصلاة والخطبة، كلتيهما من شعائر العبادة التي يُعرف بها أهل الإسلام، وهما من خصائص أمة الإسلام ومميّزاتها التي تميّزها عن غيرها، لذا لا يجوز عقلاً وشرعاً أن يتولّاهما غير أهل الإيمان.

وكذلك لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يتولّى قيادة الجيش ويقود المجاهدين في ساحات الوغى، إلّا قائد مسلم، يؤمن بالإسلام ويتبنّاه عقيدة ومنهاج حياة، إذ من الواضح أنه لا يؤتمن على أرض المسلمين وعِرضهم، ودينهم ودنياهم، إلّا أهل الإيمان، ومن غير المنطقي أن يُكَلَّفَ بِحفظ بلاد المسلمين والدفاع عن مُقدّساتهم وحُرماتهم، مَنْ لا يؤمن بدينهم!!

وكان رسول الله ﷺ يتولّى بنفسه الكريمة إمامة الصلاة والخطابة في الجمعة والعيدين وغيرها من المناسبات الدينية والدنيوية، وكذلك كان يقود بنفسه الجيوش في الغزوات ويؤمِّر الأُمراء (القوّاد) على السرايا والمفارز، كما هو معلوم في سنته وسيرته المباركة، وتدلّ عليه هذه الآيات:

أ - ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ...﴾ [النساء: ١٠٢].

ب - ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا...﴾ [الجمعة: ١١].

ج - ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران].





المسألة الثالثة:
ما هو أساس ارتباط المواطنين
غير المسلمين بالدولة الإسلامية؟!

بما أن هذه المسألة قد أُلقي عليها الضوء في ثنايا البحث في المسائل السابقة، لذا لا أُطيلُ الوقوفَ أمامها، بل أُنهيها بإِيجازٍ، فأَقولُ:

إن أساس ارتباط المواطنين غير المسلمين بالدولة الإسلامية، هو:

أولاً: كونهم بشراً خلقهم الله تعالى ليبتليهم، وأسكنهم الأرض وأعطاهم الإرادة الحرّة، ليَختاروا ما يرغبون فيه من إيمانٍ بالله وعبودية صحيحة له، أو كفرٍ به وعصيانه.

نعم هذا هو الأساس الأول لارتباط المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، بالدولة الإسلامية، وقد بيّنّا في السابق أن الدولة الإسلامية التي تقوم على التصور الإسلامي للوجود والحياة والإنسان، تسمح لكل أصناف البشر - مسلمين كانوا أم كافرين - أن يعيشوا في ظلّها كي يقضوا فترة حياتهم الدنيوية الإبتلائية، كما أرادها الله تعالى لهم.

إذاً:

مجرّد كون المواطنين غير المسلمين في الدولة الإسلامية بشراً، كافٍ لسماح الدولة الإسلامية لهم بالعيش الكريم في ظلها، إذ البشر كلهم مبتلون بهذه الحياة الدنيوية، ومسموح لهم كلهم أن يحيوا فيما يرتبط بما بينهم وبين ربهم، حسبما يريدون ويختارون.

ثانياً: كونهم ارتضوا بالمواطنة في ظل الدولة الإسلامية والخضوع لها: وقد فصّلنا القول في هذا الموضوع في السابق، وقلنا بأن الإسلام يسمح لكلّ إنسان يقبل بكونه مواطناً في ظلّ حكمه وكيانه السياسي، وبالتالي الإلتزام بأحكامه وآدابه العامة، بغضّ النظر عن دينه وقومه ولونه ولغته.. الخ، أن يعيش في ظل دولته وفي كَنَفِهِ، وبما أنّنا قد أشبعنا هذين الموضوعين فيما تقدّم، بحثاً ودراسة، واستشهاداً بالآيات الكريمة، لذا اكتفينا هنا بهذه الإشارة الوجيزة إليهما.

وهنا نختم المطلب الثاني كلّه، ونتنقل إلى المطلب الثالث والأخير من المبحث الأول.





المطلب الثالث:
كيفية التعامل مع الكفّار المحاربين

لمعرفة كيفية تعامل المجتمع والكيان الإسلامي مع الكفار المحاربين للإسلام والمسلمين، سواءً كانوا داخل إطار المجتمع والكيان الإسلامي أو خارجهما، يَلْزَمنا الإطّلاع على أنواع الكفار المحاربين، وذلك لاختلاف الأحكام باختلاف الحالات، ليس في هذا المجال فحسب، بل في كلّ المجالات الأخرى أيضاً.

أنواع الكفار المحاربين:

الكفار المحاربون أو الحربيّون، ستة أنواع عموماً - حسب فهمي واستقرائي لآيات الكتاب المبين في هذا المجال - فهم:

١. **إمّا ذووا عهود، نقضوها.**

٢. **أو ذووا موادعة تركوها.**

٣. **أو معتدون على الكيان الإسلامي.**

٤. **أو مانعون عن تبليغ الدعوة الإسلامية.**

٥. **أو ظالمون لأناس مؤمنين، لم يهاجروا ليلتحقوا بالكيان الإسلامي، ووقع الظلم والإعتداء عليهم بسبب دينهم، فاستنصروا الكيان الإسلامي واستنجدوا به، وليس بين ظالميهم وبين الدولة الإسلامية عهدٌ وميثاق.**

٦. أو ظالمون مفسدون في الأرض، مُسْتَضْعِفون لغيرهم من الشعوب أو الأفراد، بأي شكل من أشكال الإستضعاف، كان.

نعم - حسب استقرائي لكتاب الله - لا يخرج الكفار الحربيّون الذين يتصدّى لهم الكيان الإسلامي لدفع ظلمهم، وعدوانهم عن هذه الأنواع الستة، لِذا فعندما نتحدث عن كيفية التعامل مع كل من هذه الأنواع الستة، نكون قد بيّنّا كيفية التعامل الشرعي مع الكفرة المحاربين كلهم.

ونُقسِّم هذا المطلب إلى فقرتين، في الأولى منهما نَتَحَدث عن أربع قواعد أساسية يجب الإلتزام بها، في مجال التعامل مع الكفار الحربيين جميعهم بدون استثناء، وفي الثانية منهما نتحدث عن الموقف الشرعي، تجاه كلٍّ من أنواع الكفار المحاربين الستة:



الفقرة الأولى:
أربع قواعد أساسية في مجال التعامل مع الكفار الحربيين

القاعدة الأولى: لا يجوز الإعتداءُ على الكفار، لا قبل القتال، ولا أثناءه، ولا بعده:

بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، إذْ قوله تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ بعد أمره بالقتال في سبيله ضدّ من يقاتلهم من أعدائهم، برهان ساطِعٌ على أنه لا يجوز الإعتداء في القتال في سبيل الله، سواء قبله، أو أثناءه، أو بعده، وذلك لأن الآية الكريمة ذكرت القتال، ثم نهى عن الإعتداءِ مطلقاً، وهذا يعني أن كلَّ اعتداء يتعلق بالقتال، بدءاً وأثناءً وانتهاءً، مُحَرمٌ.

ويتمثل الإعتداءُ قبل بدءِ القتال أو في بدايته، بأن يُقاتَلَ مَنْ لَيْس قتاله جائزاً، وهم ما عدا الأنواع الستة الذين نتحدَّث عنهم فيما بعد، فغير أولئك الأنواع الستة، لا يجوز قتالهم، كما يبدو لي والله هو العليم الحكيم.

وأما الإعتداءُ على الكفار المحاربين أثناء القتال، فيشمل أشياء كثيرة مثل: التمثيل بجثثهم، وتعذيبهم أثناءَ قتلهم، وإتلاف ممتلكاتهم من زروع وثمار، وتهديم بيوتهم التي لا تتوقف عليه مصلحة حربية، أو معاملتهم أثناءَ أَسرِهم، بما لا ينسجم مع قواعد الشرع...الخ.

ويجب التنبّه إلى أن قوله تعالى: ﴿...فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ

بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ..﴾ [البقرة: ١٩٤] مقيَّدٌ بما يوافق الشرع، وإلّا فإنَّ مخالفة الشرع محرَّمة في كل الأَحوال، فعلى سبيل المثال: إذا ما قام العدوّ بانتِهاك الأعراض، لا يجوز للمسلمين أن يقابلوا فِعْلَتهم بمثلها، لأَن انتهاك الأعراض حرام في الشريعة، لذا فقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ ليس مطلقاً، بل هو مقيَّدٌ بما هو مباح فعله مع الأعداءِ في الشرع، ومعلوم أنَّ انتهاك العِرْضِ ليس مباحاً بحالٍ.

القاعدة الثانية: يجب أَنْ تسبق الدَّعوةُ القتالَ، أي: الدعوة للإسلام والدخول فيه، أو إِعلان حالة السلم مع الكيان الإسلامي:

والدليل على هذه القاعدة الثانية، علاوة على سنة رسول الله ﷺ وسيرته العملية، وكذلك سيرة خلفائه الراشدين، في قتالهم مع الكفار من مشركي العرب واليهود والنصارى والروم (النصرانيين) والفرس (المجوسيين)، كما هو مسجَّل في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، كسيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وابن كثير، وابن الأثير، وابن خلدون وغيرها، نعم علاوة على هذا وقبله، هو قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ..﴾ [الفتح: ١٦]، إذْ معنى قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ هو أن الكفار إذا رضخوا للحكم الإسلامي، فلا يجوز قتالهم، وبما أنه لا يُعلَمَ قُبولُهم أو رَفْضُهم للإسلام إلّا بعد توجيه الدعوة إليهم، لِذا يجب أن توجَّه إليهم الدعوةُ، قبل الشروع بقتالهم.

وكلمة ﴿يُسْلِمُونَۖ﴾ في هذه الآية، تعني: يخضعون ويستسلمون لسلطة الدولة الإسلامية، وليس المقصود بها: يدخلون في الإسلام، وذلك لأن تخيير الناس بين القتال والدخول في الإسلام، إكراهٌ لهم على الدخول في الإسلام، وهذا حرام في دين الله تعالى، ومُنافٍ لحكمة الله تعالى في خلق الإنسان، كما بينّا هذا الموضوع في السابق بما فيه الكفاية، وسَنُلقي عليه ضوءاً آخر، في القاعدة الثالثة التالية.

هذا بالنسبة للآية الكريمة، وأما بالنسبة للدعوة الموجَّهة إلى الكفار

قبل قتالهم، فهي تتضمن ثلاثة أشياء، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ، وجاء فيه: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك، فاقبل منهم كف عنهم... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٧٣١)، التِّرمِذِيُّ برقم: (١٦١٧)، وَأَبُو دَاوُدَ برقم: (٢٣١٢) عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عنْ أَبِيهِ).

إذن: الدعوة التي يجب أن تسبق القتال هي: الدعوة إلى الدخول في الإسلام، وإلّا فإعطاء الجزية، وإلّا فالقتال، وكانت سيرة الرسول ﷺ في أواخر حياته المباركة، أي بعد نزول آية أخذ الجزية من الكفار الذين يختارون إعطاء الجزية مع البقاء على أديانهم، وسيرة خلفائه، تسير على هذا المِنْوال، كما ذكرنا سابقاً، وهذه الحقيقة من بديهيات التأريخ الإسلامي والسيرة النبوية والخلافة الراشدة.

القاعدة الثالثة: الكفار لا يقاتلون من أجل إدخالهم في الإسلام، بل لِرَدِّ اعتدائهم وظلمهم وإِخضاعهم للدولة الإسلامية، وجعلهم يدخلون في السِّلم و الصلح معها:

أما دوافع قتال الدولة الإسلامية ضدّ الكفار المحاربين، فَسَنبيِّنُها - بإذن الله - بعد قليل، لذا نُرْجِىءُ الحديث عنها، ولكن ما نبيِّنه هُنا، هو أن القتال والجهاد في الإسلام، بخلاف تصور كثير من الناس، ليس من أجل إدخال الكفار في الإسلام، لأن هذا غير جائزٍ شرعاً، وغير ممكن فعلاً، كما فصَّلْنا القول في ذلك في السابق، والذي سبَّب ثوران هذه التصوّر والظن الباطل - كما ذكرنا من قبل أيضاً - هو الخطأُ في فَهم قوله تعالى:

١. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ [الأنفال].

إذ تصور أولئك وظنوا أن المقصود بكلمة (الدين) في الآيتين هو الإسلام، ويكون معنى الآية حينئذٍ: وقاتلوا الكفار إلى أن تزول الفتنة، ويكون (الإسلام) لله!!

ولكن مما لا شك فيه أن هذا المعنى للآية، معنى مُعْوَجٌ وغير مستقيم، وذلك لأن الإسلام كالدين الحق الوحيد، هو لله فَحَسْبُ، وليس لغيره فيه نصيبٌ، سواء قاتل المسلمون وجاهدوا في سبيل الله تعالى، أم لا!

لِذا: لا يمكن أَنْ تُجْعَلَ صيرورة الدين (الإسلام) كلّه لله تعالى، هدفاً للقتال، لأن الإسلام هو دين الله الحق ومنهاجه الثابت للناس، ولا يتوقف هذا على القتال، حتى يُجْعَل هدفاً وغاية له!

والصحيح هو أن (الدِّين) في الآيتين يعني[1] (الطاعة والخضوع) وهذا هو المعنىٰ الأساسي لكلمة (الدين)، ومعنى الآيتين على هذا يكون هكذا:

وقاتلوا الكفار حتى لا تبقى فتنةٌ، ويكون الخضوع لله فحسب، أي: قاتلوا وجاهدوا أيها المسلمون، الكُفّارَ، إلى أن لا تبقى لهم إمكانية تعذيب الناس، واضطهادهم، وإذلالهم، والحيلولة بينهم وبين دين الله الحق، بحيث يصبح الناسُ ولَيْست فوقهم سلطة أحدٍ، سوى سلطة دين الله تعالى، والمتمثّل في الدولة الإسلامية، والذي لا يجيزُ أَنْ يُكرَهَ الناسُ على أي دين، ولا يُبِيحُ لأحدٍ أن يضطهد أحداً من أجل دين يتدين به، أو فكرة يعتنقها.

وكذلك الخطأ في فهم قوله تعالى:

٣. ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ

(١) مختار الصحاح، ص٢١٨، والمصباح المنير، ص١٠٨.

يُسْلِمُونَ..﴾ [الفتح: ١٦]، كما نبّهنا عليه سابقاً أيضاً، إذْ حَسِبَ أولئك أن المقصود بقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: الكفار يخيَّرون بين القتال وبين الدخول في الإسلام!

ولكن هذا ليس صحيحاً، وذلك لأن الكفار الحربيين يخيّرون بين ثلاثة أشياء، وليس بين شيئين فقط، كما وضَّحنا هذا سابقاً، وقلّما استعملت كلمة (أسْلَم) بمختلف صيغها، مثل: (أسْلَم، أسلمت، أسلمنا، أَسْلِمْ، أسْلموا..) إلا بمعنى الخضوع والإستسلام، وهذا واضح لمن تأمّل هذه الكلمات في سياقاتها الواردة فيها.

وأحسن مثال في هذا المجال كدليلٍ على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ إنما هو الخضوع للدولة الإسلامية، هو قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام في رسالته التي أرسلها إلى ملكة (سبأ): ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل]، إذ المقصود بقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي: ائتوني خاضعين مستسلمين، وليس المقصود به: ائتوني حال كونكم مسلمين وداخلين في الإسلام، كما هو المتبادر إلى بعض الأذهان، والدليل على ذلك هو:

أولاً: بعد مجيء الملكة إلى سليمان يقول تعالى مبيِّناً موقفها: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل]، فهي بعد مجيئها كانت لا تزال كافرة وعابدة لغير الله تعالى، وهذا يعني أنها لم تأت إلى سليمان (مسلمة) ديناً، بَلْ جاءت (مستسلمة) حكماً!

ثانياً: ثم هي في نهاية المطاف وبعد مشاهدتها لمعجزات سليمان الباهرة عليه السلام، تعلن إسلامها لله تعالى وتقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل]، وهذا أيضا دليل آخر على أنها لم تكن أسلمت من قبل، وبالتالي كان قصد سليمان عليه السلام بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لا تستكبروا عن الخضوع لحكمي وأمري وائتوني مستسلمين، ولم يكن قصد سليمان عليه السلام إكراهَهَا وقومها على الدين الحق، بل كان قَصْدُهُ خضوعَهُم لحكمِهِ ومجيئهم إليه مستسلمين

لسلطته، ومن ثمَّ الحوار معهم، وإراءتهم معجزاته وبيّناته النبوية، والتي أقنعتهم في نهاية المطاف ودخلوا في الإسلام عقيدة وديناً، بعد مجيئهم مستسلمين سياسةً وحكماً.

ثم نقول:

مما لا شك فيه أن دين الله الحكيم، لا يُحَبِّذُ للناس أن يُصْبِحوا منافقين متظاهرين بالإسلام ومُبْطِنين الكُفر، بل النفاق هو أبغض أنواع الكفر إلى الإسلام، بدليل أن الله تعالى جعل عقوبة المنافق الأخروية أشدَّ العقوبات، ومكانه أسفل الدركات فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء].

وبناءً على هذه الحقيقة الواضحة، نقول:

إن تخيير الإسلام الكفار بين الإسلام أو القتال، يعني أن الإسلام يضطر الناس إلى حالة التظاهر بالإسلام والدخول في حالة النفاق! وذلك لأن من يقال له: إِنْ لم تدخل في الإسلام نقاتلك، يضطر - إِنْ لم يختر القتال - إن ينافق المسلمين ويتظاهر بالإسلام!

ولا شك أن الله تعالى لم يستعمل في كتابه كلمة (الإسلام) أو (المسلم) إلّا في حالة المدح، إذن: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ لا يمكن أن يقصد بكلمة (يُسْلِمون) الدخولُ في الإسلام، وذلك لأن دخول الشخص الذي رُفِعَ على رأسه السيفُ، في الإسلام، وإِنْ عُدَّ إسلاماً ظاهرياً وصورياً، لكنه ليس بالإسلام الذي يريده الله تعالى، وهو الإسلام النابع من الإيمان الراسخ، في أعماق القلب الحرِّ!

ومن الواضح أن الله تعالى لا يأمر المؤمنين المجاهدين أن يجاهدوا في سبيل الله، كي يُدْخِلوا الكفارَ في الإسلام، مُرْغَمين مُكْرَهين منافقين!

وخلاصة القول: أَنَّ إِسلامَ من يُخيَّرُ بين القتال والدخول في الإِسلام،

بالمعنى الذي يليق بالله تعالى أن يأمر بتحصيله، غير ممكن، لأن ذلك ليْس إسلاماً بمعناه الشرعي الحقيقي الممدوح، بل هو استسلام ظاهري مذموم، بسبب كون باطنِهِ كفراً مكتوماً.

بل المقصود بـ(يُسلمون) أي: يخضعون للإسلام وحكمه وسلطانه، وهذا المعنى مع كونه منسجماً مع أحكام الإسلام الأخرى، كذلك لا يجعل صاحِبَهُ مضطراً إلى أي نوع من التظاهر غير اللائق بشرع الله، من أن يطلبه من الكفار، بل حالة طبيعية وصحية جداً، أن يخضع المرء لدولة الإسلامِ، ويبقى على دينه ومعتقده، من غير ازدواجية ولا نفاق.

القاعدة الرابعة: كيفية قتال الدولة الإسلامية الكفارَ المحاربين ومراحلِهِ، تختلف حسب اختلاف إمكانيات المسلمين قوة وضعفاً:

وهذه المسألة مبنيّة على قاعدة شرعية عامة، تنطبق على كل الأعمال التي كُلِّفَ بها المسلمون فعلاً وتَرْكاً، وهي: (لا تكليف بما لا يُطاق) أو (لا تكليف الا بمقدور) وهذه القاعدة المتفق عليها بين علماءِ الأمة قاطبة، قاعدة قرآنية ونبوية قبل كونها قاعدة فقهية، إذ يقول تعالى:

١. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ..﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٢. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ..﴾ [التغابن: ٦].

٣. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ..﴾ [الطلاق: ٧].

وقال النبي الخاتم، ورسول الله الأعظم، ونوره الأتم، عليه من الله تعالى أفضل الصلوات وأتم التسليمات:

٤. **(وإذا أمرتكم بأمرٍ، فأْتوا منه ما استطعتم)** رواه البخاري: ٧٢٨٨، ومسلم: ١٨٣٠.

وهذا هو السرُّ في تنوّع واختلاف الأوامر الربّانية الموجهة للمؤمنين والمتعلِّقة بالقتال، كما هو واضح في الآيات المباركة التالية:

١. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج] .

٢. ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

٣. ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ..﴾ [التوبة: ٣٦].

٤. ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

٥. ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ..﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبدون معرفة هذه الحقيقة لا يمكن فهم الآيات المباركة المتعلقة بالقتال، والمحتوية على أوامر وتوجيهات متعدّدة ومختلفة بشأن القتال في سبيل الله، وكيفيته ومراحله فهماً صحيحاً، كما وأن بدون الإطّلاع الكافي على سيرة رسول الله ﷺ عموماً، وخاصّة جانبها المتعلق بقتال أهل الكفر، لا يمكن فهم الآيات المباركات المتعلقة بالجهاد في سبيل الله، في مراحله المتعدّدة، على الوجه الصحيح، إذْ قد بيّن رسولُ الله ﷺ كيفية تطبيق الآيات المذكورة، كلٌ في مرحلتها المناسبة لها، من خلال سُنته العملية وسيرته المباركة، تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وبناءً على ما تقدم ذكره، يمكننا القول:

ان الأساس الذي تتحدَّد عليه كيفية القتال في سبيل الله، شيئان:

أولاً: كون القتال مبرَّراً وحقاً من الناحية الشرعية، وهو أن يكون ضدّ أحد أنواع الكفار المحاربين الستة المذكورين.

وثانياً: كون القتال ممكنا ومستطاعاً فعلاً وواقعاً للمسلمين القائمين به، إذ لا تكليف في الشرع إلا بما هو في الوسع.

وبعد إدراك هذه الحقيقة حق الإدراك، نعرف أن الجدال الدائر حول موضوع: (**هل الجهاد في الإسلام دفاعي فقط، أم دفاعي وهجومي معاً؟!**)، نزاع لفظي أكثر من كونه نزاعاً على المعنى، وذلك لأنه ما دام الإسلام وجِبُ على أتباعه ويُلْزمهم الجهاد في سبيل الله، عند توفّر شروطه الشرعية وملابساته الظرفية وإمكانيات القيام به، إذن: فهم مُلْزَمون بالقيام به عند صول دواعيه الشرعية والواقعية، ثم بعد ذلك قد يَتَّخِذُ شكلاً دفاعياً أو هجومياً، حسبما تُمْليه المقاصدُ الشرعية المنضبطة بدواعيها الشرعية، وتَفرِضُ الظروفُ والملابساتُ الوقتية.

ومعلوم أن مصطلحي الدفاع والهجوم، ليسا من الكلمات والمصطلحات الشرعية التي يجب علينا إلزام أَنفُسنا التقيُّدَ بمفاهيمها، بَل هما مصطلحان عصريان، وتتغير مفاهيمهما حسب الظروف والأحوال وفهوم الشعوب والأمم، إذ يمكن أن يوسَّع مفهوم الدفاع حتى يشتمل على مفهوم الهجوم، لأن الهجوم ـ أحيانا ـ يكون أحسن وسيلةٍ للدفاع، كما أنه يمكن أن يوسَّع مفهومُ الحرب الهجومية حدّاً، لا يسعه الشرع، وذلك كأَن تفسَّر الحربُ الهجومية، بالحرب الظالمة الإعتدائية!

وإنما وضحت هذه المسأَلة، تنبيهاً على أننّا مُلْزَمون بالتقيُّد بمصطلحاتنا الشرعية، حسب المفاهيم اللغوية والشرعية الصحيحة فحسب، ويجب الحَذَرُ والحيطة عندما نرى أنفسنا – لسبب من الأسباب – مُضطرِّين لاستعمال مصطلحات غير إسلامية، إذْ لا شك أنَّ لِتلك المصطلحات مفاهيمها الخاصة بها، وأيضاً لأصلِ نشوئها ملابسات وظروف خاصة بها، لذا قد يسبِّب استعمالنا إياها تشويهاً لكثير من حقائق ديننا الحق، وتشويشاً عليها، وقد نبَّهنا على هذا الموضوع في السابق أيضاً، واستشهدنا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]، وبما أننا قد علَّقنا على هذه الآية وعلى الموضوع كلِّه سابقاً، نكتفي هنا بهذا القدر.

والآن لَنِشْرعَ بتعديد الأنواع الستة للكفّار المحاربين، والموقف الشرعي المطلوب تجاه كل منهم، عند توفّر الإمكانيات اللاّزمة:

الفقرة الثانية:
أنواع الكفّار المحاربين الستة، والموقف الشرعي المطلوب تجاههم

النوع الأول: كفّار ذوو عهود ومواثيق مع الدولة الإسلامية، فنقضوها:

قال الله الحكيم تبارك وتعالى في بيان الموقف الشرعي المطلوب من الدولة الإسلامية، تجاه كفار معاهدين مع المسلمين، ولكن كلما واتتْهُم الفرصَةُ، ينقضون عُهودَهم، وينتهزون الفرص للإيقاع بالمسلمين:

١. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

٢. ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة].

ونُعلِّق على كلتا المجموعتين من الآيات المباركة باختصارٍ، فنقول:

١) أما الآيات (٥٥ إلى ٥٨) من (الأنفال)، فيبيِّن الله تعالى في الآية (٥٥): أنَّ الكفّار هم شرّ الدوابّ، أي: أسوأُ أنواع المخلوقات عند الله تعالى وفي ميزانه العدل، ويعلِّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّـهـم مـن جـرّاءِ كفرهم وعدم إيمانهم بالله، ارتدّوا إلى أسفل سافلين، فهم شرُّ البريَّة وأسوأُ الخليقة على الإطلاق!

وفي الآية (٥٦) يعرِّف أولئك الكفار الذين هم أسوأ المخلوقات في ميزان الله تعالى، بكونهم ذَووا عهد مع رسول الله ﷺ - والكيان الإسلامي - ولكنَّهم نقضوا عهدهم أكثر من مرة، بدون أن يراعوا حُرْمَةَ العهود والمواثيق.

وفي الآية (٥٧) يأمر الله تعالى رسوله ﷺ، أنه إذا ما ظَفَر بأولئك الكفار الخونة الغادرين في الحرب، فَلْيُلَقِّنهم دَرْساً قاسياً، يَتَّعظون به، بل ويعتبر به مَنْ هم وراءهم مِنَ الكفار المتربِّصين، وينفرط عقد اجتماعهم على المسلمين من شدة الخوف!

ولكن في الآية (٥٨) ينبِّه الله تعالى رسولَه والمؤمنين أَنَّ ذلك الإِجراء المذكور، انما يجوز اتِّخاذُه فقط مع الذين نَقَضوا عَهْدَهم فعلاً بشواهد وقرائن ملموسة، وأما بالنسبة للذين يُتوقَّعُ منهم الغَدْرُ والنَّقْضُ ويُتَخوَّفُ منهم، ولكنَّهم لمّا نقضوا عهدهم بعد، فهؤلاء لا بدّ وأن يُعْلَموا ويُخْبَروا بانتهاءِ عهدهم، مع بيان الأسباب، قبل القيام بأي إجراء ضدّهم، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي يستوي الطرفان في العلم بانتهاء العهد.

٢) وأما الآيات (١٠ إلى ١٥) من (التوبة)، فيبيِّن الله تعالى في الآية (١٠)، أن المشركين دَيدَنَهُم عَدَمُ رعاية القرابة والعهود، والإعتداء على المسلمين كلما سَنَحَتْ لهم فرصة.

وفي الآية (١١) يعلن سبحانه وتعالى، أن المشركين ورغماً عن كل ما مرَّ ذكره، إذا ما رجعوا إلى الله ودينه، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهم يُصْبِحونَ إخواناً للمؤمنين في الدين، ويفتحون صفحة جديدة ومشرقة في حياتهم.

وفي الآية (١٢) يذكر سبحانه بأن المشركين إذا ما نقضوا عهودَهم مع المسلمين، واستمرّوا في الطعن في الإسلام، وهو مُخالِفٌ لما اتُّفِقَ عليه وعُوهدوا عليه، ففي ذلك الوقت أَيُّها المؤمنون! قاتلوا قادة الكفر وروّاده، لأنهم لا يحافظون على عهودهم، لَعَل التنكيل بهم في ساحات الوغى، يجعلهم يرجعون إلى رشدهم، وينتهون من الغدر ونقض الأَيمان والعهود، وَيتَّصفون بالوفاء!

وفي الآية (١٣) يُهَيِّج الله تعالى أهلَ الإيمان ويُحَرِّضهم، على قتال أهل الكفر الغادرين الناكثين للعهود، ويقول لهم: أَوَ لا تُقاتِلون قوماً نقضوا عهودَهم أولاً، وأرادوا إخراج الرسول ﷺ من المدينة (ثانياً)، وهم الذين بادروا المؤمنين بالحرب والإعتداء عليهم (ثالثاً)؟! ومعلوم أن كلاً من هذه الأسباب كافٍ لقتالهم، فكيف كلُّها مجتمعة! ثم يقول تعالى: ﴿.. أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وثم في الآيتين (١٤ و١٥) يبيِّن الله تعالى مجموعةً من ثمار الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار الناقضين للعهود، وهي:

١) تعذيب الكفار الغادرين بأيدي المؤمنين.

٢) إخزاؤه إياهُم.

٣) نصر المؤمنين عليهم.

٤) شفاء صدور المؤمنين بالإنتقام من أعدائهم.

٥) ذهاب غيظهم وحنقهم الشديد عليهم.

٦) توبة الله تعالى على من يشاء من المؤمنين، بسبب طاعتهم لله، ومن الكفار بسببِ توبتهم وإيمانهم.

وأودّ أن أشير إلى ثلاث نقاطٍ، في هذه الآيات والآيات التي قبلها:

الأولى: تكرّر قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في كل من الآية (٥) والآية (١١)، ولكن مع فارق في ختام الجملتين، إذ قال تعالى في ختام جملة الآية (٥): ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ ولكن في الآية (١١) قال: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ..﴾، ثم قال تعالى في التعقيب على جملة الآية (٥) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ولكن في تعقيبه على جملة الآية (١١) قال: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وأَرى أن حكمة - أو إِحدى حِكم - هذا الإختلاف والتنوع في التعبير، هي:

أن الآية (٥) تتحدث عن المشركين الواقعين في الأسر، بعد انهزامهم في الحرب التي شنَّها عليهم المسلمون، من جرّاء نقضهم للعهود، ولهذا قال تعالى: فإِن أَسْلَموا والتزموا بالإِسلام، فَأَطْلِقوا سراحَهم، وعقَّب على ذلك بقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كي يعلم كل من المسلمين والمشركين، أنَّ بابَ التوبة إلى الله مفتوح، ومغفرة الله ورحمته واسعتان وشاملتان.

ولكن الآية (١٠) تتحدَّث عمّا قبل الحرب، ولهذا قال تعالى: فإِن رجع المشركون (الناقضون للعهد المبرم) إلى الإسلام والتزموا الشريعة، فهم يُصْبحون إخواناً لكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، سواءً، وعَقَّب على هذا بقوله: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تنبيهاً على أن هذا التكرار لتلك الجملة القرآنية، تفصيلٌ وتوضيحٌ وبيانٌ، تحته حِكَمٌ وأسرارٌ، ولكن يُدْ كُ حكمة وسرَّ هذا التكرار أهل العلم فحسب.

الثانية: وكذلك تكرّر قوله تعالى في وصف المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ في الآية (٨)، وقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ في الآية (١٠)، ولكن بين الجملتين فروق، هي:

١. جملة الآية (٨) صيغتها خطابية مع المؤمنين، يُعَرِّف بهم موقِفَ المشركين تِجَاهَهُمْ، ولكن جملة الآية (١٠)، غيابية تتحدث عن كل مؤمنٍ، وموقف المشركين العدائي نحوه، وذلك تنبيهاً على أن هذا هو موقف المشركين مع كل المؤمنين.

٢. سبقت جملة الآية (٨) بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ..﴾، ولكن جملة الآية (١٠) لم تُسْبَق بشيء، بل بدأت مباشرة، وذلك لأن الجملة الأولى جاءت في سياق توضيح عدم التزام المشركين بالعهود، ولكن الجملة الثانية وردت في سياق التعريف بطبيعتهم الثابتة.

٣. ولذلك عقَّب سبحانه على الجملة الأولى بقوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ في حين عقَّب على الثانية بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ وكلا التعقيبين يناسبان السياق الذي وردت فيه الجملة، وهما سياقا بيان عدم التزام المشركين بالعهود، وتوضيح طبيعة المشركين الثابتة.

الثالثة: علَّل سبحانه وتعالى الأمر بقتال المشركين الناقضين للعهد، بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: (إِنَّهُمْ لاَ إِيْمَانَ لهم) تنبيهاً على أن الكافرين إِنَّما يُقاتَلون على ظلمهم واعتدائهم وغَدْرِهم ونقضهم للعهود، وليس على كفرهم الذي أعطاهم الله الحق في اختياره: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وانما ذكر سبحانه كلتا حالتي صيرورة المشركين إخواناً في الدين، وإباحة قتالهم من جرّاء نكث الأَيْمان، ولم يذكر الحالة الثالثة، وهي بقاؤهم على الكفر والشرك، عند عدم نقضهم للعهد، لأنَّها واضحة من السياق.

النوع الثاني: كفارٌ موادِعون للدولة الإسلامية، ولكن تركوا الموادعة ودخلوا في حالة الحربِ:

وهؤلاء هم النوع الثاني من الكفار المحاربين، الذين أجاز الإسلامُ بل أوجب قِتالَهم على الكيان الإسلامي، كما تبيِّن لنا الآية (٩١) من (النساء) حقيقة هذا النوع من الكفار، والموقف الشرعيَّ الذي يَلْزَمُ المسلمين اتِّخاذُه تجاهَهُمْ:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

إذْ يتحدَّث سبحانه في هذه الآية المباركة، بعد أَن تحدَّث في الآية التي قبلها، عن قوم كفارٍ اختاروا الحياد النزيه بين الجبهة الإسلامية، وجبهة الكفر المُتشَكِّلة مَن قومهم، فلم يميلوا إلى أحد الجانبين، ووقفوا على الحياد، نعم يتحدث جلَّ شأنه في هذه الآية عن نوع آخر من الكفار ذو طبيعة نفاقية ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي: يريدون أن يُطَمْئِنُوا كلتا الجبهتين المسلمة والكافرة - وفي الحقيقة أن يخدعوهما - بأنَّهم (أي: أولئك الكفار) معهم، وليسوا ضدَّهم!

ثم يصفهم سبحانه بقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ أي: كلّما رجعوا إلى الكفر والشرك، انغمسوا فيه كيداً وتدبيراً وتخطيطاً مع جبهة الكفر، وإنما استعمل فعل (اركسوا)[١] مجهول الفاعل، تصويراً لغلبة الكفر على قلوبهم وعقولهم، وكأنَّهم فقدوا الإرادة والإختيار أمامه!

وبما أن أولئك الكفار قد أعلنوا موادعتهم للمسلمين، فإنَّ ارتكاسهم هذا في التواصل مع الكفار المحاربين، والتخطيط للمؤامرات ضد الإسلام

(١) الرَّكْسُ: رَدُّ الشيء مقلوباً وبابه: نَصَرَ، وأَرْكسهُ مثلُهُ. مختار الصحاح، ص٢٥٤.

والمسلمين، يُخرِجهم من حالة الحياد، ويجعلهم في خندق الأعداء وجبهة الكفار المحاربين، ولا تنفعهم وعودهم الكاذبة، وأقوالهم المعسولة، عند قيادة الجبهة الإسلامية الفطنة الذكية شروى نقير، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: فإنْ لم يتركوا معاداتَكُمْ ويعتزلوا جبهةَ أعدائكم، لأن المقصود بالإعتزال هو الإبتعاد عن المعاداة والتواصل مع الأعداء، ولم يُعْلِنوا لكم السّلام وعدم المعاداة، ولم يتوقفوا فعلاً عن إيذائكم ومعاونة أعدائكم، فأولئك ليسوا موادعين ومتاركين لكم، وليسوا محايدين بينكم وبين أعدائكم، لذا ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: إأسروهم واقتلوهم حيث ظفرتم بهم: و﴿وَأُوْلَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: وأولئك النوع من الكفار المخادعين، المتسترين تحت ستار الموادعة والحياد، والمتآمرين عليكم سراً وعلناً مع أعدائكم ضدّكم، جعلنا - شرعاً - لكم عليهم، حُجّةً ظاهِرةً لقتالهم.

النوع الثالث: الكفّار المعتدون على المسلمين أو الكيان الإسلامي:

النوع الثالث من الكفار الحربيين الذين أباح الإسلامُ قِتالَهم، بل وأَوْجَبه على أهل الإسلام كُلِّهم، ما لم يكونوا مغلوبين على أمرهم، وعاجزين غاية العَجْز، هم الكفار الذين يمارسون أيّ نوعٍ من الظلم والإعتداء على المسلمين، أو الكيان الإسلامي، والدليل علَى أن الكفار المعتدين على الإسلام والمسلمين، يعتبرون أهلَ حربٍ، ويجوز بل يجب قِتالُهم، هو الآيات المباركات التالية:

١. ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة].

٣. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ

﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ . .﴾ [الحج].

وفي ضوء هذه الآيات المباركات، نعلم أنَّ اعتداءَ الكفار على الإسلام والمسلمين وتجاوزَهم، يتمثَّل في عدَّة أمور:

أولاً: مباشرتهم المسلمين بالقتال: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

ثانياً: التطاول والتجاوز على حرمات الإسلام والمسلمين: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ﴾.

ثالثاً: ممارسة أيِّ نوع من الظلم والإِعتداء، تجاه المسلمين، سواءٌ فيما يتعلق بدينهم، أو فيما يتعلق بمصالحهم المعاشية والدنيوية: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾.

وجليٌّ أن كلمة (الإِعتداء) تشملُ كلَّ أنواع الظلم والتجاوز على الآخرين.

رابعاً: إخراج المسلمين من ديارهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

وقد أباح الله تعالى في سورة (الحج) للمسلمين (الأولين) القيامَ بردِّ الإِعتداء الواقع عليهم من قِبَلِ الكفار، بعد أن مُنِعوا منه في أول الأمر، لضعفهم وعدم تكافؤ القوى النسبي، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ . .﴾ [النساء: ٧٧]، ثم أمرهم الله تعالى به في سورة (البقرة)، لما علم أَنَّ بالمسلمين قدرةً على التصدّي للكافرين، والإِنتقام منهم، بردّ اعتدائهم باعتداءٍ مماثل.

ومعلوم أن هذا التدرُّج في القيام بِردّ اعتداءِ الكفار خصوصاً، والجهاد

في سبيل الله عموماً، وإعمال كل الآيات المباركة الواردة في هذا المجال، كلٌّ في مرحلتها المناسبة، وظروفها وملابساتها المشابهة للتي أنزلت فيها، واجِبٌ لا بدّ منه، لمن أراد أن يقوم بالجهاد الشرعي المثمر في سبيل الله تعالى، البعيد عن الإِرتجال والحماسة المؤقتة.

النوع الرابع: الكفّار المانعون عن تبليغ الدعوة الإسلامية:

والدليل في كتاب الله المبين، على أن الكفار الذين يقومون بصدّ الناس عن سبيل الله، والحيلولة بينهم وبين دين الله الحق، ويمنعون الدعوة الإسلامية من الإِنتشار في الأرض كلِّها، وبين الناس كلِّهم، يعتبرون من أهل الحرب، هي الآيات التالية:

١. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

٢. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال].

٣. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الصف] و[التوبة].

٤. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

٥. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح].

ودلالة هذه الآيات على أن من صار حاجزا ومانعاً بين الناس وبين اطلاعهم على دين الله الحق، وأصبح حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية - إنْ كان بالمسلمين قوة - يجب أن يُزال ذلك الحاجز والمانِعُ، وإنْ أدَّت الإزالة إلى القتال، هي كما يلي:

أولاً: يبيِّن الله تعالى في كل من الآيات (٩) من (الصف) و(٣٣) من (التوبة) و(٢٨) من (الفتح)، أنه أرسل نبيَّه الخاتمِ ورسولَه الأَعظم ونوره الأَتم محمداً ﷺ، بالهداية والمنهج الحق، كي يُغلِّب ذلك الدينَ والمنهج الحق، على كل المناهج والأديان الباطلة، على رغم أنف المشركين!

ولا شك في أن الإسلام (هدى الله ودين الحق) إنَّما يصير غالباً ومهيمناً على كل (الأنظمة) والمناهجِ الأخرى، من خلال الجهاد الإسلامي الذي هدفه البعيد: إخضاعُ البَشَر كلِّهم على الأرض كلّها لِسُلْطَة دين الله الحق! إذاً: يجب على أهل الإسلام - إن كان بهم قوة - أن يُزيلوا كل الموانع والسدود التي تحول بين أي مجموعة من البشر، وبين نور دين الله الحق، وبناءً عليه: فمن صار مانعاً وحاجزاً عن وصول صوت دين الله الحق، ونوره المبين إلى الناس، فهو قد أحل قِتالَهُ بنفسه.

ثانياً: ويأمر الله تعالى أهلَ الإيمان، في كل من الآيتين (١٩٣) و(٣٩) من (البقرة)، و(الأنفال)، أن يقاتلوا الكفار إلى غاية زوال الفتنة وصيرورة الخضوع لله فقط، والفتنة في الآيتين تعني: إضطهادُ الناس وتعذيبهم ومنعهم من الإيمان بدين الله الحق، من قِبَلِ الطواغيت وقوى الكفر والطغيان والفساد، المتسلِّطة على رقاب الشعوب، والدِّين يعني: الخضوع، والمعنى باختصار:

وقاتلوا - أيها المؤمنون! - الكفارَ حتى لا تبقى للكفار قوة، يَسْتَذِلُّون بها الناسَ ويضطهدونهم من أجل الإيمان بالدين الحق، ويكون خضوعُ الناس لله فقط، أي: لا يكون لأحدٍ تَسلُّطٌ وَهيْمنَةٌ على الناس، سوى دينِ الله المتمثِّل في الكيان الإسلامي.

وقد بينّا في السابق لماذا يكون (الدين) في الآيتين بمعنى (الخضوع)

وليس الإسلام، فلا نعيده، وأما كلمة (الفتنة) والتي تحتمل أكثر من معنى[1] بحسب السياقات التي تَرِدُ فيها، فالدليل على أنّها في الآيتين تعني تعذيب الناس واضطهادهم من قِبَل الكافرين بسبب إيمانهم، هو أن الله تعالى قال قبل الآية (١٩٣) من (البقرة): ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ. . . فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ وعليه: فالفتنة التي جُعِلَ رَفعُها وإزالَتُها، غايةَ انتهاءِ قتال الكفار، هي الفتنة التي اعتبرت أشدَّ من القتل، ولا شيء أشدَّ من القتل إلا فتنة المرءِ عن دينه واضطهاده كي يَرْتَدَّ عن الإيمان، أو تعذيبه واضطهاده كي يبتعد عن الإيمان، فهذه الجريمة هي وحدها أشدُّ من القتل الذي هو أفظع الجرائم على الإطلاق، ولكن الفتنة أشد منه!

وقد تكرّرت هذه الجملة في الآية (٢١٧) بصيغة أخرى، هي: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وأما الآية (٣٩) من (الأنفال) فقد ذكر سبحانه قبلها في الآية (٣٦) كون الكفار يصدون عن سبيل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ. .﴾، وقال في الآية (٣٨) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إنَّ ينتهوا عن الصدِّ عن سبيل الله.. ثم قال في الآية (٣٩): ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ. .﴾ إذاً: الفتنة المذكورة في الآية (٣٩)، هي: الصدّ عن سبيل الله في الآية (٣٧)، والصدُّ عن سبيل الله، هو منع الناس عن الإيمان وعن سلوك صراط الله المستقيم.

ثالثاً: وفي الآية (٣٦) من (الأنفال) - كما أشرنا سابقاً - يعرِّف الله تعالى نوعاً من الكفار بأنهم: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم يقول سبحانه في الآية (٣٨) مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن

---

(١) أنظر: مختار الصِّحاح، ص ٤٢٨، لفظ: ف ت ن، حيث يذكر من معاني (الفتنة): الإختبار والإمتحان، إدخال الذّهب النار لتعرَف جودته، والإحراق، والمفتون هو الذي أَصابَتْهُ بَلِيَّةٌ فذهب مالُهُ أو عَقْلُهُ.

يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾
أي: قل للكافرين الذين يمنعون الناس عن دين الله وطريقه المستقيم، إنْ كفُّوا عن فعلتهم الشنيعة، يُغْفَرْ لهم بسبب الإيمان، ما تقدّم من ذنوبهم، ولكن إنْ يستمرّوا في منع الناس عن سبيل الله، فقد مَضَتْ سنة الله تعالى في الأمم السابقة، بإهلاك مَنْ يَصُدُّ الناس عن سبيل الله، ثم قال تعالى في الآية (٣٩): ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ..﴾ وهذا السياق يدل على أن الفتنة لا تُرْفَعُ ولا يكون الخضوع كلّه لله تعالى، إلّا عندما لا يكون في مُكْنَة الكفار منع الناس عن دين الله تعالى واضطهادهم من أجل إبعادهم عنه، إذن: قتال الكفار الذين يُشَكِّلون حاجزاً ومانِعاً عن وصول دعوة دين الله الحق، إلى كلِّ الناس وفي كل الأرض، واجِبٌ على الكيان الإسلامي بقدر وسعه، وبمقدار الإمكانيات المتاحة له.

ولكن ههنا مسألة مهمة، يجب التنبُّه لها:

في عصرنا الحالي والذي تحكم الدولَ اتفاقياتٌ دولية، هذا من جانب، ومن جانب آخر، من جرّاء ما يُسمَّى بالثورة المعلوماتية، والتطور الإعلامي الكبير الذي بِسببه رُفِعَت الحِواجزُ والموانع بين الدول والشعوب، وأصبحت الأديان والمناهج والأفكار والثقافات في متناول الجميع، يختار الناسُ من بينها ما يرغب فيه، أجل في هذا العصر، أرى أنه تغيَّر حكم الجهاد من أجل إبلاغ دين الله الحق، للشعوب والمجتمعات غير المسلمة، اللهم إلا اذا حال بعض الحكام الطواغيت بين مجتمعهم ودين الله الحق على الرغم من اقتناعهم به واختيارهم له، بحيث قاموا بإجبارهم على الدين والمنهج الذي يريدون، واضطهدوا منهم من آمن بالإسلام، وأكرهوهم على الإرتداد عنه، ففي مثل هذا الحال، الحكم يبقى على حاله، لأنه يوجَدُ حاجِزٌ ومانعٌ بين الناس ودين الله الحق، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال].

النوع الخامس: الكفّار الذين يظلمون المسلمين الذين لم يلتحقوا بالكيان الإسلامي، وليس بين أولئك الكفار الظالمين وبين الكيان الإسلامي عهد وميثاق:

ودليل جواز أو وجوب قتال هذا النوع من الكفار، هي الآية (٧٢) من (الأنفال): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

وبما أننا قد تحدَّثنا عن هذه الآية والمسائل المتعلقة بها، في أكثر من مناسبة، فلا حاجة لإطالة البحث حولها هنا، ونكفتي بتسجيل النقطتين الآتيتين:

الأولى: إن المؤمنين الذين يبقون تحت سلطة كيان كافرة، مع وجود كيان إسلامي صحيح، ولا يهاجرون للإلتحاق به، يأثمون، باستثناء: ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨]، وهؤلاء المؤمنون تنقطع ولايتهم السياسة بالكيان الإسلامي، ولكن عندما يَقَعُ عليهم الظلم من الكفار، ويستغيثون بالكيان الإسلامي ويستنصرونه، يجب عليه - ما دام في وسعه - إغاثتهم ونجدتهم ونصرهم: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

الثانية: ولكن إنّما يجوز للكيان الإسلامي نصرة أولئك المؤمنين المستضعفين المستنصرين، وإعلان الحرب على الكفار المُضْطَهِدين لهم، إذا لم يكن بين أولئك الكفار المُضْطَهِدين، وبين الكيان الإسلامي عهدٌ وميثاقٌ، وإلّا فرعاية الميثاق وعدم نقضه، أولى وأهمُّ من نجدة المسلمين المُضْطَهَدين: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

النوع السادس: الكفّار الظالمون الذين يَسْتَضْعِفون الناس أفراداً أو

شعوباً، أياً كانوا و بأيِّ شكل من الأشكال، وينشرون الفساد في الأرض:

ويمكننا الإستدلال على جواز أو وجوب قتال أولئك النوع من الكفار الظالمين والمُستَضعِفين للناس عموماً، أياً كان دينهم، بالآيات التالية:

١. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

٢. ﴿.. وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

٣. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف].

وكيفية دلالة هذه الآيات على أنَّ مَنْ يُذيقُ الناسَ أَفراداً أو شعوباً العذابَ، ويَضْطهِدُهم بأيِّ شكل من أشكال الإضطهاد، من الكفار أو حتى من الحكام المسلمين المدعين للإيمان والإسلام، يجب على المسلمين قِتالُهُ، والتصدي لِظُلْمِهِ وعُدوانه، هي:

أولا: أما في الآية (٧٥) من (النساء)، فيخاطب الله المؤمنين مُحرِّضاً إيّاهم على القتال في سبيل الله، ومن أجل إنقاذ المستضعفين رجالاً ونساءً وأطفالاً، الذين يستغيثون بالله، حيث لا يجدون مُغِيثاً سواه، قائلين: ربَّنا أَخرجنا وأَنْقِذنا من هذا البلد الذي تسلَّطت فيه الظلمة، واجعل لنا من عندك ولياً يتولانا، ونصيراً ينصرنا.

وعليه:

فحيثما وجد ظلم في الأرض، وجب على الكيان الإسلامي - ما دام

قادراً - التصدي له، وأينما وجد إنسانٌ مظلوم مُضْطَهد، وجب عليه نصرته وإنقاذه، بغض النظر عن كونه مسلماً أو كافِراً.

ثانياً: ويبيّن الله تعالى في الجملة الأخيرة من الآية (٢٥١) من (البقرة)، إحدى سننه المتمثلة في دفعه بعضَ الناس ببعضهم، ومن الواضح أن المقصود بالمدفوعين هم الكفرة الظلمة، والمقصود بالدافعين هم المؤمنون المجاهدون، وذلك بدليل أن هذه الجملة جاءت تعقيباً على قصة طالوت وقومه المُسْتَضْعَفين المُخْرَجين من ديارهم وأبنائهم، وجالوت وقومه الظلمة المُضْطَهِدين، ثم يعتبر سبحانه هذه السنة الربانية مانعاً من حدوث الفساد في الأرض كلّها، ويعدّها فضلاً منه على البشرية كلها عموماً، وليس على أهل الإيمان فَحَسْب.

وبناءً عليه: يجب على الكيان الإسلامي أن يتصدّى للظلمة المفسدين في الأرض، أياً كانوا وحيثما وجدوا، وذلك كي تجري سنة الله الحكيمة التي هي فَضْلُ الله على البشرية، وعلى أهل الأرض كلِّهم، من خلال جهاد أهل الإيمان الذين يُصْبِحون في ظلِّ إيمانهم ودين الله الحق، أَهْلَ فضلٍ على البشرية، فيتَحقَّقُ فيهم وَصْفُ الله تعالى إياهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثالثاً: وفي الآيات (٨٣ إلى ٨٨) من (الكهف) والتي تكلّمنا عنها في السابق أيضاً، في أكثر من مناسبة، يبيِّن لنا ربُّ العِزَّة سبحانه في مقام التأييد والمدح لذي القرنين، أنه مَكَّن له في الأرض، وَهيَّأ له من الأسباب التي وصل بها إلى طرفي الدنيا (المشرق والمغرب)، وأما سياسة ذي القرنين، الملك الممدوح المرضي لله تعالى، في التعامل مع الناس، فَلَخَّصها هو لنا في قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

إذن: سياسة ذي القرنين في التعامل مع الشعوب التي يجعلها تحت هيمنة سلطته، عبارة عن التصدِّي للظلم والظلمة، والأَخْذِ فوق أيديهم

ومَنْعهم من الظلم، وتشجيع أهل الإيمان والعمل الصالح، ومكافأتهم ومساندتهم.

والموقف الذي تتجلى فيه هذه السياسة الحكيمة لذي القرنين بجلاءٍ، هو بناؤه للسد بين القوم المتخلِّفين الذين استغاثوا به، من ظلم وفساد يأجوج ومأجوج، وبين يأجوج ومأجوج، حيث ببنائه لذلك السد المحكم الأملس العالي، أَخَذ فوق أيدي يأجوج ومأجوج المفسدين، وحَمى أولئك القوم المُسْتَضْعَفين المُسْتَغِيثين من شرورهم وظلمهم وإفسادهم، وهذه هي الآيات بدون تعليق اكتفاءً بتعليقاتنا السابقة عليها: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] .

نعم إن من واجب الكيان الإسلامي – ما دام في إمكانه – التصدي لكل أنواع الظلم والإفساد في الأرض، والأخذ على أيدي الظلمة والمفسدين، وحماية الشعوب المُسْتَضْعَفَة وإسنادها ومساندتها في قضاياها العادلة، وذلك على مستوى البشرية كُلِّها وعلى الأرض كُلِّها.

ولكن قياساً لهذه الحالة على الحالة السابقة – أي حَالةِ تَعَرُّضِ بعض المسلمين الساكنين في ظل الأنظمة الطاغوتية، للظلم في دينهم، مِنْ قِبَل الكفرة الظالمين واستِنْجادِهم بالكيان الإسلامي الذي ليس له ميثاق مع أولئك الكفرة الظالمين –، وإعمالاً للنُّصوص كُلِّها كُلٌّ في مَحلِّه، يجب ألّا يكون هناك عهدٌ بين الكيان الإسلامي المسارع لنجْدَةِ المظلومين والمستضعفين، وبين الجهة الظالمة، وذلك حفاظاً على العهود والمواثيق.

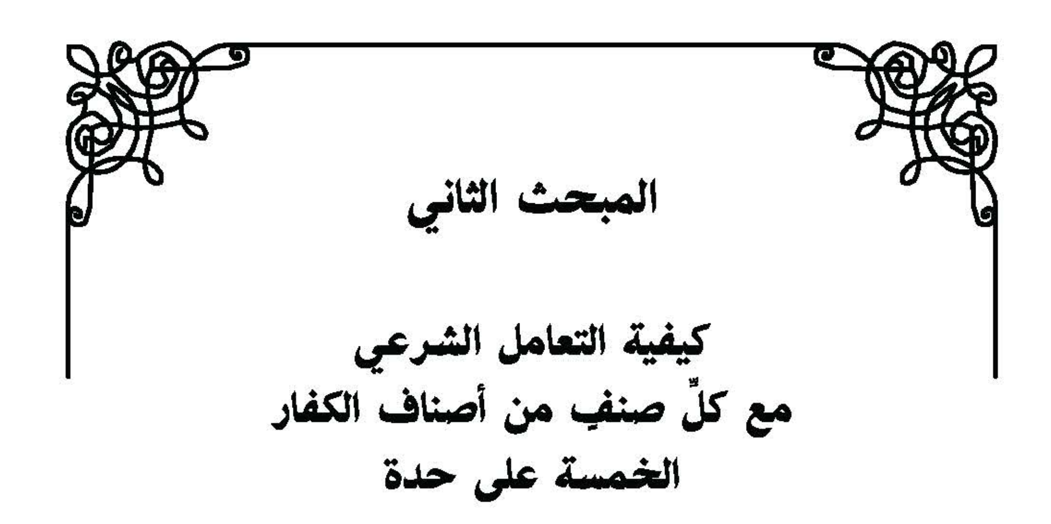
ولكن مع هذا نُضيفُ بأنه لا يجوز إلّا في الحالات الإستثنائية الإضطرارية، أن يَعْقِدَ الكيانُ الإسلاميُّ الحامي للعدل، والعدو للظلم والإعتداء، اتفاقياتٍ وعهوداً مع دولة أو جهة تتخذ الظلم والإعتداءَ على

الآخرين سياسةً ومنهاجاً، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود].

وبهذا ننهي الكلام عن موضوع (كيفية التعامل مع الكفار المحاربين)، وبه نختم المطلب الثاني من المبحث الأول من الفصل الرابع، وننتقل إلى المبحث الثاني بإذن الله تعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





المبحث الثاني

كيفية التعامل الشرعي مع كلِّ صنفٍ من أصناف الكفار الخمسة على حدة

ويتكون هذا المبحث الثاني من خمسة مطالب، كل مطلب لصنف من أصناف الكفار الخمسة، ولكن قبل الشروع نُنَبِّهُ إلى أننا نتوخّى في كتابة هذا المبحث ومطالبه الخمسة، غاية الإختصار، وذلك لأنّنا قد ذكرنا كيفية التعامل مع الكفار عامة، في حالتي السلم والحرب، وسواء كانوا داخِلَ المجتمع الإسلامي أو خارِجَه، بالتفصيل الممكن في مثل هذا الكتاب، ولهذا نكتفي في هذا المبحث الثاني الذي ليس إلا تتمّة المبحث الأول، بذكر الخصوصيات التي ينبغي أخذها بنظر الإعتبار، عند التعامل مع كل صنف من أصنافِ الكفار الخمسة، فقط، ولا نتطرق ثانية إلى المسائل التي ذكرناها سابقاً، كالأصول العامة والقواعد والأسس، التي يجب أن يُعامَلَ الكفارُ على أساسها، والتي يشتركون فيها جميعاً.

والآن إلى المطلب الأول:

***

المطلب الأول:
كيفية التعامل مع الملحدين

نُوَضِّح كيفية التعامل مع الملحدين، في الفقرات الأربع الآتية:

الأولى: الملحد كافر مثل سائر الكفار، لذا ينبغي التعامل معه مثلهم، من ناحية السّماح له بإعلان كفره، والتعبير عمّا في داخله، كجزء من الحرية الشخصية التي يَكْفلُها الكيان الإسلامي لجميع مواطنيه، ولكن وكما قلنا سابقاً: حرية التفكير والتعبير شيء، وإيذاءُ المسلمين وتجريح شعورهم الإسلامي، شيء آخر، والإسلام الذي يمنع تجريح المسلمين لشعور الكافرين بسبِّ معبوداتهم الباطلة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ..﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فبالطريق الأولى وبالأخرى: يُلْزِمُ مواطنيه غير المسلمين، مُراعاةَ شعورِ المسلمين، ولهذا جعل الله طَعْنَ[1] الكفار المعاهَدين في الإسلام، سبباً من أسباب نقضهم العهد: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة]، والملاحَظ أن الله تعالى علَّلَ مَنْعَ المسلمين من سبّ آلهة المشركين والكفرة، بِعَدَم فتح الباب لهم، لسبِّهم الله تبارك وتعالى، في الآية (١٠٨) من (الأنعام): ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾.

(١) طَـنَ يَطْـن طَعْناً وطَعناناً: نَكَبَه وَعَابَ واعترض عليه. المعجم الوسيط، ص٥٥٨.

وهذا الحكم يَنْسَحِبُ على كل أصناف الكفار، وانما ذكرناه هنا لأنَّ الإِلحاد هو أغلظ أنواع الكفر من الناحية الفكرية.

الثانية: ظاهرة الإِلحاد - كما ذكرنا من قبل - ظاهرة شاذة نادرة، وجذورُها اجتماعية واقتصادية وسياسيَّة، أكثر من كونها فكرية، وأحسن مثال وشاهد في هذا المجال وفي عصرنا هذا، هو تجربة النظرية الماركسية الفاشلة، إذ تسلَّحت النظرية الماركسية الشيوعية التي بارَزَتِ النظرية الرأسمالية الغربية، وتَصَدَّت لها في ميدان الإقتصاد، بفكرة الإِلحاد المتمثِّلة بالمادية الديالكتيكية، وذلك كدرع لها في مواجهة الرأسمالية، المُتَسَتِّرةِ وراءَ المسيحية المحرَّفة!

ولذلك يجب التنبّه إلى هذه الحقيقة عند محاورة الملاحدة، ولولا الأوضاع الإقتصادية المُزْرِيةُ والأحوال المعيشية السيئة في المجتمعات الغربية، في ظل الأنظمة الرأسمالية المتحالفة مع الكنيسة، رُبَّما لم يفكر (ماركس) وصديقه (أنجلز) في تَبَنِّي فكرة الإِلحاد الشاذة المخالفة للفطرة، ولبديهيات العقل وقوانين العلم، ولكن هَدْماً للأساس الفكري الذي - بزعمهما - وقفت عليه الرأسمالية، قالا ما قالا عن الدين الربّاني عموماً، من غير أن يكون لهم أدنى اطّلاع على الإسلام، دين الله الحق.

الثالثة: ويجب التنبّه - عند مناقشة الملحدين - إلى مسألة أخرى، وهي ألّا نُشْغِلَ أَنفُسَنا معهم بالقضايا التي لا تُشَكِّلُ الأساسَ لكفرهم وإلحادهم، بل يجب أن يتركَّزَ النقاشُ أولاً وقبل كل شيء، على خالقية الله تعالى وربوبيته المطلقة، ومخلوقية كل ما سواه له، ثم بعد حسم هذه القضية - والتي حَسْمُها إيجابياً لِفطرِيّتها وكثرة البراهين عليها، أَسْهَلُ من حَسْمِ القضايا الأخرى ـ يُنْقَلُ النقاش إلى المسائل الأخرى، ومراعاة التدرُّج واجبةٌ حسب ترتيب المسائل في كتاب الله ما أمكن، كي يؤتي النقاشُ والحوارُ ثِمارَه بإذن الله.

الرابعة: وأما الشخص الملحد الذي عُرِفَ بالعناد وإنكار البديهيات العقلية، وعُرِفَ بِشَغَفِهِ بالجدال وإظهار نفسه كفيلسوف وصاحب فكر وعلم،

فأمثال هذا أقلُّ شأناً من أن يُضاع معهم الوقت، إلّا عندما نضطرُّ اضطراراً، فعندئذٍ يُناقَشون بالتي هي أحسن، ليس لإقناعهم، إذْ هم لا يريدون الحق ولا يسعون للعثور عليه، بل لإسكاتهم وإفحامهم ليس إلا، ومن الواضح أن أسلوب الحوار الهاديء الرَّصين، الذي يراد من ورائه طلب الحق، غير أسلوب الجدال الذي يُراد به إِفحامُ المُجادِل، وإسكاتُهُ وإظهارُ عواره!





المطلب الثاني:
كيفية التعامل مع أهل الكتاب

ونُبيِّن كيفية التعامل مع أهل الكتاب في الفقرات الأربع الآتية:

الأولى: دعوتهم إلى الحوار للوصول بهم إلى التوحيد الخالص لله تعالى:

كما قال تعالى مخاطباً نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وقد علَّقنا على هذه الآية الكريمة في السابق، ولكن ننبّه هنا إلى نقطة مهمة، وهي:

يجب عند محاورة أهل الكتاب، تأسيسُ الحوار على روح التفاهم أولاً، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إذْ هذا التعبير فيه اعتبار واحترام واهتمام!

وثانياً: يجب بناءُ الحوار على النقاط المشتركة، وليس على المسائل الخلافية، ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ..﴾.

الثانية: ينبغي ألَّا يُناقَشوا إلا بالطريقة التي أحسن، ولكن إذا بغوا

وتجاوزوا حدود الحوار، يُعامَلون بالأسلوب الذي يستحقّونه، ويلائِمُ جَوَّ النقاش:

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ..﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وواضح أنَّ استعمال الطريقة الحسنى في الجدال، مطلوب مع كل الناس، وفي كل الأحوال، ولكن مع أهل الكتاب آكد وأوجب، لامتيازهم على غيرهم من أصناف أهل الكفر، بأنَّهم على شيء من علم الوحي، فيتأكد تحسين الأسلوب معهم من أجل هذا.

ولكن مَنْ يظلم ويتجاوز الحدود، ولا يراعي الآداب، فهذا يعامَلُ بما يستحقه، ولكن من غير الخروج عن قاعدة: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، أولاً، وثانياً مع مراعاة حدود الشرع وآدابه الرفيعة الجديرة بالمسلم، في كل الأحوال.

الثالثة: مُصارحةُ أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء من دين الله الصحيح، ولا يعتبرون مؤمنين، ما لم يقيموا التوراة والإنجيل الحقيقيين، وما لم يَتَّبِعوا القرآن العظيم:

وهذا ما صرَّحت به الآيتان (٦٧ و٦٨) من (المائدة): ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وبَيّن أن تنبيه أهل الباطل ومصارحتهم وجبههم بالحق الواضح الأبلج، جُزءٌ من حَقّهم على أهل الإيمان، وواجب من واجبات أهل الحق تجاههم.

الرابعة: في مجال التعامل الإجتماعي أهل الكتاب مستثنون من سائر الكفار بجواز التزوُّج من نسائِهم، وجواز أكل ذبائحهم:

وهذا ما بيَّنته الآية الكريمة (٥) من (المائدة): ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

ومعلوم من السياق - إذ السياق كله يتحدث عن الذبائح واللحوم - أَنَّ المقصود بكلمة (طعام) في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ إنما هو الذبائح، وإلّا فالأَطعمة الأخرى المصنوعة من النباتات والحبوب والثمار - ما لم تكن ضارّة وخبيثة - هي حلال من كلّ الناس، أهل كتاب أو غيرهم.

وسبب استثناء طعام أهل الكتاب (أي: ذبائحهم) هو أَنَّهم يعتقدون بوجود الله تعالى، ومجيء اليوم الآخر، والوحي والنبوَّة عموماً، ولا يذبحون للأصنام والأوثان، وأما بالنسبة للتزوج من نسائهم، فقد قيّده الله تعالى بكون النساء اللاتي يُباحُ للمسلمين التزوج بهن، (مُحْصنات)، والمحصنات جمع (مُحْصَنة) وهي المرأة التي أَحْصَنَتْ نَفْسَها وَحَفِظَتْ فَرْجَها من الزنى، وبناءً على هذا: لا يجوز للمسلم أنْ يتزوج امرأة كتابية عاهِرةً وزانيةً، ولكن هل المرأة الكتابية الزانية، إذا تابت وصارت عفيفة محصنة، يجوز الزواج منها أم لا؟ الذي يبدو لي هو أنه يجوز، إذ هي ليست زانية عند إرادة المسلم الزواج منها، ولكن لا شك أن الإِحتياط باختيار عفيفة لم ترتكب الزنى قَطُّ، أولى وأفضل - إنْ وجدها المسلم المضطر في هذا العصر الذي يقال: بأنَّ المحصنات العفيفات من أهل الكتاب، صِرْنَ نوادر كالكبريت الأحمر! -.

وقد ذكرنا سابقاً أن مصطلح أهل الكتاب، قلَّما استعمل في كتاب الله، وقُصِدَ به غير اليهود والنصارى، ولهذا نقول: إنَّ المقصود بأهل الكتاب أساساً هم اليهود والنصارى.

وجديرٌ بالذكر أن زواج المسلمة من رجل كتابي حرام، كتحريمها على سائر أهل الكفر، وذلك لأن الأَصل أنَّ التزاوج بين المسلمين والكفار حرامٌ مطلقاً، ثم استثنت الآية الكريمةَ زَواجَ المسلمين من الكتابيات المحصنات، وَبَقِيَت حرمة زواج المسلمات من رجال أهل الكتاب على أصلها الأول، والذي تدل عليه الآية (١٠) من (الممتحنة) وتصرّح به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ ..﴾ نعم إن قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ قاعدة عامة واضحة وصريحة في أن النساء المسلمات، لا يحلن للكافرين بحال من الأَحوال، وبما أنها لم تسْتثن منها أيَّةَ حالَةٍ، فهي باقية على عمومها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ..﴾ حاسِم في عَدَم حِليّةِ المؤمنات لأيِّ نوع من أنواع الكفّار، لأن كلمة ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ مفهومها عام يشمل كل أصناف الكفار، من الملحدين وأهل الكتاب والمشركين والمنافقين والمرتدّين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المطلب الثالث:
كيفية التعامل مع المشركين

والمشركون شديدوا الشّبه بالملحدين كما ذكرنا من قبل، والذي أريدُ التنبيه عليه هنا بالنسبة للتعامل مع المشركين، أُلَخصُهُ في الفقرات الأربع الآتية:

الأولى: إن كتاب الله تعالى نصَّ على أن التزاوج بين المسلمين والمشركين، حرامٌ ولا يجوز بأَي شكل من الأشكال، أي: لا يجوز أن يتزوّج المسلمون المشركات، ولا أن تُزوَّج المسلماتُ من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة].

ومما لا شك فيه أن قوله تعالى في الآية (١٠) من (الممتحنة): ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ﴾ وكما قلنا سابقاً، شامل لكل أنواع الكفار، إلّا ما اسْتُثْنِ منهم، وهي حالة زواج المسلمين من الكتابيات العفيفات، ولكن بما أنَّ المشركين يُشَكِّلون أكثرية الكفار، نَصَّ الله تعالى على حرمة التزاوج معهم أيضاً، ولأن لفظ (الكفار) يشمل أهل الكتاب وغيرهم من أصناف الكفار سواءً، ولكن لفظ (المشركين) خاص بذلك الصنف من أهل الكفر، وإنْ كان أهل الكتاب أيضاً - وخاصة النصارى - يعتبرون من المُتَلبِّسين بالشرك، كما قد وضحنا هذا في السابق، وعند التعريف بأصناف أهل الكفر الخمسة، ولكن المتبادِرَ إلى الذهن عند

إطلاق لفظ الشرك، هم أهل الأوثان والعابدين لغير الله تعالى عموماً، أياً كان ذلك المعبود، والرافضون للنبوة والوحي عموماً.

الثانية: يجب أن يُناقَش المشركون حول قضية الدين الحق عموماً، وبالأخصّ حول قضية التوحيد الأساسية، التي هي نقطة بداية انحرافهم، في ضوء السور المباركة التي تولّت توضيحَ قضية التوحيد، وَدحْضَ الشرك وتَزييفَ أفكار المشركين، والردَّ على ذرائعهم الواهية التي استندوا إليها في شركهم بالله، والسور المباركة التي اهتمت بهذه القضية الكبرى كثيرة متعدّدة ومتنوِّعة في الأسلوب، ولكن أَعتقدُ أن سورتي (الأنعام) و(الزمر) من السور الطِّوال، و(الكافرون) و(الإخلاص) من القصار، هي أكثر تركيزاً عليها.

وقد ألقينا الضوء القرآني على زيف فكرة الشرك، ودحض الأَعذار الواهية التي يتذرّع بها المشركون، لتبرير شركهم، في الفصل الثالث، لذا نُحيل القاريء الكريم إليه.

الثالثة: المسلمون المتلبِّسون بالشرك، يجب ـ بغية تصحيح موقفهم وتطهير أذهانهم من الشرك ورواسبه ـ أنْ نركز معهم على قضية الإيمان بالله تعالى عامة، وتوحيده خاصة أولا، قبل التطرق معهم إلى دَحْضِ ما عُلِّق بأذهانهم من الشرك، والدخول معهم في نقاش وجدال وخصام، يسوده كثيرٌ من سوء الفهم، وظن السوء من جانبهم، فيمنعهم ذلك من الإِستماع والقبول!

وربما ينطبق المثل القائل: (إن إشعال شمعة واحدة خير من لعن الظلام ألف مرَّةٍ) على هذه المسألة كثيراً، إذ لا يشرك مَنْ يشرك بالله، إلا لعدم معرفته الحقة بالله تعالى، ولعدم رسوخ الإيمان والتوحيد في قلبه وعقله، ومن ذاق طعم التوحيد والإيمان حقاً، ابتعد عنه شَبَحُ الشرك، ولم يتطرق إلى ذهنه وقَلْبه سبيلاً، ثم بعد ذلك نَشْرَ بتزييف الشرك، ولكن بأسلوب عِلميٍّ رصين رزين، بعيداً عن المزايدات والمهاترات والإِتِّهامات،

التي لا تُثمِرُ سوى البغضاء وتَصَلُّبِ المبطل على باطله، وتَعَصُّبِهِ له أكثر فأكثر، من جرّاء ردّ الفعل!

الرابعة: في نهاية المطاف وعندما نُضْطَرُّ إلى إصدار حكم الشرك على المتلبِّس بالشرك غير المنته عنه - وكذلك كل متلبِّس آخر بأي نوع من أنواع الكفر - على الرغم من إقامة الحجة الشرعية عليه، لا بدّ قبل الحكم عليه من إِعمال قاعدة: (ثبوت الشروط وانتفاء الموانع) والمقصود بهذه القاعدة اختصاراً، هو:

أولاً: أن تتحقق كل شروط التكفير في حقه، وهي:

١ - أن يكون بالغاً.

٢ - أن يكون عاقلاً.

٣ - أن يكون قد بلغته الدعوة بصورتها الصحيحة.

وذلك لأنه لا تكليف قبل البلوغ، ولا يكلَّف المجنون، ولا محاسبة ولا عذاب قبل وصول البلاغ المبين، وهذه الشروط الثلاثة، مصرَّح بها في الآيات والأحاديث، وهذه أمثلة منها:

١- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور].

إذن: بلوغ الحُلُم هو بداية التكليف بالأحكام الشرعية والمؤاخذةِ بها في الدنيا والآخرة.

٢ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: ١٠].

إذن: لا يستفيد من القرآن إلا ذَووا العقول، وعليه: فمن لم يكن ذا عقلٍ لِصِغَرٍ أو جنون، لا يكون مُكَلفاً شرعاً، وبالتالي لا يؤاخذ بما يصدر عنه من أقوالٍ وأعمالٍ شركية أو كفرية.

٣ـ وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤ .

وعليه: فمن لم تبلغه دعوة رسول الله الخاتم ﷺ بوضوح وجلاء، فلا مؤاخذة عليه.

ثانياً: أن تنتفي موانع التكفير عنه، وهي:

١. العَجْزُ الحقيقي الذي يُدرك بوضوح.
٢. الجهل غير المُتَعمَّد الذي يُعْذَرُ به صاحِبُهُ شرعاً.
٣. الإكراه الذي يجعل صاحِبَهُ غير مؤاخَذٍ ولا معاتَب.
٤. الخطأ الذي يُعفَى عن مرتكبه.
٥. النسيان.
٦. التأويل الذي تحتمله اللغة.
٧. التقليد (وهو داخل في «الجهل» بل هو أَبرزُ أسبابه، لذا أفردناه بالذكر).

وتدلُّ على وجوب اشتراط انتفاء هذه الموانع أيضاً، قبل إصدار الحكم بالشرك والكفر على المُتَلَبِّسين بهما من المسلمين، آيات وأحاديث كثيرة، هذه أمثلة منها:

١ـ قال الله عزوجل: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ [النساء: ١٦٥]، إذن: يجب أن تقام الحجة الشرعية على الناس أولاً.

٢ـ وقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

٣ـ وقال تعالى على لسان عباده المؤمنين وإمامهم النبي الخاتم ﷺ: ﴿...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤ـ وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٥ـ وقال رسول الله ﷺ: «**رُفع عن أمّتي الخطأُ والنسيانُ وما استكرهوا عليه**» رواه الطبراني(١).

إذن: فما يرتكبه الإنسان جهلاً وخطأً ونسياناً، وفي حال كونه مكرهاً، أو عاجزاً لا حول له ولا قوة، فلا مؤاخذة عليه، وإنْ كان كفراً وشركاً، إذ كل من: العَجْزِ والجهل ـ المعتبر به شرعاً ـ والخطأ والتأويل ـ وهو من أنواع الخطأ ـ والنسيان والإكراه، مانعٌ من موانع المؤاخذة الربانية العادلة.

ثم إذا تحققت الشروط كلّها، وانتفت الموانع جميعها، أمكننا إصدار الحكم على الشخص المعيّن الذي تبيّنا حالَهُ ووضعَهُ، فحسب، دون غيره الذي لم نتبيّن حاله، في ضوء أَدلّةٍ شرعيةٍ جَليّةٍ، لَيس عليها أَيُّ غُبارٍ.

* * *

(١) أنظر: فيض القدير، شرح الجامع الصغير، ٤٤٦١.

ورواه بلفظ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). ابن ماجه، ٢٠٤٥ وابن حبّان ٧٢١٩ والحاكم، وصححه على شرط الشيخين، وحسّنه النووي في (الأربعين النووية)، بلفظ: (إن الله تجاوز عن أمتي...)، أنظر: شرح الأربعين النووية، لابن عثيمين، ص٤١٣.

المطلب الرابع:
كيفية التعامل مع المنافقين

بما أننا قد فصَّلنا الحديثَ عن المنافقين وأوصافهم ومواقفهم، وكيفية مواجهة مُخطَّطاتهم ودسائسهم اللئيمة الخسيسة الخبيثة، في الفصل الثالث، فلا نُطيل الحديثَ عنهم هنا، ونكتفي بما نذكره باختصار في الفقرات الأربع الآتية:

الأولى: المنافقون باستثناءِ أهل الكفر جميعاً، وعلى الرغم من أنهم أخبثهم وأضرّهم على الإسلام، يعامَلون معاملة أهل الإسلام، من جرّاء إعلانهم الإسلام:

نعم إنَّ أهل النفاق ما داموا يعلنون إسلامَهم، ويلتزمون أحكامَه الظاهرة قليلاً أو كثيراً، ينبغي أن يُعامَلوا معاملة أهل الإسلام، وهذا هو ما فعله نبي الله الخاتم ﷺ مع المنافقين الساكنين في المدينة وما حولها، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في القرآن الكريم وسيرة رسول الله ﷺ، وقد كان رسول الله يُداري المنافقين ويصبر على أذاهم، ويعفو عن أخطائهم وفضائحهم التي تنكشف دوماً، من خلال المواقف والأحداث، وقد انطوت مداراته لهم، وصبره على أذاهم، وغضّه الطرف عن كثير من عوراتهم المفضوحة، على حِكَمٍ كثيرة، منها:

١. رجاء توبتهم إلى الله تعالى وانتهائهم عن النفاق:

وهذا ما حدث فعلاً لأكثرهم، وخاصة عندما كان يكشف كتابُ الله

الأَستار عن مخططاتهم ومكائدهم التي لم يكن يعلمها أحد، سوى ربِّهم العليم بذات الصدور!

فَيَستَيْقنون نتيجة ذلك أن القرآن الذي يكشف خفاياهم ويفضحُ خباياهم، هو وحي الله العليم الخبير.

٢. عدم نشوب حرب أهلية داخل الجبهة الإسلامية، وبالذات في المدينة:

وهذا ما صرَّح به الرسول ﷺ عندما أشار عليه عمر ﷺ بقتل (عبدالله بن أبي) لكن الرسول لم يفعل، وذلك لما حدثت تلك الحادثة التي قال فيها رأس النفاق (عبدالله): ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، كما حكاه عنه رب العزّة جلّ شأنه، ثم لمّا علم ابنه (عبدالله بن عبدالله بن أبي سلول) بما قاله أبوه، وقف له في مضيق على طريق المدينة وقبل دخولها، وَحَجَزَه عن الدخول! ولما غضب عنه أبوه واستفسره عن السبب قال: أنت الذي قلت ما قلت، والله لا أَأْذَنُ لك بالدخول حتى يأذن لك رسولُ الله ﷺ كي تعلم أنه هو العزيز وأنت الذليل! وفعلاً لم يسمح له بالدخول إلى أن جاءَ رسول الله ﷺ وأمره أن يأذن له، فقال: أمّا الآن وقد أذن لك الرسول بالدخول، فَنَعم![1].

٣. كي لا يُسيءَ الظنَّ بالرسول ومجتمعه الإسلامي، مَنْ لا يعرِفُ أحوالَ المنافقين عَنْ قرُبٍ:

وهذا أيضاً ما صرَّح به رسول الله ﷺ مُعَلقاً على اقتراح بعض الصحابة بقتل المنافقين أو بعضهم، وخصوصاً رأسهم المدبِّر (عبدالله)، فقال الرسول الحكيم: **(دَعْهُ، لا يتحدّث الناس: انّ محمداً يقتل أصحابَهُ)** رواه البخاري: ٤٩٠٧، ومسلم: ٢٥٨٤.

(١) أنظر: أسباب النزول، للنيسابوري، ص٢٤٩.
وأنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج٣ ص٤١٩.

الثانية: ولكن عَدُّ المنافقين في الظاهر من أهل الإسلام، لا يعني إطلاق العنان لهم يفعلون ما يشاؤون، بل لا بدّ من مراقبة أحوالهم والكشف عن مُخططاتهم:

وهذا ما فعله معهم كتاب الله الحكيم كما بيّنا ذلك، من ثنايا تعداد أوصافهم ومواقفهم المائة وسبعة، في الفصل الثالث وأكثر السور كشفاً عن أسرارهم وهتكا لفضائحهم، هي سورة (التوبة) التي أحد أسمائها هو (الفاضحة) لفضحها المنافقين، وقد وردت كلمة (ومنهم) في أربعة مواضع، هي:

١. الآية (٤٩)، ٢. الآية (٥٨)، ٣. الآية (٦١)، ٤. الآية (٧٥)، وكل ذلك تعريفا بهم، وكشفاً لسرائرهم المخبوؤة.

الثالثة: وكذلك مداراتهم لا تعني السكوت عنهم في المواقف التي تستوجب المحاسبة والتوبيخ:

وهذا أيضاً ما أرشد إليه كتاب الله العزيزُ النبيَّ الخاتَمَ ﷺ، كما قال تعالى:

١. ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم].

٢. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء].

وإذا كان الجهاد ضدّ الكافرين - غير المنافقين - والغلظة عليهم، يكون في ميدان القتال وبالسيف والسّنان، فإنَّ الجهاد ضدَّ المنافقين والغلظة عليهم، يكون في ميدان البيان وبالحجة والبرهان، واذا لَزِمَ الأمر فكشف أسرارهم وهتك أَستارهم على العَيان.

الرابعة: وكذلك التعامل معهم كمسلمين، يتغيّر حكمه كلّما ظهرت منهم المواقف التي يتبيّن بها كفرهم لأهل الإسلام:

والدليل على ذلك هو قوله تعالى:

﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

كما نرى: يهدد الله تعالى المنافقين ومرضى القلوب والمُرْجِفين، أنَّهم إذا لم يَتَراجعوا عن المَسلَكِ الذي سلكوه، سيأذن الله تعالى لنبيِّه، ويُطلِقُ له عِنان الشرع لتأديبهم، كيفما استوجب الأمر، من أَسْرٍ وقتلٍ وإخراج من المدينة!

والمقصود بـ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إما نوعٌ من أهل النفاق، أو أُناسٌ من أهل الإسلام اتصفوا ببعض صفات المنافقين، ولكن لم يصيروا كاملي النفاق.

وأما ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾[1] فهم الذين يَنْشُرون الدعايات السيئة لِقَلْقَلَةِ الناس، ونشر الفوضى والإِضطراب بينهم.

وكذلك يدل على أن المنافقين إذا أعلنوا كُفْرَهم، وتمادوا في الغي والإضرار بالإسلام والمسلمين، ينبغي اتخاذ إجراءات كفيلة بإيقافهم عند حدودهم، وكشف الستار عنهم والتشهير بهم، كي يعرفهم المسلمون ولا ينخدعوا بهم وتنطلي عليهم حِيَلُهم ومكائدُهم، قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا

---

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والإضطراب، ج: أراجيف. المعجم الوسيط، ص٣٣٢.

﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التوبة].

حيث نرى أن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ:

أولاً: ألّا يأذن للمنافقين المتخلّفين عن الجهاد في الأيام الحاسمة، أن يخرجوا معه فيما بَعْدُ، إلى غزوة أخرى أبداً.

ثانياً: وألّا يصلّي على أحدٍ منهم يموت فيما بعد - ما دام يعرفه منافقاً - .

ثالثاً: وألّا يشارك في تشييع جنازة أحد منهم، ولا يحضر عند قبره.

وبناءً على ما مرَّ ذكره، يمكننا القول، بثقة واطمئنان (والله هو العليم الحكيم):

أنّنا في عصرنا هذا، وعندما نستيقن نِفَاق أَحَدِ المتظاهرين بالإسلام، لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نعامله معاملة المسلمين، وخاصةً في قضية الزواج والمصاهرة والإختلاط العائلي، والتي هي قضية حسّاسة ومهمة جدّاً، وَتَتَرتّبُ عليها أحكامٌ كثيرة ونتائجُ خطيرة جداً، وبِقَدَر ما نشكُّ في إسلام أَحَدِ من الناس، يجب أن نأخذ بالحيطة والحذر تجاهَهُ، وأَلّا نَسْمَح بالعواطف - كعاطفة القرابة مثلاً - تَغْلِب على مراعاتنا لأحكام الشرع، والمصالح العامة للإسلام والمسلمين.



المطلب الخامس
كيفية التعامل مع المرتدّين[1]

إِن قضية التعامل مع المرتدِّين من القضايا التي اختلف حولها العلماءُ قديماً وحديثاً، فذهب أكثرهم إلى أن المرتد بعد استتابته ودفع إشكالِهِ وإِمهاله مدةً، ثم إصراره على كفره وارتداده، يُقْتَلُ عقوبة على كفره، وذهب بعضهم إلى أن المرتد يسجن ولا يقتل، وذهب بعضهم إلى التفصيل في القضية، ثم الحكم على كل حالة بما يناسبها من الحكم.

ولا شك أَن اختلاف العلماء بشأن عقوبة المرتد وكيفية التعامل معه، ناشىءٌ من عدم وجود حكم صريح وواضح عن المرتد في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، ولا يَخْفى عليّ حديث رسول الله ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَه فَاقْتُلُوهُ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٢٢))، ولكن لم يعتبر العلماء هذا الحديث على فرض صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ، حاسماً في الموضوع، لما سنذكره فيما بعد بإذن الله تعالى.

---

(١) لي كتيب باللغة الكردية عن حكم المرتد وعقوبته الدنيوية، خَلُصتُ فيه إلى أَن الرأي القائل: (يُقتل المرتد عقوبة على ارتداده في كل الأحوال) ليس صحيحاً، بل الصحيح، أن المرتدِّين أنواع ولكل نوع منهم حكمه الخاص، ولكن عموماً ليست قوبة المرتد هي القتل، ما لم يُصاحِبْ أرتدادَهُ، انضما ُهُ إلى جبهة الكفار المحاربين، أي لا يقتل على خروجه من الإسلام، ولكن يُقتَل على خروجه على الإسلام، ومحاربتهِ للكيان الإسلامي.

والذي أراه بالنِّسبة للتعامل مع المرتد - وكما أشرت إليه في السابق - أن المرتَدَّ عموماً، نوع من أنواع الكفّار الذين أطلق الله تعالى لهم العِنانَ في الدنيا، بل وسَمَحَ لهم أن يعيشوا تحت ظِلِّ دولة الإسلام، التي تقومُ باسمه وعلى أساس دينه ولتطبيقه، هذا بالنسبة لحكمه في الإسلام بصورة عامة، ولكن بما أن المرتدين ليسوا نوعاً واحداً، وأسباب الإرتداد كثيرة متعدّدة، فلا بدّ - عندما نأتي للتفصيل في الحكم - من التَّبيُّن التام في نوعية الإرتداد، وتمييز بعضها عن بعض، إذ ليس صحيحاً عقلاً ولا نقلاً أن نُعَمِّم حكماً واحداً على عِدّة حالات مختلفة متباينة!

وأما الأدلَّة التي استندت إليها لاختيار هذا الرأي، فهي:

أولاً: ليس المرتدُّ سوى شخص اختار الكفرَ على الإيمان، وقد أعطى الله تعالى البَشرَ حُرِّية الإختيار بين الإيمان والكفر:

وبما أنَّنا قد فصَّلنا القول في هذه المسألة، بَلْ وكرّرناه فيها أكثر من مرة، فلن أَزِيد هنا على إيراد بعض الآيات المرتبطة بها:

١ - ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ..﴾ [الكهف: ٢٩].

٢ - ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

٣ - ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾... لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وأنا على يقين بأن القول بعقوبة المرتد مطلقاً، إنْ بالقتل، أو بالسِّجن، يتصادم مع كل تلك الآيات التي تُصَرِّح بأن الله تعالى خَلَقَ الإنسان للإبتلاء، وأنه أعطاه الله الحرية والإختيار في مجال الإيمان والكفر، والشكر والكفران، والطاعة والعصيان!

ثانياً: إنَّ القول بعقوبة المرتد مطلقاً - أي: في كل الحالات - يؤدِّي إلى تلبُّس المرتدّين الذين لا يجرؤون على الجهر بكفرهم، بالنفاق، والنفاق أخبث أنواع الكفر:

وهذا واضح لا يحتاج إلى إيضاح، ثم نقول: إنَّ جعل المرتدِّ ينافق المسلمين ويُصانِعُهم بظاهره، وفي سِّرهِ يغْلي قَلْبُه عليهم حقداً وبغضاً، أضرّ عليهم من أن يُسمَح له يُعْلِنُ بكفره، ويعرفه المسلمون على حقيقته، فيعامِلَونه كما هو جديرٌ به.

ثالثاً: إنَّ الله تعالى أعلن كفر المنافقين على أساس كثير من أقوالهم وأعمالهم الظاهرة، التي تجعل أصحابها المسلمين (حقيقة أو ظاهراً) مُرْتدِّين، ولكن مع ذلك لم يأمر رسولهُ ﷺ بإنزال العقوبة عليهم:

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ..﴾ [التوبة: ٧٤].

وجليٌّ أن كلاً من: الإستهزاءِ بالله، وقولِ الكفر، كفرٌ ظاهر يترتَّب عليه ارتداد صاحبه عن الإيمان، إنْ كان مؤمناً، أو الإسلام الظاهري، إنْ كان مسلماً فقط.

وكذلك من تلك الآيات التي تُبيِّن ارتدادَ المنافقين الظاهري وكفرَهم العلني، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ..﴾ [المجادلة: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ..﴾ [المائدة: ٥٢].

إذن:

لو كانت عقوبة المرتد هي القتل أو السجن مطلقاً، لما كان في وسع رسول الله ﷺ، وقد وصم الله أولئك المنافقين بالكفر بعد الإيمان ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ والكفر بعد الإسلام ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ والخروج من جماعة المسلمين ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾، نعم لو كانت للمرتد عقوبة محدّدة شرعاً، لما كان في وسع رسول الله ﷺ، إلا إِنزالَها عليهم، بعد إِخبار الله إياه بكفرهم وخروجهم من الإيمان والإسلام وجماعة المسلمين، بأقوالٍ وأعمالٍ ومواقِفَ ظاهرة، تُبْنى عليها الأحكامُ الدنيوية الظاهرة!

رابعاً: إِن كتاب الله الحكيم قد نصَّ على العقوبات الأساسية كلِّها، ومن ضِمْنها عُقوبَتا السَّرقة والقذف، وكلتاهما أخف من عقوبة المرتد (القتل)! فكيف يُنَص على التي هي أخف، وتُتركُ التي هي أشدّ؟!

نعم على الرغم من أنَّ كتاب الله الحكيم تحدَّث عن المرتدين وعقوبتهم الأُخروية - كما ذكرنا سابقا مستشهدين بالآيات - في أكثر من موضع، ولكنه لم يذكر بل ولم يُشِرْ إلى عقوبتهم الدنيوية، وهذا خلاف طبيعة كتاب الله الحكيم الذي يحدِّد العقوبات الدنيوية والأخروية معاً، عند ذكره الجرائم، فعلى سبيل المثال: قال كتاب الله الحكيم عن عقوبة جريمة القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور] فذكر سبحانه لجريمة القذف، كلا من العقوبة الدنيوية والأخروية.

ولكن بالنسبة لجريمة الإِرتداد عن الدين، لم يذكر كتابُ الله في كل المواضع التي تحدث فيها عن الإِرتداد والمرتدين، إلا عقوبتهم الأخروية، وبما أننا قد ذكرنا سابقاً كل المواضع التي ورد فيها الحديث من الإِرتداد، لا داعي لذكرها هنا.

خامسا: وأما بالنسبة للحديث المذكور «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٢٢))، فلنا عليه الملاحظات الآتية:

١ـ هذا الحديث من نوع الآحاد، وليس من نوع المتواتِر[١]، ولكثير من المحقِّقين تحفُّظ حول إِثبات حكم شرعي مهم، وخصوصاً فيما يتعلق بالدِّماء، بحديث آحادٍ[٢].

٢ـ على فرض صِحَّة هذا الحديث، فهو ما لم يؤَولْ تأويلاً صحيحاً، يَتَصادم مع سنة رسول الله ﷺ العملية وسيرته، إذ لم يَقتُل رسولُ الله ﷺ أحداً ممَّن ثبت ارتدادهم عن الإيمان والإسلام، بِنَصِّ القرآن الحكيم - كما ذكرناه سابقاً -، و(عبدالله بن أبي السَّرْح) خير مثال في هذا المجال، إِذ كان كاتباً للوحي كما في (السيرة النبوية لابن هشام)[٣] ثم ارتدَّ ولِحق بالمشركين ويوم الفتح (فتح مكة) شفع له (عثمان ابن عفان) ﷺ وكان أخاه في الرَّضاعة، فَقَبِلَ رسول الله ﷺ شفاعته فيه وعفا عنه، ومن الواضح أن رسول الله ﷺ لم يكن يقبل شفاعة أَحدٍ في الحدود، كما رفض شفاعَةَ (أُسامة بن زيد بن الحارثة) ﷺ لما شفع في المرأة المخزومية التي سَرَقتْ، فَوَبَّخ رسول الله ﷺ أُسامة على ذلك وقال: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟!»** (رَوَاهُ البُخَارِي برقم: (٦٧٨٨)، وَمُسْلِم برقم: (١٦٨٨)).

٣ـ والتأويل الصحيح لهذا الحديث أن نقول:

هذا الحديث مُجْمل، وتفصيلُهُ جاءَ في حديث آخر، هذا نَصُّهُ: **«لا يَحِلُّ دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى**

---

(١) الخبر أو الحديث المتواتر: ما أَخبَرَ به جمعٌ يؤمن تواطؤهم على الكذب. المعجم الوسيط، ص١٠١٠.

وانظر: (الوجيز في أُصول الفقه) للدكتور عبدالكريم زيدان، ص١٦٨.

(٢) الآحاد: هي ما رواها عن النبي ﷺ عدد لم يبلغ حدّ التواتر. أنظر (تيسير علم أصول الفقه) ص١٤٠، عبدالله بن يوسف الجُديع، و(الوجيز...) ص١٧١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٤، ص٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، و(السيرة الحَلَبِيَّة)، ج٢، ص٣٣٦.

ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البُخَارِيُّ برقم: (٦٨٧٨)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٤٣١٥)).

حيث نرى نبيَّ الله ﷺ وصف المرتدَّ الذي يستحق القتل ويُباحُ دَمهُ، بوصفين:

١ـ (التارك لدينه) ويُقصدُ به ترك الإسلام والخروج من دائرته.

٢ـ (المفارق للجماعة) ويُقصدُ به المُلتحقُ بجبهة الكفر المحاربة للإسلام والمسلمين، إذن: (ترك الدين) خروجٌ من الدين وارتدادٌ عنه، ولكن (مفارقة الجماعة) هو الخروج على الدين ومحاربته، و مُـبرِّرُ قتل المرتد، ليس نفس ارتداده، بل هو خروجُهُ على الإسلام وكيانه السياسي.

وبهذا تَجتَمِعُ النصوص كلُّها، ولا يَتَعارضُ الحديثُ المذكور (منَ بدّل دينه فاقتلوه) مع الآيات المباركة وسنة رسول الله ﷺ العملية.

سادساً: إنَّ مسألة قتل المرتدِّ، وقع فيها خلاف بين الصحابة ﷺ ومن بعدهم من الأئمة والفقهاء، وذلك دليل على عدم وجود نصٍّ واضح وقاطعٍ في الموضوع، والدليل على وجود الخلاف في الموضوع بين الصحابة، هو هذه الآثار:

١- «عن أنس بن مالك قال: إن أنساً عاد من (تُستُر) فقدم على عمر بن الخطاب ﷺ فسأله: ما فعل الرهط الستة من بكر بن وائل الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بالمشركين؟ قال يا أمير المؤمنين! قوم ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين من بكر بن وائل، قال: يا أمير المؤمنين قُتِلوا في المعركة، فاسترجع ﷺ، قال أنس: وهل كان سبيلهم إلا القتل؟ قال: نعم كنت أعرض عليهم أن يدخلوا الإسلام، فإنْ أبوا استودعتهم السجن». (رَوَاهُ عَبدالرَّزَاق في (المصنف) برقم: (١٨٦٩٦)، وَالبَيْهَقِي في السنن (٨/

٢٠٧)، وسعيد بن منصور برقم: (٢٥٧٣)، وابن حزم في المحلّى: (٢٢١/١١)).

٢ - «روى سعيد بن منصور في سننه رقم: (٢٥٨٨) أن (تُسْتُر) فُتحت صُلحاً، ثم كفر أهلُها، فَغزاهم المهاجرون وسَبوهم، فأمر عُمر بن الخطاب مَن سُبِيَ منهم، أن يُرَدُّوا إلى جزيتهم، وفرّق بين سادتهم».

٣- «روى عبد الرزاق في (المصنَّف) رقم: (١٨٧١٤) أن قوماً أسلموا (من أهل الجزيرة بالعراق) ثم لم يَمكثوا إلّا قليلاً حتى ارتدّوا، فكتب فيهم مَيمون بن مَهران إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه عمر: رُدَّ عليهم الجزية ودَعهُم).

ويرى كل من: إِبراهيم النخعي والثوري من الأئمة الفقهاء، هذا الرأي[١].

وبناءً على ما مرَّ، نقول: إنَّ قَضيَّةَ التعامل مع المرتدين، تقع ضمن دائرة الإِجتهاد في مجال السياسة الشرعية، ولو أن عقوبة المرتد بالقتل أو السجن، كانت حداً شرعياً مثل القصاص وعقوبة الزنى والحرابة والسرقة والقذف، لَأنزلَها رسولُ الله ﷺ على المرتدِّين كلِّهم، بلا استثناء وفي كل الأحوال، كما كان يُطبِّقُ الحدود والعقوبات المنصوص عليها والمتفق عليها على الجُناة كلهم بلا استثناء، وفي كلِّ الأحوال، وهذا ما لم يحدث قط بالنسبة للمرتدين!

ونخلص من كل ما مرَّ ذكره، إلى القول:

إِنَّ التعامل مع المرتدِّين، من القضايا التي تركت عفْواً لاجتهاد ولاة الأمور في مجال السياسة الشرعية، والحكمة في ذلك: أن الإرتداد ظاهرة

(١) (المصنّف) لعبدالرزاق: ١٨٦٩٧.

متعددة الأسباب، وأَنَّ المرتَدِّين أنواع وأشكال، والصواب هو أن يُعَامَل كل شخصٍ بما يستحقه، لا أن يُصْدَر حكمٌ واحد معيَّنٌ، على أشخاصٍ مختلفينَ في حالات ارتدادهم وأسبابه ودوافعه.

وزيادة في الإيضاح أقول:

إن الذي يرتدّ عن الإسلام، بسبب جَهْلِهِ بالإسلام، أو يرتدُّ عنه من جرّاء شبهة فكرية عَرَضَتْ له، أو يرتدّ عنه بسبب شهوة غَلَبَتهُ، نعم أولئك عندما يرتدّون، ثم يقفون عند هذا الحدّ، حكمهم يختلف عن الذي يرتدُّ عن الإسلام تحقيقاً لمكسب سياسي، أو تزلُّفاً وتملُّقاً إلى أعداءِ الإسلام، ثم يُضيف إلى كفره وارتداده، الكيْدَ للإسلام والعَمالة لأهل الكفر، ويتخنْدق ضِدَّ أهل الإسلام!

إذن: ينبغي أن يعامل كلٌّ من تلك الحالات، بما يناسبها من الحلول المختلفة.

وأودّ أن أَختم هذا الموضوع بملاحظتين:

الأولى: يجِب أن تكون لدينا المعرفة الدقيقة بالشخص الذي اعتبر مرتدّاً، هل ينطبق عليه تعريف المرتدِّ حقاً، أم لا؟!

وقد عرَّفنا المرتدَّ سابقاً، فلا نعيده هنا، ولكن نؤكد على أنه لا يُعَدُّ شخصٌ ما مرتداً، ما لم يكن من قبل مؤمناً صحيح الإيمان، وأما من اعتبر مؤمناً تَبَعاً لأبويه، أو لقومه، من دون أن يكون في ذاته ذائقاً طعم الإيمان، فمثل هذا لا يعتبر مؤمناً، وبالتالي لا يمكن أن نُرتِّب على إعلانه الكفْرَ، حُكم المرتد، أياً كان ذلك الحكم، وإدراك هذه المسألة على حقيقتها في غاية الأهمية، كي لا نُخطِىء في إصدار الأحكام على الناس اعتباطاً، ومن غير وزن الأمور بميزان الشرع العدل الدقيق الحكيم.

الثانية: إِنَّ المسلم الذي يرتدّ عن الإِسلام، وللإِسلام دولة وسلطان وشوكة، غير الذي يرتد عنه والإِسلام - المتمثل بالمسلمين - مهيض الجناح، يتناوشه الأعداء من كل جانب:

نعم إن للحالات الإِستثنائية والطارئة في الشريعة، أحكامها الخاصة، التي تختلف عن أحكام الحالات العامة والعادية، وهذه الحقيقة جلية كالشمس لمن يعرف الإسلام وله خبرة بالحياة والمجتمع، ومن البديهيِّ أن الإرتداد عن الإسلام في كل الأحوال، كفرٌ وجريمة، ولكن كما قال علماؤنا: **(لا يُنْكَرُ تغيّرُ الأحكام بِتغيُّر الأَزمان والأحوال)** ومن القواعد الشرعية المعروفة، أنَّ الجرائم تُغَلَّظ أو تُخفف عقوباتُها تَبَعاً للظروف والملابسات المحيطة بها.

خلاصة ما أريد أن أخلُص اليه هنا، في نهاية حديثنا عن حكم المرتد وكيفية التعامل معه:

إنَّ التعامل الشرعي الصحيح مع المرتد، يتمثَّل في النظر إليه كسائر الكفار أولاً، ثم نشعر بواجبنا تجاهه، كإنسان ضالٍ محتاج إلى الهداية والإرشاد والشفقة، وبعد ذلك نُدَقِّقُ النَّظَرَ المسلَّح بالفقه في الدين والخبرة بالحياة والمجتمع، في كيفية وأسباب وملابسات ارتداده، ونعامله معاملة شرعية عادلة وحكيمة، على هذا الأساس، من دون إفراطٍ ولا تفريط، ومما لا شك فيه أن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، وإذا كانت العقوبات (الحدود) الشرعية تدرأ بالشبهات: (إدرؤوا الحدود بالشبهات) [رواه ابن عَدي في (الكامل) مرسلاً، وَحَسَّنَهُ السيوطي في (الجامع الصغير): (٣١٤)، وأيّده المناوي][1]، كما قال رسول الله ﷺ، فمن الجليِّ أن ما هو دون العقوبات الشرعية المقدَّرة، أولى بالحيطة والحذر.

---

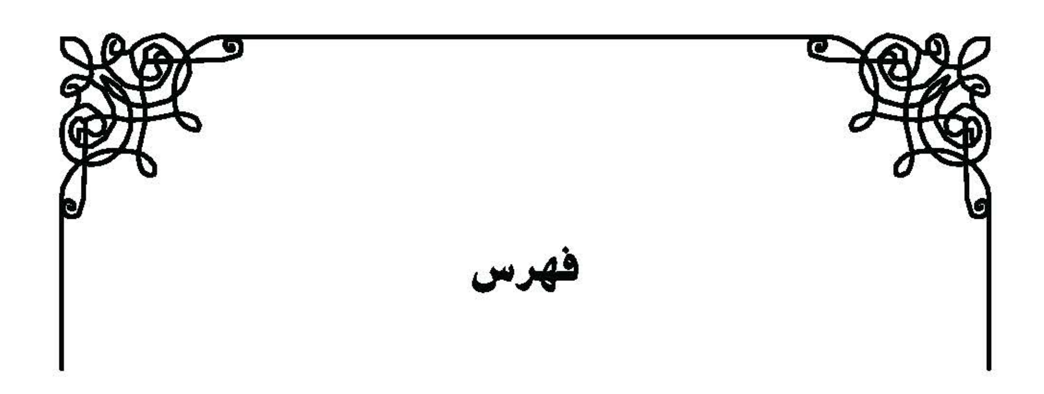
(١) أنظر: فيض القدير، ج١، ص٢٩٥.

وهنا نصل إلى نهاية هذا المبحث الثاني من الفصل الرابع من الكتاب الثاني عشر، بحول الله وقوته وحسن توفيقه وهدايته، وبهذا نكون قد وَصَلْنا إلى ختام موسوعتنا هذه، والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

سبحان ربك ربِّ العزَّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ليلة الأربعاء ٧ - ٢٠٠٥/٤/٨م
سجن مطار بغداد - القاطع الخامس - الغرفة (٤٠).
سجن أمريكا - كروبر
المراجعة الثانية السريعة في الخميس
١٢ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ
٢٠٠٥/٤/٢١م
نفس الغرفة والقاطع السابقين
اليوم/٦٥٢ من أيام سجني
الأسبوع/٩٣
الشهر/٢٢
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
تمت المراجعة النهائية في:
١٢/رجب ١٤٣٤هـ/ ٢٢ مايس ٢٠١٣م

وتمت المراجعة للطبعة الثانية في:
٢٣ محرم ١٤٣٧هـ
٥ تشرين الثاني ٢٠١٥م
أربيل/ كوردستان العراق



فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذه قائمة بكل الإِنتاج الفكري للشيخ علي باپير، كتباً وكتيبات وباللغتين العربية والكوردية

ت	الـكـتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
هذه قائمة بكل الإِنتاج الفكري للشيخ علي باپير، كتباً وكتيبات وباللغتين العربية والكوردية			
أ - باللغة الكوردية (بعد ترجمة عناوينها إلى العربية)			
القرآن والسنة			
١	خلاصة عن الإسلام في ضوء سورة الفاتحة	ط الأولى/١٩٨٤ ط الثانية/٢٠٠٦	
٢	لنكن في خدمة القرآن	ط الأولى/٢٠٠٨ ط الثانية/٢٠١٥	
٣	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الأول، سورتي: (الفاتحة) و(البقرة)	ط الأولى/٢٠١٢	
٤	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثاني، سورة: (آل عمران)	ط الأولى/٢٠١٢	
٥	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثالث، سورة: (النساء)	ط الأولى/٢٠١٣	
٦	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الرابع، سورة: (المائدة)	ط الأولى/٢٠١٤	
٧	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الخامس، سورة: (الأنعام)	ط الأولى/٢٠١٥	
٨	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد السادس، سورة: (الأعراف)	ط الأولى/٢٠١٦	
٩	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد السابع، سورة: (الأنفال)	ط الأولى/٢٠١٦	
١٠	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثامن، سورة: (التوبة)	ط الأولى/٢٠١٧	
١١	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد التاسع، سورة (يونس)	ط الأولى/٢٠١٨	
١٢	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد العاشر، سورة: (هود)	ط الأولى/٢٠١٨	
١٣	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الحادي عشر سورة: (يوسف)	ط الأولى/٢٠١٩	
١٤	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثاني عشر سور: (الرعد، إبراهيم، الحجر)	ط الأولى/٢٠١٩	

ت	الكــتــب	التأريخ والطبع	ملاحـظـة
١٥	إتباع سنة النبـي (صلى الله عليه وسلم) بين التفريط والإفراط	ط الأولى/٢٠١٥	
١٦	طريقة النبـيِّ «صلى الله عليه ورسلم»: تعريفها، أهمِّيتُها، ضرورتها	ط الأولى/٢٠١٧	
	العقيدة والفكر الإسلامي		
١٧	صراع الإسلام والإيدولوجيات	ط الأولى/١٩٨٥ ط الثالثة/٢٠٠٦	
١٨	ماهي طريق النبـي «صلى الله عليه وسلم»؟!	ط الأولى/١٩٨٩	أدخل فيمل بعد في كتاب (المسلم الكامل: القسم الأول: عقيدة المسلم)
١٩	مشروع: المنهج الفكري للعمل الإسلامي	ط الأولى/١٩٩٦	
٢٠	شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الأولى/٢٠٠١ ط الثالثة/٢٠١٤	ترجم للعربية
٢١	مسائل عصرية رائجة: نظرة واقعية وتقييم شرعي	ط الأولى/٢٠٠٢ ط السادسة/٢٠١٦	ترجم للعربية والتركية والفارسية
٢٢	معرفة الله، الإيمان، الدين، حقائق الإسلام تتبلور، وأباطيل السُّبُل تتدهور	ط الأولى/٢٠٠٢ ط الثانية/٢٠٠٩	
٢٣	أسماء الله الحسنى «سبحانه وتعالى»	ط الأولى/٢٠١٣	
	موسوعة: الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة، في ستة مجلدات	ط الأولى / ٢٠٠٦-٢٠٠٨، ط الثانية/٢٠١٦	
٢٤	المجلد الأول: ماهو الإيمان والعقيدة الإسلامية؟		
٢٥	المجلد الثاني: توحيدالله في الخالقية والربوبية		
٢٦	المجلد الثالث: توحيدالله في الأسماء والصفات والألوهية		
٢٧	المجلد الرابع: الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله		
٢٨	المجلد الخامس: الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر		
٢٩	المجلد السادس: خصائص وآراء أتباع الطريق الحق		

ت	الكـتـب	التأريخ والطبع	ملاحـظـة
٣٠	المسلم الكامل/ عقيدة المسلم	ط الأولى/١٩٩٧	أدخل فيما بعد في كتاب: (الإيمان والعقيدة الإسلامية)
٣١	التيار الإسلامي والعلماني، نقاط الوفاق والإختراق	ط الأولى/٢٠٠٨ ط الثالثة/٢٠١٥	نشر معظمها ب(٢٤) حلقة في أسبوعية (المواطن) والبقية (٩) حلقات في أسبوعية (المرآة)
٣٢	شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الأولى/٢٠١٤ ط الثانية/٢٠١٥	
٣٣	الترجمة الكوردية لمتن العقيدة الطحاوية	ط الأولى/٢٠١٤	
٣٤	شرح العقيدة الطحاوية	ط الأولى/ ٢٠١٥ ط الثانية/٢٠١٧	
٣٥	العلمانية والديمقراطية في تجربة كوردستان (مناظرة العام)	ط الأولى/٢٠١٦	ترجم للعربية
٣٦	موسوعة: لَبْنَةُ الإيمانِ وَزَيْفُ الإلحادِ في ضَوْءِ: الفِطْرَةِ والعَقْلِ والعِلْمِ والوَحي	ط الأولى/٢٠١٩ ط الثانية/٢٠٢٠	
	موسوعة: التفكير الإسلامي بين الوحي والواقع		
٣٧	الكتاب الأول: توضيع: مفهوم وقصته وأسس وأهمية التفكير الإسلامي	ط الأولى/٢٠١٨	
٣٨	الكتاب الثاني: الخطوط العامة لمنهج جمهور المسلمين	ط الأولى/٢٠١٨	
٣٩	الكتاب الثالث: التيارات الفكرية في تأريخ المسلمين	ط الأولى/٢٠١٩	
٤٠	الكتاب الرابع: أصول التفكير الإسلامي	ط الأولى/٢٠١٩	
٤١	الكتاب الخامس:مسائل فكرية عصرية متنوعة	ط الأولى/٢٠١٩	
	سلسلة: لنتَعرَّف على الإسلام أكثر!	أُدخلت هذه الحلقات الثلاث فيما بعد في موسوعة: الإيمان والعقيدة الإسلامية	
٤٢	الحلقة الأولى: إثبات وجود الله تعالى	ط الأولى/١٩٩٨	
٤٣	الحلقة الثانية: الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام»	ط الأولى/١٩٩٨ ط الثانية/١٩٩٩	
٤٤	الحلقة الثالثة: اليوم الآخر	ط الأولى/١٩٩٩	
٤٥	الحلقة الرابعة: الدين		ضُمِّنت في كتاب: معرفة الله، الدين، الإيمان

ت	الـكـتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
	الفقه الإسلامي		
	موسوعة: العبادة الإسلامية (٤ مجلدات)	ط الأولى/٢٠٠٠ ، ط الثانية/٢٠٠٩	
٤٦	المجلد الأول: العبادة بصورة عامة، المسائل الخلافية، الطهارة		
٤٧	المجلد الثاني: إقامة الصلاة أُولى شعائر العبادة		
٤٨	المجلد الثالث: الزكاة والإنفاق		
٤٩	المجلد الرابع: الحج والعمرة، ذكر الله		
٥٠	قواعد مهمة في التعامل الشرعي الحكيم مع المسائل الفرعية الخلافية	ط الأولى/١٩٩٩	ترجم للعربية
٥١	الأعياد والمناسبات: تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى/٢٠١٣	
٥٢	موضوعات فنية في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/٢٠٠٩ ط الثانية/٢٠١٥	ترجم للفارسية
٥٣	أصول مهمة في مجال الإنفاق في سبيل الله	ط الأولى/٢٠١٣	
	تزكية النفس والأخلاق والسلوك		
٥٤	ذكر الله تعالى، أهمية ذكر الله في حياة الإنسان	ط الأولى/١٩٨٧	
٥٥	طريق الصلاح والسير الى الله: تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/١٩٩٠ ط الخامسة/٢٠١٢	ترجم للعربية والفارسية
٥٦	مساجد كوردستان بين التعمير والتدمير	ط الأولى/١٩٩٩	
٥٧	التوبة الى الله: الإقبال على الله، وترك الذنوب، والمعاصي، والتغيير الجذري في الذات	ط الأولى/٢٠٠١ ط الخامسة/٢٠١٠	
٥٨	من هو الشهيد وماهي منزلته؟	ط الأولى/٢٠٠٢	
٥٩	بحث حول رؤية الله «عز وجل» في الدنيا والآخرة	ط الأولى/٢٠١٥	
٦٠	حياة الروح: إحسان العبادة والتزكية	ط الأولى/٢٠١٥	
٦١	موسوعة: الخلق، والسلوك الإسلامي في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/٢٠١٦	
	الدعوة والعمل الإسلامي		
٦٢	حزب الله	ط الأولى/١٩٨٨	
٦٣	من هو البيشمركة المسلم، أو المسلم المجاهد؟	ط الأولى/١٩٨٨ ط الرابعة/٢٠٢٠م	
٦٤	داء ودواء الحركة الإسلامية	ط الأولى/١٩٩٠	
٦٥	الحركة الإسلامية بين البقاء والفناء	ط الأولى/١٩٩٣	

ت	الـكـتـب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
٦٦	الحركة الإسلامية ومرحلتها الجديدة	ط الأولى/ ١٩٩٤	
٦٧	توجيهات لإسلاميي كوردستان	ط الأولى/ ١٩٩٧	
٦٨	الحركة الإسلامية وأفق مشرق: الأصول الشرعية والأسس الأخلاقية	ط الأولى/ ١٩٩٧	
٦٩	الإسلام والقضايا الراهنة	ط الأولى/ ١٩٩٨	
٧٠	علماء الإسلام من هم وماهي صفاتهم؟	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط الثالثة/ ٢٠١١	ترجم للعربية
٧١	الجماعة الإسلامية: أهدافها ومواقفها	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٢	كيف نتعامل مع الناس؟	ط الأولى/ ٢٠٠٢	ترجم للعربية
٧٣	كيف نفهم الجهاد؟	ط الأولى/ ١٩٩٨	
٧٤	ملاحظات وتنبيهات حول الجهاد في سبيل الله	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٥	لكيلا نتضرّر من جهادنا!	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٦	ماهو الجهاد في سبيل الله، هدفُه وكيفته	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٧	توجيهات لإخوتنا في المهجر	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٨	الإسلام والتدين والعمل الإسلامي في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/٢٠٠٦	
٧٩	التحالف في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ٢٠٠٩	
٨٠	المشاركة في الإنتخابات والبرلمان / تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى/ ٢٠٠٩ ط الثانية / ٢٠١٣	
٨١	نقض أفكار وتصرّفات داعش المتطرفة	ط الأولى/ ٢٠١٥ ط الثانية/٢٠١٧	ترجم للفارسية
٨٢	لايجوز أن تشكّكنا انحرافات وجرائم داعش في الإسلام	ط الأولى/٢٠١٥	ترجم للفارسية
٨٣	التطرف: التعريف، وعلامات المتطرفين، أسباب التطرف، آثار التطرف، علاج التطرف	ط الأولى/ ٢٠١٥	ترجم للفارسية
٨٤	القواعد الشرعية والأسس العامة للجماعة الإسلامية الكوردستانية		
٨٥	مراجعة للعمل الإسلامي	ط الأولى/ ٢٠١٩	

ت	الكـتـب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
	سلسلة: الأصول الشرعية للجماعة الإسلامية		
٨٦	الحلقة الأولى: الأدلة الشرعية لتأسيس الجماعة الإسلامية	ط الأولى/ ٢٠٠١	
٨٧	الحلقة الثانية والثالثة: حكم عزل الخليفة والحكام المسلمين عند الظلم والإنحراف	ط الأولى/ ٢٠٠١	
٨٨	الحلقة الرابعة: الشيخ أبو بصير وفتواه: تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى/ ٢٠٠١	
	خطب مؤتمرات الجماعة الإسلامية		
٨٩	العمل والمشروع الإسلامي (خطبة المؤتمر الأول للجماعة الإسلامية)	ط الأولى/٢٠٠٥ ط الثانية/ ٢٠٠٦	
٩٠	التقرير الإيماني والفكري والسياسي للجماعة الإسلامية (خطبة المؤتمر الثاني)	ط الأولى/٢٠١٠	
٩١	نظرة الى واقعنا الداخلي والخارجي (خطبة المؤتمر الثالث)	ط الأولى/٢٠١٦	
	القومية ومسألة الكورد		
٩٢	لماذا دُمِّرت كوردستان وكيف تُعَمَّر؟	ط الأولى / ١٩٨٩	
٩٣	حكم العودة إلى نير الطاغوت	ط الأولى/١٩٩٠ ط الثانية/٢٠٠٥	
٩٤	العاطفة القومية والفكر الناسيونالي في ميزان الإسلام	ط الأولى/١٩٩٠ ط الرابعة/٢٠١٨	
٩٥	حلّ قضية الكورد بين الإيمان والبرلمان	ط الأولى/١٩٩٢	
	السياسة والحكم		
٩٦	موضوعات سياسية راهنة في ضوء العقل والوحي	ط الأولى/ ٢٠١٠	
	موسوعة: الإسلام والدولة (٤ مجلدات)	ط الأولى/ ٢٠١٤-٢٠١٦	
٩٧	المجلد الأول: الكيان السياسي في الإسلام: أدلة وجوبه، كيفية تأسيسه، طبيعته وأساسه الفكري، تعريف مصطلحات	ط الأولى/ ٢٠١٦	
٩٨	المجلد الثاني: أُسس نظام الحكم في الإسلام	ط الأولى/ ٢٠١٤	

ت	الـكـتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
٩٩	المجلد الثالث: السلطات الثلاث: التشريع، التنفيذ، القضاء	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٠٠	المجلد الرابع: غير المسلمين في المجتمع والدولة الإسلاميين	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٠١	نظرة إسلامية حول واقعنا المعاصر	ط الأولى/ ٢٠١٦	
١٠٢	القرآن والتطهير والإصلاح في إقليم كوردستان	ط الاولى/٢٠١٨	
١٠٣	أهمية الأخلاق في السياسة	ط الأولى/ ٢٠١٩	
	المرأة والأسرة		
١٠٤	المرأة الكوردية المسلمة: حقوقها الشرعية ووظائفها المهمة	ط الأولى/ ٢٠٠٣	
١٠٥	موسوعة: المرأة والأسرة في ظل الشريعة	المجلد الأول: طالأولى/٢٠٠٢ المجلد الأول والثاني: ط الثالثة/٢٠١٣	
	التأريخ		
١٠٦	خلاصة سيرة رسول الله «صلىالله عليه ةسلم» عبرها ودروسها	ط الأولى/٢٠٠٩ ط الثالثة/٢٠١٣	
١٠٧	باقات من بيدر عمري (ذكرياتي) القسم الأول: ١٩٦١-١٩٩١	ط الأولى/٢٠١٥	
١٠٨	خلاصة أحداث حياتي ونشاطاتي الفكرية والسياسية (١٩٦١-٢٠١٧)	ط الأولى/٢٠١٨	ترجم للعربية والأنجايزية
	الحوارات والمقابلات		
١٠٩	لاتتجاوزوا الحدود (مقابلة د. حسين محمد عزيز)	ط الأولى/٢٠٠١ ط الثانية/٢٠٠٤	
١١٠	التعذيب والسجن، بيشمركة أمضى اثنين وعشرين شهراً في سجن المحتل	ط الأولى/ ٢٠٠٥ ط الثالثة/ ٢٠٠٩	ترجم للعربية والفارسية والإنجليزية
١١١	الشباب في المفاهيم المعاصرة	ط الأولى/٢٠١٠	
	سلسة: الموضوعات الراهنة		
١١٢	شبابنا بين الأصالة والتقليد (١)	ط الأولى/ ٢٠٠٦	ترجم للفارسية

ت	الـكـتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
١١٣	الإنهيار الأخلاقي يهوي بمجتمعنا، فالحذر الحذر! (٢)	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط الثانية/ ٢٠٠٦	
١١٤	الأضرار التي نجنيها بإبعاد المرأة عن الإسلام (٣)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٥	كيف نكون قدوة وكيف نبني القاعدة الجماهيرية؟ (٤)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٦	توضيحات عن السياسة الإسلامية (٥)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٧	أسس مهمة لكيفية إلقاء الخطبة (٦)	ط الأولى/ ٢٠٠٦	ترجم للفارسية
١١٨	طلبة العلم الشرعي، ملاحظات وإرشادات (٧)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٩	(٨) الأخلاق الفاضلة معيار الإلتزام بالإسلام	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١٢٠	الدعوة الى الله، ماهيتها وكيفيتها، والهدف منها، ومن يقوم بها؟ (٩)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	ترجم للفارسية
١٢١	(١٠) كيف ينبغي أن يكون الطلاب في هذا الواقع، وماهي واجباتهم؟	ط الأولى/ ٢٠٠٨	
١٢٢	واقع إقليم كوردستان: نظرة إسلامية (١١)	ط الأولى/ ٢٠٠٨	
١٢٣	طبيعة الأسرة وأركانها، ومسالة تعدد الزوجات في ميزان الشرع والعقل (١٢)	ط الأولى/٢٠٠٩	
١٢٤	العمل الإسلامي وتقشيع ضباب الشكوك (١٣)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٥	تقييم قضية الإرتداد عن الإسلام (١٤)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٦	تفسير الملا الكبير الكوي، نظرات سريعة (١٥)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٧	تقييم وجود النسخ أو عدمه في القرآن (١٦)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٢٨	ابتلاء الله لعباده، ماهو وكيف يكون؟ (١٧)	ط الأولى/ ٢٠٠٣ ط الثانية/ ٢٠١٢	
١٢٩	إرشادات لإخواننا وأخواتنا في المهجر (١٨)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٣٠	أم محمد: إمرأة كفوءة وزوجة نادرة (١٩)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٣١	الشباب والأزمة الروحية (٢٠)	ط الأولى/٢٠١٧	
١٣٢	الحياة في ظلّ الإيمان ودحض الشبهات (٢١)	ط الأولى/ ٢٠١٧	

ت	الـكــتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
	ب/ الكتب العربية		
	موسوعة: الإسـلام كما يتجلّى في كتاب الله	**ط الاولى/٢٠١٥**	**كانت في الطبعة الأولى في ثمانية مجلدات، وستكون في الطبعة الثانية اثني عشر كتاباً بالصورة الآتية**
١٣٣	الكتاب الأول: الإسـلام: معرفة صحيحة بالخـالق عز وجل والخلـق	ط الثانية/٢٠١٦	
١٣٤	الكتاب الثاني: تعريف الإيمـان	ط الثانية/٢٠١٧	
١٣٥	الكتاب الثـالث: الإيمان بالله تبارك وتعالـى: الخالق الرب الـمالك الإله ذي الأسـماء الحسـنى والصفات العـلى	ط الثانية/٢٠١٧	
١٣٦	الكتاب الرابـع: الإيمان بالـملائكة و بالـجـن	ط الثانية/٢٠١٧	
١٣٧	الكتاب الخامس: الإيمان بكـتب الله الحكـيم	ط الثانية/٢٠١٧	
١٣٨	الكتاب الســادس: الإيمان برسـل الله تعالـى وأنبيـائه الكــرام	ط الثانية/٢٠١٧	
١٣٩	الكتاب الســابـع: خاتم النبيين محمد صلى الله علية وسلم: موجز سـيـرته وبراهين نبـوَّتــه	ط الثانية/٢٠١٨	
١٤٠	الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر وموجز عن القدر	ط الثانية /٢٠١٨	
١٤١	الكتاب التاسـع: إهتداء الإنســان بهـدى الله، أو الإلتزام الفردي بشــريعة الله	ط الثانية /٢٠١٩	
١٤٢	الكتاب العاشـر: إلتزام الـمجتمع بشريعة الله تعالـى	ط الثانية /٢٠١٩	
١٤٣	الكتاب الحـادي عشـر: تطبيق الـمجتمع للشــريعة و معـالم الدولة فـي الإســلام	ط الثانية /٢٠١٩	
١٤٤	الكتاب الثاني عشــر: الإســلام: نظــرة سـديدة تجــاه الناس وتعامل صحيح معهم	ط الثانية /٢٠٢٠م	

ت	الكـتـب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
١٤٥	نقض فـكـرة التطـرف	ط الاولى/٢٠١٦/ لندن ط الثانية/ ٢٠١٧/ القاهرة (نقض التطرف ودحض أفكار المتطرفين)	
١٤٦	ضـيف و قضـية (مقابلة مع قنـاة العربية)	ط الاولى/٢٠٠٦	جمعت مع مقالات وكلمات أخرى في كتاب: (نظرات فاخصة في قضايا شاخصة)
١٤٧	لقاء خاص (مقابلـة مع قنـاة العـالم)	ط الاولى/٢٠٠٦	
١٤٨	حديث مختصر حول مايجري على الساحة العراقية	ط الاولى /٢٠١٦	
١٤٩	طريق الصلاح والسير الى الله: تزكية النفس في ضوء القران والسنة	ط الاولى/٢٠١٢	
١٥٠	أمير وراء القضبان	طالأولى/٢٠٠٦ ط الثانية/٢٠٠٩	
١٥١	مسائل عصرية رائجة	ط الثانية/٢٠١٤	
١٥٢	قواعد مهمة في التعامل الشرعي الحكيم مع المسائل الفرعية الخلافية	ط الاولى/ ٢٠١١	
١٥٣	علماء الإسلام من هم وماهي صفاتهم؟	ط الاولى/ ٢٠٠٥ ط الثانية/٢٠٢٠	
١٥٤	الاصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الاولى/ ٢٠١٢	
١٥٥	كيف نتعامل مع الناس؟	ط الأولى / ٢٠٠٢	
١٥٦	حوارات ساخنة حول قضايا راهنة، في ميادين الفكر والفقه والدعوة والسياسة	ط الأولى و الثانية/ ٢٠١٨	
١٥٧	الديموقراطية والعلمانية في تجربة كوردستان	ط الأولى/ ٢٠١٨	

ت	الـكـتــب	التأريخ والطبع	مـلاحـظـة
١٥٨	خلاصة أحداث حياتي ونشاطاتي الفكرية والسياسية (١٩٦١-٢٠١٧)	ط الأولى /٢٠١٨	
١٥٩	نظرات فاحصة في قضايا شاخصة: الإسلام والأمة، القضية الكوردية، الوضع العراقي	ط الأولى/ ٢٠١٩	
	الكتب التي تحت الطبع		
١٦٠	تفسير القرآن العلي المبارك إلى سورة (غافر)، والعمل فيه مستمر بإذن الله إلى آخر القرآن		
١٦١	الأخلاق والآداب الإجتماعية في ضوء الوحي والعقل		
	موسوعة: أيها المسلمون! نحو فهم ونضج أكمل، وهي مكوّنة من (١٢) كتاباً		
١٦٢	الكتاب الاول: الأمة وواقعها الصَّعب: السبب والعلاج		
١٦٣	الكتاب الثاني: تقييم للعمل الإسلامي		
١٦٤	الكتاب الثالث: كيفية تغيير المجتمع وإصلاحه		
١٦٥	الكتاب الرابع: نحو دعوة صحيحة وأصيلة		
١٦٦	الكتاب الخامس: أركان معرفة الوجود، وتوضيح الإيمان		
١٦٧	الكتاب السادس: العبادة، التزكية، التقوى		
١٦٨	الكتاب السابع: الأصول العامة لمنهاج جماهير المسلمين		
١٦٩	الكتاب الثامن: الخصائص الإيمانية والفكرية لجمهرة المسلمين		
١٧٠	الكتاب التاسع: حسن الخلق المعلم البارز لجمهرة المسلمين		
١٧١	الكتاب العاشر: أربعة مواضيع سياسية مهمة وحسّاسة		
١٧٢	الكتاب الحادي عشر: الأصول المهمة لانسجام المسلمين ووحدتهم		
١٧٣	الكتاب الثاني عشر: أسس التديُّن الصَّحيح المتَّزن		

محطات من السيرة الذاتية
للشيخ علي باپیر



• الشيخ علي باپير من مواليد: ١٩٦١م في قضاء بشدر التابع لمحافظة السليمانية.

• بعد إكماله الإبتدائية، دخل المعهد الإسلامي عام: ١٩٧٤، وتخرج من ثانوية المعهد الإسلامي عام: ١٩٨٠، وأتمَّ حفظ القرآن العظيم في العام نفسه.

• دخل كلية العلوم والشريعة الإسلامية، وفي المرحلة الثانية من الكلية اضطر لترك الدراسة والهجرة عام: ١٩٨١ بسبب صدور الأمر بالقبض عليه من قبل النظام البعثي البائد.

• في سنة: ١٩٨٣ عاد إلى كوردستان العراق وأدّى امتحان الإمامة في مديرية أوقاف أربيل، وبعد نجاحه المتفوِّق، تعيَّن بصفة إمام في مسجد النورسي في مدينة رانية.

• ألّف أول مؤلفاته باللغة الكوردية سنة: ١٩٨٣ بعنوان: (خلاصة عن الإسلام) ثم تتابعت مؤلفاته والتي جاوز عدَدُها المائة (١٠٠) بين موسوعةٍ وكتابٍ وكُتَيْب، باللغتين الكوردية والعربية، في مجالات: الفكر الإسلامي، والإيمان والعقيدة، والفقه، والحكم والسياسة، وتزكية النفس، والأخلاق، ونقض الأفكار المستوردة...الخ، وتُرْجِمَ بعضُ مؤلّفاته إلى اللغات: الفارسية، والتركية، والإنجليزية.

• في سنة: ١٩٨٧ دفاعاً عن مظلومية الشعب الكوردي من قبل النظام البعثي البائد، انخرط في العمل الجهادي المسلّح في صفوف (الحركة الإسلامية) السابقة، والتي كان الشيخ من أبرز قادتها، وذلك بعد سنوات من النِّضال الفكري والدعوي المخفي والعلني

مع نوعٍ من الإرتباط بـ(حركة الرابطة الإسلامية) والتي تأسَّست نواتها التنظيمية في نهاية السبعينيات من القرن الماضي.

وكانت للحركة آنذاك مقرات عسكرية في مناطق عدة من كوردستان، ضد نظام حزب البعث، وأسَّس الشيخ قوة: سيد الشهداء حمزة في سفوح جبال قنديل.

• في سنة: (١٩٨٨)م أصبح عُضْوَ المكتب السياسي في الحركة الإسلامية.

• وكان له دور بارز في انتفاضة آذار (١٩٩١)م، وتَوْعِيَةِ جماهير كوردستان حول أهداف الإنتفاضة الشعبية، والتعريف بالحركة الإسلامية.

• واستمرَّ في العمل داخل الحركة الإسلامية، ثم حركة الوحدة الإسلامية، إلى سنة: (٢٠٠١)م والتي أعلن فيها بتأريخ: (٢٠٠١/٥/٣١)م مع الأغلبية الساحقة لمراكز وكوادر ومجاهدي الحركة، وذلك من جرّاء أسباب منهجية عن: الجماعة الإسلامية الكوردستانية، وانتخب هو أميراً للجماعة.

• في: ٢٠٠٣/٧/١٠ اعتقل الشيخ من قبل القوات الأمريكية وبقي في سجن كروبر قرب مطار بغداد (٢٢) شهراً في زنزانة انفرادية، وألَّف أثناء تلك المدة، موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، في أكثر من أربعة آلاف (٤٠٠٠) صفحة، وفي اثني عشر كتاباً في طبعتها الثانية، وأطلق سراحه في: ٢٠٠٥/٤/٢٨، واستقبل بحفاوة من قبل الآلاف من مختلف شرائح المجتمع.

• كتب إلى حدِّ الآن أكثر من (١٠٠) مائة مؤلّفٍ من موسوعة وكتاب وكتيب في مجالات: الفكر الإسلامي والعقيدة والفقه والحكم والسياسة وتزكية النفس والأخلاق والرد على الأفكار المناوئة للإسلام و...الخ.

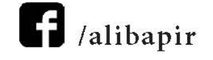
• شارك في انتخابات مجلس النواب العراقي (٢٠١٤-٢٠١٠) كمرشح للجماعة الإسلامية في دائرة محافظة أربيل، فكان الفائز الأول على القوائم كلها، وكسب أكثر من (٦٠,٠٠٠) صوت.

• عقدت الجماعة الإسلامية إلى حدِّ الآن، ثلاث مؤتمرات في سنوات: (٢٠٠٥)و (٢٠١٠)و (٢٠١٥) وأعيد انتخابه أميراً فيها جميعاً.

• والآن هو مستمر في الأنشطة الفكرية والسياسية والإجتماعية المختلفة، وخاصة في الكتابة والتأليف لاسيما: مشروع تفسيره للقرآن الكريم، بعنوان: (تفسير العليّ المبارك)، والذي طُبِعَتْ منه لحدِّ الآن، عدة مجلدات.

للمزيد من الإطلاع على السيرة الذاتية للؤلف يراجع الرابط الآتي:

www.alibapir.net











هذا الكتاب

هو الكتاب الثاني عشر من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) والتي يسر الله الوهاب الكريم لي تأليفها في ضوء أنوار كتابه المبارك، في غضون (22) شهراً، التي أمضيتها في سجن: (كروبر الأمريكي) من: (2003/7/10 الى: 2005/4/28م).

وخصّصنا هذا الكتاب بموضوع: (الإسلام: نظرةٌ سديدةٌ تجاهَ الناس، وتعاملٌ صحيحٌ معهم) حيث اعتبرنا نَظْرَةَ الإسلام الى النَاس، هي النظرة السّديدة الوحيدة، وتعامله «عندما يتجَسّدُ في كيان سياسي ملتزم بالشريعة» هو التعامل الصّحيح الوحيد اللاّئق بالبشر المُكَرَّمين من قبل ربّ العالمين.

وعلى الرّغم من أن الحديث عن نظرة الإسلام تجاه الناس، وتعامله معهم: المسلمين وغير المسلمين، ثم غَير المسلمين: أهل الفترة منهم، وأهل الكفر، وأهل الكفر بأصنافهم الخمسة:

- أهل الكتاب.
- المشركون.
- الملاحدة.
- المنافقون.
- المرتدون.

مُتَشّعبٌ وطويل الذّيل وحَسّاسٌ جدّاً، إذ تَترتّبُ عليه نتائج كبيرة، ولكن حاوَلْنا لَمْلَمةَ أطرافه وجَمْعَ أشتاتِه، تحت أربعة عناوين كلّيّة:

* تعريف الناس عموماً، ونظرة الشرع تجاههم.
* تعريف المؤمنين وأوصافهم وواجباتهم، في مجال التّعامل بينهم، أفراداً ومجتمعاً.
* تعريف الكفار، وأوصافهم وأصنافُهم.
* التعامل الشرعي مع أصناف الكفار الخمسة عامة، ومع كل صنف منهم على حِدَةٍ.



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
978 1 78481 086 3



مَوْسُوعَة

الإسلام كما يتجلى
في كتاب الله

الكتاب الثاني عشر

الإسلام:
نظرةٌ
سديدةٌ
تِجاه الناس،
وتعاملٌ صحيحٌ
معهم

تأليف
علي باپير

دار الحكمة